دراسات في

الأدب الجاهلي

مباحث تراثية ونصوص دينية وتراجم

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور عادل جاسم البياتي

الأستاذ في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - بغداد
وكلية الآداب - جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء

1986

مهدى إلى

مكتبة الأدب العراقي المعاصر

تصوير وإعداد

مكتبة الأدب المغربي

06.10.2015

دراسات في
الأدب الجاهلي

مباحث تراثية ونصوص دينية وتراجم

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور عادل جاسم البياتي

الأستاذ في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - بغداد
وكلية الآداب - جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء

1986

خاص بمكتبة الأدب المغربي

حقوق الطبع محفوظة
© Les Editions Maghrèbines
الايداع القانونى رقم 117 / 1986

بسم الله الرحمن الرحيم

تـــقـــديـــــم :

كنا في القسم الاول من هذا الكتاب قد وزعنا فصوله الدراسية على ثلاثة محاور أساسية، الاول منها استقل بطائفة من الابحاث المنهجية في الادب الجاهلي، شعره ونثره، اتجاهاته وموضوعاته، خصائصه وفنونه، والمحور الثانى استأثر بالمنطلقات الفكرية العربية ذات الاطار القومى، بينما أحاط الفصل الثالث بالمنطلقات العربية ذات المحتوى الانسـانى، وقد رسمنا بوضوح مساهمات الادب الجاهلى الكبيرة في هذين الحقلين، فجاءت على شكل دراسات معمقة في المكونات الثقافية والفنية لهذا الادب، مهتدية بما حققته منجزات العقول وجهود البشرية في حقل الفكر والمعرفة.

. . . والان ،،

نواصل في هذا القسم الثانى من الكتاب توزيع بقية الفصول على ثلاثة محاور رئيسية أيضا : الاول منها «أبحاث في الادب والتراث» لا تخرج عن حدود المرحلة التى حددت لهـا مسبقا، وهى مرحلة الادب الجاهلى، والمحور الثانى دراسة جديدة بنصوص جديدة، شعرية ونثرية، للايديولوجية الدينية في العصر الجاهلى من خلال استعراضنا وتحليلنا لشعر الاحناف ونصوص التلبيات الدينية، ثم ختمنا الكتاب في الفصل الثالث ـ الاخير ـ

بطائفة من (الاعلام قبل الاسلام) ممن لم يسبق لهم أن جمعت سيرتهم وحققت أشعارهم ودرست بشكل مستقل، وانما بقيت أخبارهم ونصوصهم سجينة الكتب العديدة، فتفرقت في المصادر دون أن تكتمل النظرة النقدية ولا الرؤية الفنية لها بسبب تبعثرها وضياعها بين آلاف الآلاف من السطور مع شهرة أصحابها وقدرتهم وارتفاع شأنهم في فنهم وبين قومهم.

ولعلنا في هذا القليل نصيب شيئا من حقيقة أدبنا ومغزى تراثنا، ليكون لنا معينا ثرا في مسيرتنا العلمية والأدبية المعاصرة، كما نكون قد أدينا واجبا مقدسا نحو أمتنا وجيلنا الطالع وطلبة الآداب في كل مكان وزمـــان.

الدكتور عـادل البياتي

المملكة المغربية في 14 يناير 1986

الفصل الاول

مباحث ثراثية في الأدب الجاهلي

1 ـ الشعـــر والتـــاريـــخ

2 ـ منابع الالهام فى الادب العربى

3 ـ امـــرؤ القيـــس والقيصـــر

الشعـــر والتـــاريـخ

ان اقـدم معالجـة لهذه المشكلة المزمنـة في حياة الفكـر على امتـداد الوجود الانساني ، كانت على يـد (ارسطـو) في كتابه عن الشعر، وذلـك عندما عقد فصـلا خاصا يتعلـق بقضية الشعر والتاريخ، فأطلـق على الاخير لفـظ : الواقعي، وعلى الملحمـة لفظ : المحتمل. ثم وضع الى جانب «الملحمـة» كلمـة «الشعـر» كرديف لها، كما فعل مع الواقعي عندما وضـع لها كلمـة «التاريـخ» معتبرا أياهـا مرادفا لها ايضا. وقد أوحى الينا هذا النظام، عبـر قـرون عديدة بالعنـوان الذي يتوج هذه المقالة على أن عنوان الفصل المذكـور في كتاب ارسطـو، جاء على هذه الصـورة :

الواقعي والمحتمل ـ التاريخ والملحمة (والشعر) (1) فوضح بذلك ان المقصود بالواقعـي هو التاريخ ، وبالمحتمـل هي الملحمة. وان أرسطـو عندما وضع كلمة «الشعـر» الى جوار الملحمـة، انما أراد اتصالهما، حتى انـه جعلهمـا كالشيء الواحد. وكان قـد قرر في أول فصول الكتاب، بـأن الشاعـر لا يعـد شاعرا لمجـرد انه يستخدم الاوزان، ثم ضـرب الامثلة من ناظمي النظريات الطبية والطبيعـة، ومضى في تعميـق قاع نظريتـه، فعد قسْمـا من الناثريـن شعـراء، برغم انهم لم تنتظـم لغتهم أوزان (2) وهي حقيقة افضت بنا الى رفض كثير من المنظومـات التاريخية، فلـم ندخلهـا في عداد الملاحم بل مكثت في غايـة أبعادهـا ضربـا من الشعـر التمرينـي لحفظ التاريـخ، ومثلنا لها بمنظومة ابن عبد ربه (3) (550 بيتا) وقصيدة أبي طالب ابن عبد الجبـار (4). وجرى على ذلك من عد مقامات الهمداني والحريري من الملاحم، وملحمة أخرى تثريـة سبـق في وضعها

(1) فن الشعر ص 26.
(2) نفســه ص 4.
(3) العقد الفريد 4/500 ـ 527 (نشر لجنة التأليف).
(4) الذخيرة لابن بسام ص 240 القسم الاول (طبع كلية الاداب بمصر).

ملحمة دانتى والفردوس لمتن الشاعر الانكليزي، تلك هى رسالة الغفران لابى العلاء المعري. وهو نفس المبدأ الذي بموجبه نظرنا الى النثر الذي تتحلي به ملاحم «الايام» العربية خلال قصائدها وهو يؤدي نفس المهمة الشعرية فاعتبرناه جزءا لا ينفصل عن الشعر الوارد في أقاصيص الايام، لانه يرقى بمقاييسه الاسطيقية الى مستوى الشعر لانزاع.

فالمنظومات التاريخية ، وان كانت موزونة، لا تدخل في الشعر ولا الملاحم، لكن نثر «الايام» برغم ابتعاده عن القوالب الشعرية المألوفة. يدخل في الشعر مثل أي أجزاء اساسية في لغة الايام، ولا يبتعد عن الصيغة الملحمية المألوفة. لان مهمة الشاعر الحقيقية ـ كما يضيف ارسطو هنا ـ ليست في رواية الامور كما وقعت فعلا، بل رواية مايمكن ان يقع. «والاشياء ممكنة اما بحسب الاحتمال أو بحسب الضرورة، ذلك ان المؤرخ والشاعر لا يختلفان في كون احدهما يروي الاحداث شعرا، والاخر يرويها نثرا. فقد كان يمكن تأليف تاريخ هيردوتس نظما، ولكنه كان سيظل تاريخا، سواء كتب نظما أو نثرا.

وانما يتميزان من كون أحدهما يروي الاحداث التى وقعت فعلا، بينما الاخر يروي الاحداث التى يمكن ان تقع. ولهذا كان الشعر أوفر حظا من الفلسفة، وأسمى مقاما من التاريخ ، لان الشعر بالاحرى يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئى» (5). واذن نكون مخطئين اذا نحن توهمنا بأن الايام الجاهلية يمكن ان تؤدي مهمة تاريخية بحتة، كما فعل الطبري وابن الاثير، لان هذه المهمة غير موجودة أصلا في الملاحم. فليست هى تاريخا بالمعنى العلمى كما انها ليست وثائق وبيانات رسمية لامم وملوك، بل هى في حقيقتها رؤى لظواهر مضت واستقرت ذكرياتها في وجدان الامة اسطورة حية، تتوالد وتتكاثر، وتطلعات لممكن، يقع دائما، ولينظر احدنا الى الالياذة كيف تكررت في وجدان الامة اليونانية، مع أن الحدث التاريخى فيها قد تحول الى آثار ومحنطات في متاحف طروادة وأثينا.

والملحمة لا تقف وقوف الوثيقة التاريخية، ولا تنتهى عند حدود في زمان أو مكان معينين، بل تفسير دائم لعمليات كبرى تجري داخل الكون

(5) فن الشعر ص 26.

والطبيعة والمجتمعات البشرية. وأما التاريخ، فانه «لا يفسر الظاهرات الاجتماعية وانما يبين اصولها فقط، ولا يمكن ان يعتبر هذا تفسيرا بالمعنى المفهوم» (6) . وان الملحمة استبطان (Introspection) للظاهرة في مولدها، واستطلاع لمستقبلها. وهي على تعبير «كروتشه» شأنها في ذلك شأن الادراك الفطري الذي يسبق تمييز الحقيقي من اللاحقيقي. «لان الشعر ينبغي ان يكون وفيا لا لحقائق جزئية، بل للطبيعة العامة لعالمنا، ومن ثم كان اكثر فلسفة من التاريخ» (7).

فالتاريخ ـ على ما قدر ارسطو ـ هو الخبر الذي يروي الاحداث دون تحليل الفكر المحرك لها، او دون نظر فلسفي لما وراء هذه الاحداث، وما يمكن ان تكون عليه. فتاريخ ابن الاثير، بل حتى الطبري قبله، لا يمكن أن يقاس بما كتب ابن خلدون في المقدمة التي رسمت لنا نواميس ذلك التاريخ.

وهكذا سما أرسطو بالشعر عندما خصه بالكليات، لان الكلي بهذا المعنى اسمى من الجزئي ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة من طبيعة الشخوص الذين يدخلون في ملاحم «الايام» العربية، ولنأخذ من يوم «ذي قار» مثلا. عندما نقل المؤرخون خبره كوقعة مشهورة، ودخل الادب العربي كملحمة من ملاحم الايام، اخترقت سجف الماضي السحيق، ابتداء بتأسيس الحيرة، وظهور العباديين ـ رهط عدي بن زيد الشاعر الجاهلي ـ ومرورا بملوكها اللخميين حتى مقتل النعمان بن المنذر، وانتهاء بالسيطرة الفارسية التي اعقبها سقوط الحيرة، فأعقب هزائم الفرس، ثم ظلت الملحمة في عطائها، تفتح أبوابا لمستقبل عربي مثمر في المنطقة ، حيث سطع أول خيط من نور، مبعثه البشائر الاولى لعهد ديني جديد ضمن مراحل التطور، ثم التأمل الفلسفي في الوجود.

ان الاديب قد يتخذ من الشخوص العديدة، شخصية أو شخصيتين، وربما اكثر لها أساس في الواقع التاريخي، وان كانت جوانبها ترتسم في الملاحم الشعرية بلا حدود، بل يضاف اليها، مثل شخصية جلجامش (8)، عشرات الذكريات الشعبية لعشرات الابطال. لكن تصبح الشخصية المكثفة

(6) أنظر تايلور ص 51.
(7) التركيب اللغوي ص 73.
(8) أنظر مقدمة ملحمة جلجامش للاستاذ طه باقر. طبع وزارة الاعلام (طبعة ثانية) وانظر مقدمة ساندرز للملحمة نفسها.

مركز اشعاع لانماط سلوكية صادرة من نماذج بشرية، متنوعة. واما مئات الشخوص التى تصنع وحدة الحدث أو الفعل داخل الملحمة (9)، فقد لا يقر بحقيقتهم عالم التاريخ، وهى عنده شخوص مخترعة، وأكبر من ذلك، قد تكون الشخوص، بالنسبة الى مكان وجودها غاية المستحيل.

ثم سرعان ما تعود لدى الشاعر ممكنة جدا. فالباحث التاريخى يقتنع من الاحداث ببضعة أشخاص، تحدد معالم وجودهم وملامح شخصياتهم تحديدا صارما، وهو تفسير الكلى والجزئى الذي خصه ارسطو بكثير من العناية في بحثه.

وان اختيار ارسطو العلوم التاريخية والطبيعية ـ وحتى الطبية ـ كمقارنة للشعر، اختيار نموذجى ، فالعلوم التاريخية، فيما نعرف، تتميز عن العلوم الطبيعة في ان الثانية تملك اداتين من أدوات البحث، وهاتان الاداتان هما الملاحظة والتجربة، اما العلوم التاريخية فتتاح لها فحسب، أداة الملاحظة التى تتخذ أسلوب دراسة الوثائق. والدراسة التاريخية ـ اذن ـ تعنى تقييم الوثائق والافادة منها، على قدر ما تعرف من وقائع التاريخ، وترتيبها ترتيبا زمنيا. ذلك ما بسطه سافينى والاخوان «جريم» في بداية القرن الماضى لجوهر منهج البحث التاريخى، وهم بصدد الدراسة الموضوعية لعلم الفلكور الذي تعرض من هذه الناحية، اكثر مما تعرض، لانتقاد المؤرخين. فمن الجلى الواضح، ان الجانب الاوفى من الوثائق التى جمعها علماء الفكلور واستخدموها، لا تزعم نفسها تاريخا عريقا ومطردا (10).

ولنقرب هذه الجزئية التى أكد عليها الباحثون في الادب والفن. بمثال آخر، خارج اطار «الايام» لكى يلتقى بها في الاختصاص، اضافة لما ذكرناه عن يوم «ذي قار» : فلقد ابدى سانت جيروم، ملاحظة عابرة في بعض كتاباته فقال : «ان لغة الغلاطيين في آسيا الصغرى، تشبه الى حد بعيد لغات موجودة في بلاد الغال . من هذه العبارات انتهى محترفو كتابة التاريخ الى القول بأن اللغات السلتية كانت مستخدمة اثناء القرن الرابع الميلادي في آسيا الصغري وبلاد الغال. والذي حدث اذن، هو ان سانت

(9) يقابلها فى الدراما الوحدات الثلاث، باضافة وحدة الزمن التى تنعدم فى الملحمة.
(10) علم الفلكور ـ اكزاندر هجرتى كراب ص 18.

جيروم، كان ينقل مجرد نقل عن كتابات التواريخ القديمة المفقودة لفارو. وكان فارو بدوره قد استقى الواقعة، موضوع المناقشة، من كتابات بوزيدونيوس ، وهو من كتاب القرن الاول قبل الميلاد.

وهكذا فالتاريخ الحقيقي للوثيقة ، يسبق تاريخها الرسمي بخمسة قرون (11).

والى هنا، لا يوجد خلاف ظاهر بين المنهجين، غير ان ثمة اشياء جديرة بأن تقال في هذا الموضوع. فميدان التاريخ - باعتباره علما وثائقيا - ينتهي بانتهاء الوثيقة نفسها، فاذا طبقنا هذه القاعدة تطبيقا شاملا لقصر التاريخ ايما قصور عن ان يؤدي رسالته، ونعني به بناء التاريخ الظاهري أو السياسي للانسان. وحيث لا توجد وثائق، يكون من حق المؤرخ - وهذا حقه لا نزاع فيه - ان يستنبط شتى النتائج من الاستدلالات اللغوية ، أو مدلولات الحفائر الاثرية، ويزيد عدد هذه النتائج الاستدلالية اذا انتقلنا من التاريخ السياسي الى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي. حيث تتزايد ندرة الوثائق ذلك أن واضعي التقاويم التاريخية القديمة المحترفين ، قد استغرقوا، لسبب من الاسباب، فيما يقع من تقلبات وأحداث ظاهرية ملموسة، على مسرح الحياة الكبير (12). فالنتيجة الاخرى التي حصلنا عليها، لم تنحصر في «الجزئي» الذي ذكره ارسطو، بل في القصور الذي صوره لنا سانت جيروم (13). لذلك أكد رونالد نكلسن (14)، على ضرورة نبذ الفكرة المسيئة الى «الاسطورة والخرافة» عندما اعتبرتا مصدر افساد للادب العربي القديم، ودعا الى ضرورة دراسة هذا الادب من خلال الاسطورة والخرافة، ما دامتا قد مكثتا في معتقد شبه الجزيرة حقيقة ترسم لهم طريق حياتهم وتفتح آفاق مستقبلهم، مثل أية ايديلوجية تدخل في وعي الامة دون اعتراض ، وموقف تفسيري للانسان لمواجهة أنواع التحديات المحفزة ضد وجوده على ظهر هذا الكوكب.

ولقد اعطت هذه الدراسات، النتائج العلمية والواقعية على مدى التطبيق العلمي، والملاحظة النظرية على حد سواء، بل ان الافتراض الذي يعم العالم.

(11) المصدر السابق نفسه.
(12) نفسه.
(13) علم الفلكلور ص 19.
(14) تاريخ العرب الادبي ص 18.

حول دراسة علم التاريخ، من كونه يخدم في نشر روح التسامح في الشؤون البشرية ، برغم أن عددا من اساتذة التاريخ الحديث لم يبرهنوا على صحة وواقعية هذا الافتراض (15)، ان هو الا نتيجة زخم قوي للتيارات الادبية والفنية الجديدة ، وللنظريات الفلسفية والسياسية الحديثة ، في هذا الحقل.

ان الاشخاص الذين تذكرهم «الملاحم» بأسمائهم، هم في حقيقتهم لا ينتمون الى أفراد جزئيين لهم امتداد لوجود مادي محدود، بل انها اسماء كلية، تعبر عن نماذج انسانية ، أو رموز لا تصلح لغير الشعر، فهي في التاريخ ، الواقع الممكن أو الصدى لما وقع، في حين أن الممكن الشعري، هو الممكن مطلقا، أو عند كورنى، نقلا عن ملاحظة هاردي، مبسوط على هذا الوجه : «ان الحقيقة التاريخية ذريعة لاضفاء طابع الاحتمال على الاحداث الجارية ...» (16).

ولما لم يكن هناك تاريخ ولا تدوين فقد كان الشعر مستودع احلامهم في العودة الى الماضي وربطه بالمعاصرة واستشراف المستقبل، وهي حالة كائنة ومستمرة في وجدان كل أمة، لانه اذا كان الفرد في المجتمع الانساني يعيش لحظات العمر في اتصال سريع مذهل مستعينا بغني تجربة اللحظة الماضية المخزونة في أعماق ذاكرته باللحظة القادمة التي تتحفز لها نفسه، فيتم هذا الارتباط السريع تلقائيا ومن غير افتعال، فأحرى بالمجتمع البشري الموزع جغرافيا في جماعات أن يحقق لنفسه هذا الاتصال المستمر ولكن مصاحة الجماعة الانسانية غير مصلحة الفرد، ففي هذه الحالة تفنى الذاتية وتندمج (الانا) متحولة من الجزئي الى الكلي في حركة جدلية، وفاعلية ديناميكية وفق نظام كوني متطور دائما، يسعى نحو هدف يحقق فيه لنفسه وحدة اندماجية انسانية على مدى بعيد غير منظور ولا متوقع، لان خارطة التوزيع الجغرافي للبشر، وان اصطنعت لنفسها الحدود والحواجز ، ساعية أبدا الى مثل هذا الربط الذاتي للحظات الانسانية ، ومثله للجماعة البشرية، يظهر تأثيره عند ملاحظة تحقيق المنجزات الانسانية المشتركة، ويلوح أثره في بلوغ وسائل

---

(15) علم الفلكلور ص 34.
(16) فن الشعر ص 27 (الهامش رقم 3).

الحضارة (17) المتشابهة لدى جميع الناس. فكانت مهمة التاريخ خزن الحقائق في صورتها الكلية، ومهمة الشعر استنطاقها في صورتها الجزئية.. ربما بما لا يناسب واقعها، فقد ترد الحقيقة التاريخية مغايرة لاصلها، أو مكبرة ألف مرة على ما هي عليه، أو ربما ذوبت فليس لها أثر في الوجود الانساني لتلك الجماعة . وبعبارة ثانية يمكن أن نقول : اذا كان التاريخ ارادة، فالشعر هو الطموح الحالم الذي يسعى دائما لتجسيد هذه الارادة ، على أن التاريخ لا يلتقى مع الشعر أبدا ولا يحل أحدهما في الاخر مطلقا فيوم ذي قار الذي تحول لدى العربى الى أنشودة قومية، لا أثر له في الوجود البشري الفارسى ولا في تراثهم، وهذا أمر طبيعى، فكثير من الهزائم تحتجب عن بصر الامة، وتتوارى عن بصيرتها. وقد تتغنى الامة بهزيمة على أنها نصر، لانها خاضت المعركة بمفهوم وقضية وخرج تبعدها بمفهوم آخر وقضية جديدة، فخسرت حربا (مالا ورجالا) وربحت مفهوما وقضية.

وقبل أن تتحول الحقيقة التاريخية لدى المؤرخ الى حدث مروي أو مدون، كانت في وجدان الشاعر المعبر عن شعبه أحساسا دفينا وحوارا غامضا، ثم تولد اللحظة التاريخية وسط آلاف العوامل والمؤثرات. لكنها تظل دون الطموح ودون التصور ، لان منطق الوقائع وفرضيات الممكن المتيسر هو الذي يدخل عنصرا حاسما في آخر لحظة ولادة. فيتقل الاحساس نفسه والحوار نفسه وتصورات الطموح لولادة جديدة أكثر تطورا وخصوبة، ويظل الشعر حافزا حيا، ويظل التاريخ أداة الشعر في بلوغ الاهداف. ولنضرب مثلا من طبيعة البطل ومكوناته الثقافية والحضارية Culture وشرائحه الاجتماعية في أدبنا العربى، سواء أكان هذا البطل أسطوريا كلاسيكيا أو رومانتيكيا أو ماديا واقعيا. فلم يكن جلجامش مثلا Gilgamesh الا ملكا أبوه كاهن مدينة الوركاء (18) لكن جلجامش

(17) يراجع بحثنا : المنابع الثقافية الاولى فى الشعر الجاهلى. مجلة الكتاب العدد 4 سنة 1975 هامش رقم (1) ومانقلناه عن مصطلح ثقافة Culture والهامش رقم (5) الذى ورد فيه بأن هذا المصطلح يوازى تعبير الحضارة «التعبير الانجليزى» : Culture ويختلف عن Civilisation تراجع جميع المصادر المذكورة هناك.

(18) تراجع فى سيرة هذا البطل مقدمة الملحمة للاستاذ طه باقر بنشراتها الثلاث عن وزارة الاعلام والمصادر التى أوردها كاتب المقدمة . انظر قوله : (ص 30 ط. ثالثة) وكانت الوركاء تنقسم فى أوائل عصر فجر السلالات الى قسمين. وكان أحد أقسامها يقال له «كلاب» فكان أبوه كاهنا عليها.

الملحمة الشعرية وجلجامش الاسطورة صيغة أوجدها ائتلاف جملة عوامل بيئية نبعت من قلب (أوروك) التاريخية وتطلعات أهلها نحو الخلاص.. وظل طموح العراقيين الى خلاص أكبر على يد منقذ أو مخلص فتحول جلجامش الى مجموعة (ذكريات شعبية) (19) حافظت على جوهرها الملاحم الشعرية، يصعب على المؤرخ أن يستخرج من محتواها حقيقة وثائقية ثابتة، بل هي في تقديره شخصيات مخترعة يقف منها موقف الفاحص المدقق ، يجهد نفسه وفكره ليسترشد بها في الوصول الى وثيقة. ويمثل «سيف بن ذي يزن» قمة الطموح القومي ضمن اطار المجتمع الانساني العربي الذي استحال بحكم الظروف الموضوعية وتطور الاحداث في المنطقة الى بطل قومي ثم اسطوري، ونقطة اشعاع مضيئة في بلاد العرب نحو التحرير القومي من قبضة الاجنبي، وان كان سيف قد وجد نفسه بعد طرد الغزاة الفرس بمعونة الاحباش أنه استبدل سيدا بسيد (20)، فبدأ رحلة نضال شاقة وطويلة.. ظل صداها يتردد في أرض العروبة، فكانت أحلام الجماهير العربية تنمو وتتعاظم حول نواة جديدة تمثل رؤيا جديدة للعالم، أصبح عنترة بن شداد بمقتضاها هو المرشح لدور البطولة في هذه المرحلة. واذا تأرجح عنترة بين التاريخ والاسطورة، فانه بذلك يعطي التفسير العلمي لوظيفة التاريخ، والمدلول الشعري لما يحتمل أنه واقع أو سيقع أو لما كان محتملا أن سيقع (21). وقد تكون جزئيات الحياة اليومية ليست بذات صيغة معطية لرجل التاريخ ، لكنها تدخل في الملحمة الشعرية خامة أساسية لصوغ الحدث وقد لا تكون هي المرجوة من وراء طرحها واستطراد روايتها، لكن ماذا يفعل مخترع الملحمة وواضعها الاول، انه يجمع مواد صنعته من ميدان عمله لانه ليس أدل على دراسة البيئة من أشيائها. لكن جامع الملحمة قد لا يجد ضرورة في سرد كل الاحداث ووصف الموجودات بل يكتفي بما يفي بالغرض، فهو ربما يحذف أو ربما يبالغ في التضخيم والتعظيم وقد يبالغ في التحقير والتقليل بحسب مقتضيات العصر الذي تدخل فيه الملحمة.

---

(19) تراجع مقدمة المحمة بقلم ن. ك. ساندرز تعريب محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضي (دار المعارف 1970 مصر).

(20) تاريخ العرب — فيليب حتى وآخرين (ط. دار غندور. بيروت 1974).

(21) مجلة آفاق عربية (العدد 9) سنة 1976 مقالة بقلمنا عنوانها : البطل الاسطوري والملحمي . وهي في الجزء الاول من هذا الكتاب.

والمهم ابقاء الرمز الموحى للاصل ثم اسقاطه على العصر وديمومته لكل العصور. وهنا نقف عند مفترق طرق : بين عمل الشاعر والمؤرخ والانثروبووجى. فما لا يحتاجه الشاعر ويرميه بعيدا عنه، قد يأخذه الانثروبولوجى وما ينحيه هذا الاخير عنه قد يحتاج اليه المؤرخ. على أن الانثروبولوجى والمؤرخ قد يقفان موقف الفاحص والمدقق لاسباب تتعلق بطبيعة منهجهما العلمى، في حين لو صنع الشاعر مثل صنيعهما لخرج من طبيعة مهمته ولكان مقصرا في اتمام جوانب صورته الشعرية بكل ابعادها. واذا لم يجمع المؤلف مادة ملاحمه من أشياء البيئة وموجوداتها التى تفرز الاحداث ، فان أية محاولة أخرى للجمع ستغدو ضربا من الميتافيزيقيا.

حقا ان مساهمة الكون والطبيعة والاحياء الموجودين على وجه الارض في خلق الاحداث يعد اغراقا في الخيال الا أن تشخيص أو (أنسنة) هذه الخلائق يقربها من الواقع البشري. وهذا هو التفسير الدقيق لقضية «الجزئى» التى أشار اليها أرسطو. والذي يقرب المسألة أكثر، أننا لو نظرنا الى قضية العرب في فلسطين، وجدناها في رأي التاريخ أو المؤرخ أكبر تراجيديا يخوضها العربى ضد أعداء عالميين متعاونين في الشرق والغرب، يعملون على ادامة الاغتصاب والعدوان، لكنها في نظر الشعر قضية تتألف يوميا من مئات التراجيديات الصغيرة، تتحد مع بعضها لتأخذ شكل ألدراما الكبيرة التى لا يرى المؤرخ منها الا رؤية اجمالية لا ترقي الى رؤيا الشاعر التفصيلية ومع ذلك فهناك فرق. ان المؤرخ لكى يدون هذه التراجيديا التاريخية محتاج الى اشرطة وتسجيلات ووثائق ومستندات وشهود والى عينة من المقاتلين والقادة لكى يقول كلمته في حرب «السويس» أو «العبور» أو «الدفرسوار» أو هزائم حزيران، ولا يتكلف الشاعر الا الاستعانة بوجدان الامة الذي هو وجدانه لكى يقول في حرب تشرين ما يخالف كل المخالفة لما سيقوله المؤرخ في هذه الحرب. ان شعر «نزار قبانى» مثلا لا يعطى المدلول المادي لهذه الحرب كما يعطيها مؤرخ امريكى يستعين بصحفى يساهم في هذه الحرب وما تخرجه منظمة اليونسكو والامم المتحدة والجامعة العربية وتصريحات العسكريين . وما سيقوله شاعر صهيونى سوف يقف على الضفة الاخرى من معطيات الشاعر العربى، بينما يسير التاريخ في طريق

ثالث . يقول كاتب معاصر (22) : «ونادرا ما يحتفظ التاريخ بتفصيلات كافية عن المآسي الكبرى التي تقع ابان حركته اللاهثة، فما يحدث غالبا أن تطرح تلك النكبات نفسها من خلال ما هو عام وبالغ التجريد، ذلك أن التاريخ أضيق من أن يقف طويلا أمام ما هو جزئي وصغير ومباشر ويومي، لذلك يمر ببرود على ملايين التفصيلات المفجعة، على الاحزان التي لا توصف، والالام التي لا تحد، يصهرها في بوتقة الهموم الكلية، وتتركز الكلمات في صفحاته لتصبح ايماءات في الذاكرة...» .

ومن منطلقات النظرية العربية الثورية يحدد الكاتب نفسه وجهة النظر السياسية للثوريين فيقول : «واذا كان العمل السياسي النضالي في سبيل أية قضية ينطلق أساسا من «الوعي الثوري» بها، فان هذا يعطي التجريد مشروعيته ، فالثوار لا يملكون ترف التوقف أمام التفصيلات الصغيرة، فكل ما هو جزئي يندمج ويتوحد في شعارهم السياسي الذي يقاتلون من أجله، انهم مهمومون بالمسائل العليا والكلية، لا يتوقف أمام الهموم البشرية اليومية، لانهم يوقنون ـ هذا صحيح تماما ـ أن تلك الاحزان الصغيرة لا تنفي بالخضوع لها نفسيا، ولا تبعد بالتوقف أمامها والانشغال بها. فالانتصار في المعركة الام ، هزيمة لكل الآلام التي لاتحد، ولكل الاحزان التي لا توصف..».

وأما في حدود الالتزام بالادب والفن «فان كثيرين في وطننا العربي. يطمحون أن تلهم مآسيه ونكباته فنانيه وأدبائه فنا يتجاوز الخطابية والدعائية، لا ينطلق من ذهنية تصمم وتخطط ، ولكن من حس مباشر ينفذ الى أغوار النفس الانسانية، يستكنه شرها المطوي، ويشرح عالمها الداخلي الذي هو بالضرورة محصلة تفاعل مع كل معطيات العالم الخارجي، ولعل عدم القدرة على ذلك بالشكل الكافي، تعود، من بين ما تعود، الى برودة التاريخ المدون تجاه العديد من التفصيلات التي يمكن أن تكون الهاما للفن والادب، وبرودة الثوريين المبرر، تجاه الواقع الجزئي، سواء عندما يدونون أو يمارسون ..»

---

(22) مجلة آفاق عربية (1) السنة 1976 مقالة بعنوان : تراجيديا المثل صلاح بركات (بقلم صلاح عيسى دراسة وتحقيق).

ولكن الكاتب يقرر بعد هذا التجاوز فيقول «وربما يأتي وقت يكون التوقف أمام تلك الجزئيات الفاجعة في مآسي التاريخ الكبرى ممكنا، يوم تنتصر الثورة «الثورة العربية والقضية الفلسطينية» (23) فتصبح الام الماضي ذكريات يحن اليها الناس، وتشحذ فيهم القدرة على تطوير الثورة والحرص عليها، لكن ذلك لا يعني أن هذه الفواجع الصغيرة، ينبغي أن تنتظر الانتصار النهائي ، لتنشر أو تحقق أو تكون محل بحث فلبعضها دلالاته العامة والجوهرية . فاذا كان صحيحا ان المفاهيم العامة تتكون من الجزئيات الصغيرة، فان تلك الجزئيات لا تفقد لدى عقلية تحليلية قدرتها على طرح كل ما هو عام وكلي. وهي الى هذا تطرح واقعا حيا ونابضا من خلال تفصيلاته الصغيرة والحسية والمباشرة ، فتشكل بهذا المعنى الهاما ثرا لفن الثورة وادابها من خلال تفاعل نفسي بين هموم الانسان الفرد الغارق في ذاته، وهمم الاخرين التي تتعادل مع همومه. وتشكل تنويعا آخر على مآساة واحدة تنشد التمرد عليها والتصدي لها والثورة التي تنسف كل ما يسببها..»

ولعل أحدث ما أمدتنا به البحوث العلمية ، هي تلك النتائج المنطقية الجديدة التي قدمت الاسلوب الجديد في البحث عن الحقائق الكلية موضوعة في خطوات ثلاث (24) ، تنظر الاولى الى الحقائق الجزئية للوصول الى طبيعة العلاقة والى ربط المعلومات لتنسيقها وتنظيمها. وتنظر الخطوة الثانية الى عملية بناء لحقائق عامة تعبر عن علاقات الحقائق الاولى حسية والثانية عقلية يتحقق وجودها في العقل لا في الطبيعة. وتكون الخطوة الثالثة بمثابة تنظيم للحقائق المختلفة. وعبر الباحث عن خطواته الثلاث هذه، فيما يخص الكليات (أو ثوابت التاريخ) والجزئيات (متغيرات الشعر، بما فيه الملحمي) بمثلث الحقائق جعل قاعدته ممثلة للحقائق الجزئية وضلعه الايمن الصاعد اشارة لعملية الانتقال من الجزئيات الى الحقائق العامة، وضلعه الايسر النازل يشير الى طريق الهبوط من القمة الى الجزئيات كتعبير عن العلاقة بين الكليات والجزئيات. ويطرح المثلث بوضوح محصلة علمية هي ان الحقائق العامة في قمة

---

(23) ما بين القوسين من اضافاتنا.

(24) منطق البحث العلمي. د. ياسين خليل (ص 14) طبعة بيروت 1974.

المثلث أقل عددا من الحقائـق الجزئية، وهذا يدل على الصيغة الموجـزة التى توفرها الجزئيـات.

ومن هذا المنطلق كان حكم رجال العلم بأن الشعر بجزئياته لا يمكن أن يصير أداة للتاريخ ، ومن هذا المنطلـق أيضا كان حكمنـا بمتغيـرات الشعر وثوابت التاريخ. لكن هذه الحقائق الكلية اذا كانت أخذت ثوابتها الجزئية، فالحقائق الاولى أقل في العدد والطبائع عن الثـانية، من قبيل أن المسيرة الكبرى للتـاريخ الانسانى العام أو تـاريخ أيـة أمـة من أمـم الارض ، هى ، أي الحقائق الثابتة، تتحول في جزئيات الشعر والملحمة الى متغيـرات مؤقتـة ذات معطيـات مختلفـة وفـق صـورة العصـر الذي تكون فيـه ، ووفـق اطـره أيضـا.

وخير من فـرق بين الشعـر والتاريـخ هـو لودفكـو كاستفلتـرو Ludovice Castlevtro «الـذي فرق بيـن مادة التاريخ وطبيعة الشعر، فجعل التاريخ على قسمين : المادة والقـول . وفي كليهمـا خلاف بين الشعر والتاريخ لان مـادة التاريخ ليست من اختراع عقلية المؤرخ، بل يستمدها من مجـرى أمور الدنيـا، أو من ارادة الله الظـاهرة والمستـورة، ولغتـه هى اللغـة التى يستعملها الناس حين التفكير، أما الشاعر، فمادة شعـره مأخوذة ومتخيلة من عبقريه الشاعر، ولغته ليسـت هى اللغة المستعملة بين النـاس في التفكير، لان الناس لا يفكرون شعرا. على أن مـادة الشعـر يجـب أن تكـون شبيهة بمـادة التاريخ ، ومحاكية لهـا. ولكن يجب الا تكون نفس المـادة (26)» «وبالجملة فان التاريـخ شـيء تمثل، أما الشعر فشـيء قابـل للتمثيـل» (27).

والتاريخ، كما يذكر أبو الريحان البيرونى (28) أحداث معلومة تعـد من لدن أول سنة ماضية، كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان ، أو قيـام ملك مسلط عظيم الشأن . أو هـلاك أمـة بطوفان عام مخـرب ، أو زلزلـة أو خسف مبيـد أو وباء مهلك ، أو قحط مستأصل ، أو انتقـال دولة، أو تبدل ملة، أو حادثة عظيمة من الايات السماوية ، والعلامات المشهـورة

---

(25) المصـدر نفسـه ص 15.
(26) مقدمة فن الشعر بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوى ص 16 — 17.
(27) نفسـه ص 18.
(28) الآثـار ابـاقية ص 12.

الارضية ، التى لا تحدث الا في دهور متطاولة وأزمنة مترامية، تعرف بها الاوقات المحددة ، فلا غنى عنها في جميع الاحوال الدنياوية والدينية، ولكل واحدة من أمم الارض المتفرقة في الاقاليم تاريخ على حدة، تعدها من أزمنة ملوكهم وانبيائهم أو دولهم، أو سبب من الاسباب».

ويبدو من كلام البيرونى ان النقط الزمانية التى كانت العرب تبتديء بها حساب السنين كبيرة جدا (29) ويذكر الطبري في هذا الصدد أن قريشا كانوا يؤرخون قبل الاسلام بعام الفيل ، وكان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة ، كتاريخهم بيوم جبلة، أو بيوم الكلاب الاول أو بيوم الكلاب الثانى (30).

فالتاريخ هنا بمعنى تسجيل حوادث أمم، ويطلق عليه «التاريخ العام» واما بمعنى الحوليات، فهو تدوين الحوادث عاما بعام . وبمعنى الاخبار ، عندما يكون الترتيب بحسب العصور (31). وأما لفظ «التاريخ» فهو لفظ عربى بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت أي تحديد الوقت. وأصل الكلمة السامى من (روح) التى يلوح شبحها من كلمتى (يارِوح) العبرية التى تعنى القمر، و (يِروح) التى معناها الشهر (32). ولدينا في نقوش العربية الجنوبية الاله (ورخن) والظاهر انه رمز للهلال ، منها (يرِح) العبرية و (يرحا) السريانية والارامية و (ارخو) أو (ورخو) الاشورية، و (أرخ) البابلية، و (ورخ) العربية اليمنية والحبشية. ومنها جميعا ظهر الفعل (أرخ) في العربية الفصحى ، وهو يعنى حساب الايام والشهور على دورة القمر ، والاسم : التاريخ (33).

وأما علم التاريخ كمصطلح من مصطلحات الثقافة العلمية ، فهو ينطبق على تدوين ضروب الحوادث الحولية ، كما ينطبق على تراجم الرجال ، لا على وصف شامل للثقافة العقلية . وقد وهم كرنكو F. Krenkow عند حديثه عن التاريخ المأثور في العصر الجاهلى ،

(29) دائرة المعارف الاسلامية. مادة (زمان) 374/10.
(30) تاريخ الرسل والملوك 201/1.
(31) دائرة المعارف الاسلامية 469/4.
(32) نفسه 473/4.
(33) الساميون ولغاتهم ص 139. وتراجع مقالة فى مجلة آفاق عربية بعنوان النظرة الدينية للتاريخ بقلم محمد عطار الله العدد 5 سنة 1976 وفيها تفصيل واف لكلمة التاريخ.

لأسماء برزت في أفق روايته : عبيد بن شرية، وصحار العبدي، ووهب ابن منبه مثلا ، حيث يذكر أن العرب الاقدمين ، كان ينقصهم في تدوين التاريخ قوة الملاحظة، والنفوذ الى الحقائق (34). وفاته انهم انما كانوا يكتبون التاريخ من خلال الاسطورة أو الملحمة الشعرية، ولم يكتبوه لذاته .

ومع ذلك، فان الذين اعتبرهم كرنكو ينقصهم الابداع، هم في الواقع البداية الغامضة لتدوين اخبار الماضين ، وما ذكروه كان مجرد مقدمات لكتب المغازى والسير ، وان قيل عن بعض العلماء انه كان يطلع على وثائق كانت مدفونة منذ العصر الجاهلى ، وهى تؤكد البدايات أو المحاولات الاولى للتدوين (35) . لكن الرواية الشفوية للتاريخ ، لا يصح الصاقها بملاحم الايام (36) . لان «الايام» ليست من التاريخ في شيء بل هى أدب ملحمى ، جرى تدوينه بعد تدوين المغازي والسير وأخبار الماضين وأساطير العربية الجنوبية ، أي أساطير اليمنيين والحميريين (37)، بدليل أن لغة هذا الادب تغاير لغة كتب المغازي والسير وسواها، وأما ما ذكره الباحثون عن وجود شروح للقصائد وغير ذلك ، فهذا شيء دخيل على أصول الروايات ، وليس من المتون ، أضيف اليها فيما بعد.

---

(34) دائرة المعارف الاسلامية. مادة (تاريخ) 3/3/4.

(35) دراسات عن المؤرخين العرب — مرجليوث (ص 71) ومابعدها وانظر ايضا نشأة التدوين التاريخى عند العرب (ص 5) ومابعدها. وانظر دائرة المعارف الاسلامية مادة (تاريخ) 484/4 — 486 وكان ابن الكلبى قد زعم بأنه يستخرج أخباره من أديرة الحيرة، وكذلك الرواية المنسوبة الى حماد الراوية بأن الملك النعمان أمر، فنسخت الاشعار التى مدح بها هو وأهل بيته فوضعت فى طنوج — كراريس — ودفنت تحت قصره الابيض، فلما مر المختار بن عبيد، قيل له : ان تحت القصر كنزا من الكتب فاحتفر فأخرجها. (أنظر الخصائص لابن جنى — طبعة دار الكتب — 392/1 ومعجم البلدان لياقوت (القصر الابيض) وانظر فى الخبر الاول، الطبرى (37/2 ط. مصر) 770/1 (بريل) قال هشام : كنت استخرج أخبار العرب وأنساب نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لال كسرى، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها.

(36) نشأة التدوين التاريخى عند العرب ص 5 وعبارته بنصها «لكن العرب، على الرغم من ذلك، عرفت نوعا من التاريخ الشفهى، فقد كانت القبائل تروى أيامها : حروبها وانتصارها، لتفخر بها على القبائل».

(37) يتحدث مرجليوث فى كتابه : دراسات عن المؤرخين العرب ص 71 عن قصائد سجلت فيها ألوان الكفاح بين الاوس والخزرج قبل مجيء النبى (ص) فلما جاء الاسلام حرم انشادها. وأيام القبيلتين مدونة فى الاغانى والطبرى وابن الاثير، وطرف منها فى دواوين شعرائهم، مثل قيس بن الخطيم وحسان، وبعضها فى المفضليات وكتب أخرى.

لذلك جردنا الرواية منه، وذلك عندما جمعنا وحققنا كتاب «أيام العرب» لابي عبيدة (38).

ان التأليف في المغازي والسير ضرورة أملتها طبيعة المرحلة التي عاشتها الامة ، وبالاخص بعد وفاة الرسول (ص) ، وجنوح العصر الراشد الى الافول مسرعا وبصورة غريبة ملفتة للنظر.

ولا نستبعد ما يقال من أن هذا العلم نشأ مع علم التفسير ، وانه ضرب من علم التاريخ في أوليته التدوينية ، الا أنه ليس ضرورة ملحة املتها المرحلة العلمية التي كان يتجاوزها علم التفسير الذي يشبه ان يكون قلقا ساور النفوس يومئذ من مصير تؤول اليه الاجيال القادمة، وهي تدور حول نصوصها المقدسة في اغتراب وغموض، وان كنا نلاحظ جيدا، أن المغازي والسير كانتا من بين وسائل المفسر وأدواته في تقريب مضامين الايات والسور من اذهان الجماهير ، نظرا لما يتصل بكل آية الظرف الذي يفسر نزولها، أو حادثة أو خبر أو غزوة، تقترن بها.

لذلك انفرد بعض كتاب المغازي والسير في التأليف التاريخي الخالص ، بعيدا عن مؤثرات ، المفسرين ، أو أية احتياجات اخرى، فخصصوا كتاباتهم لاغراض هذا العلم الجديد (39). ولذلك أيضا قيل عن عروة بن الزبير ، انه أول مؤلف في هذا الباب (40).

أما «أيام العرب» فلا يمكن مقارنتها بما ذكرناه، لانها ـ بحكم تكوينها الفكري ـ تنتمي الى عوالم أخرى انما قام الاسلام ثائرا عليها. فلا يمكن الخلط بين هذين اللونين ، وان المؤلفين يخطئون عندما يتطرقون الى «الايام» بعد فراغهم أو أثناء حديثهم عن السير والمغازي والتفسير والحديث والفقه. فهذا تأليف علمي اسلامي ، وذاك فكر موروث، يتوفر

---

(38) صدر القسم الاول منه بجزئين الاول منه بعنوان : الملاحم العربية. والثاني : الجزء الاول من كتاب الايام.

(39) الطبري ـ تاريخ 1180/1 ـ 1284 ـ 1634 (بريل).

(40) كان عروة بن الزبير معاصرا لابان بن عثمان (105 هـ.) وابان عالم بالحديث والفقه، وصاحب المجموعة المفقودة في مغازي الرسول. وقد توفي عروة في (94 هـ.) وكان يدون اخباره ولا يقتصر على الرواية الشفوية. وقد استعار الخليفة الاموي عبد الملك بعض الواحه منه (واخبرنا الواقدي والطبري نقلا عن ابن اسحاق ببعض هذه الالواح. للاستزادة انظر : حسين نصار ـ نشأة التدوين ص 29، وانظر ايضا حاجي خليفة ـ كشف الظنون 646/5.

فيه عنصر الشعر والادب والفن ، ولا نجد في المغازي والسير سوى التاريخ. واذا عثر على شيء فيه، فهو لا يتخطى كونه حلية واستشهادا ليس غير واما تسمية المواقع التى دارت في الاسلام، ثم عرفت بعدئذ، بمصطلح «الايام» فهو اتساع أو تجوز لا نقره. لكن قد تصادفنا وقعات تحمل نفس المضامين الوثنية القديمة أو القيم الشعورية وان بعضها امتد، فأدرك العصر العباسى (41).

ومبدأ الخطاء في قضية الشعر العربى وامتزاجه بالتاريخ، هو ضياع الوثائق وانعدام التدوين. فلما نشطت أقلام الكتاب خلال القرون الهجرية الاولى، لم نجد غير الملاحم والاخبار الادبية والاساطير والمأثورات الشعبية، نستمد منها مادة التاريخ المزمع تدوينه . ولاجل ان يكون التدوين حقيقيا وصحيحا، اخليا من شوائب الخيال والاسطورة والكذب، كانت التضحية بالكثير من المأثور الشعبى ، ودخل في عدادها الشعر الجاهلى وملاحمه، لانه يمثل نسكا وثنيا، فسددت الضربة اليه، وبعثرت نصوصه، وضاع الجوهر ، فلم يبق الا البناء الخارجى غير المتماسك، مع مدلولات أقرب الى الرمز.

وعندما يحدثنا ابن هشام، عن علاقة الشعر بحقائق التاريخ، نابذا الاشعار التى حملت الى ابن اسحاق برغم اعتذار الرجل، ماضيا الى تبرير نبذها، مستندا على آيات من الذكر الحكيم، تؤكد كذب رواته (42)، انما هو عمل لا نثيب ابن هشام عليه اليوم ، لانه بدد موروثا شعبيا كان صالحا ليتخذ نوات دراسة في ضوء المضامين المحموله في داخله .. وان الاساطير المروية عن تلك العصور، والشعر المصنوع فيها، لا علاقة لهما اطلاقا بالعلم الوضعى الجديد، والتاريخ العام أو الحولى أو الاخباري، وفق ما تقدم بيانه. فهل زاد ابن اسحاق في شيء سوى نقله اختلاجات نفوس بشرية ، عبر أزمان ممتدة ، نستشف منها، واقعا يسمو به خيال الانسان ، متجاوزا القشرة التى التصقت بها اقدام التاريخ المشدودة الى زمان ومكان، وحقيقة ذات حدود وابعاد . بينما تبدو الاسطورة مشدودة الى الملحمة . فلو أخذ الشعر الذي حمل الى ابن اسحاق

---

(41) أنظر يوم سحبل فى الاغانى 141/11 وشرح الحماسة 56/1 (التبريزى) ومعاهد التنصيص 43/1، ومعجم البلدان 43/5.

(42) السير النبوية 4/1. مع الاستعانة بنصوص ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء.

على أنه صورة لاصل، أو ظلال شاحبة لموروثات دفينة، لكان الجانب الاسطوري فيه اكثر عطاء في مضامينه، من وجه التاريخ المتصلب. فالمسألة بكل ما فيها، لا تعدو ان تكون حذلقة نقدية وجهها العلماء الى ابن اسحاق، وهو في موقف المعتذر (43) وقد سبق ان بينا في موضع سابق من هذه الدراسة، بأن هذا الموروث يجب ان يدرس لا انيمحص.

وهكذا ننفى كل استنتاجات مرجليوث، واعتبار الشعر أداة للتاريخ ليمضى الى استباط أحداث ومشاهد تاريخية من مطولات ابى تمام والبحتري والمتنبى والشريف الرضى والتعاويذي وآخرين ، وهى التى أطلق عليها العلماء اسم القصيدة القاصة Ballad ولما لم تستقم النتيجة تماما، أعلن بأنه كان ينتظر معلومات تاريخية أخطر، لو كانت الدواوين مرتبة بحسب زمن القصائد. ولعل كلامه الاخير يعقل. لكن كون الشعر أداة للتاريخ، فهو مالا يطاق. والاكثر جدوى في عمله هو دخوله اعماق القرن الثالث الاسلامى، بحثا وراء القصيدة الحولية Chronicle أو المؤرخة، مثل ارجوزة ابن المعتز في الخليفة المعتضد (363 بيتا) ورائية أبي فراس (من البحر الطويل) وتتضمن وصفا لاحداث الحمدانيين ووقائعهم مع الروم، وأرجوزة ابن عبد ربه (550 بيتا) المنوه بها سابقا (44) ان هذا النوع من الشعر التمرينى لحفظ التاريخ، لا يعد من الرواية التاريخية في شيء وهو أيضا غير محسوب على شعر الملاحم التاريخى Epicpoetry فضلا عن ذلك فهو ليس من قبيل القصص القديم (45).

وقد كانت نظرة مرجليوث الى المطولات الجاهلية مبعثها نفس المنطق ، كان مقياس النجاح لديه ان تكون القصيدة قاصة على حد تعبيره : (ومن ثم فالشعر الذي يعالج التاريخ القبلى وغيره، في أحواله

(43) توجد انتقادات أخرى موجهة الى ابن اسحاق لدى ابن سلام فى طبقات الشعراء ص 8 — 9.

44 — دراسات عن المؤرخين العرب ص 76.

(45) هذه التسمية تطلق على هذا النوع من القصص تمييزا له عن الاسطورة فالقصص حوادث تاريخية قد تكون محرفة او مشوهة. اما الاساطير — وتدخل الملاحم ضمن هذا الكلام — فهى تفسير لظاهرة انسانية او كونية، وصراع البشرية ضد انواع التحديات المنبعثة من الحياة والموت والخلود، وقد عرفنا بعض ذلك عن طريق ملحمة جلجامش وقصة الاتوما اليش والطوفان وهى معالجة مباشرة للقضية الكبرى: قضية الموت والخلود، وربما كانت بصورة غير مباشرة كالذى نجده فى ملاحم الايام العربية.

العارية تلميحى أكثر منه تاريخى وقصصى . واذا ما وصلت الينا القصيدة التى تعالج تلك الاحداث كاملة وجدناها تخلط الاحداث التاريخية بأمور أخرى غير ذات صلة بها. ولذلك نخرج بقليل من الامور التاريخية من المعلقات ، وخاصة معلقة زهير التى تمدح بعض الرجال سعيهم في اقرار السلم بين قبيلتين متحاربتين أيام داحس والغبراء، وتحملهم المغارم في سبيل ذلك. ولكن وصف معلقة زهير بأنها «قصيدة قاصة، Ballad يشوه صورتها تشويها بعيدا، فهى تعليمية أكثر منها قصصية. ولا تختلف عن هذا الطابع الاشعار التاريخية التى تؤلف ديوان العرب (46) والتخبط واضح في الكلام الوارد في هذا النص. ولم تمض مقولة الشعر والتاريخ بسلام ، دون أن تحدث أضرارا أو تترك أثارا . فكان من تأثير التاريخ في الشعر كما قال بعض الباحثين (47). ان ظهر لدينا ما نسميه (تاريخ الادب) فهو من مخلفات القرن التاسع عشر وكان قرن التاريخ والرومانتيكية استهلته مدام دي ستيل تلميذة روسو ومونتسكيو بكتابها الذي وسمته بـ «الادب من حيث علاقته بالنظم الاجتماعية» ثم اطرد البحث في الاعمال الادبية، وفقا للمناهج التاريخية بدعوى ان هذه الاعمال ، وقد ولدت في الزمان، انما تحيا في الزمان ..

لهذا كله انكر «هيدجر» ان يكون الشعر حلية تصحب الوجود الانسانى ، ولا حماسة عارضة، ولا قوة طارئة ولا تسلية مؤقتة، الشعر هو الاساس الذي يسند التاريخ (48). وكان دليله الى ذلك، ما ذهب اليه «هلدرن» من أن الشعر حوار، لان البشر انفسهم حوار، بستطيع كل منهم ان يخاطب الاخر بلغة الشعر الخفية. لذلك نحن نؤكد على ان الشعر غير جار مجرى الوثيقة التاريخية، لان هذا مجال آخر يغاير المجال الاستطيقى (49). «وان البشرية تلتمس من شعر شعرائها اصواتها الخالدة التى تتجاوز حدود الزمان والمكان» (50).

---

(46) دراسات عن المؤرخين العرب ص 75.
(47) التركيب اللغوى 93.
(48) المصدر السابق وانظر مارتن هيدجر فى الفلسفة والشعر للدكتور عثمان أمين ص 95.
(49) التركيب اللغوى ص 1.
(50) المصدر السابق ص 83.

مصادر البحث مرتبة حسب تسلسل ورودها فيه

1 ـ فن الشعر لارسطو طاليس، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي (مطبعة النهضة المصرية بالقاهرة 1953).

2 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (نشر لجنة التأليف).

3 ـ الذخير لابن بسام ـ القسم الاول ـ طبع كلية الاداب بمصر.

4 ـ شعر الايام الجاهلية ـ دراسة بقلم كاتب المقالة ـ مطبوعة بالرونيو (جزء من دراسة شاملة لملاحم الايام العربية) وقد نشرت في دار الجاحظ بغداد 1976.

5 ـ أيام العرب ـ لابى عبيدة معمر بن المثنى (209 هـ) صنعة الدكتور عادل البياتى ـ نشر دار الجاحظ بغداد 1976. وتراجع مخطوطة الكتاب بالرونيو.

6 ـ تايلور ـ للدكتور أحمد أبو زيد (دار المعارف بمصر 1957) .

7 ـ التركيب اللغوي ـ للدكتور لطفى عبد البديع ـ القاهرة ـ مطبعة النهضة 1969.

8 ـ ملحمة جلجامش ـ مع مقدمة للاستاذ طه باقر ـ نشرة ثانية لوزارة الاعلام العراقية .

9 ـ منطق البحث العلمى ـ د. ياسين خليل ـ بيروت 1974.

10 ـ ملحمة جلجامش ـ نشر وزارة الاعلام العراقية . ثلاث طبعات بعناية الاستاذ طه باقر.

11 ـ مجلة آفاق عربية الاعداد 1، 5، 9، ـ بغداد 1976.

12 ـ مجلة الكتاب العد 4 السنة 1975 بغداد.

13 ـ ملحمة جلجامش ـ مع مقدمة بقلم ن. ك. ساندرز ـ ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضى ـ طبة دار المعارف بمصر 1970.

14 ـ علم الفلكلور ـ الكزاندر هجرتى ـ ترجمة رشدي صالح ـ طبع وزارة الثقافة بمصر 1967.

15 ـ تاريخ العرب الادبى ـ البروفيسور رينولد نكلسن ـ ترجمة الدكتور صفاء خلوصى ـ بغداد 1970.

16 ـ الاثـار الباقية لابى الريحان البيرونى ـ طبع ليبزك 1923.
17 ـ الخصائص لابن جنى ـ طبعة دار الكتب المصرية.
18 ـ الساميون ولغاتهم للدكتور حسن ظاظا ـ طبع دار المعارف بمصر 1971.
19 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي ـ طبع السعادة 1906.
20 ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري ـ طبعة مصر وبريل.
21 ـ دراسات عن المؤرخين العرب ـ مرجليوث ـ ترجمة الدكتور حسين نصـار ـ طبع بيروت.
22 ـ نشأة التدوين عند العرب ـ للدكتور حسين نصار ـ طبع مصر.
23 ـ كشف الظنون ـ حاجى خليفة، مصطفى بن عبد الله. طبع الاستانة 1311 هـ.
24 ـ السيرة النبوية ـ لمحمد بن هشام ـ طبع الحلبى 1955.
25 ـ الاغانى لابى فرج الاصفهانى ـ دار الكتب المصرية.
26 ـ شرح ديوان الحماسة للتبريزي أبو زكريا يحيى بن على . طبع السعـادة 1246 هـ.
27 ـ طبقات الشعراء لمحمد بن سلام بـن عبد الله الجمحـى ـ طبـع السعـادة .
28 ـ هيدجـر في الفلسفة والشعر ـ للدكتور عثمان أمين ـ طبع القاهرة.

منابع الالهام والثقافة
فى الادب العربى

«هذه دراسة اعدت بعد ضم طائفة من الملاحظات كنت قد دونتها اثناء عملي الطويل، وانا اكتب سلسلة من الابحاث العلمية في حقل المعرفة والادب . وقد جاءت هذه الملاحظات في شكل اضافات جوهرية الى ما سبق أن أعلنته عن ثقافة الاديب العربي قبل الاسلام، والمكونات الاولى لصرح بنيانه المتكامل، وذلك في محاضرة كانت قد أعدت لهذا الغرض قبل ما يقرب من عشرة أعوام (1). ولا يخفى ما ينطوي بين التاريخين، الامس واليوم من تفاوت في الشقة تجعل المرء يراجع استنتاجاته، ويعيد النظر في بعض مواقفه الفكرية من التراث، وقد يضيف أو يحذف . ولا يتسع مجال النشر هنا لاستعراض كافة النتائج السابقة، ومقارنتها بما استجد في اليد من محصلة اكثر حداثة وفق منظور المعاصرة المتطور، لكنني عملت جهدي لكي انقل أجزاء حية من الكائن القديم صمدت في وجه رياح التغيير والتطور، وزرعها في جسد الكائن الجديد الذي أحاول الآن أن أحدد معالمه ووجوده وأبعاده أمام نظر القارىء». ان مفهوم «الثقافة» الذي بنيت عليه أسس البحث لم يتغير لدي بل سررت حين اكتشفت أن مصطلح Culture الانكليزي يوازي مصطلح «ثقافة» العربي في مدلوله القديم، فيما يتعلق بالارض وحراثتها وزراعتها. أشار الى ذلك البكري في معجمه حيث قال (2) : «وغرس قسي. وهو الاب الاعلى لقبيلة ثقيف، القضبان نابتت، فقالوا : قاتله الله ما أثقفه، فسمي ثقيفا يومئذ : وهي قضبان الكرم. فكلمة ثقافة العربية أصلها ثقافة زراعية، وكلمة

(1) تليت المحاضرة فى اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين، ونشرت فى مجلة الكتاب التى كانت تصدر عن الاتحاد ببغداد فى العدد الرابع لعام 1975 بعنوان المنابع الثقافية للشاعر الجاهلى. ومجلة المجمع العلمى العراقى ج. 3 و 4 مجلد 32 عام 1981.

(2) يراجع معجم ما استعجم 66/1.

Culture الانكليزية أصلها ثقافة زراعية (3) أيضا وفي الكلمتين اشارة الى بدء انتقال البشرية من المجتمعات الرعوية المتحركة وبدء ظهور الاقطاعيات الزراعية الثابتة. فالكلمة تعنى في اصطلاح العصر الحديث، كل ما يمتلكه الانسان من وسائل الحضارة في عهوده الاولى، يدخل ضمن ذلك وسائل استبطانه وادوات عمله ومواد مهنته وخامات التصنيع المعروفة يومئذ. وبذلك يضيق مصطلح البداوة السائد خطأ وينعدم، فتصبح معرفة الاعرابي في ضرب اطناب سرادقه أو خيمته وتأسيس حوض الماء له ولحيوانه واتقان مهنة الرعى والتدجين والتكثير والانتاج في مختلف وجوهه ضربا من الثقافة. ويمتد ذلك الى الحواضر المختلفة في الوطن العربى حتى تشمل فنون الصناعات الحربية والسلمية، والزراعة والعمران والمعارف الانسانية الاخرى على صعيدها الدينى والاجتماعى كالكهانة والحيازة والعرافة والتزلف للالهة والعيافة والقيافة والمعتقدات والفلك والطبابة والصيدلة والحجامة، وعلى مستواها القومى كاللغة ولهجاتها والتاريخ وفروعه والمثل وضروبه والسير الشعبية وأنواعها. وفي حقلها الانسانى كالتجارة والاسفار واللقاءات الاخرى. وقد نظر ابن قتيبة الى هذه المناشط الثقافية ومعالمها في الشعر فقال عندما أراد أن يعرف القراء بكتابه الذائع (4) «وكان حق هذا الكتاب أن أودعه الاخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره، وعمن وضعه بالهجاء، وعما أودعته العرب من الاخبار النافعة والانساب الصحاح والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة، والعلوم في الخيل، والنجوم وأنوائها والاهتداء، والرياح وما كان منها مبشرا أو جائلا، والبرق وما كان منها خلبا أو صادقا، والسحاب وما كان منها جهاما أو ماطرا» ويقول في موضع آخر من الكتاب : وكل علم محتاج الى السماح، واحوجه الى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الالفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشى واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه».

واطلاق مصطلح العلم على الشعر توجيه صحيح، فقد كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، وهو مما ذكره الرواة من أقوال

---

3) Webster'S New World Dictionary By David B. Guralink New York 1961 See (Culture) P. 175.

(4) الشعر والشعراء 63/1، 82 تحقيق الشيخ أحمد شاكر. دار المعارف بمصر 1966.

الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (5) وكان الشاعر عالم القوم كما كان كاهنهم، ويدخل في مكونات ثقافته ، السحر ايضا. لذلك لا نستغرب ما روى من أن لبيد بن ربيعة الشاعر ارتدى حلة السحرة وبرز في مظهر «المشعوذين» والقى ارجوزته العينية أمام الملك النعمان ابن المنذر في مهاجاته المعروفة للربيع بن زياد العبسى (6). ويدخل في عداد المنابع الثقافية ارتباط الشاعر برئى أو صاحب من الجن، وما رافق هذا المعتقد من ارتباط بالعوالم الغيبية والمنطلقات الماورائية سواء ما وراء الغيب أو ما وراء الموت أو ما وراء الطبيعة. وقد كان الناس قبل عصر الجاحظ مولعين بأغراض الشعر وفنونه وأعاريضه، مؤثرين ميادينه على سائر الميادين. لكن الجاحظ بما كتبه، جعل للدراسات النقدية التحليلية وللنثر الفنى مكانة في نفوس الناس لم تكن مألوفة، فأعاد للاداب عامة فاعليتها وللشعر خاصة مكوناته وثقافته. اذ هذا الموروث العظيم ينعكس في عمل الاديب في شكل ثقافة زاخرة تجد صداها في الرؤية الذاتية للشاعر أو الكاتب أو الروائى أو القاص وغيرهم. فنحن بصدد تحجيم المعالم الثقافية المتعددة من خلال الشعر.

وقد تكون للشاعر خصوصية في التعامل مع هذه الخامات، واعادة بنائها بعد هضمها وتمثيلها ، ثم تقديمها للامة صيغة جديدة تعبر عن معنى مجرد، لكنه يرتبط بالقضية ارتباط الجوهر بمعناه ونفاسته وعرقه. أما المعنى المجرد، فمثاله أن (السيف) لم يعد لدى الفنان سيفا في صورته الاعتيادية باعتباره آلة للطعن أو القتل، بل تحول الى رمز شعري يعبر عن قضية. وكذلك الموجودات الاخرى في حجمها المادي أو ابعادها المعنوية. وهذه الخصوصية في الشعر تنعدم في غيره، لان أية ظاهرة اجتماعية أو اقتصادية يمكن أن تدرس في ضوء التحديات المتعددة والضغوط المختلفة من بيئة وطبيعة ومناخ وتحولات قسرية، فتعمل في خلقها وتطويرها وابداعها، وقد تعمل في اخمالها واضعافها واخفائها، الا الشعر، فليس لانواء الطبيعة ولا ضغوطها المتباينة ولا شمسها المحرقة، وحتى شمس المناطق الجليدية النادرة، ولا غناها ولا فقرها، أية فاعلية في

---

(5) العمدة 27/1.

(6) غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بالامالى للشريف المرتضى 136/1 تحقيق أبو الفضل ابراهيم — مصر 1954.

قدرته الالهامية أو نمطه أو مقداره أو قوة أسره. ان أمرا واحدا يظل عاملا في زخم وفاعلية يغنى الشعر ويثري عطاءه المادي.. انه الانسان العربى عبر تاريخه البعيد وحاضره ومستقبله، هو الصانع الوحيد، يمتزج بأرضه ومناخه وبالطبيعة المتلوتة الممتدة من قلب صحارى شبه الجزيرة وسيناء ذات المزاج الثقيل الى اطراف اليمن السعيد، وحتى البساط الاخضر الممتد من أرض السواد واشجار الارز فوق جبل لبنان الى داتا النيل المخصبة المرعة. لقد لاقت هذه الفرضية صدودا من بعض المعنيين في حقل المعرفة والثقافة. والناس ـ كما قيل ـ اذا وجدوا في البديهيات خروجا على مألوفهم، وربما تهديدا لما في أيديهم، قاوموها وحاربوها، فكيف بالفرضيات ؟ .. ! ولدى رجوعى الى فريضتى بالمدارسة والنقد، وجدت أننى لم أكن واضحا بالشكل المعقول، لذلك اضيف هنا بأن المقصود بالانسان العربى عبر تاريخه البعيد وحاضره ومستقبله هو الشاعر وقدرته الالهامية التى هى من تركيب الخالق في اعماقه يوم ركب اهواءه وأمزجته وطباعه. فالموهبة الالهامية اذ تتفجر ، لا تنظر الى بيئة بعينها ولا حضارة بذاتها ولا بداوة أيضا. فحجم العملية الشعرية لا يتأثر ببيئة ولا يتفاوت في حدود الجودة والاتقان بوحى من زمان أو مكان. فالحضارة قد تضيق والشعر بتسع، وقد تتسع الحضارة والشعر يضيق. مبدأ أقره علماؤنا من قبل. وهذا نص ما قاله ابن قتيبة في مقدمته لكتابه «الشعر والشعراء» (7) (ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شرف خارجية في أوله» وقد اثبتت الدراسات الحديثة صحة ما ذهب اليه ابن قتيبة. وكان الجاحظ قد حاول مثل ذلك، حين أورد كأن الجاحظ (255 هـ) يرد على ابن سلام (231 هـ) في نظريته التى لم تستقم له في توزيع الشعر على بيئات، فقال الجاحظ : «وليس ذلك لمكان الخصب، وانهم أهل مدر، وأكالو تمر، لان الاوس والخزرج كذلك، وهم من الشعر كما قد علمتم» ثم يجري الجاحظ المقارنة بثقيف فيقول «وثقيف سكان الطائف ، ناهيك بها

(7) الشعر والشعراء ص 63.

خصبا وطيبا، وهم وان كان شعرهم أقل فان ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب» (8).

لقد ارتبطت قضية الالهام الفني في عصر ما قبل الكتابة بالغيب عن طريق قرين من الجن أو صاحب أو رئي أو شيطان، وزعموا أن ما باتى به الشاعر انما هو املاء يملى عليه، خارج ارادته، ولا فضل للشاعر فيه سوى أنه واسطة للبشر، بينهم وبين الغيوب. وتقدم لنا بهذه المناسبة فاتحة كتاب الجمهرة لابي زيد القرشي معلومات غنية بهذا الصدد (9). وهي تحدرات ثقافية عرفها الساميون منذ القدم، حين قرر شاعر منهم بأن الاسطورة المعروفة باسطورة «ايرا» أي «الله الطاعون» لم يكتب قصيدتها من نفسه وانما ظهر له الاله في الرؤيا وأملى عليه نص القصيدة ، فلما استيقظ استذكرها ودونها دون أن يضيف اليها أو ينقص منها شيئا مما أملاه الاله (10). وقد تسببت هذه الموضوعة الغيبية في اشكال كبير عند نزول معجزة القرآن الكريم، وذلك حين قرنوا وحيه وتنزيله بما يوحى للشاعر وينزل عليه، وقد جاء هذا الاختلاط بسبب الالهام الغيبي الالهي للرسول (ص) والزعم الالهامي للشاعر أيضا وبسبب لغة القرآن التي حيرت الجمهور بين ان تتكون نثرا فنيا أو شعرا دينيا غامض المأخذ، لم يجدوا له شبها في كتاب سماوي أو صحيفة دينية. وقد أوضح القرآن مسألة الوحي الالهي، كما أوضح مسألة القرين الشعري حيث ورد قوله تعالى «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم..» وهي من سورة الشعراء، فعرف الناس ـ لاول مرة بعد مضي ما يزيد على ستمائة عام من مولد المسيح عليه السلام ـ بأن ما ينزل على الانبياء، انما هو وحي من الله عن طريق ملك كريم وما هو بشيطان رجيم مما ينزل على الشعراء. ثم تظهر قضية (الملائكة والجن والشياطين) وهل كانت من ضمن موروثات العربي الدينية قبل الاسلام. ولدى الرجوع الى مادة (ملك) في المعجمات، وجدنا أنها لا تسعف بشيء، لكن مادتي «ألك» و (لأك) تلقيان ببعض الضوء على كلمة ملك (بالفتح) التي تشتق منها (الالوكة) وهي الرسالة، مما تفيد ببعض

(8) مدخل الى الادب الجاهلي ص 350 وتراجع مناقشاته أيضا.
(9) تراجع مقدمة كتاب الجمهرة لابي زيد القرشي التي تعد من المقدمات النفيسة في الدراسات الكلاسكية والفكر الغيبي.
(10) ملحمة كلكامش ص 24 بعناية طه باقر طبعة رابعة 1980.

الصلة الوظيفية بين الملك وما يحمل من رسالة سماوية. وهذا هو الذي دفع ببعض علماء اللغة أن يعزو كلمة (مألك) الى (ملك) بالفتح، وانها كانت تعنى مخلوقا اثيريا من غير الانس، ومثلوا لذلك بقول الشاعر الجاهلى (11).

ولست لانسي ولكن لمألك تنزل من جو السماء يصوب

وعند عزو البيت الى الطرماح بن حكيم – في رواية – يبطل الاستشهاد به. وقد ارتبطت كلمة ملك (بالفتح) مع كلمة (ملك) بالكسر ارتباطا وظيفياً أيضا، لان الثانى يتمتع بتفويض الهى نعود اليه بعد قليل. ولا عجب في معرفة العرب لكلمة (مألك) التى هى : ملك كريم، لان العرب أمة موحدة أصلا ، داهمها الشرك والوثنية فيما بعد، وبالاخص معرفة عرب الشمال لها، فقد كانوا موحدين احنافا خلاف ما كان الجنوب عليه من التعدد والشرك بحكم تكوينهم الثقافى والجغرافى وصلاتهم الحضارية عطاء وأخذا مع العالم الخارجى. ويبدو لى أن النزاع التاريخى التقليدي الذي تطرحه كتب التراث، وكانت نهايته على يد كليب بن ربيعة ثم عملية الانتقام اليمنية بالنيل من (اله) كليب المنتصر وذلك بتسليط ذاقة البسوس على حمى الاله وتلويث قدسيته مما جر حربا طويلة الامد ، كان مبعثه هذا التعدد في عبادة أهل اليمن، والميل الى التوحد في عبادة عرب الشمال الذين كان الصراع فيما بينهم وبالاخص من جانب الاحناف دمويا للقضاء على ظاهرة التعدد التى تطرح التجزئة بوضوح، والاخذ بالتفريد على الاقل أو بالتوحيد أصلا لانه يطرح المفهوم الصحيح للامة ووحدتها. وستنعكس آثار هذه العقائدية (الايديولوجية) على نظامهم السياسى. ومن هنا كان لابى عبيدة أن يقرر بأنه لم يتوج معدي قط (12) أي لم ينصبوا عرشا وملكا، وانما اقتصرت النظم الملكية على القبائل العربية الجنوبية، فكان ملوك الشمال قحطانيين جنوبيين، لانهم من نسل الآلهة أو أنه يستمد سلطته من الالهة، فقد كان الملوك اربابا في عقيدة العرب، وكان الناس

(11) اللسان لابن منظور مادة (الك) و (لاك). ولفظة الملائكة وردت فى شعر امية والاعشى

(12) العقد الفريد 244/2 قال أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء : لم يتوج معدى قط ، وانما كانت التيجان لليمن، فسألته عن تاج هوذة بن على الحنفى فقال : لم يكن تاجا بل خرزات تنظم له. وكان الرسول قد كتب الى هوذة كما كتب الى الملوك.

يقدسونهم، وقد ورد في معتقدات السومريين أن الآلهة كانت تحكم الارض قبيل الملوك، ولما تبوأت عرش السماء خلفت الملوك بعدها على الارض، وفوضتهم سلطة الربوبية في ادارة أمر الناس. وكان الملوك في نظر بعض الاقوام آلهة تعبد ، وقد حاول الملوك في الاصقاع الشمالية والوسطى أن يحملوا الناس على هذا المعتقد ففشلوا.. فكان الملوك يلقون القتل على أيدي الفرسان الثائرين دون رهبة، حتى أن التاريخ ليروي لنا مقتل طائفة كبيرة منهم على أيدي الشجعان العرب. وان أحدهم ليشير بصراحة الى مبدأ التحريم السائد في قتل الملوك، ثم يعرض جرأته وبسالته في مقارعة الظالمين منهم (13) :

نعاطي الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرم
وكائن ازرنا الموت من ذي تحية اذا ما ازدرانا أو اسف لمأثم
وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض الى الدم

ثم يستطرد في ذكر اسماء الملوك الجنوبيين الذين قتلوا بسيوف قيسية. وكان الالهام الشعري منسوبا لعبقر، واد في بلاد العرب تسرح فيه الجن، فعرف الوادي باسمهم «وادي جن عبقر» ثم «وادي عبقر» فنسبوا جنون والعبقرية أو جنون العبقرية الى هذا الوادي، وكذلك الشعراء فقد نسبوا قرناءهم الى هذا الوادي، فكان لكل شاعر جني عبقري يتقمصه ويلقى الشعر على لسانه، حتى رويت لبعضهم في ذلك حكايات ونقلت أخبار ولقاءات غريبة بين الشاعر وقرينه، حتى اعتقد الناس الى ما بعد الاسلام بمأمد طويل أن الشعراء لا يلفظون الا ما يلقي عليهم من قبل عباقرة الجن المتطلعين الى الغيب المستشرفين لاسراره، وان الشعراء كانوا ينعتون قرناءهم من الجن بنعوت تعزوهم الى البلاغة والفصاحة، ويشتقونها من طبيعة العملية الايصالية والالقائية للشعر العربى القديم الذي كان يعتمد الرواية في النقل، فعرف بعضهم باسم قرين فلان من الشعراء مثل (قرين مهلهل) في شعر لسراقة البارقي ـ

ولقد اصبت من القريض قصيدة أعيت مصادرها قرين مهلهل

---

(13) المفضليات ص 211 (مفضلية 42) تحقيق : أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف. طبعة رابعة وتراجع قضية قتل الملوك فى مقدمة كتاب أيام العرب لابى عبيدة.

وقال لبيد بن ربيعة في جن عبقر :

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

ووردت اشارات اخرى الى جن عبقر في شعر زهير وحاتم وغيرهما. وكان اسم الجني الذى اقترن بامرىء القيس يقال له (لافظ بن لاحظ) وصاحب عبيد بن الابرص يقال له (هبيد) ورئى النابغة يقال له (هاذر بن ماهر) وراوية الاعشى يقال له مسحل (14).

وكان، عند ظهور الاسلام، لابد من تغيير لنظرية الالهام الشعري، بعد ان تلقى الرسول أول الوان التهم بصدد ما يوحى اليه، فأصبح شيطان الشاعر العربى المسلم ملاكا، وارتبط الهام بعضهم بالملاك الحامل للرسالة كما في حالة حسان بن ثابت وقول الرسول (ص) يخاطبه ويحضه على هجاء المشركين «اهجهم وجبريل (روح القدس) : معك» (15) فألغيت بذلك موضوعة الجن في الاسلام بالنسبة للشاعر الملتزم، وهذا الحديث صحيح ثابت رواه شعبة واورده البخاري وكذلك أحمد في مسنده.

هذا هو العالم الغيبى للالهام الشعري الذي حاولت الثقافات العربية الاولى أن تسمو به لتميزه وتمنحه خصوصيته العقائدية. وقد استمر هذا العالم الاسطوري الشعري (الميثوبى) الساحر الخلاق ممتدا بفضائه الرحب بوسمائه الواسعة مغطيا العملية الشعرية طيلة المرحلة التاريخية الحتمية التى مرت بها الثقافة العربية حينذاك، قبل أن تدخل مرحلة جديدة متطورة . ومن هذا المنطلق يأتى حكم الجاحظ سليما فيما يخص الالهام الفنى للاديب العربى ، ناثرا كان أم شاعرا حيث قال «وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكرة. وانما هو أن يصرف همه الى الكلام، والى جملة المذهب، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر» ورد هذا

(14) تاريخ الادب العربى قبل الاسلام ص 80 نشر وزارة التعليم العالى العراقية 1979
(15) طبقات فحول الشعراء 217/1.

في البيان والتبيين في الصفحة الحادية والعشرين من المجلد الثالث للطبعة الثانية. وليس القصد من كلام الجاحظ أن الاديب العربي فارغ لا يستعين بثقافة ولا يجيل ذهنه بفكرة. وانما ذهب الى ما ذهب اليه المتقدمون في نظرية الالهام الفني، الا أنه خفف جانبها الاسطوري بقوله أن ما يأتي به الاديب العربي «كأنه الهام» لا يحتاج الى افتعال الالفاظ والعبارات والى جهد الفكرة، يشير بذلك الى ما نسميه اليوم بالادب الانشائي، الا أن الجاحظ أدخل فيه كل جانب من جوانب العمل الادبي، فجاوز أمورا نحن اليوم أكثر التفاتا اليها.

وأفادت مشاهدات بعض المستشرقين، بأن الشعر قد يزدهر في مناطق ذات صيغ حضارية محدودة أو بيئات ذات معطيات جغرافية حادة مثل بقاع الاسكيمو بدو الجليد. لذلك تكون نظرة ابن قتيبة أوسع من نظرة ابن سلام في طبقات فحول الشعراء عندما قرر بأن أقواما من العرب لم يعرفوا بالشعر ولا اشتهر بينهم، لانهم لم تكن بينهم «نائرة»، أي فتن ومشاحنات وحروب وثارات تهيج الحماسات والمشاعر. فاذا صح مثل هذا الاستنتاج فهو يشير الى انعدام ضرب من الشعر محصور في هذا المجال من النشاط الذهني، أما المجالات الاخرى التي يقال فيها الشعر أو يكتب، فالمناخ يبقى مفتوحا لها.

اذن كان القصد مما افترضته هو أن أعيد الى الموهبة الشعرية اعتبارها المهدد من قبل من يرى للزمان او المكان أو الجنس فضلا على الموهبة، فكان في توجيهه الغاء لدور الانسان ومكوناته، وعلى وجه التحديد، الانسان العربي، وبذلك أخفقت ازهى الحدائق وأغنى الرياض والبساتين في أن تجعل عصافير الدوحة أجمل غناء من تغريد العنادل، كما لم تمنع الفلوات والقفار أسراب الحمام أن تسجع بأعذب الالحان في العودة الى الاهل والحنين الى الاوطان. لان الموهبة خلقت في أعماقها. ان انتفاء الشاعر عن وطنه يخلق منه حمامة مسجعة وان عودته اليه تجعل منه عندليبا مغردا، فهو في الحالتين شاعر، لكن موضوع فنه يأخذ أبعادا تناسب حالاته، وهي «حالات» تتحكم فيها مختلف الضغوط. فاختناق الموهبة الشعرية ليس في داخل البيئات الجغرافية المتغيرة وانما يشعر الاديب بالاختناق اذا تغيرت البيئة الثقافية فجأة بعد استقرار، وقد تكون المتغيرات قاتلة، فقد خمد صوت الشاعر الجاهلي تميم بن مقبل، وجعل شعره موقوفا

على بكاء الجاهلية في الاسلام عند شعوره بالغربة الروحية بعد انتهاء مجده الدنيوي في عهد الوثنية، فهو يذكر «تلبيات الوثنيين في الحج قبل الاسلام، وزيارات بنى عك وحمير وغيرهما للاوثان قبل أن يحل بالدير «قطا الاجباب» يرمز بها للمسلمين، وهى قطا تحط على حافا تالابار المعشبة، فتنهش العشب وتسبب في ثلم حواشيها :

ومالي لا أبكي الديار وأهلها ... وقد زارها زاور عك وحميرا
أتاها قطا الاجباب من كل جانب ... فنقر في اطرافها ثم طيرا

وزاد من عذابه حين فرق الاسلام بينه وبين امرأة ابيه التى تزوجها على عادة أهل الجاهلية، اد يتزوج امرأة الاب أكبر ولده بعد وفاته. وأعقبت ابن مقبل اصوات شعرية متعددة خمدت بعد أن استسلمت جدران مكة وانهارت تلاعها الراسخة أمام استبسال العرب الموحدين، فلاذ شعراء عديدون بالفرار حتى هلكوا ولم يحسس لهم على أثر (16).

وبهذا، تصبح جميع موجودات البيئة، خامات أولية في مكونات الثقافة، أما الموهبة والسليقة والبديهة ، وكل ما تمنحه يد الخالق للمخلوق فهي الهام للنفس البشرية خارج حدود ارادتها، يؤكد ذلك قوله تعالى (17) : «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها» أما الجبال والبوادي والبراري والمدن والحيوان من ناقة وفرس وجمل، فانها تتحول الى اشارات ورموز ذات دلالات، يستنشق منها الشاعر ملء رئتيه ثم يتمثله في دمه ويمرره عبر قنوات حسه المرهف ووجدانه النابض وخياله الواسع. وان النظر في العوالم الشعرية يكون في درجة من البعد واختراق السجف بحيث يتجاوز الباحث حدود العالم الواقعى الملتصق بالشاعر، والذي يتناول منه الشاعر خاماته وأوليات عمله ليحقق العالم الشعري المنشود، كما يصنع علماء

---

(16) البحتر ص 325 وديوانه ص 12 وكان العرب يسمون الرجل الذى يخلف أباه على امرأته : الضيزن. قال أوس بن حجر :

والفارسية فيكم غير منكرة ... نكاحكم لابيه ضيزن سلف

فهى شعيرة مجوسية. وأورد ابن حبيب اسم زوجة أبيه من قول ابن مقبل نفسه، وكانت تدعى دهماء :

هل عاشق نال من دهماء حاجته ... فى الجاهلية قبل الدين مرجوم

وذكر مثلا آخر لمنظور بن سيار الفزارى الذى تزوج امرأة أبيه مليكة وقال فيها :

ألا لا أبالى اليوم ما صنع الدهر ... وقد ذهبت منى مليكة والخمر

(17) سورة الشمس 47/11.

الفضاء اليوم، وهم يجمعون من باطن الارض وظاهرها مواد مركبتهم الفضائية لتنطلق عبر الاثير الى عوالم جديدة. فالشاعر القديم صانع قدير، فمن هذه المواد الاولية التي يعمل على تجميعها وتصنيفها تخرج من بين يديه صورة وفكرة وحياة .. وها هنا موضع الاعجاز في الشعر الجاهلي اذ تصبح الناقة والجمل والفرس وحجارة الطلل وخيمة القبيلة ودرعها وسيفها ورمحها وكل جرم صغير أو كبير من اجرام السماء والارض، حياة وثقافة وفكرة تعبر عن هموم الانسان في الميلاد والموت والخلود والفناء. فلو لم تكن هذه الخامات هي «الحيثيات» التي متها يشيد الشاعر قصوره وقلاعه وأسوار مدنه الكبيرة، فمن أين يأتي بالمواد الاولية المطلوبة. وهذا هو عين الالتزام الذي ننادي به اليوم، وهو أيضا الاعجاز الذي نفتخر به. ألم نقل عن القرآن الكريم، ان من وجوه اعجازه نزوله بلغة العرب ومن عين معانيهم واخيلتهم ومكونات ثقافتهم وتاريخهم وما يحيط بهم، ثم تحداهم أن يأتوا بمثله ، فوقفوا مندهشين الى اليوم، وهم من هم لغة وبلاغة وبيانا، وقفوا تتوزعهم عوامل الضعف والهوان تجاه هذا الكلام الجليل المعجز، ولو فتشت في أوليات مواده لوجدتها حديثا عن حياتهم وحياة حيوانهم : بقرة أو ناقة أو فرس، ونباتهم وأرضهم وتاريخهم وقصصهم وأساطيرهم، وكانوا يعرفونها ويسمعون عنها من أبائهم، ثم في الشرائع الاسلامية الجديدة التي هي قلب الدين الجديد وسر عظمته وسيرورته .

والشعر الجاهلي يتناول بلغته وموسيقاه هذه الخامات، وكذلك شرائعه الوثنية وشعائره الرمزية وطقوسه الاحتفالية في المروءة والكرم والشجاعة والخمرة والثأر . ومن هنا ظهرت نظرية البلاغيين والباحثين الاسلاميين في الاساليب والافكار السهلة الممتنعة. فجميع ما في العالم الخارجي من مظاهر الكون والطبيعة والجماد والبشر في امتزاج غريب مع الابعاد الزمنية الثلاثة والمكان وثقافة الامة، يتكامل في العقل البناء المثالي للشعر، وتتوفر في اليد المحصلة العملية له.

ومما يلاحظ على الشعر الجاهلي شدة التصاقه بمظاهر الكون والطبيعة. وبالجماد أيضا. أما الطبيعة، فمنها المتحرك ومنها الساكن الصامت. وأقرب

---

(18) يراجع كتاب تايلور للدكتور احمد ابو زيد (دار المعارف 1958).

مظاهر الحياة اليه هو الحيوان : الناقة والجمل والفرس والكلب والظبية والطير وحيوان الوحش. ومنها مخلوقات أسطورية كالسعلاة والغول وعنقاء مغرب، ومنها أثيرية كالارواح والجن والشياطين. أما الجماد فتكاد كل ظاهرة طبيعيه أو كونية تجد لها موضعا في الشعر الجاهلي. ففي الطبيعة مسايل المياه ومجاريها ومساقطها والنهران والبحار والوديان والجبال والسهول والهضاب والرمال والحصى والحجارة، حتى الحجارة المنصوبة في اعماق الصحاري (الصوى) وبقايا الطلول وآثار المدن الراحلة. وفي الكون تتجلى الرؤية العينية له عن طريق البصر، فاذا توقفت حدود الرؤية البصرية بدأت الرؤية الشعرية للكون . وقد يستعين الشاعر بالرؤية الدينية الوثنية كالتعبير بالبلية، وهي ناقة ترافق الميت في رحلته الطويلة الى العالم الثاني البعيد بعد أن يبعث ويتفض التراب عن أكفانه.

قال جريبة بن أشيم الفقعسي (19) :

يا سعد اما أهلكن فانني ... أوصيك ان أخا الوصاة الاقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلا ... في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح ... وتق الخطيئة ان ذلك أصوب
ولعل لي مما جمعت مطيه ... في الهار اركبها اذا قيل اركبوا

والهار : الحشر . وقد ورد في البلية شعر كثير، قال أبو زبيد الطائي يصف نسوة مسلبات في مأتم فشبههن بالبلايا :

كالبلايا رؤوسها في الولايا ... ما نحات السموم حر الخدود

وقد تكون الرؤية دينية لكن غير وثنية كما صورها أمية بن أبي الصلت في النشاط الكوني وحركة النور والظلمة، ويأتي السؤال : لماذا هذا الاندماج والامتزاج ؟ انه العالم القديم يتعاون كله من أجل الوصول الى اكتشاف السر في حقيقته الغامضة انه يبحث عن نفسه الغائبة، وهو يبحث عنها في كل زاوية من زوايا الحياة والطبيعة والكون. فالمدن التاريخية والحصون الاثرية مثلا والتي وردت في الشعر عكست ثقافة الاديب العربي قبل الاسلام وصورت الجوانب العمرانية العربية التي اصبحت بالنسبة للشاعر الجاهلي نفسه تراثا يستخدمه الشاعر بما

(19) المحبر ص 325.

يملك من مقومات الذكاء والقدرة التعبيرية على الايحاء من خلال قصص التاريخ والعمران (20) فضلا عن كثير من النصوص التى ابرزت الشاعر العربى قبل الاسلام مناضلا ومثقفا في قضاياه المصيرية، طموحا نحو وحدة العرب التى وجدت طموحها الحقيقى في مسيرة العرب الاسلامية (21)، ثم ثقافة الشاعر العريقة بصلات امته الحضارية بالعالم القديم وبروزها في شعره (22)

والانسان بابعاده العميقة أعز منابع الالهام الفنى لدى الاديب والشاعر والفنان وبالنسبة للعربى القديم، كان الانسان، منفردا ومجتمعا، رجلا وامرأة، أشد مصادر الالهام والثقافة التصاقا بالاديب والشاعر والفنان، حتى الطفولة بوجوهها المتغيرة وتنوعها بين طفولة الانسان وطفولة الحيوان، كل هؤلاء يلهمونه في انتصاراته كما يلهمونه في هزائمه وكذلك في حبه وعشقه. وكان الانسان يحرك لواعج الشاعر في الغربة والحنين الى الاوطان. واذا اجملت معانى الالهام الانسانى (البشري) للشعراء والادباء والفنانين القدماء العرب، فان الحب أنبل هذه المنابع بما يحمله من معان متعددة وصور متنوعة ومدلولات متباينة. وتفسر ظاهرة الحب بحسب منطلقاتها، لكنها، مع ذلك ، تبقى مصدر الهام عنيف للعملية الفنية.

وكما الهمت (الحبيبة) شاعرها، الهم (الفارس) معجبيه وعشاق نموذجه الفذ، وألهم (الامير) ممدوحيه وطلاب رفده وعطائه و (الشيخ) مريديه وطلاب علمه . وبوجه عام تعد الانسانية اروع لوحة موحية للالهام الفنى في تاريخ الثقافة العربية الاولى.

وان ما يتصل بالتاريخ الغيبى للامة، فان الشاعر يتناول نقطة صغيرة يكثفها في صورة رمز موح خاطف من تاريخ البشر الذين سكنوا

---

(20) مجلة كلية الاداب — جامعة بغداد — عدد خاص بتكريم الاستاذ طه باقر 1978 مقالة (بعنوان : المدن التاريخية والحصون الاثرية فى الشعر قبل الاسلام) للدكتور عادل البياتى .

(21) مجلة الجامعة — اصدار جامعة الموصل — العدد الرابع لسنة 1979 مقالة بعنوان : نضال الوحدة وأثره فى الشعر قبل الاسلام ص 10 للدكتور عادل البياتى.

(22) مجلة كلية الاداب — جامعة بغداد العدد 24 سنة 79 مقالة بعنوان : صلات العرب الحضارية وأثرها فى الشعر قبل الاسلام للدكتور عادل البياتى.

بلاد العرب» .. وجودهم الروحي داخل شبه الجزيرة، وتحركهم في ارجائها، وتعاطيهم وتعاملهم معها ومع انفسهم، وانقسامهم وانقسام شعبهم وقبائلهم ثم حروبهم وعباداتهم، واندثار أمة منهم وظهور أخرى، وارتقاؤهم في الحضارة، وهبوطهم في سلم الحياة على اثر نكسة أو انهيار أو دمار. وهذه اخبار اصطلح المؤرخون الاوائل على تسميتها بقصص العرب البائدة، وما بقي من الشعر يعطي الماما بسيطا بها وبشخوصها ومواقعها أو اسماء الوقعات والاماكن. ولا يعدم الشاعر فكرة ينتزعها أو موعظة تتردد في ثنايا الاسطورة، لكنها في واقعها ذات طابع ديني جديد لانها مكتوبة بمؤثرات اسلامية، وانها افتقدت الاصل الوضعي أي اللغوي، ثم انحلت في أسلوب القصاصين ومصنفي الكتب في العصور الوسطى حيث لم ترد عن العلماء الاوائل الا اشارات واهية حولها، على عكس قصص «أيام العرب» المروية بلغة علمائها ورواتها الاوائل الذين امتدت أسانيدهم الى ما قبل الاسلام. ومع ذلك، أصاب الايام التحريف والتغيير في لغتها ومحتواها، وهي مسألة طبيعية ، حيث يصيب التغيير كل مظاهر الحياة الانسانية لتناسب شكل الحياة الجديدة. وحتى الاعمال الفصيحة (المثقفة) تتطور (أي تنتقل من طور الى طور) وتتغير الى مأثورات شعبية بسبب ما تتعرض له الامة من عوامل القهر والقسر والسلب. وقد جرى مثل ذلك على الآداب الاجنبية فتعرضت روايات شكسبير أو حياة جان دارك للتغيير عندما أخذت بعدا شعبيا. وان سيرة عنترة، وهي وثنية لا جدال، سحبت عليها غلالة زاهية من الافكار الاسلامية مع ما يكتنفها من اضافات شعوبية متأخرة.

واستطاع الشاعر الجاهلي ان يعكس لنا من معطيات هذه الاساطير اشكالا ملحمية مفقودة كالذي فعله الاعشى في قصة زرقاء اليمامة وقصة وفاء السموأل أو ما حاوله الحطيئة في قصة الكرم وما تعمقتها من التحدرات الدينية القديمة اشعيرة الكرم الوثنية قبل أن تأخذ وجهها الاسلامي الجديد، أو ما فعله النابغة الذبياني وهو يسترجع المأثور (الفلكلور) في حكاية الراعي والافعى (23) لكن الشكل الفني المتطور، وهو الوجه الشعري الاصيل ، قد سقط وبقي الجذر الاسطوري، خلاف

(23) تراجع القصيدة في ديوانه.

ما في أيدينا من الملاحم العربية القديمة (السامية) التي ضاعت كعوبها الاسطورية وبقيت اهراماتها الملحمية الشعرية.

وقد التفت الباحث الاستاذ صمويل هنري هوك في كتابه : «الاساطير في بلاد ما بين النهرين» (24) الى هذه الظاهرة، فأخذ يصنف الاعمال الشعرية تصنيفا علميا باجراء عملية فرز دقيقة لها، فرد الاصول الملحمية الشعرية الى جذورها الاسطورية العراقية (السومرية) ناظرا في ألواح الملاحم والاساطير الاولى، مما ظهر لي فيما بعد أن هذه الجذور الاسطورية هي طقوس دينية تحولت الى اصول ملحمية كانت في عصرها موسمية احتفالية. واذن فقد اندثرت اساطير العرب الاولى، وغاب عنها وجهها الملحمي أيضا، ولم يحفظ المأثور الشعبي (الفلكلور) الا بقايا أو جذور القصة، وهو اصلها الاسطوري، وضاع وجهها الشعري المنشود. ولا نعرف الاسباب المختفية وراء هذا الفقدان، وان كنا نقرر، وليس ظنا أو تخمينا، انها الكتابة ومن ثم الاسلام. فانعدام التدوين أو ندرته وراء اختفاء المدونات، فلو كانت كثيرة لوصل، ولو جزء يسير منها. وما ذكره ابن سلام في طبقات الفحول من انشغال المسلمين بالجهاد وبمدارسة القرآن والحديث والسنة وما يشاع من منع مقاطع واقسام من الشعر الوثني، وما استنتجته دراسات المستشرقين وبوجه خاص، البروفسور ريجيس بلاشير، من تحرج رواية الشعر الوثني ، هي عوامل فاعلة بقوة في اختفاء المرويات .

لقد نفذت على الآداب العربية القديمة، وبالاخص الشعر ، عملية تصفية أو فرز قاسية جدا، يلاحظ آثارها في مطالع الدعوة الاسلامية وفي كتاب ابن سلام المذكور، وكتاب ابن قتيبة (الشعر والشعراء) وكتابات الجاحظ وغيرهم، يضاف اليها اصلاحات لغوية وعروضية ومعنوية شملت المتون، تبدو آثارها في كتاب الحماسة لابي تمام وفي روايات العلماء الرواة وفق منهجهم الجديد للشعر وأعاريضه.

وهكذا لم يبق لدينا من مكونات الثقافة البدائية الا ترجمات رديئة جدا من لغات عربية قديمة في عهود وثنية الى لهجات شعبية في عصور اسلامية. وكان اجدادنا الاتدمون اسعد حظا منا في وقوفهم على الاساطير

---

(24) الاساطير في بلاد ما بين النهرين ص 6، 28 — طبع وزارة الثقافة — بغداد 1968

السومريـة، أصول ملاحمهم، ثم خلود ادبهم الى يومنا هذا. أما أجدادنا العرب قبيل الاسلام، وحتى بعده، فقد ضيعنا ملاحمهم الاولى، وكذلك الاخيرة، وضيعنا معها اساطيرها، وظلت تتردد في الشعر الجاهلي مهزوزة الصورة وغامضة، وتلوح من خلال كلمات الشاعر كأنها أصداء في داخل ذهنه، كالذي يعيه عن عاد وثمود وطسم وجديس. وبالمناسبة فان قصة طسم وجديس أو (يوم اليمامة)تكاد الواحها تكون شبيه متكاملة لدينا، وتبدأ بنفس الحديث الذي تبدأ به ملحمة كلكامش. وبالامكان وضع جدول مقارنات لتوضيح الدورة الملحمية Cycles الثانية لهذه الملاحم العربية، مع التنبيه الى أن «يوم اليمامة» يكاد يعد مفقودا بالقياس الى ملحمة كلكامش، اذ ليس لدينا منه سوى شذرات في بطون الكتب وفي المخطوطات (25) .

ولا أريد أن أطيل فأتحدث عن كل منابع الثقافة التاريخية في الشعر قبل الاسلام وارتباطها جميعا بآدابنا العربية القديمة (السامية)، فهذا ما لا يتسع الموضع له هنا، لكنني المح تلميحا سريعا الى ما ذكره هيرودتس مثلا في تاريخه عن ثورة حدثت في بابل، تشبه تفصيلاتها قصة الزباء المذكورة وانتقام الوزير «قصير» الذي جدع أنفه ودخل المدينة بجيش أخفاه في جواليق على ظهور الابل، موهما انها تجارة، فاحتل المدينة (تدمر) ، مما يعد ربطا لهذه القصة بقصة بابل القديمة التي تسبق قصة (حصان طروادة) بزمن غير يسير. فليست قصة «الجواليق» متأثرة بحصان طروادة . بل بما سبق .

وأما الظاهرة الثانية البارزة في المكونات البدائية للشعر الجاهلي، فهي تنبعث من عبادة هذه الرموز المتجلية في الشعائر الوثنية المتمثلة في المروءة والكرم والوفاء والشجاعة ونصرة الجار والحليف والضعيف والعفو عند الظفر والمقدرة واتلاف المال في النحر والعقر والعتر والخمر، وما يترتب على كل شعيرة من هذه الشعائر التي انتهت الى الشاعر العربي قبل الاسلام رموزا دخلت شعره معنى ساميا رفع به قوما وحط آخرين . وفي امكان البحث العلمي الحديث أن يجمع بدقة

---

(25) المنابع الثقافية الاولى – مجلة الكتاب – العدد 4 لسنة 1985 بغداد.

كل هذه المظاهر ويعيد بناءها متصلة ببعضها، فيكون بذلك قد اعطى الصورة الكاملة للبناء الاجتماعي ومنطلقاته العقائدية قبل الاسلام، بالاستعانة التامة بالفكر الاسلامي الجديد وفق مقارنات علمية ثابتة بين العقيدتين. ولم أقف الى الآن على أي وجود مادي لهذه الشعائر، ولا عثرت لها على أثر صريح في النقوش والكتابات والمخربشات القديمة، ولا استطعت أن أقف على أصنام تعزى اليها، ولست مبتئسا من هذا ولا بائسا لان آفاق العلم تنفرج كل يوم عن جديد يحمل البشرى لارباب الدراسات الجديدة، لكن طائفة كبيرة من اصنام القبائل والجماعات وما يرافقها من الطقوس والتلبيات الشعرية تعكس بوضوح ارتباط الجانب الديني العقائدي بالشعر (26). على أن الموضوعة الدينية في قائمة الثقافات القديمة العديدة للشاعر تعد اشمل هذه الموضوعات الداخلة في اطار المنابع الالهامية . فمن الضروري التنبيه الى طبيعة فاعليتها في تحريك الالهام الثقافي ضمن العملية الفنية، وذلك لتوزع الهاجس الديني في ضمير الفرد العربي قبيل الاسلام بين توازع وثنية واضحة، وبين احساسات توحيدية غامضة. فكان العربي القديم وثنيا وموحدا في آن معا، تشده الى واقعه طائفة من موروثات العقائد المتروكة في الارض العربية عن تحدرات توحيدية مغلوبة، غطت عليها معتقدات وافدة من ديانات وثنية غالبة أو منتصرة، تتمثل في هذا الصراع الخفي بين الوثني ونفسه، بما غلب عليه من ثقافة طارئة وما ورث من بقايا (الحنيفية) المطموسة، فكان ما استقر في أعماقه وما استقبل من رياح الثقافات الدينية الوافدة قد مازج وجدانه الديني واحساسه العقائدي، وانعكس في صورة من صور التعبير الفني لدى الاديب أو الشاعر، حيث تأخذ الظاهرة شكل عبادة رمزية تتجلى في شعائر وثنية ظاهرا توحيدية باطنا، تتمثل في المروءة والكرم وما ذكرناه قبل قليل من هذه الشعائر، أو ما يترتب على كل شعيرة من هذه الشعائر التي انتهت الى الشاعر العربي في موضوعة اجتماعية متوارثة يستخدمها في صيغة من صيغ المديح أو الهجاء وفي مثل هذا التوجيه يمكن أن تدرس حالة

---

(26) المحبر ص 369.

الشاعـر طرفة بن العبد وفلسفته الغامضـة في اتلاف النفس والمال معا، النفـس في الحرب ، والمـال في الكـرم والخمـرة (27).

الا ايهـذا اللائمى احضرِ الوغـى	وان أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى	فدعنى أبادرها بما ملكـت يـدي
أرى قبـر نحام بخيـل بمـالـه	كقبـر غوي في البطالـة مفسـد
أرى الموت يعتـام الكرام ويصطفى	عقيلة مـال الفاحش المتشـدد

ويأخذ الصراع الدينى شكله الواضح في الشعر، وبوجه خاص شكـل التمـرد على الآلهة المنتصرة كما فعل كليب بن ربيعة حين أزاح عنه آلهـة العرب الجنوبيين متخذا لنفسه حمى يحمى فيه الـه قبيلته (وائل) حتى كان اليوم الذي أقبلـت فيه امـرأة يمانية استحلت حرمة الحمى الالاهـي بأن أرسلت ناقتها فتسببت في اهانـة الـه كليب حين داست على بيضات حمامـة آمنة لاذت بالحمـى، والحمامـة حتى اليوم مقدسة في هذه الاماكن فاعتبـر كليـب عمل البسوس عملا ثأريا لالـه اليمن المغلوب، فثارت حرب محلية بسببها (28). ومثل ذلك أيضا وقع لبنى عطفـان حين تمردوا على آلهـة مكة، فاضطر ظالم بن سعد بن غطفان بن قيس بن عيلان أن يخرج بالهـة الغطفانيين (العزى) من الحرم المكى وان يستقـل بها في حرم غطفانى يقال له (البس) ويعنى البيت، شيده بأرض يقال لها (حراض) فاندلعت الحرب بسببه، فقتل طالم بن سعد في هذا اليـوم، وهدم الحرم الغطفانى على يـد زهير بن جناب الكلبى، وبقى الحارث بن ظالم المري ابنه ينتظر اليوم الذي يستعيد فيه مجـد أبيه، فلم يستطع الا بالعـودة الى احضـان المكيين انفسهم، واتخـاذ آلهتهم آلهة لقبيلته، لذلك كان عمر بن الخطاب يقول : «لو كنت مدعيـا احـدا من العـرب لادعيت بنى مـرة» أي قبيلـة الحارث الغطفانية لنسب قديم بين القريشيين وبين المريين، يذكره الـرواة

(27) الابيات ضمن معلقة طرفة بن العبد. تراجع المعلقات السبع للزوزنى، والعشر للتبريزى.

(28) تراجع أيام العرب لجـاد المولى وجماعته.

والنسابون في كتبهم، وهذا النسب هو ما ذكرناه، قال الحارث يمدح بنى لؤى بن غالب حين دخل مكة لائذا بحرمها وآلهتها (29) :

لعمرك انني لاحب كعبا ... وسامة اخوتى ، حبي الشرابا
فما غطفان لي بأب ولكن ... لؤي والدي قولا صوابا
فلما ان رأيت بني لؤي ... عرفت الود والنسب القرابا
رفعت الرمح اذ قالوا قريش ... وشبهت الشمائل والقبابا
صحبت شظية منهم ينجد ... تكون لمن يحاربهم عذابا
وحش رواحة القرشي رحلي ... بناقته ولم ينظر ثوابا
كأن السيف والانساع منها ... وميثرتى كسين أقب جابا
فيا لله لم اكسب أثاما ... ولم اهتك لذى رحم حجابا

والقصيدة طويلة (30)، ويلاحظ النفس الدينى المتأثر بالمؤثرات المكية واضحا فيها، وذلك كله يعد من صميم المنابع الالهامية والثقافية الشعرية الاولى.

هذه إلمامة سريعة بمنابع الالهام الشعرية وقصص الايام والاخبار، وهى بحاجة الى دراسة مستفيضة.

---

(29) يراجع : الحارث بن ظالم المرى لعادل البياتى مجلة كلية الاداب — بغداد — العدد 15 ومجلة الابحاث — اصدار الجامعة الامريكية فى بيروت السنة 26 عام 1973 — 1977 مقالة بعنوان : نصان جديدان عن الدين فى الجاهلية ص 27 للدكتور احسان عباس.

(30) يمكن مراجعتها فى هذا الكتاب ضمن دراستنا عن الحارث بن ظالم.

أهم المصادر والمراجع حسب تسلسل ورودها في البحث

1 ـ مجلة الكتاب ـ اصدار اتحاد الكتاب والمؤلفين العراقيين ـ العدد الرابع لسنة 1975 .

2 ـ معجم ما استعجم للبكري ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر 1945 ويلاحظ علاقة اسم قسي بالنبات أيضا.

Webstet's New World Dictionary By David B. Guralnik New York

4 ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ المعارف بمصر 1966 .

5 ـ غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بالامالي للشريف المرتضى. ت : أبو الفضل ابراهيم ـ مصر 1945.

6 ـ مدخل الى الادب الجاهلي ـ احسان سركيس ـ دار الطليعة بيروت 1979

7 ـ جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي ـ طبعة أولى.

8 ـ ملحمة كلكامش ـ الاستاذ طه باقر ـ طبعة رابعة ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ بغداد 1980.

9 ـ لسان العرب لابن منظور ـ طبعة بيروت.

10 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر 1948.

11 ـ المفضليات ـ المضبي ـ تحقيق الشيخ احمد شاكر والاستاذ عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ طبعة رابعة.

12 ـ تاريخ الادب العربي قبل الاسلام ـ الدكتور نوري حمودي القيسي والدكتور عادل البياتي والدكتور مصطفى عبد اللطيف ـ وزارة التعليم العالي العراقية 1979 .

13 ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام ـ تحقيق الاستاذ أحمد محمد شاكر مصر ـ مطبعة المدني 1974 .

14 ـ المحبر ـ لابن حبيب تحقيق الدكتورة ايلزة ليختن اشتيتر ـ طبع دار المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند.

15 ـ مجلة كلية الآداب بغداد ـ عدد خاص بتكريم الاستاذ طه باقر والعدد 15 ، 24.

16 ـ مجلة الجامعة ـ اصدار جامعة الموصل ـ العدد 4 لسنة 1979.
17 ـ الاساطير في بلاد ما بين النهرين للاستاذ صمويل هنري هوك ـ نشر وزارة الثقافة ـ بغداد 1968 .
18 ـ مجلة الابحاث ـ اصدار الجامعة الاميركية في بيروت العدد 26 لسنة 1973 ـ 1977 .
19 ـ طائفة من الدواوين والكتب تذكر عرضا في متن البحث أو هوامشه.

امـــرؤ القيـــس والقيصـــر

«نشر في مجلـة الجامعـة ـ جامعة الموصل
العراق ـ العدد 1 لسنة 1980

احتلت شخصية امرىء القيس بن حجر الكندي، التاريخية والشعرية معا، مكانها الناصع بين آداب العصر الحديث ، منذ وقت مبكر جدا، فعلى صعيد التحقيق ونشـر النصوص، يمكن الاشـارة الى أقـدم نشرة طباعية أوربية لديوانه ظهرت في الغرب. قام بذلـك البارون دي سلان De Slan بعنـوان : «ديوان امرىء القيس» أخرجته المطابع الفرنسية سنة 1837 ميلاديـة ، أعقبتها نشرة الشاعـر الالمانى فريدرش ركـرت Fr. Rucckert. بعنوان : «الشاعر الملك» اخرجته المطابع الالمانية في عام 1843 ميلادية.. ثـم توالت النشرات، فكانت أبرزهن نشرة وليم اهلورد W. Lhlwardt. لدواوين الشعراء الستة الجاهليين بينهم شاعرنا امـرؤ القيس طبعـت بلنـدن سنة 1820 م، هذا عدا الشـروح المختلفـة لشعره والدراسـات العديدة حولـه (1). ولعل أبـرز هذه الدراسات الادبية ما قدمه شـارل بروكلمان في كتابه المعـروف : تاريخ الادب العربي وريجيس بلاشير في كتابه تاريخ الادب العربى الـذي يمتـد حتى نهاية النصـف الاول مـن القـرن الهجري الاول. أي أنه ادخل من صدر الاسلام خمسين عاما ضمن مرحلة العصر الجاهلى. ثم هناك دراسة فون غرنباوم ورينولد نيكلسون، تضمنت أحكاما في الشعر وفحصا للقصائـد وتطرقت الى امرىء القيس في أكثـر من موضع، وكلها دراسات مترجمة الى العربية. لكن ابـرز الدراسات المحققة علميا باعتمـاد المصادر العربية والسريانية والاغريقية. تلـك الدراسة التاريخية القيمة التى قدمها جونار اولنـدر Gunnar Olinder

---

(1) ينظر بروكلمـان 97/1 ـ 101.

تحت عنوان : «امـرؤ القيس» احتلت الفصل الثامن من كتابه المعـروف : ملـوك كندة من بنـي اكل المرار الذي ترجمته الى الانجليزية زوجتـه فيـرا أو لنـدر ونشرته جامعـة لندن على نفقتها عام 1927 م والى العربية الدكتور عبد الجبـار المطلبي ونشرته جامعـة بغداد على نفقتها في عـام 1393 هـ ـ 1973 م.

وكانت أشعار امريء القيس وسيرته قـد عرفت الطريق الى الغـرب في العصور الوسطى على يـد العلمـاء العرب الاندلسيين امثـال الاعلم الشنتمري أبى الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى 476 هـ الذي أورد في اختياراته شعر امرىء القيـس، وابـن السيد البطليوسى 521 هـ وهـو الوزيـر أبو بكـر عاصم بن ايـوب المعروف بشرحه لديوان امرىء القيس عـدا كتبا أخـرى (2). وعرفت العصور الوسطى الاوربية شخصية امرىء القيس من كتابـات ابن عبد ربـه 328 هـ في العقـد الفريد وكتابات ابـن رشيـق القيروانـي في العمـدة (390 ـ 456 هـ).

أمـا الغرب القديم فقد دخل هذا الشاعـر القارة الاوربيـة أميـرا وشاعـرا في وقت واحـد ، وساهم الغرب في نسج خيوطه الكبيرة التـي امتـدت من اعماق بـلاد العـرب. حيث كتب حروفها الاولى فـوق حبات الرمل النقية وأتـم سطورها في قلـب العاصمـة الرومانيـة. وأنهـى المأساة نهايـة دمويـة فوق مرتفعـات الاناضـول الشامخـة .

واذا خيل لاحد أن يعجب من أمـر، فليعجب من وصول امريء القيس الـى (جوستيان) (يوسطيانس) قيصر روما. وليعجب أيضا لامر أكثر منه غرابـة . لكن وقائع التاريخ تؤيـده وتقره، ذلك هو قيام الـروم البيزنطيين بتتويج أحد رجال العرب قيصرا عليهم حيث تبوأ العرش الرومانى باسم

---

(2) نشر شرح الاعلم عدة نشرات . وهو الذى اعتمده دى سلان فى نشره للديوان بعنـوان : «نزهة ذوى الكيس وتحفة الادبـاء فى قصـائد امرىء القيـس ـ أشعـر الشعراء (باريس 1837) واذا شئنـا الدقـة فـان أول نشرة مطبوعة لديوان امرىء القيـس طبعت موسومة بمختـار شعر امرىء القيس ـ باريس 1836 وبأوله ترجمتـه وأخبـاره ـ وفى بمبى 1313 هـ. أمـا شرح الوزيـر أبى بكر عـاصم بـن أيـوب ابطليوسى فقـد نشرته وزارة الثقـافة والفنون ببغداد فى 1979 (الجزء الاول) بعناية الاسـتـاذ ناصيف عـواد وتحت عنـوان شرح الاشعار الستة الجاهلية . أولها ديوان امرىء القيـس .

فيلبوس العربى 244 ـ 249 ميلادية وذلك في أثناء احتفاء الرومان بالذكرى الالفية لتأسيس روما (3).

وأخبار استعانة الملوك والقادة العرب بسواهم من رجال الامبراطوريات القديمة وجيوشها ليست غريبة في التاريخ . فقد استعان سيف بن ذي يزن بكسرى لما تفاقم أمر الاحباش في الجنوب العربى (4) والتجأ عثمان بن الحويرث الى قيصر روما ليعينه بجيش يضرب به وثنيى مكة ويعيد الحنفية التوحيدية . دين ابراهيم الخليل الى سابق عهدها . فلما جهز له قيصر ما أراد ، عدل عثمان بن الحويرث عن غزو بلاده وأرضه العربية بجيوش رومانية. تحتلها وتقيم فيها متخذا من تورط سيف بن ذي يزن مع الفرس واستبداله سيدا بسيد درسا بليغا. مما أغضب القيصر فعزم على تصفيته جسديا ، فدبر له قتلة تشبه قتلة امرىء القيس بالحلة المسمومة (5). مما لفت انتباه بعض الباحثين الاوربيين الى هذه الظاهرة التى تشبه الى حد كبير قصة القتل بالحلة في أسطورة نيسوس Nessus المعروفة (6) أو على حد تعبير بروكلمان. الموت محترقا لانه لبس حلة مسمومة كما حصل لهرقل الفحل اليونانى (7). وفي اعتقادي أن عثمان بن الحويرث أبى أن يغزو أرضه العربية بجيوش اجنبية أولا. ثم انه كان من الاحناف وقد حاول القيصر أن يستغله لصالح المسيحية فأبى فكان مصيره الموت قتلا بالقميص الحارق أو السام، مما يدل على أن هذا الاسلوب في تصفية الخصوم جسديا، كان سائعا يومئذ لدى حكام الغرب. ويضاف الى جميع ما تقدم ان خبر الرحلة الى قيصر لم يكن صدفة ولا اعتباطا بعد أن اجتمعت كل هذه المدلولات عليه. فلو لم يكن له أساس من الواقع لم يرو متواترا بهذه الصيغة القوية . وسوف تظهر الدراسة صحة هذه الفرضية المدعمة بعدد وافر من قصائد الديوان

---

(3) تراجع مقالة «صلة الجاهلية بالعالم القديم» للاستاذ فؤاد الخطيب. مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ـ المجلد 37 ص 394.

4 ـ تراجع أخباره فى مقالة بعنوان : الموثبات فى الادب العربى، مجلة الموقف الادبى ـ عدد خاص (يضم بحوث العددين 104 ـ 105) لسنة 1980/74 . وهى فى الجزء الاول من هذا الكتاب.

(5) يراجع كتاب السيرة النبوية لابى الفداء 165/1.

(6) بلاشير 86/1.

(7) تاريخ الادب العربى 99/1.

الموثقة. وأكبر ظني أنها كانت ملحمة مترابطة الوشائج يبرز فيها امرؤ القيس بطلا قوميا، الا أن ملحمته لم تتطور الى سيرة شعبية مثل خاله المهلهل بن ربيعة (الزير سالم) ، أو عنترة أو سيف بن ذي يزن . ولم يتيسر لها أن تمتد في التراث العربي الرسمي لاسباب مجهولة .

ان أخبار «الوصول» تدعمها النصوص الشعرية الموثقة. لكن تبقى مقاطع كبيرة غامضة، واجزاء كثيرة مجهولة تحتاج الى ترميم واعادة ترتيب في بناء الملحمة العظيمة . واذا شئنا الواقع، فان فصول الرحلة لا يمكن عزلها في البحث عن فصول الولادة والنشأة الغامضة للبطل ، ولا عن فصول السيرة اللاهية العابثة ، والحياة الحافلة الصاخبة التي يسلكها امرؤ القيس في فتوته وشبابه. ولا عن فصول الثأر والفروسية وملاحم الدم والموت التي خاضها في رجولته وكهولته لدى مقتل والده الملك حجر . ان ملحمة الشاعر الضليل، او (ذي القروح) كما سماها القدماء، ما هي الا تسمية مستمدة من رحلته الى القيصر يؤيد ذلك أنهم أطلقوا مثل هذا اللقب على عمرو بن قميئة، الشاعر الذي رافق امرأ القيس في رحلته. فدعوه باسم : عمرو الضائع، ليقابل لقب امرىء القيس وهما بمعنى واحد. فقد سمي عمرو بالضائع لانه هلك في رحلة غريبا من غير أرب ولا مطلب (8). وكذلك امرؤ القيس الذي هلك في الغربة تائها ضالا لم يهتد الى أهل ولا قوم ولا وطن. وبذلك تكون حياته قد توزعت في أربعة أدوار ، هي الولادة والنشأة الغامضة التي تعرض فيها البطل للموت على يد أبيه يوم عزم والده الملك حجر على قتله للتخلص منه لاسباب بحثت في دراسات أخرى (9)، فسلمه أبوه الى غلام من جنده ليأخذه بعيدا ويذبحه ويأتيه بعينيه برهانا على أنه فعل ذلك. فشق على الغلام أن يفعل أو خاف العاقبة، فأودع الصبي قمة جبل منيف، وعاد الى الملك بعد أن اصطاد جؤذرا وامتلخ عينيه. فلما مثل بين يدي الملك رأى الندامة والحزن في وجهه على ولده. وأما الدور الثاني من حياة الشاعر، فيبدأ بانطلاقة البطل الى

---

(8) الاغاني 39/18 تفيد بعض الروايات انه هلك في العودة وانه حمل جثمان امرىء القيس مع جابر.

(9) تنظر الدراسة في كتاب أيام العرب لابي عبيدة ص 275.

مآربه وغاياته الجسدية مطرحا المجد والتاج جانبا، معبرا عن هذه العبثية الصارخة بأجمل أناشيده الوجدانية الخالدة. ثم أعقب ذلك الدور الثالث ، حيث يرتفع صوت الحرب عاليا، وقعقعة السلاح تصدح بالثار وتهدد بالدمار والموت حتى أن فرسه الموصوفة بشعر المرحلة الثانية بشدة الجري من أجل الصيد والقنص تحولت الى فرس موصوفة بقوة الكر والفر والاقبال والادبار مرهوبة الجانب مقبلة أو مدبرة وكان السيف اداة لعقر النوق المنذورة للصبايا المطيفات بآلهة الدوار في يوم «دارة جلجل» يرتمين بلحو مهن فأصبح أداة لذبح الشجعان يقدمون نذورا بشرية يطفىء بهم الشاعر دم أبيه الملك المقتول قبل أن تتحول روحه الحائرة الهائمة في الافق الى هامة كبيرة تصيح : اسقوني ، اسقوني... فان لم تسق من دماء الضحايا البشرية من الفرسان الحقت الفناء بالقبائل المتقاتلة أربعين عاما. ثم كان الفصل الاخير من هذه الادوار الاربعة هو فصل الرحلة الى خارج الوطن ثم الموت على قمة جبل (عسيب)، وبذلك تكتمل خيوط ملحمة الشاعر الفارس. وفق النموذج المقترح في ميلاد الابطال ونشأتهم وموتهم، وهو النموذج الذي بدأ بحياة كلكامش ملك أوروك ، وسرجون الاكدي منتقلا الى أوديب الملك وهرقل الجبار ليظهر مرة أخرى في حياة امرىء القيس وعنترة كدورة ملحمية متصلة الحلقات بالاداب السومرية والسامية القديمة (10) ولما كان تخطيط هذا البحث قد اقتصر على رسم الخاتمة التراجيدية لحياة هذا الشاعر الكبير، فقد أرجأت التطرق الى الفصول الثلاثة لمناسبة أخرى، حتى تكتمل صورة امرىء القيس، وفق هذا التصور الجديد والدراسة المعاصرة لتراث امتنا العربية الفذ.

لقد وصل امرؤ القيس في نهاية المرحلة الثالثة من سيرة حياته الى درجة الاشباع في القتل والثأر لابيه حتى ملته القبائل وعافته وقالت له : «انك قد أخذت بثأرك لابيك، ولم يبق لك في هذه الدماء البريئة المسفوكة على أرض العرب أي عذر ، وانك بدأت تتمادى في القتل، فأنت مشؤوم» وتركوه.

---

(10) المصدر السابق. والبطل الاسطوري والملحمي مجلة آفاق عربية العدد التاسع لسنة 1976 والطفولة ومشاهدها المتغيرة في الادب والتراث — مجلة آفاق عربية العدد الخامس 1979 وهي جميعا بقلمنا. ونشرت في الجزء الاول من هذا الكتاب.

وكان امرؤ القيس، بعد هجره حياة العبث ودخوله في مرحلة الكفاح والجد قد استيقظت في نفسه آمال المجد الضائع ، وجعل يحلم باستعادة العرش الذي أسسه حجر آكل المرار جده الاول، ويعبر البيتان الاتيان عن هذه الاعماق المنطلقة بوضوح، ولعله قالهما ضمن ما قال في رحلته ولدى سعيه الى استعادة مجده :

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة ... كفانى، ولم أطلب، قليل من المال
ولكننى أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وكان امرؤ القيس قد عرف الحياة السياسية لبلاد العرب يومئذ حق معرفتها فقد كان يطمح الى نصرة أبناء عمته من ملوك الحيرة وامرائها، فلم يفلح لان المناذرة سبق لهم أن دخلوا مع أعمام الشاعر في تجربة مريرة فقد سبق لقباذ الملك الفارسى أن اعتلى العرش، واعتنق المزدكية وسمح لاربابها، أن يتولوا حكم البلاد فامتد تأثيرهم الى الارض العربية فوقف في وجههم الملك العربى المنذر بن ماء السماء فخلعوه، وجاءوا بخصمه الملك الكندي الحارث بن حجر فنصبوه على الحيرة. فالتجأ المنذر الى القبائل العربية فحموه. فلما انتصر كسرى وقتل قباذ. عاد المنذر الى عاصمته وعرشه. وكانت هند بنت حجر زوجة للمنذر فولدت عمرا وقابوس والمنذر الاكبر. فهم ابناء عمة امرىء القيس (11). وكان الفرس يومئذ قوة، فقد غلبوا الروم في كثير من المواقع. حتى كان آخر نصر لهم ابان البعثة النبوية الشريفة ونزلت الآية الكريمة : «ألم غلبت الروم في ادنى الارض. وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين...» (12)، أما ملوك اليمن وصنعاء وأمراء العربية الجنوبية. فقد أعطوا امرأ القيس ما قدروا عليه من الدعم المادي والحربى، ولم تكن لديهم الرغبة في مواجهة المناذرة في حرب استنزاف طويلة لا طاقة لهم عليها . فتحولوا، وبالاخص عندما دخلت قبيلة بنى أسد في حلف مع المناذرة ضد الشاعر الموتور، ودارت رحى حرب ضروس بينهما وبين الغساسنة الذين بدأوا يغازلون الشاعر ليوقفوا توغل الاسديين وحلفائهم الى ما فوق منطقة

(11) التبيان فى شرح البطليوسى ص 148.
(12) الروم سورة 30.

«أقر» التي كانت تخوم غسانية لكن الذبيانيين حلفاء الاسديين كانوا يتجاوزونها وقال النابغة الذبياني في ذلك لدى شفاعته لقومه بين يدي الغساسنة (13) :

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تربعهم في كل أصفار
وقلت ياقوم ان الليث منقبض على براثنه لوثبة الضاري

وكانت منازل بني اسد تقع الى الجنوب من تيماء الى الشرق من الطريق التجارية الكبرى . فكانت تؤلف تخوما شمالية للقبائل النازلة على الطريق المؤدية من ناحية الجنوب الى فلسطين وسوريا، لذلك كانت مركزا مهما لملكة كندة. وحليفا خطيرا للمناذرة وذات أثر حساس في توجه امريء القيس نحو الغساسنة ثم الغرب ، وكانت تيماء التي قصدها الشاعر ليتخذ من الشاعر السمؤال وسيطا دوليا في هذه الصفقة السياسية الحاسمة عاصمة عربية قديمة أيضا. أغرت أحد ملوك آشور (مبنو خذنصر) أن يحتلها ويتخذها عاصمة له . فكان امرؤ القيس يتحرك في أوساط حضارية بالغة الخطورة وذات فاعلية جذرية في حياة المجتمع العربي يومئذ لاسيما وأن المصادر تتحدث باطناب عن تقلب امرىء القيس في البلاد يبرم العهود مع هذا وذاك من ملوك العرب وامرائهم. وقد حاول الشاعر في هذا ان يستغل الصدام العالمي والظرف الدولي لسياسة الامبراطوريات ومطامعها في اجتياز الارض العربية ذات الموقع الاستراتيجي في الوصول الى كنوز الهند ومصادر الثروة في محيطها والجزر الواقعة فيه. وربطها بمصر ليسهل بذلك تنقلهم. وكذلك تسهيل التسويق في العربية الجنوبية ثم الى شمالها وتنشيط التبادل التجاري معهم، وتطويق الفرس الساسانيين، خصوم الروم التقليديين ولم تكن هذه الفكرة الكبقة التي سعى الشاعر الى تنفيذها قد وردت اعتباطا، وكذلك لم يكن السعي الى تنفيذها هينا. فقد سعى امرؤ القيس قبل أن يعطي لنفسه اشارة البدء والتحرك نحو القسطنطينية الى أن يوثق لنفسه عهود العودة ومواثيقها مع أحلافه، ليكونوا على هيئة الاستعداد عند دخوله بالقوة العسكرية المسلحة تسليحا حديثا وتاما، فعمل على عقد الحلف بين المتحالفين من

(13) ديوانه ص 75.

أحيـاء ربيعـة واليمن . وهى ظاهـرة تلفت اليها النظر. فقد كان امـرؤ القيس يدخل في تكتلات متنوعة تجمع نصفى الجـزيـرة المتخـاصمين وقـد قـال في ذلـك (14) :

يـا راكبـا بلـغ ذوي حلفنـــا ... من كـان من كنـدة أو وائـــل
والحي عبد القيس حيـث انتووا ... من سعـف البحريـن والساحـل
أنـا واياهـم ومـا بينـــــا ... كموضـع الـزور مـن الكـاهـل

وقـد وصف الشاعـر وفـاءه بالاحلاف التى عقـدها مع القبائل وهو في طريق رحلتـه الى الـروم حيـث قـال (15) :

عليهـا فتـى لم تحمل الارض مثله ... أبـر بميـثاق وأوفـى وأصبـرا
هو المتـزل الالآف مـن جـو ناعط ... بنـي أسـد حزنا من الارض أوعرا
ولو شاء كان الغـزو من أرض حميـر ... ولكنـه عمـدا الى الـروم أنفـــرا
بكـى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقـن أنـا لا حقـان بقيصـــرا
فقلـت له لا تبك عينـك انمـــا ... نحـاول ملكـا أو نمـوت فنعـذرا

وازاء هذا تكون الرحلـة قد صممت وخطط لها من جميع وجوههـــا المطلوبة. وان الهدف منها كان سياسيا عاما، وليس ثأرا شخصيا فحسب. لان الشاعـر نـال ثاره واستشفى، تؤكد ذلك طبيعة التحالفات التى حققها الشاعـر بين عرب الشمال «ربيعة» وعرب الجنوب «اليمـن» مما يدل على عمـق المشاعـر وحجم الطمـوح الذي كان يـراود خيال الشاعر في خلـق أمـة واحـدة من نصفـى البـلاد المتنازعين تقليديـا عبر الدهـور الغابرة، وكانت مملكة كندة تشكيلا وسطا في بلاد العرب. فلم تكن لها تحالفات ولا ارتباطـات خارجية رومية بزنطية ولا فارسية ساسانية ولا أثيوبيـــــه حبشية وان كانت الحبشة ملحقة عقائديا بالسياسة الرومانية. فقد قاموا في عـام 522 م بعد موافقة أسيـادهم بغـزو اليمـن وهزموا آخر ملوك حميـر، مما يمهـد لظهور الملحمة القومية الاخرى لطرد الاحبـاش. وهـى ملحمة الفـارس الثائـر سيف بن ذي يـزن عندما أعـاد الفرس الى الملوك المخلوعين روح القتال لطرد الاحباش تنكيـلا بالـروم الا أن حكما فارسيا جائـرا خيم على البـلاد أيضـا في عـام 575 م لم يستطع العـرب طردهم

(14) ملحق ديوان عمرو بن قميئة ص 85.
(15) ديوانـه ص 56 (ق 4).

الا بعد ستين عاما أو نحوها حيث كانت معركة ذي قار ثم القادسية ثم غزو بلاد الفرس في عقر دارها من قبل الثوار العرب. لقد حافظت مملكة كندة على قسط وافر من استقلاليتها ونهجها العربي فكانت المرشحة قبل غيرها في خلق الامة الواحدة . وكان امرؤ القيس قد لمس ذلك، فسعى الى استثماره والاستعانة به. ويفيدنا باحث معاصر بقوله (16) : لقد كان العرب في ذلك الزمن الغابر، كلما ضاقوا ذرعا بالمسيطر عليهم من غير بني جنسهم فزعوا الى خصمه. ولذلك سافر امرؤ القيس الى القسطنطينية بعد مقتل ابيه مستصرخا القيصر (جوستنيان) على بني أسد وعلى المنذر ملك العراق. فوعده القيصر خيرا ثم عرض عليه أن ينصبه أميرا على فلسطين. فابى تلك الامارة وكر راجعا الى نجد ومات بأنقرة. واذا كانت الرواية الدارمية (عقال بن دارم) المدعمة بالرواية الكلبية (هشام بن محمد الكلبي) قد اتهمت من قبل القدماء انفسهم بأنها رواية يهودية (17) بسبب ما يذكر عن عقال بن دارم ونسبه المتصل بنسب السموأل بن عادياء الذي يقال انه ذو أصول يهودية، وان كانت المصادر الاخرى ردته الى أصل غساني، وبسبب ما يقال عن ابن الكلبي من رده الى أصول مشابهة، حملت الاثنين على تبني اتجاهات شعوبية غير مؤكدة. فان هذه (الرواية الدارمية، الكلبية) قد اقتصرت من ملحمه الرحلة على ما يتعلق بامريء القيس والسموأل فقط، ودور الاخير في عملية الوساطة الدولية التي قام بها لدى الحارث بن أبي شمر الغساني (الحارث الاعرج) وتكليفه ايصال الشاعر الى القيصر، ولا يضير رواية الرحلة أن يكون فيها هذا المقطع الذي ترجحه روايات أخرى لاخباريين ثقات من امثال ابن قتيبة الدينوري (18) وابن سلام (19) وقد ذكره محمد بن حبيب (20) والزمخشري [21] ونقله عنهم البغدادي (22) وكان أبو عمرو الشيباني (210 هـ) قد صور هذا المقطع بالصورة نفسها، تؤيده في ذلك روايات الدواوين، ديوان امرىء القيس وديوان عمرو بن قميئة وديوان عبيد بن الابرص

(16) صلة الجاهلية بالعالم القديم ص 404.
(17) الاغاني 98/9.
(18) الشعر والشعراء 108/1 — 109 — 118.
(19) طبقات فحول الشعراء 279/1.
(20) المحبر 349.
(21) المستقصى من آداب العرب 435/1.

وديوان الاعشى الذي صور قصة وفاء السموأل وامتناعه عن تسليم أسرة أمرىء القيس وسلاحه بعد فشل الرحلة ولا يوجد دليل على كذب الرواية ، كما لا يوجد ما يدعو الى الحذر من قبولها. لا سيما أن القول بيهودية السموأل يشوبه شيء من الشك أما اذا برز الوفاء كصفة رمزية قوية في شخص السموأل الى درجة الاسطورة، فليس ذلك بمستغرب منه ولا بعيد منه لانه ولد وعاش بين العرب وتخلق بأخلاقهم. وعلق كاتب عربي معاصر على هذه الظاهرة فقال : خالف السموأل غدر أهل دينه ووفى بعربيته (23) أو (عروبته). وتقول اجماع الروايات ، ان الشاعر بعد أن استعان ببعض أبناء عمته من المناذرة وعمومته من بني كندة وقومه من اليمنيين والحميريين والحضرميين والمرثديين وقبائل الشمال الحليفة، لجأ الى جبلي طيء (أجأ وسلمى)، فوقعت الحرب بين الطائيين أنفسهم بسببه لان المنذر ابن ماء السماء بعث في أثر امرىء القيس جيشا فلجأ الى المعلى، وكان في طيء، ثم في بني جذيلة، ثم أحد بني ثعلبة، وكان سيدا منيعا، فمنعه من أن يصل اليه المنذر، فقال امرؤ القيس (24) :

فما ملك العراق علي المعلى ... بمقتدر ولا ملك الشآم
أصد نشاص ذي القرنين حتى ... تولى عارض الملك الهمام
أثر حشا امرىء القيس بن حجر ... بنو تيم مصابيح الظلام

وقد ذهب ونكلر Winkler الى أن المعلى هو جبل وان ذا القرنين هو الله الرعد (24)، ثم خرج من فوره ذلك، حتى جعل المنذر يطلبه في كل مكان. فنزل برجل من بني فزارة يقال له عمرو بن جابر من مازن . تشير الاحداث الى أنه يعمل لحساب الروم، وهو امر غريب لان فزارة من حلفاء الاسديين فهو اذن على غير هوى قومه، عميل رومي أو صنيعه من صنائعهم، رافض للسياسة الفارسية في البلاد فطلب الشاعر من هذا الرجل أن يجيره حتى يرى ذات عيبه (أي يصلح من شأنه وأمره) فقال له الفزاري (25) :

(22) خزانة الادب 212/4.
(23) ينظر الهامش رقم (2) من حاشية كتاب طبقات فحول الشعراء 379/1 تحقيق الاستاذ محمود شاكر.
(24) ديوانه ص 212 (ق 46) وأولندر ص 168 وقد اشار الى مقالة (ونكلر).
(25) الاغاني 96/19.

ـ يـا ابن حجـر، انى أراك في خلل من قومك وأنا أنفس بمثلك من أهل الشـرف، وقد كدت بالامس تؤكل في دار طـيء وأهل البادية أهل بـر لا أهل حصـون تمنعهم، وبينـك وبين أهل اليمـن ذؤبـان من قيس. أفـلا أدلك على بلـد ؟ فقـد جئت قيصـر وجئت النعمـان (26) فلم أر لضيـف نـازل ولا لمجتـد مثله ولا مثـل صاحبـه.

قـال امـرؤ القيـس :

ـ من هـو وأيـن منزلـه ؟

قـــال :

ـ السمـوأل بتيماء. وسوف أضرب لك مثله. هو يمنع ضعفك حتـى نـرى ذات عيبك وهو في حصن حصين، وحسب كبيـر.

قـال لـه امـرؤ القيـس :

ـ وكيـف لـى بـه ؟

قـــال :

ـ أوصلـك ألى من يوصلـك اليـه.

فصحبه الى رجل من بنـى فـزارة يقال له الربيـع بن ضبع (ضبيع) الفزاري (27) ممن يأتـى السموأل فيحمله ويعطيه. فلما صار اليه قـال لـه الفـزاري :

ـ ان السموأل يعجبه الشعر .فتعال نتنـاشد له أشعارا.

فقـال امـرؤ القيـس :

ـ قـل حتـى أقـول

فقـال الربيـع :

قل للمنية أي حيـن نلتقـــي بفنـاء بيتـك في الحضيض المزلق

(26) كان المنذر بن مـاء السماء هو الملـك يومئذ. وكـان النعمان بن المنذر وأخواه عمرو وكذلك الاسود امراء فى مملكة أبيهم. ولعل السهو من الراوية أو النـاسخ.

(27) احد الشعراء المعمرين. ذكره السجستانى فى كتابه. وقد كان له موقف حـاسم فى وضع النهـاية السليمة لحرب داحـس والغبراء فى مفاوضـات الصلـح بسـوق عكاظ (براجع كتابنا فى حرب داحس والغبراء) وتنظر دراستنا عنه فى آداب المستنصرية العدد 10 وفى هذا الكتاب ضمن (شعراء جاهليون).

وهى طويلة يقول فيها (28) :

لقد أتيت بنى المصاد مفاخرا والى السموأل زرته بالابلق
فأتيت أفضل من تحمل حاجه ان جئته في غارم أو مرهق
عرفت له الاقوام كل فضيلة وحوى المكارم سابقا لم يسبق

فقال امرؤ القيس :

طرقتك هند بعد طول تجنب وهنا ولم تك بعد ذلك تطرق

وهى قصيدة طويلة (28) فوفد الفزاري بامرىء القيس الى السموأل، فلما كانوا ببعض الطريق ، اذا هم ببقرة وحشية مرمية. فلما نظر اليها أصحابه قاموا فذبحوها . فبينما هم كذلك اذا هم بقوم قناصين من ثعل، فقالوا لهم، من أنتم ؟ فأنتسبوا لهم واذا هم من جيران السموأل. فانصرفوا جميعا وقال امرؤ القيس :

رب رام من بنى ثعل مخرج كفيه من قتره

وهى طويلة مثبتة في ديوانه، يمدح بها براعة بنى ثعل في القنص والصيد. ثم مضى القوم حتى قدموا على السموأل، فأنشده وعرف لهم حقهم فأنزل المرأة في قبة أدم، وأنزل القوم في مجلس له براح، فكان عنده ما شاء الله ثم انه طلب اليه أن يكتب له الى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ليوصله الى قيصر، فاستنجد له رجلا ، واستودع عنده المرأة والادراع والمال. وأقام معه يزيد بن معاوية بن الحارث، ابن عمه. وقد صورت قصيدته الرائية جانبا من رحلة الطريق وهى طويلة جدا، وتبدأ بقوله (29) :

سما لك شوق بعدما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

وفيها يذكر طائفة من أسماء المواضع العراقية والمدن الشامية، ثم يذكر حنين رفيقه عمرو بن قميئة وبكاءه، وهى حافلة، يصور

---

(28) هذا تعليق الاصفهانى. ولم يصل من القصيدة سوى هذه الابيات . أما قصيدة (رب رام من بنى نعل) فهى فى شرح الاعلم وفى شرح البطليوسى ص 285.
(29) الديوان ص 56 (ق 4) وشرح البطليوسى ص 178.
(30 اللسان مادة (قرمل) وشرح البطليوسى ص 230.

فيهـا جزع أم عمرو على ولدهـا وانقلاب بعض صحبه عليه، وكان عمرو قـد قال لامرىء القيـس : غـدرت بنـا :

أرى أم عمرو دمعها قـد تحـدرا ... بكـاء على عمرو وما كان أصبرا
اذا نحـن سرنا خمس عشرة ليلة ... وراء الحساء من مدافـع قيصـرا
اذا قلت هذا صاحب قـد رضيته ... وقـرت به العينان بدلت آخـرا
كذلك جدي ما اصاحب صاحبـا ... من الدهـر الاخاننـى وتغيـرا

وبلغت ستيـن بيتـا .

وتفيدنـا هذه القصيدة التى قيلت في طريق الرحلة، وذكرت مواضع غسان انها تطرقت الى تجاراتهم وعطورهم وما وقعت عليه عين الشاعر من وديان وجبال ، ثم الحنين الى (الاهل الصالحين) في البيت التاسع عشر أعقبه حديث صريح لبلوغه (حوران) وقـت الفجـر حيث يغلـف الضباب أجواءها الرطبة، ثم اجتيـازه لمدينة (حمـاة) و (شيزر) حتى يتطـرق الى رفاقـه الذين خذلـوه في الرحلة ولم يستمروا معه. لان شمس ملكـه قـد جنحت الى الغروب فيتذكـر ملك بنى حجـر آكل المرار قبيـل أن يغزوهم (قرمل) وذكر في القصيدة اسـم رجل من الروم يقال له ابن جريج ويبـدو أن الروايـة التى تقول أن امـرأ القيس قد حمل الـى الروم عبر البريد . رواية صحيحة. لان الطريق بعد اجتياز الاراضى الشامية يصبح وعرا وخطيرا وموحشا، وصفه امـرؤ القيس بجوف الحمار. وقد ذكر أمـرؤ القيس رحلته الاناضولية على البريـد في شعـره (31) :

ونـادمـت قيصـر في ملكـــه ... فأوجهنـــى وركبـت البـريـــدا
اذا مـا ازدحمنـا علـى سكـــة ... سبقـت الفرانـق سبقـا بعيـدا

وبين أيدينـا شعر لعمـرو بن قميئة يذكـر فيها اسم مدينة روسية كانت ابنته قـد بكت عندما وصلت الركائب اليهـا. وهي مدينة (ساتيدما) التى يذكر البكري وياقوت أنه جبل متصل من بحـر الـروم الى بحـر الهند يقال انه سمي بذلك لانه ليس من يوم الا ويسفك عليه دم، وكان قيصـر قد غـزا كسرى. وأتى بـلاده على غـرة له حتى انصرف عنـه.

(31) الشعر والشعراء 158/1 — 121 وينظر ديوانه نشرة الاستاذ حسن السندوبى

واتبعه كسرى في جنوده، فأدركه ساتيدما، فانهزموا مرعوبين من غير قتال (32). قال عمرو .

قد سألتني بنت عمرو عن الا رض التي تنكر أعلامها
لمارأت ساتيدما استعبرت للـه در ـ اليوم ـ من لامها
تذكرت أرضا بها أرضها أخوالها فيها وأعمامها

هذه هي الاشارة الوحيدة لاجتياز الرحلة آسيا الصغرى.

وبهذا الخبر تكون عائلة عمرو بن قميئة بما فيهم ربها قد استنزفت دموعا غزارا في هذه الرحلة لان امرأ القيس صور بشعره دموع عمرو وأم عمرو وصور عمرو بشعره دموع ابنته في منطقة (ساتيدما). وهذا يفسر لنا جملة أشياء .

أولها أن الرحلة كانت تضم اليها عوائل المرافقين. وأن بعضهم خرج مخدوعا حقا. وهي رواية الديوان والاغاني وكتاب من سمي عمرا من الشعراء لمحمد ابن داود الجراح (33) وتعقيب مؤرج السدوسي على الخبر يؤيد ذهابه مخدعة عن اسحق بن مرار الشيباني : نزل امرؤ القيس ببكر بن وائل (حلفائه) وضرب قبته، وجلس اليه وجوه بكر بن وائل . فقال لهم :

ـ هل فيكم أحد بقول الشعر ؟

فقالوا :

ـ ما فينا شاعر الا شيخ قد خلا من عمره وكبر

قال :

ـ فأتوني به .

---

(32) ديوان عمرو بن قميئة (مجلة معهد المخطوطات العربية) القاهرة 1385هـ. 1965م. ص 182 وفيه عرض واف للموضع المذكور وديوانه أيضا بتحقيق وشرح الاستاذ خليل ابراهيم العطية ص 73 نشر وزارة الاعلام العراقية 1972 وينظر معجم مااستعجم 711/3 ويذكر أن ساتيدما نهر وقيل موضع. ولعل قوله أن هذا الجبل «ساتيدما» سمي بذلك لانه لا يمر عليه يوم الا ويسفك دم جاء من ملاحظته الاسم : (ساتى دما) كأن الجبل يقول ذلك وهو توجيه غريب ان كان هو المقصود.
(33) ديوانه (نشر وزارة الاعلام) ص68ـ والاغاني 139/18.

فأتوه بعمرو بن قميئة وهو شيخ، فأنشده، فأعجب به، فخرج به معه الى قيصر، واياه عني امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... الابيات

قال مؤرخ السدوسي في هذا الخبر : أن امرأ القيس قال لعمرو ابن قميئة في سفره :

ـ ألا تركب الى الصيد ؟

فقال عمرو :

شكوت اليه أنني ذو جلالة وأنى كبير ذو عيال مجنب
فقال لنا : أهلا وسهلا ومرحبا اذ سركم لحم من الوحش فاركبوا

فأوهمه أنه يستصحبه في رحلة صيد وقنص، ثم صار به بلاد الروم. ولم يكن عمرو مستعدا لمعاداة المنذر بن ماء السماء. وهو الذي مدحه بقصيدة مثبتة في ديوانه (34). وبدخول عمرو بن قميئة عنصرا جديدا في القصة تكون الرحلة قد ضمت شاعرا ثالثا بعد امرىء القيس والربيع بن ضبع الفزاري، عدا ماأوردناه عن الشاعر السموأل.

اذن فقد انطلق امرؤ القيس سالكا طريقا غير طريق القوافل المألوف. لعله يحاذر أن تقع عليه عيون اعدائه من المناذرة وغيرهم. أو يتجنب الظهور أمام حراس الحدود من مختلف الامارات، فأخذ الدرب المباشر من (تيماء) مغادرا القصر الابلق، قصر السموأل، متجها نحو (بصرى) وهو درب استحدثه الرومان البيزنطيون لاجتناب المدن التى كانت تجبى فيها المكوس (35). ومما يؤيد سلوكه هذا الطريق ذكره لبريد القيصر في شعره كما مثلنا. وكانت تيماء يومئذ منتجع القوافل التجارية الكبرى. ومركزا عظيما للعالم القديم منذ عهد الآشوريين والفراعنة. فكانت تصل بين بابل والحجاز عن طريق (حائل) وتصل بابل بمصر عن طريق (معان) و (أيلة) و [سيناء] وبغزة عن طريق [أيلة] وبفلسطين عن طريق تراجان وبسوريا عن طريق الصحراء الذاهبة رأسا الى

(34) ديوان ابن قميئة (نشر الاعلام) ص 69 (ق 15).
(35) صلة الجاهلية ص 496 وينظر المفصل فى تاريخ العرب 348/7.

(بصرى) (36). هذا الى جانب طرق أخرى تربط تيماء بالعالم العربي، ولكن امرأ القيس أخذ طريق (بصرى) وذكرها في شعره لدى رثائه لرفيق رحلته الحارث بن حبيب السلمي. كما ذكر مدنا أخرى كانت في طريقه مثل (حوران) الواردة في رائيته التي تحدثنا عنها. وفيها أيضا تصوير خروجه من البداوة الى الحضارة وذكر اسم أمه (تملك) :

الاهل أتاها والحوادث جمة بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

ولدى اجتيازه شعاب بصرى ووديانها. تعرضت الرحلة لافدح فاجعة أثرت في نفس امرىء القيس، وهي وفاة رفيق رحلته الحارث بن حبيب السلمي ، وعندئذ توقف الشاعر قليلا يواريه الثرى ويرثيه (37) :

توى عند الودية جوف بصرى أبو الايتام والكل العجاف
فمن يحمى المضاف اذا دعاه ويحمل خطة الانس الضعاف

ويبدو أن الحارث كان من خيرة من يعتمدهم امرؤ القيس لانه ذكر آخرين تغيروا عليه فضلا عن انهيار عمرو بن قميئة وبكائه.

ويعكس شعره الذي قاله في طريقه الى الغساسنة تناقضا في المشاعر والعواطف التي يحتفظ بها لملوك غسان. فهو في طريقه يرمز الى خؤولتهم يعز بعزهم ويذل بذلهم. وذلك قبيل دخوله عليهم (38) :

تقول لي ابنة البكري لما عزفت عن الصبا واللهو بالا
أرى الملك الذي قد كان فينا يفيد رغائبا ويغيث مالا
ويعطى القينة الحسناء تروي نداماه ويضطلع الثقالا
ويضنمى العرمس الوجناء حتى تشكى بعد كدنتها الكلالا
ويصحبهم ململة رواحا مع الاشراق أحياء حلالا
ويغدو في البطالة مسبكرا تخال به اذا وافى هلالا
تبدل بعد جدته شحوبا وأصبح حبله خلقا مدالا
فقلت لها وقول الحق مما يميل ولو عدلت به الجبالا
ألم يحزنك أن الدهر غول هتور العهد يلتهم الرجالا
أزال من المصانع ذا نواس وقد ملك الحزونة والرمالا

(36) صلة الجاهلية. 496.
(37) الديوان ص 347 (ق 90) والانس الناس.
(38) الديوان ص 308. [ق 75]

وانشب في المخالب ذا خليل ... وللزراد قد نصب الحبالا
وغجع كندة الاخيار طرا ... بعمرو فاصطفى حجرا فزالا
وبينا كان في الاحياء طورا ... رماه الدهر من كثب فمالا
بعد شنوءة الابطال أرجو ... ليان العيش أو أبغي احتيالا
فان تك دار أل الازد زالت ... فكل الناس ينتظر الزوالا
وان تهلك شنوءة أو تبدل ... فسيري أن في غسان خالا
بعزهم عززت وان يذلوا ... فذلهم أنالك ما أنالا

وكان هذا في طريق مسراه وممشاه الى غسان لكن بعد خروجه منهم تغيرت فكرته عنهم ولم يلق منهم ما يشجعه على الاعتقاد بهم وليست هذه سياستهم بل هي السياسة الدولية التي فرضت عليهم ألا يغالوا في نصرة امريء القيس، لان الفرس كانوا قد انتصروا على الروم في آخر معركة لهم، وان الامبراطور (جستنيان) لم يكن متحمسا للقتال كما سنرى بعد قليل. فكان هذا العامل في طليعة العوامل التي احبطت عملية الرحلة. وقد عبر أمرؤ القيس بشعره عن هذه الحقيقة (39) :

بان الملوك فأمسى القلب مرتابا ... من هؤلا الناس عاشوا بعد أحزابا
ما ينكر الناس منا حين نملكهم ... كانوا عبيدا وكنا نحن أربابا
نحن الملوك وأبناء الملوك لنا ... ملك به عاش هذا الناس أحقابا
انى سأملككم بالروم اذ كرهت ... غسان نصري وكان الملك أسبابا
أو ترجعون كما كنتم لنا خولا ... حتى تدينوا لنا طوعا وأتعابا

ويلاحظ الدارس في شعره لهذه المرحلة ، مرحلة اليأس من الغساسنة. ووضع الامل في الروم، انه اصبح حزينا يتعالى منه صوت اليأس يمتزج بفلسفة معتمة وحكمة مغلقة لا ترى للحياة أبوابا بل بابا واحدا يفضي الى الفناء الابدي كما أفضى بمن سبقه من رجال الفكر والسياسة أمثال جد العرب الاكبر ابراهيم الخليل وأمثال أعمامه وبالاخص شرحبيل الذي شهد امرأ القيس بعينيه مصرعه في يوم الكلاب. وقد أشارت الى ذلك قصيدته بكل وضوح، وهي البائية المثبتة في ديوانه (40) :

---

(39) الديوان ص 279.
(40) الديوان ص 97 وشرح البطليوسي ص 250 وروى المطلع بشكل مغاير قليلا.

أرانـــا مـوضعيـن لامـر غيـب ... ونسحر بالطعـــام وبالشـــراب
عصـافيـــر وذبـــــان ودود ... وأجـرأ من مجلحـــة الذئـــاب
وكل مكـارم الاخـلاق صـــارت ... اليـه همتـى وبـه اكتسـابـى
فبعـض اللـوم عاذلتـى فانـــى ... ستكفينـى التجـارب وانتسابى
الـى عـرق الثرى وشجت عروقى ... وهذا الموت يسلبنـى شبـابـى
ونفسى سوف يسلبهـا وجرحـى ... فيلحقنـى وشيكـــا بالتـــراب
ألـم امضـى المطـى بكل خـرق ... أمـق الطـول لمـــاع السـراب
واركـب في اللهـام المجـر حتـى ... أنـال مآكـل القحـم الرغـــاب
وقـد طوفـت في الآفـاق حتـــى ... رضيـت من الغنيمـة بالايـــاب
ابعـد الحـارث الملـك بن عمرو ... وبعـد الخيـر حجـرذي القبـاب
أرجـى من صـروف الـدهر لينا ... ولم تغفـل عن الصـم الهضـاب
وأعلـم أننـى عمـا قليـــــل ... سانشـب في شبـا ظفر ونـــاب
كمـا لاقـى أبـى حجـر وجـدي ... ولا أنسـى قتيـــلا بالكـــلاب

وسـار امـرؤ القيس بقافلته المجهولـة وموكبه الملكـى المشـرد، تحميـه حـراب الفساسنـة العرب والروم البيزنطيين حتى انتهى الـى قيصـر. تقول رواية الديـوان (41) : فاستأذن أمـرؤ القيس عليه، وكان رجـلا جميـلا، وكان قيصر لا يدخل عليه أحـد الا سجـد له، فقيل له : ان امـرأ القيس لا يسجد لـك لانه ملك في قومـه، وهو عار عندهم. وكان لقيصـر مجلس له بابان أحدهما واسع والآخر ضيق، فأذن لـه من الباب الضيـق كى يطأطأ رأسه فيكـون شبه السجود، فدخل امـرؤ القيس منه موليـا ظهره فسلـم فأعجبه جهارته، وقال بالرومية : «طيثالس» أي : مـا تريد ؟!.. فأعلمه مـا لقـي، وأنه يستمد على العرب فبعث معه جيشـا. وكان الطماح بن قيـس الاسدي عند قيصر، وكان منه بمكـان. فقال في نفسـه لما سـار امرؤ القيـس بالجيش : انى خائـف على العرب أن يكون هلاكهـا في ظفـر هذا الجيـش. ومعرفتهم بـلاد العرب، وما فيها مـن الاموال والخيل والنسـاء . فاحتال لـه، وقال لقيصر : أهلكت جيشـا بعثته مع هذا المطرود الذي قتل أبوه وأهله ، ومـا تريد الى نصـره ؟ وكلما قتل العرب بعضهم بعضا كان خيـرا. قال القيصـر :

(41) وينظر أيضـا تاريخ اليعقوبى 1. 180 حيث ذكر مديح امرىء القيس للقيصر لكنـه لـم يستشهـد بشعـر هذا المديـح.

فما الـرأي ؟

قـال الطمـاح :

ـ الـرأي أن تـدرك الامر ، وأن تـرد جيشك وتـرده، وتبعث الـى امـرىء القيس بحلـة مسمومـة .

ففعل، وعزم على امرىء القيس أن يلبسها، وأخبره أن ذلك عن رضا فيه فدخل امرؤ القيس الحمام، فأطلى فلبسها وقد رق جلده ولحمه، ورد قيصـر جيشه. وبقـى امـرؤ القيس يعالج قروحه، ثم قدم أنقـرة فكان فيهـا حتـى مات. وفي ذلـك يقـول :

الا أبلـغ بنى حجر بن عمـــرو ... وأبلـغ ذلـك الحـى الحـريـدا
بـأنى قـد بقيت بقـاء نفـس ... ولـم أخلـق سلامـا أو حديـدا
فلـو أنـى هلكت بـدار قومـى ... لقلـت المـوت حـق لا خلـودا
ولكنـى هلكتـت بـأرض قـوم ... بعيـد من ديارِكـم بعيـــدا
اعالج ملـك قيصـر كل يـــوم ... وأجـدر بالمنيـة أن تعـودا
بـأرض الـروم لانسـب قريـب ... ولا شـاف فيسنـد أو يعـودا
ولـو وافقتهـن علـى أسيـس ... ضحيـا أو وردن بنـا زرودا
على قلـص تظـل مقلـدات ... أزمتهـن مـا يعـذفـن عـودا

هذه روايـة الديوان ولا تختلف عن بقيـة الروايات سوى أنها جعلت الطمـاح بن قيس الاسدي حين وشـي بامرىء القيس لدى القيصر وطنيا قوميـا شديد الغيرة بشعبه العربى. وهذا يذكرنا بروايـة مقتل عثمان بن الحويرث الذي تحدث عنه في أول هـذه الدراسـة. وكيف تراجـع عـن قراره في استصحاب جيش رومى الى أرض وطنه. فانتقم منه القيصر بالحلـة المسمومـة أو القميص الحارق. لكن الفـرق بين امرىء القيـس وعثمـان . أن الاول عـزم على استصحاب الجيش مهما كانت النتائـج، فكانت المراجعة من قبل غيـره. أما عثمـان فقـد راجع هو نفسـه، وثنى عزمه عن استصحاب الجيش. أما الروايـات الاخرى فقد زعمت أن الطماح ابن قيس أقبل بوفـد الى القيصر جستنيـان، وكـان حجر أبو امرىء القيس قـد قتل أبا الطمـاح الاسدي (42)، فأرسلتـه بنـو أسـد ليثأر

(42) الشعر والشعراء 108/1 ـ 109.

لابيه وقومه ويبطل هذه العملية العسكرية التى كان فيها فناء الاسديين. وان كنت اعتقد أن الامر بالنسبة لامرىء القيس أصبح مختلفا. فهو هنا أشبه بالبطل القومى سيف بن ذي يزن الذي عزم على طرد الاحباش مستعينا بالفرس . فكان عزم امرىء القيس أن يطرد الفرس مستعينا بالروم، ليتم له اخضاع البلاد باسرها تقول رواية ابن قتيبة في الشعر والشعراء : ثم بعث معه جيشا فيهم أبناء ملوك الروم، فلما فصل الجيش قيل لقيصر :

ـ انك امددت بابناء ملوك أرضك رجلا من العرب، وهم أهل غدر، فاذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوه غزاك.

فبعث اليه قيصر مع رجل من العرب كان معه يقال له الطماح بن قيس الاسدي بحلة منسوجة بالذهب، مسمومة. وكتب اليه : «اني قد بعثت اليك بحلتى التى كنت ألبسها يوم الزينة، ليعرف فضل منزلتك عندي، فاذا وصلت اليك فالبسها على اليمن والبركة، واكتب الى من كل منزل بخبرك» فلما وصلت اليه الحلة اشتد سروره بها، ولبسها، فأسرع فيه السم، وتنفضى جلده، والعرب تدعوه : «ذا القروح» لذلك وبقوله :

وبجلت قرحا داميا بعد صحة فيالك نعمى قد تحولن أبؤسا

أما رواية الاغانى (43) فقد ذكرت الخبر قريبا من خبر ابن قتيبة مع بعض الاختلاف تقول الرواية «.. فمضى حتى انتهى الى قيصر فقبله وأكرمه. وكانت له عنده منزلة فاندس رجل من بنى أسد يقال له (الطماح) وكان امرؤ القيس قد قتل أخا له من بنى أسد. حتى أتى بلاد الروم فأقام مستخفيا. ثم ان قيصر ضم الى امرىء القيس جيشا كثيفا. وفيهم جماعة من أبناء الملوك . فلما فصل الجيش، قال لقيصر قوم من أصحابه ان العرب قوم غدر. لا تأمن أن يظفر بما يريد. ثم يغزوك بمن بعثت معه وتدلنا هذه العبارة الاخيرة في رواية الاغانى على سر آخر في فشل الحملة غير ما ذكرناه. وهو أن القيصر بعث مع امرىء القيس جماعة من الملوك والامراء من أصله وأقربائه يريد

(43) أبو الفرج الاصفهانى 19 ـ 69.

التخلص من منافستهم له في مملكته. الا أن خلصاءه والاوفياء له تصحو، بأن لا يفعل. لان هؤلاء سيكونون في الخارج قوة، ثم يأتون بجيش فيغزون القيصر. وهذا معنى قول الرواية «.. ثم يغزونك بمن بعثت معه» وتستطرد رواية الاغانى : «وقال ابن الكلبى : بل قال الطماح لقيصر :

ـ ان امرأ القيس غوي عاهر، وانه لما انصرف عنك بالجيش، ذكر أنه كان يراسل امهاتك ويواصلها. وهو قائل في ذلك أشعارا يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك». فبعث اليه حينئذ بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب وقال له «انى أرسلت اليك بحلتي التى كنت ألبسها تكرمة لك فاذا وصلتك فالبسها باليمن والبركة واكتب الي بخبرك من منزل الى منزل»

فلما وصلته اليه لبسها واشتد سروره بها. فأسرع اليه السم وسقط جلده فلذلك سمي ذا القروح ، وقال في ذلك :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ... ليلبسنى مما يلبس أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

وهذه الاضافة في رواية الاغانى نقلا عن ابن الكلبى وسواه من الرواة قد فتحت آفاقا جديدة أمام القصة وسبب فشل الحملة العسكرية، وهو أقوى سبب، لان الحب في القضايا المصيرية، والمرأة في الامور الحربية قد تكون سببا حاسما في تغيير القضية نحو وجهة ثانية. وبالاخص ما يتعلق بامريء القيس ونزوعه القوي نحو ممارسة الحب ونوازع الجسد، وظاهر الامر أن الشاعر لم يتطرق الى هذه القضية في شعره أبدا. وهناك اعتراض آخر. هو أن القيصر (جوستنيان) لم ينجب ولم يخلف لا بنين ولا بنات، فمن أين وردت قصة الحب الملتهب التى جاءت في رواية أخرى تقول (44) ولم يزل يطلب النصر حتى خرج الى قيصر فدخل معه الحمام فاذا قيصر أقلف (45) فقال (46) :

انى حلفت يمينا غير كاذبة ... انك أقلف الا ما جنى القمر
اذا طعنت به مالت عمامته ... كما تجمع تحت الفلكة الوبر

(44) الشعر والشعراء 109/1 .
(45) أقلف : أى لم يختتن.
(46) الديوان ص 280.

وبصرت به ابنة قيصر فعشقته. فكان يأتيها وتأتيه. وطبن (أي فطن) الطماح بن قيس الاسدي لهما. وكان حجر قتل أباه، فوشى به الى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرعا، فبعث قيصر في طلبه رسولا، فأدركه دون أنقرة بيوم ومعه حلة مسمومة فلبسها في يوم صائف. فتناثر لحمه وتفطر جسده. وكان يحمله جابر بن حتي التغلبي (شاعر آخر) ومعه عمرو بن قميئة كما يذكر البطليوسي في شرحه (47) فذلك قوله (48) :

فاما تريني في رحالة جابر ... على حرج(49) كالقر تخفق أكفاني
فيارب مكروب كررت وراءه ... وعان فككت الغل عنه ففداني
وفتيان صدق قد بعثت سحرة ... فقاموا جميعا بين عاث ونشوان

وهذه الرواية لها عدة مدلولات ، وعليها جملة تعليقات. ومنها ستخرج بضعة استنتاجات ، فأما جابر بن حنى التغلبي فهو أحد الشعراء الذين اختار لهم صاحب المفضليات (50) وترجم له المرزباني (51). وكان استصحاب امريء القيس له أمرا غريبا لانه كان ممن خاض مع قومه حرب (الكلاب الاول) ضد شرحبيل عم امريء القيس الذي خاضها امرؤ القيس معه ضد أعدائه. ورأى بعينه عمه وهو يقتل. وكان شرحبيل من أحسن أعمامه عليه وقد استشهدنا قبل قليل. يقول الشاعر في بائيته : «ولا أنسى قتيلا بالكلاب» فكيف طابت نفس الشاعر الى صحبة رجل ساهم في هزيمة عمه وقتله. وهذا هو جابر بن حنى التغلبي في مفضليته يفخر بنصرهم في يوم الكلاب وبأبى حنش الذي قتل شرحبيل الملك الكندي :

وقد زعمت بهراء أن رماحنا ... رماح نصارى لا تخوض الى الدم
فيوم الكلاب قد أزالت رماحنا ... شرحبيل اذ آلى أليه مقسم
لينتزعن أرماحنا فأزاله ... أبو حنش عن ظهر شقاء صلدم
تناوله بالرمح ثم أنثنى له ... فخر صريعا لليدين وللفم
وكأن معادينا تهر كلابه ... مخافة جيش ذي زهاء عرمرم

(47) شرح البطليوسي ص 239.
(48) الديوان ص 89 [ق 9] وشرح البطليوسي ص 237.
(49) الحرج : النعش.
(50) المفضليات ص 208 (ق 43).
(51) معجم الشعراء ص 206 — 207 وقصيدة امرىء القيس في الديوان ص 9 [ق 9] وشرح البطليوسي ص 237.

ان جابر بن حنى التغلبي عدو الامس أصبح صديق اليوم ورفيق الرحلة . بل أصبح صديقا وفيا لازمه حتى آخر لحظة من حياته. وحمل نعشه بيده كما سبق أن استشهدنا في نونيته التي مطلعها (51) :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ... ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدي عليها فأصبحت ... كخط زبور في مصاحف رهبان
ذكرت بها الحي الجميع فهيجت ... عقابيل سقم من ضمير وأشجان
فسجت دموعي في الرداء كأنها ... كلى من شعيب ذات سح وتهتان
اذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شيء سواه بخزان
فاما تريني في رحالة جابر ... على حرج كالقر تخفق أكفاني

الى آخر القصيدة وهي من قصائد الشعراء الذين رثوا أنفسهم في حياتهم، وليس غريبا في السياسة أن يتحول العدو الى صديق والصديق الى عدو. فقد كانت الحرب شديدة بين الاخوين شرحبيل وسلمة ابني الحارث بن عمرو الكندي بعد أن مات أبوهم الملك. فسار شرحبيل في بني بكر ومن معه من القبائل فنزلوا الكلاب. وهو ماء بين الكوفة والبصرة. واهتبل سلمة بن مالك فرصة سانحة هجم بها على الملك شرحبيل فقتله ثأرا لولده الذي قتله شرحبيل في يوم سابق (52) واذن فقد كان جابر بن حني من مؤيدي أحد أعمام امرىء القيس ضد عمه الآخر وأن تغلب صالحت امرأ القيس وناصرته في شدته فيما بعد. فيكون جابر معذورا في صداقته اليوم وعداوته بالامس. فهو بنطلق من مبدأ ثابت وان كان ظاهر الحال يبرزه مبدأ متناقضا أو شاذا أو متذبذبا. ويلاحظ من كثرة الشعراء المرافقين للرحلة. كان امرأ القيس يصحب رفدا شعريا الى الروم، ولعله في ذلك قصد الى اشياء لم نكن نعلم ماهيتها. أو أن هذه الملحمة البطولية اختارت هذا الحشد من الشعراء لقصد فني فيها لم نعرفه لعدم تكاملها وضياع أكثر أجزائها ومقاطعها . وتفيد هذه الرواية ـ رواية البيتين اللذين وصفا القيصر بأنه لم يختتن ـ بعمق الصلة ومدى المعاشرة الوثيقة بين الشاعر والقيصر. حيث كانا يقضيان أكثر وقتهما سوية حتى عند اغتسالهما ودخولهما الحمام واطلاع الشاعر على اسرار بيت

(52) يراجع كتاب ايام العرب لابي عبيدة 400/1 ـ 403 (يوم الكلاب الاول) .

القيصر ومملكته حتى فوجىء به أقلف لم يختتن. فكانت بالنسبة للشاعر مفاجأة، لان الشاعر يدين بمذهب العرب القديم. وهو بقايا التوحيد الحنفي . دين ابراهيم الخليل. وان كانت الوثنية قد غطت جانبا كبيرا من شعائر التوحيد ثم قام الاسلام على ذلك مع اضافات توحيدية واسعة وطقوس سماوية جديدة (53). وقد أثر المشهد في نفس الشاعر فقال فيه شعرا وصل الينا منه البيتان المذكوران. وقد انتقلت الرواية مباشرة بعد ذكر الصورة الجنسية للبيتين الى ذكر ابنة القيصر وهى تراقب الشاعر يستحم مع والدها عاريا فتلتفت الى الفرق بين والدها الاقلف وبين الشاعر المختتن فينشأ التواصل العاطفى بين الاثنين الى مرتبة العشق وكان ابن قتيبة دقيقا في تعبيره لان (العشق) يعنى في اصطلاح العلماء المختصين بهذا الحقل : حب الجسد. أما لفظة (الحب) فهو اصطلاح قد يسمو على الجسد ويصل الى مرتبة العذرية. ثم تذكر الرواية أنها كانت تأتيه يحملها الاعجاب بجماله الذي نوهت به رواية سابقة . وما تنبهت اليه وهو يستحم . لكن يبقى الشك دائرا في كيفية وقوف الفتاة العذراء على مزايا الفرق بين الاقلف والمختتن. ان لم تكن قد جربت ذلك هنا يبرز تساؤل آخر سبق أن نوهنا به أيضا. وهو أن قيصر جستنيان كان عقيما لم ينجب (54). فمن تكون هذه الابنة التى تذكرها الرواية ؟ اننا في هذه الحالة لا نرجح أن تكون فتاة عذراء من بنات الامراء الروم لان حالة مثل هذه تستوجب أن يكون عنصر التجربة السابقة قد شارك في الحالة، اذن هناك احتمال كبير، أن تكون امرأة متزوجة من القيصر أو غيره ذات علاقة سابقة بأحد العرب أو من هم يختتنون مثلهم. قد فطنت الى القضية فاذا قلبنا صفحات سيرة الامبراطور (جستنيان) (يستنياس) وجدناه قد تعرف في حياته الى امرأة ذات

---

(53) تراجع دراستان مفصلتان فى هذا الموضوع بقلمنا فى مجلة آداب المستنصرية العدد الخاص بالهجرة لسنة 1980 بعنوان : الهجرة والشعر. والعدد الخامس بعنوان : شعر الاحناف وهى واردة فى هذا الكتاب.

(54) القيصر وامرؤ القيس. مقالة فى مجلة المجمع العلمى العربى بدشمق 317/17 لسنة 1942 بقلم نجيب الارمنازى ومقالة اخرى بالعنوان نفسه فى مجلة المسرة. المجلد السابع ص 228 بقلم حميد الحيرى الانطاكى (وقد وفقنا فى الحصول على الاولى. وتعذر علينا الحصول على الثانية).

ماض فعشقها وعاشت في كنفه خليلة وعشيقة. ثم استطاعت بعدها ان تكون خليلة وزوجة. تلك هى المرأة المشهورة في التاريخ باسم «تيودورا» التى لم تكن من أصل بيزنطى بل يقال أنها ولدت في سورية . وأن تاريخها حافل بالعجائب التى تشبه الاساطير وقد عاشت دور المراهقة بين بلاد الشام وبين القسطنطينية حيث يسير بها آباؤها لتحصيل الرزق. فكانت ترافق والدها الذي عمل حارسا لبعض الحيوانات في أحد ميادين اللعب. وترافق أمها التى كانت تعيش في هذه البيئة المتردية فلم تكن تعرف بالفضيلة أو الشرف حتى أنها كانت ترى في جمال ابنتها الشابة المراهقة ثروة لا تعادل. فنشأت تيودورا بين صفوف المغنين والراقصين ومروضى الحيوانات واللاعبين في حلقات السيرك وخشبة المسرح. فكانت تتردد على الملاهى الليلية والنوادي الخاصة حتى غدت علامة بارزة في المجتمع من علامات اللهو والعبث وكانت تفخر أنها لم تبلغ العشرين حتى أحبها جميع الرجال وأبغضها جميع النساء (55). يقول بروكوب مؤلف التاريخ السري وهو يتلظى حسرة وغيظا على الفضيلة الملطخة بالعار انه لم يكن يشاهدها رجل وقور حتى يشيح بوجهه مخافة أن يلحقه الاذى من لقاء شخص مثلها غارق في حماة الرذيلة وكان يصفها بالوضاءة والحسن. وقد عشقها أحد ولاة افريقية فاستصحبها ثم عادت الى الاسكندرية فبدأت تعدل عن الغواية شيئا فشيئا الى الزهد والعبادة، فالتقى بها في القسطنطينية القيصر جو حستينان (ياستيانس) فأفتتنصته بجمال فتنتها وأضحت له خليلة. مما يدل على أن مظهر النسك الذى اتخذته لنفسها كان احبولة من حبائلها لاصطياد القيصر فلما تزوجته تحولت الى داهية من دهاة السياسة فكانت مرجعا لزوجها القيصر في شؤون المقاطعات الشرقية كالشام ومصر تتصل بأبناءها وتعرف منهم ظروفها وأسرارها وكان القيصر محبا لها - غيورا عليها - حتى أنها كانت أقوى منه شخصية فذلته وسيطرت عليه بسبب ضعفه نحوها حتى أنه في احدى المرات اتهمته بالجبن ازاء بعض الاحداث الخطيرة التى مرت بها الامبراطورية على اثر ثورة نشبت في القسطنطينيه. وازاء ذلك فهى ذات علاقات سابقة برجال عرب وقد تكون سمعت عن

(55) المصدر السابق مقالة نجيب الارمنازى).

امرىء القيس وشخصيته الجذابة زاد من ذلك أنها بعد وقوع نظرها عليه وهو يستحم مع زوجها قد عشقته بفعل ما جربت من علاقاتها السابقة مع العرب ولذلك كان اتصالها به ممكنا، لان القيصر كان يستشيرها في أمور العرب التى كانت تعرفها بشكل تفصيلى ودقيق فيجب اذن أن تكون قد وقع شىء من التعارف السابق ثم متنته روابط البقاء في القصر مما أثار في ذهن «تيودورا» خيالا شرقيا جربته في أثناء سيرتها الاولى، وبالاخص كونها ذات ماض، ويوجد في حياة امرىء القيس ما يؤكد اتجاهه في نوازعه الجنسية نحو السيدات المتزوجات في قصيدتيه الطويلتين : المعلقة والقصيدة اللامية، حيث يصف في المعلقة اقتحامه لمخدع زوجة حسناء، بل يشير صراحة حين يخاطبها:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعا فالهيتها عن ذي تمائم مغيل

ويصف الحراس المدججين بالسلاح حول قصر منيف على قلعة منيعة، لكنه يدخلها بشجاعته المعهودة أما في لاميته المطولة : «الاعم صباحا أيها الطلل البالى» فهو يقول (56) :

سموت اليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله انك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت : يمين الله ابرح قاعدا و لوقطعوا رأسى لديك وأوصالى
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أي أذلال
وأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيء الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلنى والمرء ليس بقتال
ايقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولعل هذه الملاحظة الدقيقة ، ملاحظة النسيب العربى الذي يقال في عشق النساء المتوزجات هو الذي دفع بالباحث المستشرق بورداخ Burdach أن يرجع النسيب العربى الى شعر القصور اليونانية بالاسكندرية. كما هو الحال عند شعراء ملوك الاسكندرية وقد تصور بورداخ انتقال هذه الصناعة الى العرب عن طريق شعراء الملوك في الشام

(56 المصدر السابق وتراجع الابيات فى شرح البطليوسى ص 116 وذكر احسان سركيس فى كتابه (مدخل الى الادب الجاهلى ص 233 أن الشاعر تغزل بزوجة القيصر) ولم يذكر مصدرا لذلك.

والعراق. الا أن المستشرق كارل بركلمان (57) رد عليه هذا الزعم بأن مثل هذه الابيات الغزلية التى تشبه النسيب في مطالع القصائد وان لم تبلغ بعد نموا كاملا. يعرفها أيضا شعر القبائل التكرية في أوائل القصائد المطولة وفي أواخرها. ومهما كان نصيب رد بركلمان من الصحة، فان حالة امريء القيس الخاصة تبقى مؤشرا ينتظر معلومات جديدة أتى بها المجهول وتبقى ظاهرة تيودورا وانتقالها بين الشام والاسكندرية والقسطنطينية وملاحقة الشاعر امريء القيس بالنسيب للسيدات المتزوجات ظاهرة تجتذب اليها أكثر من مؤشر، وتعيد النظر في طبيعة شعر امريء القيس كله، وعلاقته بأطوار حياته التى ذكرناها في أول هذه الدراسة.

ثم تمضى المصادر في اتمام الخاتمة المأساوية التى رسمتها له الاقدار على يد الاسديين الذين كانت سيوفهم سببا في ازالة مملكة كندة ، ومما تجدر ملاحظته أن اسم الطماح الاسدي ليس الا وصفا له ورد في شعر امرىء القيس نفسه تناقلته المصادر حيث قال في سينيته المشهورة :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسنى من دائه ما تلبسا

قال شارح الديوان : الطماح رجل من بنى أسد اسمه حبيب ويقال منقذ الاسدي (58) وبذلك يكون اسمه حبيب أو منقذ بن قيس الاسدي وأول السينية المذكورة :

ألما على الربع القديم بعسعسا كأنى أنادي أو أكلم أخرسا
فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا وجدت مقيلا عندهم ومعرسا
فلا تنكرونى أننى أنا ذاكم ليالى حل الحي غولا فألعسا
فاما ترينى لا أغمض ساعة من الليل الا أن أكب فأنعسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة لعل منايانا تبدلن أبؤسا

ويقول فيها :

تأوبنى دائى القديم فغلسا أحاذر أن يرتد دائى فأنكسا
فيارب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا
ويارب يوم قد أروح مرجلا حبيبا الى البيض الكواعب أملسا
يرعن الى صوتى اذا ما سمعنه كما ترعوي عيط الى صوت أعيسا

(57) تاريخ الادب العربى 62/1.
(58) الديوان ص 105 (ق 13) وشرح البطليوسى 264.

أراهن لا يحببن من قل ماله ... ولا من رأين الشيب فيه وقوسما
وما خفت تبريح الحياة كما أرى ... تضيق ذراعي أن أقوم فألبسا

ثم يذكر قروحه التي سببها له الطماح لكنه لا يتطرق الى ذكر الحلة المسمومة أما الفعل (لبس) الذي ورد في البيت (ليلبسني من دائه ما تلبسا) فلا يشير حقيقة الى عملية اللبس المعروفة، لانه يحتمل المجاز في العملية ، وبالاخص أنه أتبعه بالفعل (تلبس) بتضعيف الباء، مع أنه اشارة ولو طفيفة الى لبس الحلة المسمومة ، وتذكر المصادر سينية أخرى يذكر فيها قروحه التي يشبهها بالنقرس. لعله لا يعرف بأن المرض الذي أصابه كان بسبب الحلة، وانما كان يعتقد بأنه مرض قديم عاد اليه. وقد نوه الى دائه القديم في السينية السابقة : «أحاذر أن يرتد دائي فأنكسا. كأن الشاعر كان يشكو من مرض قديم، وهو النقرس الذي عاد اليه الان وانتشر في جسمه فأصبح لانتشاره يبدو وكأنه يرتدي جبة (59) :

لمن طلل دائر آيه ... تقادم في سالف الاحرس
فأما تريتي بي عرة ... كأني نكيب من النقرس
وصيرني القرح في جبة ... تخال لبيسا ولم تلبس
ترى أثر القرح في جلده ... كنقش الخواتم في الجرجس(60)

ومما قاله في جبل عسيب، وكان محمولا في النعش، فرأي قبر امرأة من بنات ملوك الروم فسأل عنها فأخبر بقصتها، وكانت قد هلكت بأنقرة «(61) .

أجارتنا ان المزار قريب ... واني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا انا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب
فان تصلينا فالقرابة بيننا ... وان تصرفينا فالقريب غريب
أجارتنا ما فات ليس ينوب ... وما هو آت في الزمان قريب
وليس غريبا من تناءت دياره ... ولكن من وارى التراب غريب

---

(59) الديوان ص 339 [ق 80].
(60) الاحرس : جمع حرس وهو الدهر. والجرجس. الصحيفة.
(61) الديوان 357. 454 والشعر والشعراء 109/1 والاغاني 96/9

قال أبو الفرج : «ثم مات فدفن الى جنب المرأة، فقبره هناك، كان الرواة أبوا أن يتركوا الشاعر دون امرأة في عالمه الثانى كما لم يتركوه في حياته وقال أيضا عند موته (62) :

لقد دمعت عيناي في القر والقيظ وهل تدمع العينان الا من الغيظ
فلما رأيت الشر ليس ببارح دعوت لنفسى عند ذلك بالغيظ(63)

وقال لما حضرته الوفاة بأنقرة (64) :

رب طعنة مثعنجرة (65) وجفنة متحيرة
وقصيدة محبرة تبقى غدا بأنقرة

قال ابن الكلبى : هذا آخر شىء تكلم به، ثم مات «66) :

ولما بلغ السموأل موت امرىء القيس ، رفع ما خلف عنده من السلاح وغيره الى عصبته (اي ورثته) (67) فلما ذاع خبر موته. تحرك الملك الغسانى وهو الحارث نحو تيماء حتى طوق القصر الابلق مطالبا بتركة الشاعر الملك باعتباره أصبح من التابعية البيزنطية وباعتبار الحارث حامى الحدود الرومانية ، فامتنع عليه السموأل بحصنه الابلق، وهو مشهور بمنعته وقد غزته الزباء ملكة الجزيرة فعجزت عنه وعن حصن دارد أيضا. فقالت : تمرد مارد وعز الابلق فارسلتها مثلا. وكأن يقال له الابلق الفرد (68) تقول الرواية : وكان امرؤ القيس بن حجر أودع السموأل بن عادياء أدراعا مائة. فأتاه الحارث بن ظالم (69) ـ ويقال الحارث بن أبى شمر الغسانى ـ ليأخذها منه، فتحصن منه السموأل، فاخذ الحارث ابنا له غلاما وكان في الصيد فقال :

أما ان سلمت الادراع الى واما قتلت ابنك.

---

(62) الديوان ص 357 [ق 98].
(63) الغيظ : خروج الروح.
(64) الديوان ص 349 (ق 94) ورويت في الاغانى 96/19 والشعر والشعراء 119/1 بعض الاختلاف.
(65) مثعنجرة : سائلة منسكبة.
(66) الشعر والشعراء 119/1.
(67) المصدر السابق.
(68) تاج العروس مادة (بلق) .
(69) طبقات فحول الشعراء 279 والاغانى 118/9.

فأبى السموأل أن يسلم اليه الادراع . فضرب الحارث وسطه بالسيف فقطعه قطعتين فقال السموأل في ذلك :

وفيت بذمة الكندي انى ... اذا ما ذم أقوام وفيت
واوصى عاديا يوما بأن لا ... تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى لى عاديا حصنا حصينا ... وماء كلما شئت استقيت

وكان الشاعر (أعشى قيس) قد هجا رجلا من كلب، فاغار هذا الرجل على قوم قد بات فيهم الاعشى. فاسر منهم نفرا واسر الاعشى وهو لا يعرفه، ثم جاء حتى نزل بشريح بن السموأل بن عادياء الغسانى صاحب تيماء بحصنه الذي يقال له الابلق. فمر شريح بالاعشى فناداه الاعشى :

شريح لا تتركنى بعد ما علقت ... حبالك اليوم بعد القد أظفاري
قد جلت ما بين بانقيا الى عدن ... وطال في العجم ترددي وتسياري
فكان أكرمهم عهدا واوثقهم ... مجدا أبوك بعرف غير انكار
كالغيث ما استمطروه جاد وابله ... وفي الشدائد كالمستأسد الضاري
كن كالسموأل اذ طاف الهمام به ... في جحفل كمزيع الليل جرار
اذ سامه خطتى خسف فقال له ... قل ما تشاء فانى سامع حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فآختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير قليل ثم قال له ... اقتل أسيرك انى مانع جاري
فاختار ادراعه كى لا يسب بها ... ولم يكن وعده فيها بمختار

فجاء شريح الى الكلبى فقال :

ـ هب لي هذا الاسير المضرور.

فقال :

ـ هولك .

---

(70) الحارث بن ظالم أحد أوفياء العرب، وكان يومئذ هاربا من وجه الملك المنذر ماء السماء فلاذ بالملك الغسانى (تنظر دراسة عنه بقلمنا فى مجلة كلية الاداب — جامعة بغداد، العدد 15). وقد أورد ابن قتيبة فى الشعر والشعراء 118/1 اسما آخر غير الحارث بن ظالم أو الحارث الغسانى وهو الحارث بن مالك ، ولا نعرف عنه وراء اسمه شيئا وقد أعيدت سيرة الحارث بن ظالم فى هذا الكتاب أيضا.

(71) بانقيا : ناحية من نواحى الكوفة.

فأطلقه وقال

ـ أقم عندي حتى أكرمك وأحبوك

فقال له الاعشى :

ـ ان من تمام صنيعك أن تعطيني ناقة نجيبة وتخليني الساعة. فأعطاه ناقة فركبها . ومضى من ساعته .

وبلغ الكلبى أن الذي وهب لشريح هو الاعشى. فأرسل الى شريح :

ـ ابعث الى الاسير الذي وهبت لك حتى أحبوه وأعطيه.

فقال :

ـ قد مضى .

فأرسل الكلبى في أثره فلم يلحقه.

واذا كان أبو الفرج قد أشار الى قبر امريء القيس الى جوار الاميرة الرومية وقال انه هناك على جبل عسيب. فقد أشار اليه البحتري أيضا لما مدح المأمون في احدى غزواته الصائفة حيث قال :

وأزرت الخيول قبر امرىء الـ ـقيس سراعا فعدن منه بطاء

فرأى الخليفة المأمون قبر الشاعر بنفسه .

ويقال ان الاغريق أقاموا تمثالا على قبر امريء القيس. كما كانوا يفعلون في تكريم أحد كبار القوم . وان الخليفة المأمون قد رأى هذا التمثال في أنقرة (72) ويقال ان قيصر الروم لما بلغته وفاته أمر فنحت له تمثال نصبوه على ضريحه . وان أحد أصدقاء يوسف اليان سركيس وهو الفونس بليط الحلبي الذي سكن أنقرة عدة سنوات قد رأى هامة هذا التمثال بأنقرة قرب دار السراي في سنة (1895 م) (73). وورد في تاريخ ابن عساكر (74) . أن امرأ القيس كان في اعمال دمشق . وان (سقط اللوي) و الدخول و حومل و توضح و المقراة الواردة في مطلع معلقته اماكن معروفة بحوران ونواحيها. وهذا يؤكد ما ذكرناه لدى

(72) أولندر ص 174.

(73) معجم المطبوعات العربية والمعربة ص 471.

(74) الجزء الثالث ص 104 نقل ذلك صاحب معجم المطبوعات (ص 471.)

حديثنا عن المرأة تيودورا التى رجحنا أنها كانت المرأة التى تعرضت لامرىء القيس وعشقته وكانت سببا في فشل حملته، واقتراحنا اعادة النظر في قصائده التى فيها نسيب بالسيدات المتزوجات. وهى قصائد لاتخلو من مؤشرات يونانية عن طريق قصور الاسكندرية.

واشارة ابن عساكر الى هذه الوظيفة تعد أقدم الاشارات العربية. أما المصادر اليونانية فقد أورد بركوبيوس Procopius ونونوز Nonnosus أن رجلا يدعى قيسا Kaisos. سيد كندة كان أحد الزعماء العرب الذين زاروا القسطنطينية وذلك في عهد القيصر جوستنيان Justinianus ولاشك أن رواية ننوز ذات أهمية كبيرة لانها تعاصر الاحداث وأن والد ننوز كان من رسل القيصر الى الملك وكذلك بالنسبة لبروكوبيوس. وقد فحص أولندر تطابق أسماء (قيس) و (امرىء القيس) فحصا دقيقا. كما فعل جلازر Jlasser مثل فعله. ولعل ما ذكره ابن عساكر عن قيام امرىء القيس بمهام أعمال دمشق هو الذي يطابقه ما قال به جلازر من أن امرأ القيس اعتلى منصبا في فلسطين . وأما اسم يزيد Le zidos الوارد في رواية تنوخ والذي ترك له امرؤ القيس امارته فهو نفسه الذي ترك معه ابنته وثروته في الابلق وهو يزيد بن معاوية بن الحارث ابن عم الشاعر (76) وان كان أولندر (77) قد رجح في هامشه. نقلا عن المحبر أنه يزيد بن سلمة وكان أحد جراري العرب ممن يقود ألفا. لكن الرواية التى رجحناها أقرب الى ما ذكر ننوز وقد افترض اولندر أن اقامة الشاعر في جوار القيصر جوستنيان قد امتدت الى بضعة أعوام، وافترضنا أيضا أن يكون موته في عام (540 م) على وجه التقريب. وهو افتراض ورد عند غيره أيضا (78). وبذلك يكون موت الشاعر امرىء القيس معلقا بذمة الرومان. لان السياسة الخارجية البيزنطية قد اقتضت ذلك. فقد كانت روما تدفع الجزية الى الفرس فلم يكن من مصلحتها أن تفرط بهذه الهدنة مع أعدائها من أجل عربى طموح يسعى الى مجد قومه ونفسه. لذلك رأت السلطة الرومانية

(75) ملوك كندة ص 174 وما بعدها.
(76) الاغانى 69/9.
(77) ملوك كندة 179.
(78) أورد مثل هذا التاريخ كتاب المفصل 531/9 نقلا عن علماء آخرين عرب ومستشرقين

تصفيته جسديا، وبالاخص ما ذكرناه عن جستنيان حيث مست قضية الشاعر أعز مقدساته. وعرضت حبه لتيودورا لمهب الريح. وهو الذي ركع تحت قدميها أعواما طوالا وسلمها مفاتيح مملكته . يضاف الى ذلك ما عرف عن جستنيان من المراوغة والخداع في حياته السياسية والخاصة الامر الذي جعل قضية امرىء القيس تتحول الى مأساة شخصية ودولية معا. وبذلك يكون امرؤ القيس قد عرف خفايا أرضه العربية يوم عزم على توحيد القبائل واستعان بقوة خارجية رغم ارادته. لكنه جهل خفايا السياسة الدولية والتحول الطارىء في موازين القوى بين الشرق والغرب، وطبيعة الغدر التي جبل عليها المحتلون والطامعون من الشرق والغرب فذهب الشاعر الحالم ضحية هذا الواقع الملغوم. وذهبت قضيته في أدراج الرياح. لكن بقيت أجزاء ومقاطع من ملحمته الخالدة انشودة عذبة على شفاه الاجيال الطالعة ترددها في كل حين.

مصـــادر البحث ومراجعه بحسب تسلسل ورودها فيه :

1 ـ تاريخ الادب العربى ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ الجزء الاول ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر 1968.

2 ـ ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ـ طبعة ثانية 1964.

3 ـ شرح الاشعار الستة الجاهلية للوزير أبى بكر عاصم بـن أيـوب البطليوسى ـ تحقيق الاستاذ ناصيف عواد ـ نشر وزارة الاعـلام العراقية 1979.

4 ـ مجلة المجمع العلمى العربـى 17/974 ـ 407. 487 ـ 500 مقـالة القيصر وامرىء القيس.

5 ـ مجلة الموقف الادبى ـ العددان 104 ـ 105 كانون الاول 1979 وكانون الثانى 1980 دمشق ـ مقالة بعنوان : الموثبات في الادب العربى ، للدكتور عادل جاسم البياتى.

6 ـ تاريخ الادب العربى ـ ريجيس بلاشير ـ ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلانى ـ وزارة الثقافة ـ دمشـق.

7 ـ السيرة النبوية لابى الفداء اسماعيل بن كثير ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ القاهرة 1384 هـ ـ 1964م.

8 ـ كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ـ نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية.

9 ـ كتاب أيام العرب لابى عبيدة ـ تحقيق ودراسة للدكتور عادل جاسم البيـاتى ـ دار الجاحظ ـ بغداد 1976.

10 ـ مجلة آفاق عربية العدد 9 لسنة 1976 ـ مقـالة بعنـوان : البطـل الاسطوري والملحمى في الادب العربى للدكتور عادل جاسم البياتى ـ ومقالة أخرى لنـا في آفاق عربية العدد 5 لسنة 1979 بعنوان الطفولة ومشاهدها المتغيرة في الادب والتراث. وأعيد نشرهما هنا في الجزء الاول.

11 ـ ديوان النابغة الذبيانى ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصـر 1977.

12 ـ ديوان عمرو بن قميئة ـ تحقيق خليل ابراهيم العطيـة نشر وزارة الاعلام العراقية 1972 وأيام العرب لابى عبيدة (يوم الكلاب الاول) 398

13 ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ـ تحقيق أحمد محمد شـاكر دار المعارف بمصر 1386 هـ ـ 1966 م.

14 ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام ـ تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدنى 1972.

15 ـ المحبر لمحمد بن حبيب ـ طبع الهند ـ تحقيق الدكتورة ايلزة شتيتر

16 ـ ملوك كندة من بنى آكل المدار ـ لجونار أولندر ـ ترجمة الدكتور عبد الجبار المطلبى ـ جامعة بغداد 1973.

17 ـ الشعر في حرب داحس والغبراء ـ د. عادل جاسم البياتى ـ طبـع النجـف 1972.

18 ـ اللسـان ـ لابن منظور ـ طبعة بيروت .

19 ـ ديوان امرىء القيس والمراقسة ـ نشر الاستاذ حسن السندوبى.

20 ـ ديوان عمرو بن قميئة ـ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة 1965 م.

21 ـ معجم ما استعجم للبكري ـ تحقيق مصطفى السقا 1945.

22 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على ـ دار العلم للملايين بيروت 1972.

23 ـ تاريخ اليعقوبى لاحمد بن أبى يعقوب (294 هـ) النجف 1358 م.

24 ـ المفضليات للضبى ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر والاستاذ عبد السلام هارون ـ دار المعارف الطبعة الرابعة.

25 ـ مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد السابع لسنة 1942 مقالة بعنوان : القيصر وامرىء القيس للاستاذ نجيب الارمنازى .

26 ـ مدخل الى الادب الجاهلى ـ احسان سركس ـ دار الطليعة ـ بيروت

الفصل الثاني

نصوص دينية جاهلية

1 ـ شعر الاحناف دراسة وتحليل

2 ـ نصوص التلبيات قبل الاسلام

شعـــر الأحنـــاف : دراســـة وتحليـــل

نشرت فى آداب المستنصرية (العدد 5) ثم أعيد نشرها فى مجلة «الشعر» فى القاهرة (العددين 36 لسنة 1984 و 37 لسنة 1985).

(أ) الاحنـــاف :

هذه دراســة تبحث في مرحلة مجهولة من حياة الشعر العربى، لم تلـق عنايــه القدمــاء ولا المحدثين ، لانها انحســرت الى الظل في منطقة غيــر منظورة، فلم يسلط عليها اي ضــوء لدى قيام المستشرقين، ثم تابعهـــم العرب فيما بعد، بتوزيع مراحل التطور للادب العربى على عصور مفتعلة يتحكم فيها التاريخ السياسى وغيره (1). أما بخصوص القدماء، فالــرواة لم ينتخبوا من هذه المرحلة ما يرقى في نموذجه الفنى الى مستوى الشعر الجاهلى الذي تعكسه المعلقات وكتب الاختيارات والحماسات والمجمهرات والمنتقيات والدواوين ، وان كان ركز من شعــر التوحيد قد روي في هذه المـــوارد الكلاسية ، ولم ينتخبوا أيضا ما يرقى الى مستوى الشعر الاسلامى الــذي يعكسه شعر جرير والفــرزدق والاخطل والراعى وكثير وغيرهم.

لقد شهــد العهد المكى الاول ، واريد به ارهاصات الرسالة قبـــل نزولها، عنفا قوميا ووطنيا وأهليــا، وعاش صراعا دينيا وسياسيا في وقت معا. فقد كان العرب يديرون حروبــا قومية كبيرة في أطراف وطنهــم في اليمن والعراق والشام ضد احتــلال الجيوش الاجنبية، كان آخرهـــا في خاتمة هذا العهــد المكــى ابان البعثة، وهى حرب ذي قــار المشهــورة. وكان أول هذا العهــد ، قد شهد غزوا لليمن تفــاقم وامتد حتى بلغ بطــاح مكــة قام به الإحباش يقودهم أبرهة الاشرم (2). واندلعت في هذه الآونة حروب وطنية وأهليــة خمد بعضها في مطلع العهــد المكي ، وهى حــروب

(1) أشــار بروكلمان فى الجزء الاول من كتابه تاريخ الادب العربى (مترجم) الى من فعل ذلك من الغربيين ثم الباحثين العرب.

(2) تراجع السيرة لابن هشام 43/1 وفيها سبب تلقيبه بالاشرم.

الفجار ، وبقي بعضها الآخر حتى آخر هذا العهد، وهي حرب داحس والغبراء، وحرب الاوس والخزرج (3).

وكان العنف الديني على اشده بين ارباب الكتب السماوية انفسهم، حتى بلغ لدى الملك الحميري اليهودي ذي نواس (523 م) حد الوحشية في تنفيذ مجازر بشرية بشعة ومحارق كان وقودها ابرياء من نصارى نجران، القي بهم في أخاديد من لهب مستعر يصل عددهم الى عشرين الف ضحيه عند بعض المؤرخين (4)، واشار القران الكريم الى الحادثة (5). وقد كان العنف الديني بين الموحدين والوثنيين على اشده ايضا، يدل عليه اضطهاد طائفة منهم، على راسهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي بقي مصيره الحقيقي مجهولا بين القتل على أيدي الوثنيين، من رجال القبائل او ملوك غسان او الهرب في محاولة انتحارية الى اعماق الصحراء الموحشة (6). وعثمان بن الحويرث الذي سلم بجلده من وثنيي مكه، لكنه لقي حتفه بحلة مسمومة على يد قيصر الروم، لانه ابى ان يغزو قومه وبلدته المقدسة بجيش رومانى، أخذا بنصيحة اعرابي له بأن لا يدل الروم على أرض بلاده، وكان سلفه امرؤ القيس الشاعر قد لقي نفس هذا المصير (7). واذا اردنا ان نرمز لشدة العنف الديني بين الوثنيين والموحدين ، فان صورته تتجسد في معاناة الرسول واصحابه في انواع الاذى والتعذيب والقتل.

وكان الصراع السياسي على السلطة شديدا بين ملوك اليمن وملوك كندة وملوك الحيرة وملوك الشام وامراء القبائل وشيوخها وسادات المدن ورجالاتها. وكان الصراع بين رجال المملكة الواحدة نفسها شديدا أيضا، يجري بتدبير من يد اجنبية أو محلية، مما عكس على وضع البلاد العربية ظلا قاتما من القلق وعدم الاستقرار، وتصاعد الاحداث المستمرة، حتى أن

---

(3) كتاب أيام العرب في الجاهلية ص 6 وص 246 ومابعدها. وص 322 ومابعدها.
(4) السيرة لابن هشام 36/1 وينظر بلاشير 64/1 وما بعدها.
(5) البروج 4/85.
(6) سنتصل بنبأ حياته وشعره في أكثر من موضع من هذا البحث ويراجع المسعودي في مروج الذهب 50/2 حيث ذكر انه سمه بعض ملوك غسان. وورد ايضا أن عامر بن صيفي المعروف بالراهب لبس المسوح وقال : جئت بالحنيفية دين ابراهيم. ولم يؤمن بالاسلام فسماه الرسول بالفاسق، واستعان بالقيصر لتوجيه جيش لكن مات في الطريق. (مجمع البيان) 64/9، 500/3 طبع طهران.
(7) السيرة لابن كثير 165/1.

العهد المكي شهد صورة مصغرة من تجسيد هذا النزاع السياسي متمثلا في اشتباك الاسرة المكية في حرب غير منظورة على السلطة أو احتلال مراكز القوة في دار الندوة، برز ذلك في وضوح عند حادثة قد تكون صغيرة في حجمها لكنها كبيرة في مدلولها، وهي حادثة تنافس المكيين على مختلف قبائلهم حول نقل الحجر الاسود المقدس، وما أعقبه من تصرف كيس وحكيم قام به محمد الامين، الصادق، ليحل نزاعهم، فارتضوا به حكما عدلا. ولا يخفى ما للسلطة الدينية من تأثير في اجتلاب السلطة الدنيوية وبالتالي في استقطاب الدور القيادي في رحلات مكة التجارية، وعلى وجه الخصوص رحلات الصيف والشتاء المنظمة بعهود (الايلاف) المكتوبة مع القبائل والملوك.

وقد أفاضت مدونات الاوائل والموارد الاسلامية بالاستشهادات الواضحة من شعر ونثر في أحداث التاريخ، حتى انهم بالغوا في ذلك فابتدؤا بالخليقة وآدم ، وانتهوا بالمغازي والفتوح والسير، كأنهم يستعرضون أحداث ملحمة يلعب فيها الشعر دورا رئيسيا، متكلما بلسان الابطال، والنثر الى جانبه يسرد الاحداث ، فالنثر راوية الاحداث، أما اذا أراد البطل أن يتحدث ، فكلامه شعر، وعندئذ يسكت الراوية ويتكلم البطل، مما زين لبعض الباحثين أن يعزو هذا العرض القصصي الخاص بأدب العرب الى نفس ملحمي. ولا أراه قد جانب الصواب كثيرا (8).

وازاء هذا المناخ المتقلب، والظروف السياسية والدينية، كان الشعر يمثل المقياس الدقيق للعواطف والاهواء والحوادث والافكار المنطلقة في ساحة الصراع آنذاك. فقد تركت لنا أشعار أمية بن أبى الصلت ولبيد بن ربيعة، برغم ما لحقها من التشويه والتحوير، خلاصة نافعة لجانب من فكر الموحدين وثقافاتهم. وقدمت لنا أشعار قس بن ساعدة وزيد ابن عمرو بن نفيل أجزاء مقروءة من حياة الموحدين. وقد فتحت الاشعار

---

(8) شعر الحرب فى أدب العرب ص 27 (دار المعارف بمصر 1970 طبعة ثانية) حيث عرض فى هذ الصفحات صورة قريبة كل القرب من حياة الشعر الحماسى، مرجحا أن جميع هذه الحماسات ملاحم متصلة الحلقات منذ عهد الرسول. واذا كان الباحث لم يلمس فى الشعر الجاهلى مثل هذا الاتجاه، فقد تحدثنا عنه فى كتابنا (أيام العرب لابى عبيدة) وبحثنا عن الملاحم العربية فى مجلة الكتاب — العدد الرابع لسنة 74 بغداد ومقالتنا عن البطل الملحمى فى مجلة آفاق عربية العدد 6 لسنة 1975. وهى فى هذا الكتاب — الجزء الاول.

المنسوبة الى أبي طالب بن عبد المطلب آفاقا رحبة لم نكن نحسب أنها تنتمي الى تلك العوالم التوحيدية العريقة . إن ما كنا نظنه شعرا ضئيل القيمة ، ظهر أنه من بقايا الوقعات التي خاضها الفكر العربي وهو يشق طريقه الخاص لتأكيد رؤيته الاصيلة للكون والعالم ومبدعهما، لكنها بقايا أنعبتها الرحلة الطويلة الشاقة منذ العهد المكي الاول حتى يوم تدوينها في الصحف الاسلامية في القرن الهجري الثاني.

لقد تعرض هذا الشعر الى مثل ما تعرض اليه الشعر الجاهلي من الاعراض والاتهام والشك، وعده ناس كثيرون من عمل القصاص ورواة الاخبار وكتاب السير، ولا تخلو هذه الطعون من اساس نقف عليه مزاعم المعترضين، وهو اساس يملك قوة الاسباب التي هوجم بها الشعر الجاهلي. ومع ذلك تبددت الاتهامات والاعتراضات والشكوك وبقي الشعر الجاهلي. واذا كان ما روي من شعر الموحدين بعد القرن الهجري الاول او اثناء ذلك قد ضاع اكثره ولم يدون، فان ما بين ايدينا هي الصورة المحكية، نتلمس اليها طريق الاستقصاء والبحث، أما اذا كانت بعض أجزاء من الاصل مدسوسة او مزروعة في هذا الجسم المصنع تصنيعا اسلاميا، فالفائدة هنا اكبر . وفي كلتا الحالتين، حالة الصورة المحكية، وحالة الجسم المصنع المزروع ببعض اجزاء الاصل، نستطيع ان نتقدم، ولو خطوة بسيطة ، نحو اماطة اللثام عن كثير من أسرار الفترة الغامضة من حياة الشعر العربي الذي قام بتأدية دوره. ناضجا في مرحلة الصراع، بل المخاض العسير، قبيل المولد والبعث.

وقد سبق أن نوهت في أول البحث، بأن هذا المظهر الشعري في تاريخ العرب الادبي لم يتوفر له الظرف الملائم ليعرف طريقة الى الرواية الشفوية ثم المدونة، لانه رافق مرحلة أدبية انحسرت الى الظل فلم يسلط عليها النور الذي سلطه الرواة على المراحل المتقدمة من الادب الجاهلي، او اللامعة من الادب الاسلامي. والسبب، يمكن حصره في طبيعة المرحلة المبحوثة نفسها، فهي تشكل ميلا نحو غروب عهد قديم، هو العهد الوثني، لانها مرحلة انحسار عقائدي لتيار شامل ، أعقبه ركود آني في الانماط الادبية المشايعة له في حين تهيأت للادب الجديد، لدى بزوغ فجر الاسلام وانتشاره، اسباب اكتماله ونهوضه.

واذا كان شعر الموحدين يعد من شعر المقاومة الذي نهض في وجه الحاكم المكي المتمثل في شخصية أبى الحكم بن هشام المخزومى المشهور بأبى جهل لا لنقص في ثقافته الوثنية أو معارفه الاجتماعية، فهو أكبر من أن ينعت بذلك، وانما لجهله بأمور التوحيد والدين الجديد، وفي وجه مشركي مكة ووثنييها، فهو لم يلق من المسلمين القناعة التامة ولا الاستقبال الحسن، لان أصحابه، وقد خرج الاسلام من السر الى العلن، لم يستطيعوا أن يكيفوا أنفسهم لشعائر عبادته وطقوسه، اذ ستلقانا حالات تؤيد ذلك، كما في حالة أمية بن أبى الصلت الذي لم يشفع له كل نسكه الشعري في التوحيد الالهى، وحالة أبى طالب الذي لم يخرج دفاعه الابوي الشعري عن الرسول في العهد المكي، من تهمة الشرك التى ظلت تلازمه حتى بعد وفاته. فقد ورد هذا الدفاع في شكل قصيدة ثبتتها المصادر.

ولعل اعراض مؤرخى الادب والرواة عن ان يؤرخوا لهذه المرحلة المكية المتأخرة على العصر الجاهلى، والمبكرة من العصر الاسلامي، كان بسبب ما يعتقونه من الحرج في بعض المواقف الادبية والمرويات الشعرية وبالاخص ما وافق منه التنزيل أو الحديث، في حين تحرج آخرون من التوغل في هذه المرحلة لانها غير مشرفة للمكيين ومن والاهم من رجال القبائل الحليفة والمجاورة بعد انتصار التوحيد، وبالتالي فان ما أصاب الادب عامه من ندرة الكتابة وانعدام المدونات وانشغال الرواة بالجهاد ومدارسة العلوم الاسلامية الجديدة، انسحب على هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الادب الاسلامى أيضا. فليس اشعار الموحدين أو ما اصطلح عليهم بالاحناف هى وحدها التى لم تصل الينا، وانما لم يصل الشعر الوثنى عموما ، ولا الشعر الذي كان ينشد بالدعوة الاسلامية عند ظهورها في مكة، حيث كان الرسول (ص) وحده لا نصير له الا بعض أفراد قلائل من اهله. ولم يتحقق انه كان في هذه الاثناء صوت شعري اسلامى ارتفع ليناصر الرسول في أيامه الاولى، سوى ما ينسب لابى طالب مع ضعف روايته والطعون الموجهة اليه، رغدا ما اثر من شعر قيل في هجرة الحبشة. لذلك أتلفت كل المعطيات الوثنية المنددة بالدين الجديد، ولم يضف الاخباريون شيئا آخر، ولو كان هناك شعر اسلامى لما اعرضوا عن ذكره، لانهم اعتادوا أن يذكروا أشعار المسلمين ويحجموا عن شعر خصومهم، كما فعلوا في المناجزات الشعرية والرجزية بين الطرفين في وقعة بدر الكبرى وأحد

والخندق وغيرها. فكان الراوية المسلم يورد القصيدة تامة لاخيه الشاعر المسلم، ويجتزيء أبياتا من قصيدة الشاعر المشرك، بل عمد الجيل الثاني من الرواة الى اسقاط ما تسامح الجيل الاول بروايته من شعر الوثنيين، والامثلة متعددة في كتاب السيرة لابن هشام، حيث ينص في عدة مواضع على أنه اسقط البيت الفلاني من تسلسل القطعة أو المجموعة لان فيه تعريضا بالاسلام أو بالرسول (ص). ولو كنا نشيء من هذه المناجزات قد وقعت في العهد المكي الاول لوصل الينا جانب منها دون تردد. ونحن نرجح عدم ارتفاع أي صوت شعري متميز بين المسلمين في هذه المرحلة وعلى وجه الخصوص اذا ما تذكرنا موقف القرآن الكريم ضد قضية اتهامه واتهام الرسول بالشعرية. فالاسلام، يومئذ، لم يكن بحاجة الى الشعر ولا الرسول الى شاعر ، فقد كان الموقف يفوق الشعر ومعاركه. قد يتبادر الى الذهن عند اطلاق مصطلح (الموحدين) ، اننا سنضم الى مجموعتنا أشعار الشعراء اليهود والنصارى والصابئة. والحقيقة، ان طبيعة شعر الموحدين وتكوينهم الثقافي الخاص يخولنا فرزهم عن الكتابيين ، ثم دراسة الظاهرة منفردة، فاذا أضيف اليهم شعر الكتابيين ثم شعر الوثنيين الذين اصطلح القرآن على تسميتهم بالجاهليين، نسبة الى الجهل بالتوحيد، والاميين، نسبة الى الامة التي لا كتاب لها (9)، فالمصطلحان يسيران متوازيين ، اجتمع لدينا موضوع كبير هو الشعر الديني.

أما مميزات الشعر التوحيدي أو شعر الاحناف ومظاهر تكوينهم الثقافي فيتلخص في مسألة جوهرية، هو أن جميع من ذكرناهم من اصحاب الكتب السماوية لم يعودوا في عقيدة الاحناف الذين هم ورثة ابراهيم الخليل، موحدين بالمعنى الحقيقي لكلمة التوحيد، فقد ذكرت المصادر أن محاولات زيد بن عمرو بن نفيل في ترجيح دين من الاديان السماوية المبشرة في بلاد العرب كان أمرا في غاية الصعوبة بل من المستحيل قبوله. فمما ذكره ابن عمر (10) أن زيد بن نفيل، خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال :

ـ اني لعلي أن أدين بدينكم فأخبروني.

(9) تراجع مقالتنا : مدلول مصطلحي الامية والجاهلية . مجلة كلية الاداب ـ بغداد العدد 27. ونشرت في الجزء الاول من هذا الكتاب.

(10) الروض الانف 146/1.

فقـال العالم اليهـودي :

- لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله.

قـال زيـد :

- ما أفر الا من غضب الله، ولا أحمل من غضـب اللـه شيئـا ابـدا. وانى استطيعـه فهل تدلنـى على غيـره.

قـال العالـم :

- ما أعلمـه الا أن يكـون حنيفـا.

قـال :

- ومـا الحنيـف ؟

قـال :

- دين ابراهيم، لم يكن يهوديا ولا نصرانيـا ولا يعبـد الا الله.

فخرج زيد فلقي عالما من النصارى، فذكر مثله . فقال العالم النصرانى:

- لن تكون على ديننا حتى تاخذ نصيبـك من لعنـة الله.

قـال :

- ما أفـر الا من لعنة الله، ولا أحمـل مـن لعنـة الله ولا من غضبـه شيئـا أبـدا . وانى استطيع فهل تدلنى على غيـره.

قـال :

- مـا أعلمـه الا أن يكـون حنيفـا.

قـال :

- وما الحنيـف ؟!

قـال :

- دين ابراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبـد الا اللـه.

فلما رأى زيـد قولهم في ابراهيـم خرج ، فلمـا بـرز رفع يديـه فقـال :

- اللهم انى اشهدك أنى على ديـن ابراهيـم.

وعن اسماء بنت أبي بكر الصديق (11)، انها رأت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول :

- واللـه ما فيكم على دين ابراهيم غيري .

وكان زيد، يحيى المؤودة ، يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته : «لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها» فيأخذها، فاذا ترعرعت قال لابيها : «ان شئت دفعتها اليك . وان شئت كفيتك مؤونتها» . ولقي النبي (ص) زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل «بلدح» قبل أن ينزل الوحي عليه، فقدمت الى النبي سفرة فأبى زيد أن يأكل منها. ثم قال : «اني لست آكل مما تذبحون على انصابكم ولا آكل الا ما ذكر اسم الله عليه». وان زيد بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول «الشاة خلقها الله، وانزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الارض الكلا، ثم تذبحونها على غير اسم الله» انكارا لذلك واعظاما له. وكان السهيلي ينقل حديثه هذا عن البخاري معقبا على أن فيه سؤالا : كيف وفق الله زيدا الى ترك اكل ما ذبح على النصب ، وما لم يذكر اسم الله عليه، ورسول الله كان أولى بهذه الفضيلة في الجاهلية لما ثبت الله له ؟ والجواب ـ لدى السهيلي ـ من وجهين : احدهما أنه ليس في الحديث حين لقيه ببلدح، فقدمت اليه السفرة قوله : «لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه». والجواب الثاني أن زيدا انما فعل ذلك برأي رآه لا بشرع متقدم. وانما تقدم شرع ابراهيم بتحريم الميتة لا بتحريم ما ذبح لغير الله، وانما نزل تحريم ذلك من الاسلام. وملاحظة السهيلي هنا صحيحة، فذكر اسم الله من الاضافات الجديدة للاسلام على ما جاء في الحنفية الخليلية. وبعض الاصوليين يقولون : الاشياء قبل ورود الشرع على الاباحة، فان قلنا بهذا وقلنا أن رسول الله كان يأكل مما ذبح على النصب. فانما فعل امرا مباحا، وان كان لا يأكل منها فلا اشكال . وان قلنا ايضا، انها ليست على الاباحة ولا على التحريم، وهو الصحيح، فالذبح خاصة، لها أصل في تحليل الشرع المتقدم كالشاة والبعير ونحو ذلك مما أحله الله في دين من كان قبل الاسلام، ولم يقدم في ذلك التحليل المتقدم ما ابتدعوه، حتى جاء الاسلام وانزل الله سبحانه : «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» الا ترى كيف بقيت ذبائح أهل الكتاب

---

(11) المصدر السابق نفسه.

عندنا على أصل التحليل بالشرع المتقدم ، ولم يقدم في التحليل ما احدثوه من الكفر وعبادة الصلبان، فكذلك كان ما ذبح أهل الاوثان محلا بالشرع المتقدم ، حتى خصه الله في قرآنه بالتحريم.

كان ذلك توضيح ما ذكرناه من خصوصية الفكرة الحنيفية بين مختلف العقائد السماوية والارضية ، الكتابية والوثنية . وتوجد في حياة كل حنيفي موحد في العهد المكي الاول معاناة وحادثة مثل الذي ذكرناه في حياة زيد بن نفيل. لذلك، نظر الموحدون، وبالاخص الاسلام، الى هذه العقائد جميعا على أنها افرادية وليست توحيدية، أي أنها كانت تفرد الها من الهتها الى جانب الاله الاعظم فتخصه بالتقديس. لذلك جاءت دعوى النبي موسى مؤكدة على فكرة التوحيد الا أن اصرار بني اسرائيل كان على التفريد، واعقبتها دعوة النبي عيسى في نفس الاتجاه، لكن ظلت النصارى وقبلهم اليهود يعطون للطبائع البشرية صفة الله معبود. ويبدو من موقف الاسلام من الصابئة انها لم تخلص التوحيد لبارئها، فتورطت في نفس ما تورطت به الاتجاهات الاخرى، وجعل الاسلام العقيدة المجوسية الى جانب الديانات المتورطة، قال تعالى في سورة الحج «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا، ان الله يفصل بينهم يوم القيامه ...» ففي هذه الآية ثلاثة أنواع من العبادات، فصلت بينها لفظة «الذين» فالاولى توحيدية (الذين آمنوا) وهم الحنيفيون ثم المسلمون الذين مد لهم القرآن جذورا الى ابراهيم في قوله تعالى في سورة آل عمران «وما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما» فكان الاحناف الذين ندرس شعرهم الان، جسورا عبرت عليها ديانة ابراهيم الاوري (12)، وأوعية حفظت طقوسه وشعائره في (حلق الشعر) مثلا و (ختن الاولاد) و (سدانة البيت) و (الحج) و (اجتناب الرجز والبغي والخمرة) وترك (عبادة الاوثان) و (اعتناق الفضائل والخير) (13). واما النوع الثاني من العبادات المنوه بها في سورة الحج المذكورة آنفا، فقد فصلتها لفظة «الذين» ايضا في قوله : «والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس». فهي عبادة تفريدية ولم

---

(12) كما عبر عن ذلك ريجيس بلاشير في كتابه تاريخ الادب العربي وهي نسبة الى مدينة (أور) في جنوب العراق، خرج منها ابراهيم لاول مرة (يراجع كتاب العرائس أو قصص الانبياء).

(13) يراجع المحبر لابن حبيب من ص 336 وما بعدها.

يكن شعارها قولة : «لا إلـه الا الله» وانمـا كـانت دعـوتهـم مشـوبـة بالشرك، فكأنهم كـانوا يقفون موقفـا وسطـا بين «الاحناف الموحديـن» وبين «الكفـار المشركين» . أما اليهـود فاتخاذهم العجل ينص عليهم شركهم، وقد وردت عدة آيـات في عدة سـور تؤكد ذلك. واما النصارى فلم يزل الثالوث يثلب توحيدهم ويضعهم في عـداد التفريديين، وقد ورد قوله تعالى في سـورة النسـاء «ولا تقولوا ثلاثة انتهـوا خيرا لكم، انمـا الهكم الـه واحـد» وقوله في سـورة المائـدة «لقد كفـر الذين قالـوا ان الله ثالـث ثلاثة، وما من الـه الا الـه واحـد» ولا يخفى أن ظاهـرة الثواليث المقدسة هى في الاساس فكـرة وثنية، تتجلى لـدى اليهـود في : «الله ، الانسان. الطبيعـة، وابتدع النصارى ثالوثهم : الاب والابن وروح القـدس. وصنف القرآن المجوسية في صف الافراديين لا التوحيديين، والمجوسية نحلة قالت بالاصلين، وخصت النار بالتقديس. واما النـوع الثالث من العبادات، فهى تدخل في عداد قوله تعالى «والذين أشركوا» من الآيـة المتقدمة. وهى عبارة واسعة تضم كل أنواع العبادات الوثنية من الروحية الى المادية الى عبادة قـوى الطبيعة والانسان والحيوان والحجارة في صـورة صنم أو وثن. ويختص بعبادتها أولئك الذين كرسوا الشرك حتى لم يعـد للخالـق ذكر على السنتهم، وانما صارت الهتهم الثانوية هى الاثيـرة عندهم وتأخرت الآلهـة الرئيسـة، وذلك تطمينـا لمصالحهم المتعددة في الحياة، فاطلقـوا عليهم اسم الشركـاء. وقد جسد القرآن الكريم ذلك في سـورة الانعـام فقالـوا هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فـلا يصل الى اللـه، وما كان للـه فهو يصل الى شركائهم» وفي سـورة الروم «ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء. وكانوا بشركـائهم كـافرين» ومـا ورد في سـورة الانعام يؤكـد المصلحة الطبيعية في الوثنية، وظلم الحكام المدعوم بافتراءات الكهان ورجال الدين، مثال ذلك انهم كانـوا يختطون في وسـط حقولهم فيقسمونها الى اثنين ، فما دون هذا الخط لآلهتهم وما ذرأه الله، أي خلقه واكثـره من الزرع، فان سقـط فيما جعلوا لآلهتهم شيء مما جعلوه للـه أقروه وتركوه، وان سقط مما جعلوا لآلهتهـم شيء فيما جعلـوه لله، ردوه. ثم يرسلـون الماء في الذي سمـوه لآلهتهم، فان انفتـح سموه للـه فسدوه، وان أرسلوا في الذي سموا لله فـانفتـح في الذي سموه لآلهتهـم

قالـوا : اتركـوه فانه مقير اليه (14)، وهو تفسير قوله تعالى «وجعلـوا لله ممـا ذرأ من الحرث والانعـام نصيبا فقالـوا هذا للـه بزعمهـم، وهـذا لشركائنا..» وهى الايات المستشهد بهـا قبل قليـل، وهى عملية تبريـر ليسلبـوا ما بأيـدي غلاحيهم وعمال ارضهم باسم الآلهـة. ومع ذلك فلهذا النص القيم عـدة مؤشـرات :

1) انهم كانوا يعرفون الله ولا ينكرون وجوده ،

2) انهم كانـوا يشركون به آلهـة أو معبودات فيما له من حقوق،

3) ان السلطة القوية كانت بأيـدي المشركين بدليل «أن ما لشركائهم فلا يصل الى الله، وما لله فهو يصل الى شركائهم»،

4) أن الله الواحـد الاحـد، كان يلوذ به الضعفـاء والمنسحقون لان شرائعه عادلـة، مما يؤثر في ثـروة الاغنياء الاقوياء ،

5) وانه كانت هناك طائفـة من الاقويـاء تؤمن باللـه الواحد الاحـد الا أنهم كانـوا يمالئون المشركين لعـدة اعتبارات، وهذا ما سنذكره مـن دخول رجال بنى هاشم ورجال بنى تيـم وبنى زهـرة الميالين الى التوحيد اكثر من الشـرك في تحالفات توفيقيـة مع غلاة الوثنيين من بني عبد الدار وأميـة ومخزوم وبنى لـؤى بـن كعـب.

6) وان الصراع كان قويا وخفيا بين الاتجاهيـن.

7) وان سدنة الآلهـة كانـوا على الغالب مشركين لذلك رجحت كفـة الالهـة المتعددة على كفـة الاله الواحـد الاحـد.

8) وانه كان في مكـة ملتقـى الصراع، بحكم مركزها الدينى والتجاري والسياسى وقدسيـة الحـرم الشريـف.

9) وان الاحلاف الوثنية والاحلاف التوحيدية كالايلاف والفضول، تظهر هنا بشحوب، لان الوثنيين يضعون ما لله في صـورة مجاملة للموحدين، ثم يعودون فيظلمون حق الله، لذلك نعى القرآن الكريم عليهم ظلمهم.

10) ويفيد النص ايضا ان الناس عرفوا الحنفية لكنهم غلبوا علـى امرها بتأثير غزو وثنى كالذي حدث من اكتساح بنى خزاعة بقيادة زعيمها

(14) المحبـر ص 332.

الوثنى عمرو بن لحي مبتدع عبادة الاوثان والاصنام بمكة وبلاد العرب لبني جرهم أصهار اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذين مثلوا القوة الحنيفية.

11) مرت موجة الغزو الوثنى الخزاعى ثم استطاع العرب ان يعيدوا لدينهم بعض ملامح وجهه الحقيقى ولو بنسبة ضئيلة من خلال صراع الوثنيين والاحناف (جبهة الاحلاف الوثنية وجبهة حلف الفضول» على الرئاسة والسدانة والرفادة والسقاية واللواء في المواسم والساحات.

12) ظلت السيطرة على شؤون العرب الدينية التى يتبعها بالضرورة الوضع الاقتصادي والسياسى بأيدي الوثنيين وان تداولتها أحيانا أيدي قريبة من التوحيد الا أن الطابع كان سيادة العبادة الوثنية لان التوحيد كان مغلوبا على أمره ولم يكن نقيا مطلقا، بسبب التحالفات والتنازلات الكبيرة التى كان رجال الفضول يقدمونها للوثنيين، وهو الامر الذي يفسر تحرج أبى طالب بن عبد المطلب في أن يشهر ايمانه بالتوحيد وكفره بالاصنام ، مع أنه كان دثل والده، يتميز بضعف الولاء للوثنية، لانهم يربطون نسبهم بابراهيم الخليل. وتنطوي هذه الخلاصة على حقائق تتفرع عنها :

1) ان دعاة التوحيد الحقيقيين امثال زيد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث كانوا مضطهدين . وقد نظر المشركون الى الدعوة المحمدية منذ الاعلان وبداية الانطلاق على أنها امتداد للحنيفية، فقاوموها.

2) ان الله بعث محمدا (ص) لاتمام رسالة ابراهيم الخليل الممتدة في رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، والمحرفة على أيدي دعاة الموسوية والعيسوية والممسوخة على أيدي الوثنية، والمشوشة لدى الإحناف، فكان الوضوح في الرؤية الاسلامية التى اسعفتها رسالة السماء حيث اصطفت محمدا (ص) ليحملها .

3) ان الشعر الجاهلى ، الموجود حاليا ، هو شعر الواقع العربى المعاش بكل معنى الواقعية وتماسها بالانسان والارض والقومية بمجاميعها البشرية داخل مستوطنات البدو المتحركة أو محميات القبائل، لكل قبيلة أمير ومسلحون يحمون الارض والعرض والسيادة والقيم العربية الوثنية أو تحدرات الحنيفية التى ضاعت ملامحها الاصلية بين الحشد الهائل من معطيات الشرك الوافد. وليس بين أيدينا شعر أدعية وصلوات ولا شعر

نسك وثنى موجه الى الآلهة، الا بعض معطيات ندرسها في شعر الاحناف في صيغة تأمل وتهجد بسيط المعانى. لعل هذا الضرب المفقود من الشعر كان موجودا وأبيد بعد البعثة، أو أنه لم يكن موجودا مطلقا.

4) في ضوء ما عرضناه ، نستطيع أن نقول، أن ما اصطلحنا على تسميته شعرا توحيديا ينحصر في المواطن الآتية :

أ) شعر المقاومة أو (الاحناف) وكان نضالهم سلبيا موقوفا على الدعوة الى عبادة الله، وكان أمرها غامضا على الاحناف أنفسهم، ولم يتضح الا بالاسلام. واعقب ذلك دعوة الاحناف الناس الى الترهب ونبذ الحياة والانقطاع للنسك والعبادة، ولم تكن مبينة على أسس وأركان ثابتة، بل كانت حائرة.

ب) شعر الموحدين الذين لا نسميهم احنافا بالمعنى المذكور سابقا، بل كانوا أميل الى عبادة الله (رب ابراهيم الخليل)، منهم الى عبادة الاوثان وغيرها. لكنهم كانوا متأثرين بحكم المعتقد السائد، بوجود الهة الشرك أيضا. وكان شعرهم دعوة الى مكارم الاخلاق، كما ستلقانا في حالة زهير ولبيد، وكما تتجلى في أمثلة كثيرة لدى بعض الشعراء ، مثل أوس بن حجر وهو يستقطع العرف الوثني في الولد البكر الذي يخلف أباه على امرأته أي امرأة أبيه بعد وفاته فيتزوجها، وقد رآه أوس امرا منكرا وشنيعا، وكان العرب يسمونه الضيزن (15) :

والفارسية فيكم غير منكرة نكلكم لابيه ضيزن سلف

ج) شعر الوثنيين الذين يجهلون عبادة ابراهيم الخليل، لكنهم مع ايمانهم بآلهة الشرك، يجنحون الى مظاهر للتوحيد الخليلية أكثر مما يجنحون الى اضافات الشرك التحريفية، فيظهر في شعرهم، مما يشكل منحى فكريا واضحا ذا تأثير في المجتمع العربى يومئذ.

ولو شئنا الدخول في جزئيات كل ديانة تفريدية أو وثنية، فاننا سنبتعد عن صميم دراستنا التى هى في الاساس أدبية شعرية، لكننى أجد أن لا مناص لنا من الوقوف عند من اعتاد المؤرخون والرواة نعتهم بالاحناف، وتحديد المسار الفكري لهم بين خضم الديانات المتلاطم يومئذ

(15) نفسه ص 325. واللفظة فارسية وتعكس طقسا مجوسيا.

في بلاد العرب، فقد دلت استقراءاتنا الاولية لهؤلاء المتعبدين الغامضين، انهم كانوا أساسا مناوئين للفكر الوثني بجميع مظاهره التي قسمتها الدراسات الحديثة الى عبادات مادية تجسيدية أو عبادات روحية رمزية، وان كانت جميعها في الاساس تلتقي في مدارات غيبية تعتقد بحلول الروح المعظمة في الاشياء مهما كانت حقيقتها. وقد كانت عبادة العرب الذين عاصرهم الاحناف يومئذ. تتصل في معظمها بعبادة رموز القوة «الشجاعة. الفروسية . الفتك» ورموز العظمة (الرئاسة والسيادة . المروءة . الكرم) تجد لها أساسا من الواقع المادي في خضوع هذه الرموز الى شعائر وطقوس يديرها كهان وسدنة ورهبان منقطعون الى آلهة يعظمونها ويقدسونها. والى جانب هذا كان الاحناف الموحدون ممتنعين باصرار غريب عن قبول البهودية والمسيحية والصابئية. ولعل كونهم توحيديين، وأتباع هذه الاديان تفريديين، كان السبب وراء رفضهم لها. اذ انهم عرفوا بتقاليدهم الموروثة أو باطلاعهم على بعض التعاليم المعروفة أو بحسهم الفطري السليم، ان أرباب هذه الديانات ابتعدت عما انزله الله على انبيائه ، فلم يعد التوحيد الذي أوحى الله به الى موسى أو عيسى وحتى ادريس قبلهما، من مقومات هذه الديانات. لذلك وجدنا الاحناف لم يجدوا فيها ملاذهم من ضياعهم وحيرتهم الفكرية، حتى جاء الاسلام، فكان لهم منه موقف.

فاذا لم يكن الاحناف الموحدون يهودا ولا مسيحيين ولا صابئة ولا أغرتهم الديانات الاعجمية الوافدة ولا فتنتهم الوثنية المتسلطة، فما هو معتقدهم الديني التوحيدي ؟

يرد العلماء أصل الاحناف الى النبي ابراهيم الخليل عليه السلام، مستدلين بذلك على قوله تعالى في سورة البقرة «قل بل ملة ابراهيم حنيفا» وقوله في آل عمران «وما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما» وقوله في الموضع نفسه «قل صدق الله، فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا» وفي سورة النساء «واتبع ملة ابراهيم حنيفا» والانعام «قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا» وقوله في سورة النحل «ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا، ولم يكن من المشركين» وفي النحل ايضا «ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا» ثم وردت الكلمة في عدة مواضع اخرى وبصيغة الجمع «حنفاء» دون ان تكون وصفا لابراهيم وملته لكن يفهم ذلك من السياق كسورة

الروم والحج والبيئة . الا أن المعجميين العرب على عادتهم يحيلوننا الى مادتها الاولية، فيذكرون بأن الفعل (حنف) يعنى (مال) والحنيف الذي مال عن دين قومه، وهو الشرك الى التوحيد. وعبارة اللسان (16): الحنيف، المسلم الذي يتحنف عن الاديان أي يميل الى الحق. وقيل : هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم، وقيل كل من أسلم لامر الله ولم يلتو، ثم قال : والحنيف المستقيم وأنشد :

تعلم أن سيهديكم الينا ... طريق لا يجور بكم حنيف

وهذا الاخير أقرب للصواب، لان ابن منظور يعود فيقول : وقال ثعلب : الحنيفية الميل الى الشيء، قال ابن سيده : وليس هذا بشيء. قال الزجاجي : الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن ، فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم، وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك . وزاد ليرد على أن الحنف ليس بمعنى الميل فقال : قال ابن عرفة في قوله عز وجل : (بل ملة ابراهيم حنيفا) قد قيل : ان الحنف الاستقامة، وانما قيل للمائل الرجل احنف تفاؤلا بالاستقامة. وبذلك يكون مصطلح الحنيف يعنى المستقيم، أما الحنف بمعنى الميل، فهو معنى طاريء عليه، وذلك تفاؤلا لمن به حنف في اصابع رجله ليكون مستقيما أو لمعالجة العيب أو العاهة أو المرض نفسيا بضدها، كما قيل للاعمى : بصير وللملدوغ : سليم . ويؤيد ذلك أن عبدة الاوثان في الجاهلية كانوا يقولون : نحن حنفاء على دين ابراهيم (17)، لانهم كانوا يختتنون ويحجون البيت ويغتسلون من الجنابة، وهذا يفسر لنا اصالة الحنيفية في أرض العرب وان الوثنية وافدة طارئة، وان كل العرب احناف على دين ابراهيم الخليل الا أن الوثنية المنتصرة غطت على القيم الاصلية، لكن النضال بقي مستمرا ضدها حتى كان النصر الحقيقي على يد الرسول (ص). وهذا يفسر لنا أيضا قول امرىء القيس عندما هجا القيصر، معيرا اياه بوثنيته لانه لا يختتن (18) :

اني حلفت يمينا غير كاذبة ... انك أقلف الا ماجلا القمر

اذا طعنت به مالت عمامته ... كما تجمع تحت الفلكة الوبر

(16) ابن منظور مادة (حنف).
(17) المصدر نفسه.
(18) ديوانه ص 280.

قال البطليوسي في شرحه : يقال للصبي اذا كان قصير الغرلة مقعصا، «قد ختنه القمر» . ومما يؤيد ما ذهبنا اليه أن الحنيف بمعنى المستقيم وليس المائل، وان من طقوسهم الحج، ما نقله الازهري عن الضحاك في معنى (حنفاء) انها تعنى حجاجا في قوله تعالى : حنفاء لله غير مشركين به . وقال (السدي) مثل ذلك (19). وهنا نفهم معنى قوله تعالى بوضوح : «ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا» فالقنوت من صفات الاحناف ، وهو التعبد في رهبة وخشوع عند الحج وغيره، واورد صاحب اللسان قول جران العود :

ولما رأين الصبح بادرن ضوءه
رسيم قطا البطحاء أوهن أقطف
وادركن أعجازا من الليل بعدما
أقام الصلاة العابد المتحنف

ومثله قول أبي ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف شهري جمادى وشهري صفر

أي أقامت بهذا المتربع اقامة المتحنف على هيكله مسرورا بعمله وتدينه. وتدل هذه الشواهد الشعرية على أن هذين الشاعرين المخضرمين كانا يمران بهؤلاء الاحناف المتعبدين وهما في طريق رحلتهما في الصحراء. ولم يؤثر عن الوثنيين مثل هذا.

ومن الغريب أن يقول المعجميون في مادة (حنث) ما قالوه في مادة (حنف) وهو الميل من باطل الى حق ومن حق الى باطل (20). ويقولون أن (حنث) مثل (حنف)أي تعبد . وفي الحديث : أن رسول الله (ص) كان قبل أن يوحى اليه، يأتي حراء، وهو جبل بمكة فيه غار، يتحنث فيه الليالي : أي يتعبد وعده ابن سيدة على السلب أي الضد، لان (الحنث) بكسر فسيكون هو الاثم، فكان المتحنث ينفى عن نفسه الاثم، كما تقول : تأثم وتحوب أي نفى الاثم والحوب . ولا يستبعد أن تكون ثاء (تحنث) بدلا من فاء (تحنف). وأيا كان الأمر، فالكلمة محدثة وليست قديمة

(19) اللسان (حنف).
(20) اللسان (حنث).

قدم (تحنف) . واما رأي (تولدكه) من كون (تحنف) على وزن [تبرر] (21) فهو صحيح وزنا لكن المعنى مختلف لان التبـرر من اليمين أو القسم كالتحنث منه، لكن التحنف، كما رأينا، تعنى الاستقامة . وقد أصاب نولدكه حين عد اللفظة عربية، لان (تحينوث Tehinoth) العبرية و (حنفة Hanfa السريانية وغيرها (22) لايمكن أن تعد أصلا للكلمة العربية لان العربية اقدم اللغات السامية ، وانهن جميعا يتفرعن من لغة أم واحدة، أما كلمة (الابرار) فهو مصطلح اسلامي ورد في القرآن لاول مرة. ومصطلح (الصابئة) من الفعل (صبأ) بمعنى مال وتأثر (23)، فهو لا يخص الاحناف، لان الطائفة التى يخصها معروفة في الجاهلية، وان المنجمين العرب يجرون على عادتهم في تفسير المفردات على ما آلت اليه لا ما كانت عليه ، لانهم معذورون لانعدام الوثائق في هذا المجال، فقالوا عن (صبأ) أي خرج من دين الى دين كما تصبأ النحوم أي تخرج من مطالعها وقالوا عن الرسول (ص) صبأ لانه خرج عن دين قومه وقالوا عن اصحابه بانهم الصبأة.

وأما كلمة (الموحدين) أو (التوحيديين) فهى من التوحيد، وهود بن ابراهيم الذي كان الحنفاء أو الاحناف عليه، وجاءت الرسالة المحمدية اتماما له ولدين موسى وعيسى (عليهما السلام). وهو مصطلح نستخدمه اليوم دون أن يكون له وجود في العصر الجاهلى، حتى أن لفظة (توحيد) باعتبارها صفة للحنيفية لم ترد في القرآن الكريم، مع أن القرآن وصف الخالق عز وجل بأنه (واحد) في واحد وعشرين موضعا (24)، وأكد بأن (الله وحده) في ستة مواضع (25)، الا أن مصدر (توحيد) من الفعل المضعف (وحد) ظهر في كتابات الكلاميين أو أرباب علم التوحيد والصفات في وقت متأخر بالنسبة لظهور الاسلام (26). وهو أساس

---

(21) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام 453/6.
(22) المصدر السابق نفسه.
(23) اللسان (صبأ).
(24) تراجع سورة البقرة 61/2 و 133 والنساء 171/4 والمائدة 73/5 والانعام 19/6 ويوسف 39/12 والرعد 16/13 وبراهيم 48/14 و 52 والنحل 22/16 و 51 والكهف 110/18 والانبياء 108/21 والحج 34/22 والعنكبوت 46/29 والصافات 4/38 والزمر 4/39 وغافر 16/40 وفصلت 6/41 والتوبة 31/9 وسورة ص 5/38.
(25) تراجع سورة الاعراف 70/7 والاسراء 46/17 والزمر 45/39 وغافر 12/40 و 84.
(26) تراجع دائرة المعارف الاسلامية مادة (التوحيد) 106/4 الترجمة العربية.

مواعد العقائد الاسلامية ، وان كان المعتزلة يخرجون من هذا الحد الصفات ، ويجعلون الاساس، التوحيد فقط. واذا كانت الفكرة بسيطة لدى الاحناف الموحدين قبل الاسلام، فهي في الاسلام غدت أبعد ما تكون عن البساطة. فالتوحيد اما ظاهر واما باطن، ومن معانيه أن لا اله الا الله وحده لا شريك له. ومن معانيه أنه واحد في ذاته. ومن معانيه أيضا أن الله هو الموجود الحقيقي وكل ما سواه، وجوده (ظل وجود الحق). ثم ان التوحيد يتوسل اليه بالعلم أو بالمعرفة والمشاهدة، والعلم والمشاهدة تفكر أو نظر فلسفي (27). واهم الكتب الاساسية لهذا العلم : الملل والنحل للشهوستاني، والفصل في الملل والنحل لابن حزم، ومقالات الاسلاميين للاشعري، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ، والتبصير في الدين للاسفراييني ومقدمة ابن خلدون.

ولاحظ بعض الباحثين أن حديث الاسلاميين عن الحنفاء مضطرب ومختلط، وانهم ادخلوا الرهبنة بأشكالها المختلفة، ولا سيما رهبنة النصرانية في عداد الحنيفية (28)، ثم بدأ يضرب أمثلة لذلك بقس بن ساعدة الايادي وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، مشايعا بذلك الكتاب المسلمين في آرائهم غير الصائبة في هؤلاء الاحناف. ثم يعود مرة أخرى فيعلل - بشكل غير مباشر، ودون قصد منه اسباب هذا الخلط عندما يعزو سبب زهدهم ورهبنتهم بسبب حثهم لقومهم على ترك عبادة الاصنام، فلاقوا منهم غشما ونصبا شديدا، او بسبب تأملهم في هذا الكون، فتجنبوا الناس واعتزلوهم ، فالتجأ بعضهم الى الكهوف والمغاور البعيدة (29).

واذا صح ما ذكروه عن وجود طائفة في اليمن تعبد (الرحمن) وتوحده، وهي ، في رأي المستشرقين ، تتأثر باليهودية والنصرانية، غير ان اصحابها لم يكونوا منهم ، بل فرقة مستقلة، يكون ما ذكره المؤرخون العرب عن بني حنيفة في اليمامة وعبادتهم الرحمن بزعامة مسيلمة بن حبيب الحنفي، هم بقايا الاحناف الا أن التحريف دخل على عقيدتهم، وبالاخص عند ظهور الاسلام، ومكابرة مسيلمة الكذاب في قبوله، ثم الارتداد فيما بعد، ولا نستغرب من مواقف الاحناف هذه، فقد أبى نفر كثير منهم أن

---

(27) يراجع ما كتبه ماكدونالد D. B. Macdonald في المصدر السابق.
(28) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 453/6.
(29) المصدر السابق 400/6.

يقبلوا برسالة النبى حسدا أو جهلا أو ضلالا ، وان كان نفر منهم قد آمنوا وحسن اسلامهم، فمثال القسم الاول أمية بن أبى الصلت، ومثال الثانى لبيد بن ربيعة.

وأما ابراهيم الخليل عليه السلام، فان التوحيد يعزى اليه، فهو من أقدم المجاهدين في هذه الفكرة، وكانت الوثنية قد تفشت وانتصرت على التوحيد . وقد اتفقت الاراء على أن ابراهيم ولد في ارض العراق من بلاد العرب، وان كانوا قد اختلفوا في البلد الذي ولد فيه، فقيل ولد ببابل من أرض السواد بناحية (كوثى) وقيل في الوركاء (أور) ناحية في حدود كسكر ثم نقله أبوه الى كوثى، وقيل بحران ثم نقله أبوه الى بابل، وقيل ولد بالسوس من ارض الاحواز العربية (30). وهذا يفسر لنا قول الامام علي (رض) عندما سألوه عن أصل قريش قال : نحن قوم من كوثى (31) . فقال قوم، انه أراد كوثى التى ولد بها ابراهيم، وتأولوا في هذا قول الله عز وجل (ملة ابيكم ابراهيم). وقال قوم : أراد كوثى مكة، محلة بنى عبد الدار، أي انا مكيون من أهل القرى. وفي جميع الاحوال تكون تسمية مكة أو محلة بنى عبد الدار بمكة هو تلميح للاصل الذي ولد فيه ابراهيم زعيم الحنيفية. وأورد البكري قول حسان بن ثابت يذكر الكوثتين :

لعن الله ارض كوثى بلادا كوثة الدار دار عبد الدار
لست أعني كوثى العراق ولكن ورماها بالفقر والاعسار

لكن رواية اللسان (32) تضيف كلمة واحدة الى قول الامام علي (رض) : نحن نبط من كوثى. فكلمة (نبط) حددت الموضع وهو كوثى العراق ، لان نبط العراق معروفون بنسبتهم الى استنباط الماء نظرا لاستقرارهم، وان القريشيين بعد رحيلهم من كوثى العراق احتفظوا بصفة الاستقرار فنزلوا في مكة واطلقوا على احدى محلاتها اسم مدينتهم القديمة على عادة الاقوام التى تترك مواطنها الاصلية. وتطلق على المواضع الجديدة اسم مواضعها القديمة اعتزازا وذكرى. ثم حافظوا على

(30) العرائس ص 43.
(31) معجم ما استعجم (كوثى) 4/1139.
(32) ابن منظور مادة (كوث) وروى البيتين المنسوبين لحسان بن ثابت برواية مختلفة قليلا.

وطيفتهم القديمة، وهي استنباط الماء، فعرفت قريش بحفر الآبار ، واقترنت باشعارهم واراجيزهم ، فاصبحت اشبه ما تكون باغاني العمل ساعة الحفر، وقد أفرد السهيلي من كتابه صفحات لشعر الابار (33). ثم حافظ القريشيون على شعائرهم الدينية التوحيدية الاولى عند نزول ابراهيم الخليل في مكة وتأسيس أول بيت مقدس فيها.

وارتبطت طفولة ابراهيم في الوركاء بمخاطر عظيمة، منذ كان جنينا في بطن امه وحتى لحظة ولادته الى أن نشأ وترعرع محفوفا بالاهوال، شأنه في ذلك شأن سيرة الابطال العظماء الذين تكتنف طفولتهم أصعب الظروف . فالملك يأمر بذبح اطفال المنطقة ، لان العرافين تنبأوا بأن طفلا يولد الان فيها ، يكون هلاك الملك على يديه. وينجو الوليد بأعجوبة، ويكبر بمعجزة ، ويصبح مصدر تهديد لوثنية الملك، ويحتدم الصراع بينهما حتى تبدأ نبوة ابراهيم بالظهور، ويتحول الى الشام، وهناك تبدأ هجراته الى مكة وعودته الى الشام، متخذا من البراق واسطة لتنقلاته الاعجازية حتى تضع له امرأته الثانية (هاجر) ولده اسماعيل، وكانت الاولى (سارة) قد وضعت له اسحق (34). وتبدأ سيرة ابراهيم التوحيدية في ولده اسماعيل الذي تزوج من (جرهم) وبدأ جهاده التوحيدي على نهج أبيه. فالتوحيد المكي هو حقيقته اشعاع عراقي أوري، ولعل الوثنية المكية هي موجة عراقية ايضا بتأثير السومريين والساميين ، وبوجه خاص المنطقة التي ولد فيها ابراهيم فهي منطقة ميلاد كلكامش بطل أوروك أيضا. وليس غريبا أن تنبثق الحنيفية من أصول عراقية، لان الوثنية كانت على اشدها أيضا. ومما يؤكد غزو الوثنية السامية لمكة، ورود اخبار تفيد أن عمرو بن لحي الخزاعي، زعيم الوثنية المنتصر على مكة نقل الاله (هبل) اليها من بلدة هيت في العراق.

وما تشير الوقائع اليه، وتؤكده الدعوة الاسلامية من خلال النصوص المقدسة ، هي أن فكرة التوحيد القادمة في صورة تحدرات موروثة على مدى التاريخ كانت مقصورة على اشخاص الدعوة المؤلفة من نبي مرسل ونفر من انصاره أو (حواريه) فلم يؤثر عن التوحيدية انها كتب لها النهوض والانتشار في عهد (ادريس) مثلا وهو نبي قديم يسبق

(33) الروض الانف ص 97 وما بعدها.
(34) العرائس ص 48 — 49.

ابراهيم في حنيفيته، وهو أول من جهر بالمقاومة الفكرية ووقف في وجه الوثنية وتعرض للاضطهاد والتعذيب ثم رفعه الله بنفس الطريقة التي رفع بها عيسى عليه السلام فيما بعد، وادريس هو (احنوخ) نفسه المذكور في الكتب السماوية أول من أعطى النبوة من ولد آدم، وفي عصره عبدت الاصنام. قال محمد بن حبيب (انه من المرفوعين) ، ومعنى قوله أنه أول من اعطى النبوة أي أول من بدأ الصراع ضد الوثنية (35). ثم أعقبه ابراهيم فموسى فعيسى ، لكن النصر الكبير الذي حققته الحنيفية كان على يد محمد (ص)، فتحقق لها ما لم يتحقق لغيرها من ترك كل مظهر من مظاهر الشرك القديم. ويعزو المكيون أساس الدعوة الحنفية الى بلدتهم، منطلقين من كون البيت العتيق الذي بناه ابراهيم، أو رفع قواعده التي ارساها آدم قبله، قائما فيها، ثم من نشأة ابنه اسماعيل وزواجه وانجابه في مكة. ثم من اتخاذه العربية لسانا لدى زواجه من المرأتين الجرهميتين . وتفيد الروايات، ذات المسحة الاسطورية، أن أقواما من العماليق ، معروفين بفجورهم ، كانوا قد سكنوا مكة، ثم غلبهم عليها الجرهميون التي تفيد روايات اخرى ذات منحى مشابه لما سبق، أن الاصل القديم لجرهم، ملاك هبط من السماء لذنب اقترفه كما هبط هاروت وماروت. وركبت فيه الشهوة، فتزوجته امرأة ولدت له جرهما، فورد هذا في شعرهم :

لا هم ان جرهما عبادكا الناس طرف وهم تلادكا

قال السهيلي : نقلت هذا من كتاب الامثال للاصفهاني (36). وكان جرهم مع (نوح) في السفينة، وهم العرب العاربة، فنزل (جرهم وقطورا) على هاجر أم اسماعيل، وتزوج اسماعيل فيهم، فيقال أنه أخذ اللغة منهم، ويقال ان الله انطقه بها انطاقا وهو ابن اربع عشرة سنة. واما قطورا فهو ابن كركر بن عملاق، والسميدع من احفاده، ويقال ان الزباء من ذريته (37). ثم بغت جرهم وغدرت، فطمعت فيها خزاعة، القبيلة الوثنية بزعامة ملكها عمرو بن لحي. وكان السيل العرم قد شردها، فاكتسحت مكة ، وبدأ عصر وثني جديد بصيغ جديدة، وبدأت

(35) المحبر ص 3 ووتنظر سيرته في المعارف ص 29.
(36) الروض الانف ص 80.
(37) المصدر السابق .

الحنيفية (التوحيدية) صراعا جديدا كالذي بدأه ابراهيم الخليل في العراق . ولعل ما ذكره ابن هشام يوضح كيف تداخلت الوثنية بالحنيفية ، فصار الناس يخلطون في عباداتهم ، وبقيت قلة قليلة على حنيفيتها، فلما غبر على ذلك دهر، وابتعدت الشقة أصبحت عبادة الاحناف غامضة لانهم بدأوا ينسون الشعائر المهجورة. لذلك أورد ابن هشام حديث الرسول (ص) في رؤيته لعمرو بن لحي يجر امعاءه في النار، ووصفه له بأنه : كافر، أول من غير دين اسماعيل، فنصب الاوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى. وعبدوا ما استحسنوا من الحجارة (اشارة الى عبادة الفن المتمثل في التماثيل الجميلة) وصار الناس الى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة، والمزدلفة، وهدى البدن، والاهلال بالحج والعمرة، مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت قريش وكنانة اذا اهلوا قالوا لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك، تملكهوما ملك» فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم. ويجعلون ملكها بيده. يقول الله تبارك وتعالى لمحمد (ص) : «وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون» أي ما يوحدونه لمعرفة حقه الا حملوا معه شريكا من خلقه. وكان اله عمرو بن لحي هو «هبل» جاء به من الشام، ويقال من العراق، ثم تفرعت عنه اللات (38)، وهى صخرة يلت عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف. وكانت تسمى صخرة اللات (أي الذي يلت العجين) فلما مات هذا الرجل، ويبدو أنهم كانوا يعظمونه، قال لهم عمرو : انه لم يمت ، ولكنه دخل في الصخرة، فبنوا عليها بيتا يسمى اللات وعبدوه (39).

ويأبى رواة الشعر والاخبار الا أن يضعوا جوا مأساويا للنهاية الحزينة التى آلت اليها الحنيفية ، وأن يوجدوا لهذا الجو شاعرا يجد المعنى لهذه النهاية، فيقال أن عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض الجرهمى، كان قد نزل بـ (قنونا) من أرض الحجاز، فضلت له ابل، فبغاها حتى أتى

(38) السيرة 78/1 — 80 وذكر ابن الكلبى فى الاصنام أن هبل كان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب. أول من نصبه خزيمة بن مدركة فكان يقال له : هبل خزيمة. ولعل هذا الصنم تجديد للصنم الذى وضعه عمرو بن لحى.

(39) المصدر نفسه .

الحرم ، فأراد دخوله ليأخذ ابلـه، فنادى عمرو بن لحـي : «من وجد جرهميا فلـم يقتله، قطعت يـده». فسمع بذلك عمرو بن الحارث، واشرف على جبل من جبـال مكـة، فرأى ابلـه تنحـر ويتوزع لحمها، فانصرف بائسا خائفا ذليـلا، وأبعـد في الارض ثم قـال (40) :

وقـائلـة والـدمـع سكـب مبـادر
وقـد شرقـت بالدمـع منهـا المحـاجـر
كـأن لم يكـن بين الحجـون الـى الصفـا
أنيـس ، ولـم يسمـر بمكـة سـامـر
فقلـت لهـا والقلـب منـي كـأنمـا
يلجلجـه بيـن الجنـاحيـن طـائـر
بلـى نحـن كـنـا أهلهـا فـأزالنـا
صـروف الليـالـى والجـدود العـواثـر
وكنـا ولاة البيـت مـن بعـد نـابـت
نطـوف بـذاك البيـت والخيـر ظـاهـر
ونحـن ولينـا البيـت مـن بعـد نابـت
نعـز فمـا يحظـى علينـا المكـاثـر

ثم تمضى القصيدة في وصف ما آلت اليه جرهم بعد عزها، وكيـف خرجت من خدمة البيـت الـذي لا يؤذى حمامـه ولا وحشـه . واما الطبري (41) ، فهو يؤكد بأن مكة قبل عهد ابراهيم وابنه اسماعيل كانت بلاقع، وحول مكة يومئذ العماليق وجرهم، فتزوج اسماعيل امرأة مـن جرهم، وهو قول الحارث بن مضاض في القصيـدة نفسهـا :

وصاهـرنـا مـن اكـرم النـاس والـدا
فـأبنـاؤه مـنـا ونحـن الاصـاهـر

فولي البيت بعد اسماعيل حفيـده (النبيت بن قيدر بن اسماعيل) وهو الجد الاعلى لمعد بن عدنان. قال قعنب بن عتاب الرياحى (42) :

تنـاشـد في طـي وطـي بعيـدة
وتذكـرنـي بالـود أزمـان ينبـت

(40) السيرة 120/1 والروض 81/1.
(41) تـاريخ الرسل والملوك 274/2.
(42) المصـدر السـابـق.

ويعدد الطبري ابـاء العرب من معد بن عدنان الى اسماعيل، متوقفا عند كل جد منهم ذاكرا الشعيرة الدينية التى ابتدعت في عهده كالعقيرة والرجبية وطقوس الكرم العربية. ثم أوردت المصادر (43) شعرا توحيديا للحارث بن مضاض غير ما ذكرنـا سابقـا . وأوردت هذه المصادر اشعارا تفيد بأن خزاعـة وليـت خدمة البيت بعـد جرهم، وهو قولهـم :

ونحـن ولينـا البيـت من بعـد جـرهـم
لنعمـره مـن كـل بـاغ وملحـد

ومثـل قولهـم :

واد حـرام طيـره ووحشـه
نحـن ولاتـه فـلا نغشـه

فان صح ذلك، تكون خزاعة قد تسللت الى الحرم ثم انتكسـت التوحيدية على يد عمرو بن لحي ، فكـان دخول الوثنيه الى البيت على أيديهم، فانتفض الكنانيون، الورثة الشرعيون للحنيفية، مستنـديـن الى معونة خارجية، وبعبارة اخرى، عودة الى شعائر الاحناف مرة أخرى، والى الحكم التوحيدي في ادارة شؤون البلدة التى عدت يـحـق، يومئذ زعيمـه الفكر الديني في بلاد العرب ، لكن دون التخلص من مظاهـر الشرك المتفشية فيها. وقد بـدأ السجال الفكري والعسكري بين الكنانيين والخزاعيين علـى عهـد (كنانـة) الجد ثم ابنه النضر بن كنانة، ثم تكلل بالنصر على يـد الحفيد قصى بن النضـر بن كنانـة (44). وقد رويت بهذا الصدد اخبـار كثيرة عن طـول النزاع الديني الى أن استقر في يـد قصى الذي ذكـرت المصـادر انـه أول من أصـاب الملـك مـن ولد كعـب بـن لـؤى ، فقـال فيـه الاعشـى (45) :

حلفـت بثـوبـي راهـب الشـام والتـي
بنـاهـا قصـى جـده وابـن جـرهـم
لئـن شـب نيـران العـداوة بيننـا
ليـرتحلـن منـي علـى ظهـر شيهـم

---

(43) المصـادر الثلاثة المتقدمـة. .
(44) المفصـل فى تاريخ العرب قبل الاسلام 37/4 ومـا بعدهـا من الصفحات.
(45) ديـوان الاعشـى.

واذا شئنا ايجاز ما تقدم ، علمنا أن تاريخ مكة يرتقي الى أيام داود. ففي ايامه انشأ الشمعونيون (السمعونيون) الكعبة ، وهم بنو جرهم (46). وقبلهم كان العمالقة منتشرين في البلاد، فجلتهم جرهم اليمنية حتى حل فيهم ابراهيم الخليل ثم ولده اسماعيل الذي تزوج (حرا) بنت سعد بن عوف بن هنيء الجرهمي ، فطلقها بوصية من ابيه فتزوج بنت الحارث بن مضاض الشاعر المتقدم ذكره . ثم غلبتهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر وهم بنو خزاعة، فقام عمرو بن لحي ملكا عليهم وكان وثنيا، فأدخل مظاهرها على التوحيدية، فثارت عليه الحنيفية ، فاستعان عمرو بن لحي ببعضهم في مناسك الحج وبالاخص الكنانيين ، فكان النضر بن كنانه الذي التقى بالاسكندر المقدوني فأعجب به وساعده على طرد الخزاعيين الوثنيين ، هو اشد رجالهم . واستمرت حتى صارت في يد عبد مناف ثم في ولاية هاشم وعبد شمس ثم في أمية بن عبد شمس الذي حسد عمه هاشما . ومات هاشم قبل اخوانه بفترة بينما مات نوفل بطريق العراق في سلمان ومات عبد المطلب بردمان من أرض اليمن، ومات عبد شمس بمكة. وأوصى هاشم بعد موته لاخيه المطلب فبنو هاشم وبنو المطلب يد واحدة، وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد أيضا.

وهكذا تكشف لنا هذه المسيرة الفكرية الوثيقة اصالة الحنيفية في أرض العرب ، كما تعكس لنا التفسير الحقيقي لظاهرة ضعف المعتقد الوثني لدى العربي ، ذلك لان الوثنية طارئة عليهم، وان الاصل في عقيدتهم هي الحنيفية دين اجدادهم القدماء منذ ادريس والجراهمة واسماعيل ابن ابراهيم الخليل، وقد اقترنت بلغتهم أيضا، وكانت الزعامة الدينية قد آلت الى أبي طالب بعد عبد المطلب ، فكان في عهده احياء الدعوة التوحيدية في صورة من صور الجهاد (النضال الديني) وبشكل لم يسمع به الناس من قبل. على يد شاب ينتسب الى نفس العائلة ذات الحسب العريق في التوحيد ، ثار على أهله المتحالفين مع الوثنية ، وعلى قومه المنقسمين الى وثنيين وتوحيديين ، وحتى توحيديتهم ليست بصفاء التوحيدية النابعة من الاصل ، بل تعكرها مظاهر وثنية واحدة، فلقيت توحيديته مقاومة عنيفة من قبل المكيين ابناء اسماعيل انفسهم، وذلك

(46) المفصل 5/4.

لانهم اعتادوا هذه الجبهة الدينية التى أوجدوها في صفوفهم منذ أيام الخزاعيين المنتصرين بعد طرد الجرهميين ، فعاشت الآلهة الوثنية داخل الحرم المكى في مشاركة مادية ، وجدانية مع اله ابراهيم الواحد الاحد ، بحسب معتقدهم ، فاستعظموا أن يخرجوا على ما اصطلح عليه اجدادهم ، ولانهم هال عليهم أن تأتى للقبائل من العرب في الموسم السنوي لتجد اصنامها وقد رميت خارج البيت منبوذة مطرودة، ويكون بذلك الفناء الابدي لهم ولمعتقداتهم ومصالحهم التجارية. وحقا لو كان الامر قد تم بالصورة التى ارادها الرسول (ص) أول مرة واستجاب المكيون للدعوة منذ البداية، لكان المصير كما تصوره القريشيون. لذلك كانت الهجرات الثلاث ، هجرة الاوائل بلا قائدهم الى الحبشة، ثم هجرة القائد بلا اتباعه الي الطائف ، ثم الهجرة الحاسمة، وهى هجرة القائد والمجاهدين معا الى طيبة أو يثرب ، بعد جهاد قاس وعذاب شديد وصراع مع رؤساء القبائل الى أن تولدت القناعات كاملة، فجاءت القبائل بنفسها الى مكة لتظهر الحرم المقدس وترمى بالهتها الوافدة والدخيلة والمزيفة الى خارجه، فكان تعبير أسلوب العمل من البدء من الداخل الى البدء من الخارج ثم الاتجاه الى الداخل هو الصواب.

ان هذا العرض السريع لهذا الجهاد الفكري والمناضلة الحنيفية، رسمت لنا مسار التوحيد الحنيفى . وقد ظل هذا الفكر يخترق حاجز الزمن دون أن يفقد توهجه رأصالته حتى اختير له من النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسولا للدين الحنيف.

وقد تقدم الكلام عن مصطلح (حنيف) في المعجمات ، وعما جذره في الاستخدام التاريخى ، وانه مصطلح جاهلى قديم بدليل وروده في القرآن الكريم كما سبق ان ذكرنا ذلك . وورد أيضا في الشعر العربي في قول أمية بن أبى الصلت (47).

كل دين يوم القيامة عند الله
الا دين الحنيفة بور

وأوردت السير أن هاتفا (من الجن) ذكر الحنيفية من شعره (48).

(47) ديوانه 339.
(48) الروض 85/2 ابن كثير 478/2.

وذلك أن قريشا حين توجهت الى بدر مر هذا الهاتف على مكة في اليوم الذي أوقع المسلمون بهم، وهو ينشد بانفذ صوت ولا يرى شخصه :

أزار الحنيفيون بدرا وقيعة
سينتقض منها ركن كسرى وقيصرا
ابادت رجالا من نؤي وابرزت
خرائد يضربن الترائب حسرا
فيا ويح دن أمسى عدو محمد
لقد جار عن قصد الهوى وتحيرا

فقال قائلهم :

- من الحنيفيون ؟!

فقالوا :

- هم محمد واصحابه، يزعمون انهم على دين ابراهيم الحنيف. وورد استخدام المصطلح في النثر الجاهلي (49) على لسان أحد الفرسان المعروفين وهو بسطام بن قيس في يوم من أيامه، وهو يوم الغبيط، حين غزا بلاد تميم فأسره فارسها عتيبة بن الحارث اليربوعي. فحاول أخوه بجاد بن قيس أن يفك أسره، فنادى عليه بسطام بن قيس ليمنعه من أن يكر على الاعداء لكثرة عددهم وقوتهم ، فقال :

- ان كررت يا بجاد فأنا (حنيف).

يهدده بالخروج من دين قومه والدخول في الحنيفية . وفسر علماء القرنين الهجريين الاول والثاني قول بسطام هذا بأنه كان نصرانيا باعتبار قبيلته نصرانية ، واذا صح ذلك ، فهو يعطي الدليل على جوهر الاختلاف بين الديانات السماوية الكتابية وبالاخص اليهودية والنصرانية وبين الحنيفية . أما اذا كان بسطام وثنيا، فالامر واضح جدا، وأنا أميل للرأي الاخير ، لان بسطاما لو كان نصرانيا لما سعت الفرس الى توجيهه في حملات تأديبية ضد بعض المستوطنات العربية على التخوم الفارسية وحتى في داخل بلاد العرب (50). وهذا ينسحب على من يعزو

(49) ايام العرب في الجاهلية ص 197 وما بعدها.
(50) تاريخ الادب العربي - بلاشير. ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني. دمشق.

الشاعر عدي بن زيد الى النصرانية، مع أنه يعمل في بلاطات الفرس المعادين للغرب المسيحي وبذلك يكون بسطام بن قيس بتهديده لاخيه بدخوله في (الحنيفية) ، انما يريد الخروج من دين ابائه وعبادة آلهتهم الى الاعتقاد التوحيدي على طريقة الاحناف المتألهين في الجاهلية، والاحناف كانوا يقفون في المواجهة ضد الفكر الوثني وليس ضد المسيحيين، فلما جاء الاسلام اصبح الفكر التوحيدي حنيفيا مسلما، فقصد بحنيفيته معاداة الوثنية ورفض بعض المظاهر غير التوحيدية في اليهودية والنصرانية وغيرهما ، ثم قصد بالاسلام الغاء الدور المسيحي واليهودي في بلاد العرب، لان القرآن الكريم أكد كون ابراهيم حنيفيا، نقيض الوثنية، مسلما، ليس يهوديا ولا مسيحيا. ولعل تأكيد اسلامه جاء اتماما لحنيفيته بعد أن أصبحت الحنيفية لا تفي بغرض التوحيد، بل الاسلام الذي صدقت قاعدته العريضة على جميع الاديان محتوية اليهود والمسيحيين والصابئة وجميع التفريديين والوثنيين ، باعتبار الاسلام طريق العالم الوحيد نحو الخالق.

ب) الشعر :

نستطيع أن نضع شعر الاحناف في مجموعتين ، الاولى تضم الشعر التوحيدي الذي يعزي الى عناصر قديمة مغرقة في القدم، ومخلوقات غيبية كشعر الهواتف والجن وغيرها. ولما كان هذا اللون من الشعر لا يطمئن الى أصالته اللفظية ، ويمكن الاقتصار في تصديقه على معانيه فحسب، فقد وجدناه في الدراسة ضمن مجموعة (طائفة أشعار التوحيديين من غير القدماء) وهم الاحناف الذين عاصروا البعثة، وادركوا العهد المكي الاول وعاشروا الى ما بعد الهجرة. ولنا عليه عدة ملاحظات، أبرزها، بسبب قدمه وغيبيته ، ضعف الصنعة وانعدام الاتقان، وابتعاد هذا الشعر عن الجمالية الفنية وعن متانة السبك. ويتصف أيضا بطغيان الركة عليه وافتضاحه حتى في جانب كبير من معانيه ايضا. لكننا ـ مع ذلك ـ نحترس كثيرا في هذه الاحكام، لان اجزاء كبيرة من الشعر الجاهلي المتقن ، طعن العلماء في صحتها أيضا.

أما المجموعة الثانية من الشعر التوحيدي فهو الشعر الوارد في دواوين الشعراء المسندة الى علماء معروفين بالتوثق والتحقق وغربلة الشعر قبل روايته وتدوينه، وان كنا لا نطمئن الى هذا أيضا، لان

اجزاء كبيرة مما اوردها ابن هشام، على ما نعرف من مقدار طعنه في الروايات التي ذكرها في سيرته، لا يخلو من ضعف وركاكة ، وقد يعزي بعضه الى مخلوقات غيبية ، ولا نملك تعليلا لشعر الجن والهواتف الا من وجهين اما ان يكون هذا الشعر لبشر جاهليين، صنعوه ونحلوه الجان ، فهو في حقيقته شعر منحول الا أن قائله جاهلي، وعندئذ يصبح في حكم الصحيح لدينا، لان المهم هو أن يكون جاهليا وضمن معاني التوحيد. والوجه الثاني هو أن يكون هذا الشعر لاناس لم يدركوا الجاهلية، صنعوه ونحلوه الجان، فهو على هذه الحالة فاسد ردي، لا يصلح أن يصنف في أشعار الجاهليين في حال من الاحوال، ويصلح فقط لان يدرس على أنه صورة محكية لشعر الجاهليين، وقد يفيد في التماس الاصل عن طريق هذه الصورة المزيفة بالتقليد، ولا تخلو هذه الحالة من نضج ولو ضئيل . ولقد كنا في موضع غير هذا، قد عرضنا رأيا في طبيعة هذه النصوص (51) ، وبالاخص القديمة منها، مما يعزى الى ادم ونوح وعاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة وغيرهم، فأخذنا باننا لكي نكون معقولين في روايتنا لهذه النصوص وقبولنا لها، علينا أن نستسلم للرأي القائل باقتصار صحتها على معانيها دون الفاظها، وان هذه الصورة المتوارثة لدينا ليست هي صورة الاصل مطلقا، فهي مغايرة لها تماما، لان لغة أولئك القوم غير لغة العرب في عصورهم الجاهلية والاسلامية. واننا لو عثرنا على النصوص الادبية ، الشعرية والنثرية التي تخطت عصر امريء القيس بن حجر الشاعر وسبقته بأزمان، لوجدنا اختلافا في لغة الشعر بين هذين العصرين ، وتباينا في مضامينه واشكاله، كاختلاف لغة الشعر بين عصرين مثل الجاهلي والعباسي، أو العباسي والعصر الحديث، هذا برغم التزام العصر العباسي بلغة القرآن واصراره على أنه لا يريد أن يتحول عن أعمدة الشعر الجاهلي، لان العصر الاسلامي والعباسي يعدون أنفسهم ورثة شرعيين للعمالقة مبدعي المعلقات والمجمهرات والمفضليات، يؤكد ذلك قول الفرزدق (52) :

وهب القصائد لي النوابغ اذ مضوا
وابو يزيد وذو القروح وجرول

---

(51) تاريخ الادب قبل الاسلام فصل (النثر الجاهلي).

(52) النقائض 200 — 201 وعنى بالنوابغ، وهم الثلاثة : الذبياني والشيباني والجعدي. وعنى بأبي يزيد المخبل السعدي، وجرول : الحطيئة، واما أخو بني قيس قتيل القوافي فهو طرفة.

والفحـــل علقمـــة الـــذي كـــانـــت لـــه
حلـــل الملـــوك ، كـــلامـــه لا ينحـــل
وأخـــو بنـــى قيـــس وهـــن قتلنـــه
ومهلـهـــــل الشـــعـــــراء ذاك الاول
والاعشـــيـــــان كـــلاهمـــا ومـرقـــش
وأخـــو قضـــاعـــة قـــولـــه يتمثـــل
وأخـــو بنـــى أســـد عبيـــد اذ مضـــى
وأبـــو دواد قـــولـــه يتنحـــــل
وابنـــا أبـــي سلمـــى زهيـــر وابنـــه
وابـــن الفـــريعـــة حيـــن جـــد المقـــول
والجعفـــري وكـــان بـشـــر قبلـــه
لـــي مـن قصـائـــده الكتـاب المجمـــل
ولقـــد ورثـــت لآل أوس منطـــقـــــا
كـالسـم خـالـط جـانبيـه الحنظـل
والحـــارثـــى أخـو الحمـــاس ورثـــتـــه
صدعـــا كمـا صـــدع الصفـاة المعـــول

فاذا كان هذا شأن الشعـر في عصوره الاسلامية، فكيف به في عصوره الوثنية القديمة، المعرضة لعمليـات التغيير الاجتماعى بصـورة سريعـة وكبيرة ؟ يبقي لنا أن نفترض أن هذه النصوص ـ اذا صحت ـ تكـون رواياتها بمعانيها فقط، وليس بالفاظها مطلقـا، وان الرواة الذين كانـوا يتداولونها ، يترجمونها الى لغة الجمهور الذي يتلقف عن طريقهم هـذا الموروث الديني والثقافى، فتصبح الاساطير والقصص والاشعار المتداولة، مروية عن القدماء بلغـة الجيل المتلقى لها، ولا يخفى على ذوي الاختصاص ما يصيب المعانى أيضا من التحريف والتغيير في متن الرواية وفي طبيعـة القصة وأحداثها والبطل وسيرته. ولدينا مثال قريب وواضح من سـير الابطال الجاهليين مثل مهلهل بن ربيعة الذي تحول الى (الزير سالم) (53)،

(53) مهلهل بن ربيعة هو خال امرىء القيس الشاعر الذى سيرته قريبة الشبه بسيرة خـالـه. وأمـا تسميته بالزيـر سـالم، فهى قديمـة أيضـا بل جاهلية. فالزير لقب أطلقـه عليه أخـوه كليب بن ربيعة، وتكره مهلهل فى شعره :

فلـو نبـش المقابر عن كليب لخبـر بالذنـائب أى زيـر

وسالم اسم لمهلهل، ذكره أبو عبيدة فى نقـائض جرير والفرزدق.

وعنترة بن شداد، والسيرة الهلالية، وسيف بن ذي يزن، والمقداد بن الاسود الكندي، وغيرهم ممن اجرت عليهم ريشة الفنان الاسلامي وجمهوره المتطلع ، تحويرات كبيرة في مسرح الرواية واحداثها وازمانها، مغيرة معالمهم وسمات شخصياتهم بما يوافق الظرف الجديد الذي يعيشون فيه. وأشار تالمصادر القديمة الى مثل هذه الظاهرة، مؤيدة ما نذهب اليه. فقد أورد ابن هشام في السيرة نصاً منقولا عن حجر استثير في بعض حفريات اليمن، وهو رقعة من كتاب بالزبور كتب في الزمان الاول، جاء فيه : « لمن ملك ذمار ؟! لحمير الاخيار. لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الاشرار. لمن ملك ذمار ؟ لفارس الاحرار (54). لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار». وهذا الكلام المسجوع نقله السهيلي (55) عن المسعودي منظوما :

حين شيدت ذمار قيل لمن أنت ، فقالت لحمير الاخيار
ثم سيلت من بعد ذاك فقالت : أنا للحبش أخبث الاشرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن انت فقالت لفارس الاحرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن انت فقالت الى قريش التجار

ثم أورد السهيلي . ان هذا الكلام فيما زعموا من كلام هود عليه السلام مكتوبا في منبره وعند قبره، حين كشفت العاصفة عن منبره الرمل حتى ظهر، وذلك قبل ملك بلقيس بيسير ، وكان خطه بالمسند. ويعالج صاحب كتاب العرائس (56) (ت 427 هـ) هذه القضية بوضوح: حيث يورد شعرا لآدم عليه السلام، ويقول : ان هذا أول شعر قيل. ثم يتابع مناقشة هذا الشعر ومدى صحته فيقول : وروى عن ابن عباس أنه قال : من قال أن آدم قال هذا الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالمآثم ، والانبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، وأورد الآية. ثم يتابع : ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم، وهو سريانى. وامنا يقول الشعر من تكلم بالعربية فلما قال آدم مرثيته في ابنه هابيل،

---

(54) السيرة 72/1 وابن كثير 50/1 وكان العرب يطلقون على الامم التى يبقى فيها الملك متوارثا اسم (الاحرار) ثم أسقط العرب المسلمون عن الفرس هذه الصفة بعد الاسلام، بعد أن جلتهم جيوش التحرير العربية عن أرض العرب، وتعقبتهم الى عقر دارهم. وونمار هنا : اليمن أو صنعاء.
(55) الروض لانف 55/1.
(56) الثعلبي ص 28.

وهو أول شهيد على وجه الارض، قال آدم لشيث : يـابنى انـك وصيي، فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس، فلم يزل يتقل حتى وصل الى يعـرب بن قحطان بن هود عليه السلام، وكـان يتكلـم بالسريـانية والعـربية، وأول من ركب الخيل (الفروسية) وقال الشعر . فنظر في المرئية، فاذا هو سجع، فقال ان هذا يقوم شعرا (57)، فرد المقدم الى المؤخر، والمؤخر الى المقدم، فوزنه شعرا، فما زاد فيه ولا نقص حرفا من ذلك فقال (58) :

تغيـرت البـلاد ومـن عليهـا ... فوجـه الارض مغبـر قبيـح
تغيـر كـل ذي طعـم ولـون ... وقـل بشاشـة الوجـه الصبيح

وهى ابيـات ، اورد بعدها شعـرا مثله ، قالته زوجته (حـواء) فـي ولديهـا المقتول منهما والقاتل

وهذه النصوص ، لو صحت ، فهى تحمل شيئا من اصولها المحصورة في معانيها المتوارثة عبر العصور السحيقة . واذا شئنـا مثالا أحدث في تطور النصوص عبر اللغات المتعددة التى تتوالى على المنطقة العربية ، فلننظر الى المقطع الاسطوري لقصة الطوفـان في الالـواح السومريـة ، والنصوص الشعريـة لها في الالواح السامية واللغات الاخرى مع مقارنتها بما تورده الاسفار التوراتية ثم تجدد القصة في الموارد العربية الكلاسيكية لنجـد الفرق الواضح بين هذه النصوص ومدى تأثيرها بالمسيرة الطويلة عبر اللغات المتعددة (59) . وعلى هذا، يكون قبولنـا لذلك الشعر التوحيدي القديـم ، من جانبه المعنوي ، وقبولنا لشعـر التبابعة المستشهد به، وشعر الاحناف المعاصر للبعثة أو قبلها بقليل . ويعـد الشعر المنسـوب لآدم وزوجته ، أقـدم اشعار التوحيديين بل هو مقدمـات غامضة ومشوشة، ان لم تكـن محاولات عقيمة للتغييش بأولية الشعر التوحيدي ضمن سبـاق غير مجـد مع الشعـر الوثنـى ، بعـد أن أعقبـه اقحام نصوص شعريـة لتبـع (اسعد بن ابيكرب) (60) في بلوغه مكـة وخضوعه لفكـرة الحنيفية الخليليـة ونبذه للوثنية التى كان عليها قبل ان يصل البيت ويكسوه :

(57) يلاحظ فى النص علاقة الشعر بالفروسية، كأن الحماسة من اسباب الشعر، ويلاحظ أيضـا علاقة السجـع بالشعر، كأن الشعر خرج من السجع.
(58) لـم يتوفر لدينـا النـص المسجوع لننظر كيف فعل ذلك..
(59) تراجع الدراسة الكبيرة التى قدمها الدكتور فاضل عبد الواحد عن قصة الطوفان فى النقوش السومرية والسـامية والموارد والمدونـات الكلاسيكية فى كتابه : الطوفان.
(60) السيرة 19/1 — 25 واروض الانف ص 27.

وكسونا البيت الذي حرم الله ... ملاء منضدا وبرودا
فأقمنا به من الشهر عشرا ... وجعلنا لبابه اقليدا
ونحرنا بالشعب ستة آلف ... فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا ... فرفعنا لواءنا معقودا

اما سبيعة بنت الاحب ، زوج عبد مناف بن كعب بن كنانة، فقد تلقت خبر تبع وشعره ضمن موروثات قومها، فخاطبت ولدها تقول معظمة عليه حرمة مكة وناهية اياه البغى فيها ، ذاكرة التبغ وتذلله لها وما صنع (61) :

ابني لا تظلم بمكـ ... ـة لا الصغير ولا الكبير

الى أن تقول :

ولقد غزاها تبع ... فكسا بنيتها الحبير
وأذل ربي ملكه ... فيها فأوفى بالنذور
يمشي اليها حافيا ... بفنائها الفا بعير
ويظل يطعم أهلها ... لحم المهاري والجزور
يسقيهم العسل المصفى ... والرحيض من الشعير

ثم تنتقل الى قصة اصحاب الفيل وهلاكهم . ويلاحظ على هذا الشعر واضرابه من شعر الاحناف امثال عمرو بن زيدوورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد المطلب بن هاشم وابي طالب بن عبد المطلب في اغلب شعره ، انه يرد في كتب السير والمغازي والتاريخ مثل سيرة ابن هشام وسيرة ابن كثير والروض الانف والسيرة الحلبية ومغازي الواقدي وتاريخ الطبري ومروج المسعودي ، ويرد في كتب التراجم والتفاسير والحديث مثل تراجم الصحابة بأنواعها كالاصابة لابن حجر واسد الغابة لابن الاثير والطبقات لابن سعد وتفسير الطبري وتفسير الطبرسي والنهاية في غريب الحديث لابن الاثير والنهاية لابن كثير.

ان عنصر القصة وطابع الغرابة وسمة المبالغة مما يطغى على هذه الكتب ، بل تكاد تكون من ابرز طوابعها حكايات الجن والقصص الاسطورية ، لذلك اوردت من شعر الاحناف ما يغلب عليه الانتحال

(61) السيرة 27/1 بن كثير 21/1 وقال ابن هشام : وهذا الشعر مقيد، يوقف على قوافيه لا يعرب.

والصنعة والضعف والركاكة . لكننا نستطيع أن نقف على جزء غير يسير منه يورد في كتب أخرى تعتمد الرواية الموثقة والصحيحة ولا تأخذ الا عن رواة عرفوا بجودة مروياتهم ، وان كانت اختياراتهم لا تخلو من تمحل أو تكلف ، فهي تورد الشعر لمن ذكرنا من الاحناف ممن تتوثق من شعرهم، وتورد لغيرهم ممن يدخلون في عداد الاحناف ممن تثق بدواوينهم مثل شعر لبيد بن ربيعة وعدي بن زيد واوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى وعبيد بن الابرص وامية بن أبى الصت . وابرز هذه الكتب هى المفضليات للضبى والشعر والشعراء لابن قتيبة والاغانى لابى الفرج والعقد الفريد لابن عبد ربه وطبقات فحول الشعراء لابن سلام، وتدخل في هذه المجموعة دواوينهم العديدة مثل ديوان لبيد بن ربيعة الذي عرف باتجاهه التوحيدي في شعره منذ الجاهلية ، وزهير بن ابى سلمى المتأله المتدين، مع غموض في دنحاه الالاهى والدينى، كما تقص علينا روايه اسلام ولده كعب، والحوار المثير الذي جرى بينه وبين أخيه بجير الذي سبقه الى الاسلام. وهو حوار يشير الى محاججة فكرية عقائدية انتهت بهزيمة الشاعر كعب وقبوله الاسلام بديلا لمعتقده الدينى الذي ورثه عن أبيه زهير (62) . وكان زهير قد أخذ تألهه عن استاذه أوس بن حجر ، شاعر نميم وحكيمها، ومؤسس المدرسة الاوسية في الشعر . وأوس هو الذي يقول (63) :

أطعنا ربنا وعصاه قوم
فذقنا طعم طاعتنا وذاقوا

لذلك نجده يعيب على الوثنيين عادتهم في زواج الابن البكر من امرأة أبيه، وهى في منزلة والدته، اذا مات (64). وهو الشاهد ذكرناه في الصفحات المتقدمة

ولا نعلم ما طبيعة العبادة التى ورثها زهير عن أوس ، ولا «الرب» الذي كان يتحنف له ، ولا معانى الصيغ المستخدمة في (الطاعة) و (العصيان) التى استخدمت في الاسلام فيما بعد.

---

(62) ديوانه ص 57.
(63) ديوانه ص 57.
(64) المحبر 325 والضيزن هو الذى يخلف على امرأة أبيه.

واوردت كتب الاختيارات والحماسات جزءا يسيرا من شعر الاحناف. الا ان ديوان أمية بن ابي الصلت ، يكاد يكون ترجمة حرفيه لمقاطع كثيرة مما ورد في القرآن الكريم من آيات وسور في شؤون انسانية ومشاهدات كونية وسبحات ذهنية في فلسفة الحياة والموت . ونلمح مثل هذا الاتجاه المحض في ديوان عدي بن زيد وعبيد بن الابرص، واشتات في دواوين بعض الشعراء الجاهلية. ممن نعترف بأنهم موحدون وممن نعترف بأنهم قد يكونون في هذا المنحى لكننا لا نعرف ذلك، مع أن وثنيتهم لم تتأكد لدينا. فمن ذلك قول الاخنس بن شهاب، جاهلي لم يدرك الاسلام (65) :

ولقد شهدت الخصم يوم دفاعه
فأخذت منه خطة المقتال

وعلمت أن الله جاز عبده
يوم الحساب بأحسن الاعمال

وهذا يضاف الى ما قاله زهير في معلقته ولبيد وحتى السموأل في قوله (66) :

وأتاني اليقين أني اذا مت وان رم أعظمي مبعوث

وعلى وجه العموم ، يختلط شعر الموحدين ، ممن يدخلون في عداد الروايات الدينية التاريخية. واصبحوا محض ذكرى باهتة في ذاكرة الاجيال، بشعر الاحناف ممن عاصروا البعثة النبوية أو سبقوها بقليل، وبشعر الموحدين المسلمين ممن أخذ شعرهم طوابع الدين الطالع. وقال عبد قيس ابن خفاف في قصيدة مفضلية (رقم 116) وهو جاهلي :

والله فاتقه وأوف بنذره واذا حلفت (ماريا) فتحلل

(65) المصدر السابق 322.
(66) السموأل ديوانه ص 23 ويراجع ديوان لبيد ص 38، 41.

الاتجاهات العقائدية والاطر الفنية لشعر التوحيد :

يأخذ شعر التوحيد في أطره العقائدية العامة أبعادا فكرية ذات اتجاهات محدودة ، اذا قيست بما استقر عليه الشعر التوحيدي الاسلامي المتطور فيما بعد . وأبرز هذه الابعاد هو الاتجاه النسكي الغارق في نمط من عبادة مجهولة الاسس ، غامضة المقاصد، وان كانت تؤكد وحدانية الخالق ، الا أن معالمها وفق المنظور العقلي للاسلاميين ، لم تحدد لدى الاحناف ، كما لم تتحدد ملكوت السماوات والارض لديهم. ثم الاتجاه الذي تعكسه مباديء الثقافة الدينية الموروثة والمنقولة والمتأملة. وقد تتخللها مقاطع اسطورية ، وربما كان أثر الحنيفية على البيئة العربية، يتضح في شطحات ذهنية توحيدية، تبرز في اشعار طائفة من الوثنيين.

ولا يتجاوز شعر التوحيد في اتجاهاته وأطره، حدود عالمه الذي يتحرك فيه ويدعو اليه ويعمل على ابراز دوره في بلاد العرب، برغم الهزائم التي الحقها الوثنيون في الماضي بالتوحيديين على مختلف الاصعدة : السياسية والاجتماعية داخل المجال العربي وعلى الصعيد الدولي والعالمي أيضا. وأبرز ما تلقانا من اتجاهات هذا الشعر ، هي تلك المعاني التي تتبلور في التضرع الى الخالق الواحد الاحد، وتقديس حرمه وبيته العتيق، ثم يستتبع ذلك بالضرورة، تعظيم مدينة مكة أيضا ومناسباتها ومناسك حجها. وأما الموضوعات التقليدية من مديح ، وهجاء ورثاء، فقد يتحقق وجودها ضمن الصيغة التوحيدية نفسها. فقد مدح شعراؤهم عقيدتهم الدينية ومقوماتها الاخلاقية وما يتحلى به الاحناف ، وهجوا مقابل ذلك مظاهر الوثنية المادية وقيمها الاجتماعية والاخلاقية المبنية على التعدد والتجزئة والشرك والاصنام. واما المراثي التوحيدية ، فقد كانت توجه عادة الى بعضهم البعض ، ليس الى غيرهم من البشر. ونهج شعر الموحدين الاسلاميين طريقا خاصا في المديح ، هو الشعر الذي كان يقوله المسلمون في عهدهم الاول عند اسلامهم، ومديح عقيدتهم ومدح رسول الله (ص) .

واتجهت اشعار بعض الشعراء المتألهين ، ممن يدخلون في طبقات الفحول ، بحسب تصنيف ابن سلام وتوزيعه النقدي لهم ، نحو التأمل الفلسفي ، ينطلق بعضه من قاعدة التجارب الفطرية والشخصية في الحياة.

وبعضه الاخر من تجربة الناس في بلاد العرب، حيث تتجمع لديهم طائفة من الرواسم (العبارات والصيغ الجاهزة) والامثال في شكل حكمة او موعظة ، تتطور وفق ما يصيبها من اضافات مع مر الزمن. على ان جانبا من هذه التاملات الفكرية في منطلقاتها المعمقة لا تخلو من احاطة ببعض الفلسفات والحكم، وفق ضوابط مدرسية، وذات طابع منظم في البحث والدراسة والتتبع الاصولي لدى مفكرين سومريين وساميين واراميين ، عرفت طريقها الى العرب عند ظهور مثل هذه النزاعات الفكرية في عهد ما قبل التدوين .

وابرز ما يطالعنا من اتجاهات هذا الشعر في حدود العقيدة، هي ظاهرة التضرع للخالق . والتوجه اليه بالخضوع والطاعة والاستسلام. تلك الظاهرة المعدومة تماما في شعر الوثنيين . فمن قبيل ذلك قول عبيد بن الابرص (67) :

وكل ذي غيبة يؤوب ... وغائب الموت لا يؤوب
من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب
والله ليس له شريك ... علام ما اخفت القلوب

ومثله قول لبيد بن ربيعة (68) :

ان تقوى ربنا خير نفل ... وباذن الله ريثي وعجل
احمد الله فلا ند له ... بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضل

قال في اللسان : «قال لبيد هذا في جاهليته ، فوافق قوله التنزيل العزيز». والقصيدة تبلغ التسعين بيتا، حسبت ضمن مراثيه في اخيه (أربد) مع انها ليس فيها من الرثاء سوى بيت واحد هو البيت الثمانون.

وارى أربد قد فارقني ... ومن الارزاء رزء ذو جلل

ولعل البيت مقحم في القصيدة فيما بعد من عمل لبيد نفسه أو عمل الرواة، وهذا يؤيد ما ذهب اليه البعض من انها جاهلية وافقت الفاظها التنزيل ، ويضاف اليها قوله :

كل شيء ما خلا الله جلل. ... والفتى يسعى ويلهيه الامل

(67) الشعر والشعراء 269/1.
(68) ديوانه ص 174 (ق 26).

واذا كانت القصيدة اسلامية حقا، فيجب أن يكون الرواة قد انتزعوا منها أبيات الرثاء في لبيد ، لما يكتنف موته من رجس الوثنية، متذكرين بهذا مراثي متمم بن نويرة في أخيه المرتد مالك بن نويرة. وتروى للبيد في هذا الاتجاه العقائدي عدة قصائد ، مكونة حالة شعرية خاصة يمكن أن تعرف بحالة لبيد. وشعره في هذا المنحى ، اما أن يكون جاهليا وان هذا الحس الديني فيه من تأثير حركة التوحيد الحنيفي، الضاربة بجذورها في بلاد العرب، أو أن يكون اسلاميا حاول لبيد فيه أن يتخلص من المقدمات الوثنية للقصيدة الجاهلية ، فحاكى نمط التطور في الخطبة الاسلامية الجديدة في افتتاحياتها وهي تستهل بالحمد لله والثناء عليه، ثم الدخول في الموضوع ، والانتهاء منه بخاتمة شكر لله عز وجل. لكن اذا أخذنا بنظر الاعتبار ما ذكر عن لبيد وابتعاده عن قول الشعر في الاسلام ، وانه استعفى عنه بما انزل الله على نبيه ، وانه لم ينظم من الشعر سوى هذا البيت (69) :

الحمد لله اذا لم يأتني أجلي حتى ارتديت من الاسلام سربالا

أو انه لم يقل في الاسلام غير هذا البيت (70) :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

واذا أخذنا أيضا، بنظر الاعتبار أن أكثر شعره الديني مشوب بفخر جاهلي ونعرة عصبية ومديح لوثنيين ، بعضهم كانت لهم مواقف مدانة من الاسلام وبعضهم كانت مواقفهم غير مشرفة، نكون عندئذ أشد ميلا في حكمنا على جاهلية هذا الشعر من اسلاميته . كقوله (71) :

حمدت الله والله الحميد ولله المؤثل والعديد

فان الله نافلة تقاه ولا يقتالها الا سعيد

ولست كما يقول ابو حفيد ولا ندمانه الرخو البليد

فعمي ابن الحيا وأبو شريح وعمي خالد حزم وجود

---

(69) ديوان لبيد 375.
(70) المصدر نفسه 349.
(71) ديوانه ص 38 (ق 6). ويقتالها : اى يقولها.

ثم يستمر بهذا اللون من المديح للجاهليين والفخر بهم .. على أن بعضا من شعر لبيد لا يشك في جاهليته، كالمرثية التى قالها في النعمان ابن المنذر عندما حبسه كسرى وغدر به في السجن، فكان من أسباب يوم ذي قار (72) :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وتقول رواية السيرة (73) ، عند الحديث عن هذه القصيدة، أن عثمان بن مظعون عندما أعلن إسلامه واذته قريش ، طلب جوار الوليد بن المغيرة أحد أعمدة المجتمع المكى آنذاك، فحماه فلم يضطهده أحد، فسولت لعثمان بن مظعون نفسه بأن مثل هذه الحماية تنفي عنه صفة المؤمن الحقيقى ، وبالاخص عندما رأي رفاقه من أتباع محمد (ص) يؤذون ويضطهدون ، فطلب من الوليد أن يرد اليه جواره وان ينزع عنه طوق العبودية، ففعل ، وذهب الى مجلس الشاعر لبيد بن ربيعة وهو ينشدهم مرثيته في النعمان بن المنذر حتى قال :

الا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون : صدقت .

فلما قال لبيد بقية البيت :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال ابن مظعون : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول.

فقال لبيد مخاطبا أهل مكة «يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذ فيكم ؟! ..» فقال رجل من القوم : «هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله» وقام الى عثمان بن مظعون فلطم عينه وخضرها، والوليد بن المغيرة قريب. يرى ما بلغ من عثمان . فقال : «أما والله يا ابن اخى ان كانت عينك عما أصابها لغنية. لقد كنت في ذمة منيعة» فقال عثمان : «بل والله ان عينى الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب اختها في الله. وانى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس» وتذكر الروايات أيضا، أن رسول الله (ص) قال (74) : اصدق كلمة قالها شاعر ، قول لبيد :

الاكل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

(72) ديوانه ص 254 (ق 36).
(73) ابن هشام 9/2.
(74) ديوان لبيد ص 254.

وقيل أنه وفق الى قوله تعالى : كل شيء هالك الا وجهه (75) وجاء بعده قوله :

وكل اناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الانامل
وكل امريء يوما سيعلم سعيه اذا كشفت عند الاله المحاصل
ليبك على النعمان شرب وقينة ومختطبات كالسعالى أرامل

ويدخل ضمن هذا المنحى في الضراعة والطاعة والاستسلام للمعبود من شعر لبيد قوله (76) .

قضى الامور وانجز الموعود والله ربي ما جد محمود
وله الفواضل والنوافل والعلا وله أثيث الخير والمعدود

ومثلها أيضا (77) :

انما يحفظ التقى الابرار والى الله يستقر القرار
والى الله ترجعون وعند الله ورد الامور والاصدار

ويتضرع عبد المطلب بن هاشم لخالقه عندما يحيق الخطر بالكعبة (78) :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا (م) فأمر ما بدا لك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
ولئن فعلت فانه أمر تتم به فعالك
جروا جموع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
عدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك

وقال أبو قيس صرمة بن أبي أنس (79) :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان جميعا ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستزيد وتأوي في وكور من آمنات الجبال

(75) القصص 88/28.
(76) ديوانه ص 34 (ق 54).
(77) ديوانه ص 41 (ق 47).
(78) ابن هشام /52 والطبرى ـ تاريخ 134/2 والسهيلى 45/1.
(79) ابن كثير 190/2.

ومما تضرع به عمرو بن الجموح قوله (80) :

الحمد لله العلي ذي المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي انقذني من قبل أن ... اكون في ظلمة قبر مرتهن

وأما شعر امية بن ابى الصلت ، فهو ترتيلة دينية من الضراعة والاستسلام والطاعة للخالق ، وقد قال عنه محمد بن سلام (81) : كان كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والارض، ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك ما لم يذكره احد من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب، ومر بزيد بن عمرو بن نفيل أخى عدي بن كعب بن لؤى بن غالب. وكان قد طلب الدين في الجاهلية هو وورقة بن نوفل» وبذلك يكون أمية من الحنفاء الذين حلموا بقيادة حركة التوحيد الدينية، فلما خصها الله بنبيه محمد (ص) حسده وانحرف به طموحه الى محالفة الوثنيين. ويقال انه هو الذي عنته الآية الكريمة : «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه اياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين» (82). وجاء في التفسير الكبير (83) : أما قوله فانسلخ منها، ففيه معنيان ، الاول بمعنى علمناه حجج التوحيد ، وفهمناه ادلته، حتى صار عالما بها فانسلخ منها. والثانى ، أي بيناها له فلم يقبل واعرض عنها.

ولما كنت بصدد أمية بن أبى الصلت وحالته الشعرية، فيحسن بي أن أقول شيئا عنه في نقاط :

أ) هنا، بين أيدينا، رؤية شعرية بالملكوت، مبنية على اختلاط واسع بالاحناف والكهان والرهبان والاحبار والقساوسة . فالمظاهر الكونية والطبيعية مفسرة تفسيرا دينيا مختلطا، وقد تكون للكتب السماوية اثار في هذه الرؤية .

ب) يمدنا شعره بصورة تجريدية عن خالق الكون وعرشه والمحيطين به من الملائكة، وهم في حالة خوف ورهبة من هذا الملك العظيم،

---

(80) م. ن. 207/2.
(81) طبقات فحول الشعراء 263/1.
(82) الاعراف 174.
(83) فخر الدين الرازى 54/15.

ويقدم أمية هذه الصورة كأنها رؤية البصر . فهي صورة للاستسلام والضراعة .

ج) توجد اشارات واهية الى العصيان البشري والخروج على الطاعه الالهيه ودين ابراهيم الحنيف ، ومثل هذه الاشارة وردت في معرض وصف الملائكة الذين يطيفون بالعرش الالهى في خشوع ورهبة ، وفي المقابل يشير الى البشر العاصين ، كأنه بذلك يريد أن يقول أن الخوف الملائكى لهذه الارواح الاثيرية مبعثه تماس أو اتصال مباشر، فهم يرون بعيونهم قبضة الله المهيمن على كل شيء. أما البشر الفانون فهم بعيدون عن هذه المشاهد الفريدة ، يشاهدون رتابة الحياة بأعينهم ولم تباشرهم أية سطوة خارجية وقوة خارقة ليعرفوا الله حق قدره، فضلا عن تماديهم بالظلم والغدر والغواية دون عقاب مباشر وسريع من يد الله ، لذلك مكثوا في ضلالهم سادرين ، ونسوا الله ولم يتهيبوه، وعصوا الرسل . وبعبارة ان الملائكة تخشاه لانها تراه، والبشر العصاة لا يخشونه لانهم لا يبصرونه بأعينهم ، وغشيت عقولهم سحابة الضلال.

د) يؤلف مجموع شعر أمية ترتيلات نسكية لم يستطع أمية أن يعزوها الى الغيب أو يوفق – على الاقل – في اقناع الناس بذلك. وان حاول أن يدعى مثل هذا النسب الغيبي عن طريق ملكين ، كما زعمت الرواية . ولم تلاق اشعار أمية في التوحيد أية مقاومة عاتية من قبل وثنيى مكة وأحلافهم لانها أشعار فارغة من صيغ الرفض الثورية التى كانت تنزل على محمد (ص) في صورة آيات سماوية. ان مضامين الذين الجديد والقرآن الكريم احتوت مقاطع انقلابية في حياة المجتمع المكى خاصة والعربى عامة . وهذا ما يخلو منه شعر أمية ، فقد كان أمية فرديا أقرب الى روح النساك ، وكان محمد (ص) ثائرا عربيا وقائدا يدعو الى المجتمع الانقلابى الجديد. والحنيفية التى يدعو اليها أمية. حنيفية سلفية تقليدية ، أما حنيفية الرسول فهى تؤكد على صلة النسب الحنيفية الخليلية والموسوية والعيسوية والاحناف الثائرين من بعدهم، الا أنها جديدة في منحاها ومبناها، ومكملة لمواضع النقص المتولدة نتيجة تطور الزمن، ومهذبة لبعض صيغ التوحيد القديمة.

ه) ان تورط أمية ببعض مظاهر الكهنوت، قاده الى طريق مسدود في العبادة ، كما ابعده عن طريق النبوة المنشودة . ان ارتداء المسوح

والانقطاع الى الهياكل والمعابد والاديرة النائية أياما، واتخاذ الاسطورة اداة ووسيلة في الشعر للتدليل على الخالق الاوحد ، جعلته محض شاعر قاص، وكان يستقريء الغيب عن طريق الكتب والرهبان والاحبار أو صاحب من الجن ، فهو لا يتعدى في هذا ما يرافق سواه من الشعراء. خلافا لما كانت عليه معجزة القرآن الكريم في انتماء صاحبها الى النبع الاصيل من تأمل الهي في الغار وعدم اعتماد الاسطورة هدفا وانما وسيلة وعظ او ارشاد، لذلك جاءت في القرآن الكريم باعتبارها صيغة رموز واشارات ذات دلالة بليغة لم ينزل العلم يكشف عن بعض جوانبها العميقة، ثم ظاهرة هجر الشعر الذي غدا مثار شبهة حتى لدى الاصلاحيين فكيف بأنبياء الله. وجاء الاسلام رفضا لمسوح الرهبنة واردية السحر، ثم ثورة على واقع العالم القديم من أجل حياة جديدة، وفعلا بدأ تاريخ العالم العلمي والجديد بالاسلام. لهذا كله لم يجد الوثنيون شيئا من الخطر يتهدد مصالحهم في شعر أمية ومعتقده الحنفي أو فكره التوحيدي، على عكس ما لمسوه في ظهور الشخصية المحمدية ، لذلك انتهى الامر بأمية الى لبس المسوح والارتماء في احضان الطواغيت المكية. وهي نتيجة طبيعية سار اليها بسبب الطريق المسدود الذي سلكه من البداية عندما ارتدى المسوح وتأثر بالاحبار، وهي مظاهر شاذة ليست من صلب التوحيد .

و) ان التوافق الملفت للنظر في شعر أمية مع الفاظ القرآن وقصصه واخباره يمكن أن يرد الى وجهين : الاول ، أن يكون هذا الشعر منحولا وضعه الرواة الثقفيون أو غيرهم بعد الاسلام ونحلوه شاعرهم أمية لتحقيق مكاسب شعرية ومجاد تاريخية ادبية ، مع أن الحكم بذلك ليس هينا ولا يمكن أن يطلق جزافا بالشكل الذي اطلق على عموم الشعر الجاهلي، فلقي الحكم رد واعتراضا حيث تراجع المشككون وبقي الشعر الجاهلي مرويا ومقروءا. واذا حكم على جميع شعر أمية بالاعدام، فما حكمنا على اخباره ؟ واذا الحقنا الاخبار بالاشعار فماذا نقول في هذا الاجماع على الرواية ؟ وذا عزونا الاشعار والاخبار الى صانع واحد، فمن هو ؟ وما عصره ؟ وكيف نسبت اليه رواية اشعار دونها علماء عرفوا بالتوثق وصدق العمل ؟ والوجه الثاني أن يكون هذا الشعر في غالبيته صحيحا، وعندئذ يمكن أن ترد اسباب التوافق في اللفظ الى

محاولات الرواة المسلمين في تبديل بعض الالفاظ في بعض الابيات، عندما يستقيم الوزن ولا يتأثر البيت ، فيشابه البيت موضعا من القرآن الكريم بلفظة تناسب القصة أو تحاكيها. ويمكن أن نرد ذلك أيضا الى تأثر أمية بالقرآن في مرحلة متأخرة من حياته حيث استعان ببعض ألفاظه ايمانا منه بصدقه قبل أن يكابر ويقع في العصيان عندما فوجيء بالنتائج المؤسفة له عند مقتل أناس قريبين الى قلبه، برغم شركهم، وذلك في أيام (بدر) فتحول عن عزمه على الايمان الى عزيمته على المعاداة. وربما وقع التوافق بسبب التأثر أيضا لما لالفاظ القرآن من سلطة على النفس بقوة العبارة وعمقها. وقد وجدنا أمية يولي مدبرا لدى محاججته الرسول (ص) وسماعه بعض آيات القرآن. فلم ينفعه شيئا شعره في التوحيد واخبار الماضين. وقد يكون امية قد تعمد اختيار الفاظ قرآنية ليدخلها في شعره من قبيل المكابرة وبيان القدرة اللغوية وابراز الموهبة الشعرية والمعارف الاسطورية.

أما التوافق في القصة أو الاسطورة ، فلا يعنى شيئا مطلقا، لان هذا الموروث الثقافي كان معروفا لدى العرب ويتداولونه، وهو دائر في الشعر الجاهلي أيضا، وليس في شعر أمية فحسب، وان القرآن الكريم لم يكن ليوجز هذه القصص الا لان العرب كانوا يعرفون تفاصيلها، فكان يوميء فقط الى موضع الشاهد من العبرة والموعظة، أو مكان الاستشهاد بالمعجز من الخبر مما لم يكن يعرفه العرب، فقد كانت بعض الاخبار قد عميت عليهم، فكان القرآن يجلوها بصدق مما كان يذهلهم. وكم من المرات وقف أمية والنضر بن الحارث وغيرهما مذهولين امام هذه القدرات المعجزة التي يأتي بها القرآن على لسان محمد (ص).

ز) كانت نهاية أمية نتيجة طبيعية لبداية مشوشة حائرة، فختم رحلته التأملية بهزيمة منسحقة امام الفكر الكبير الذي حمله الاسلام، فانتهى بمثل ما ابتدأ به ناسكا في فكره ، وان أفادت الاخبار أنه ختم رحلة العمر معاقرا الخمرة ومنادما الغواة، الا أن قصيدته التي قالها قبل الموت وعبرت عن خلاصة معمقة لفكره، قد أشارت الى امتداده في منهج واحد سارت عليه حياة الشاعر في الزهد والنسك والتوحيد (84) :

(84) ديوانه ص 246.

كـــل عـيـش وان تطـاول دهـــرا
صـائـــر مـــرة الـــى أن يـــزولا

ليتنـي كنـت قبـل مـا قـد بـدا لـي
في رؤوس الجبـال ارعـى الـوعـولا

اجعـل المـوت نصب عينـك واحذر
غـوائـة الدهـر ان للـدهـر غـولا

أما الموضوع الثانـي الكبير الذي تـدور في فلكه أشعار الاحنـاف، فهو موضوع تقديس البيت والحرم، ويستتبع ذلك تقديس (مكة) أيضا. وقد حاول المؤرخون ان يغبشوا كثيرا في الاستشهادات الشعرية لهـذا الموضوع ، لما لمكة من الحرمة في النفوس، فأدخلوا المنحول في الصحيح فأخل به، وضربوا مثلا بأشعار التبع أسعد ابي كرب حين قال (85) :

وكسـونـا البيـت الـذي حـرم ... الله مـلاء مقصـدا وبـرودا
ثم سرنـا عنـه نـؤم سهيـلا ... وجعلنـا لبـابـه اقليـدا
فاقمنا به مـن الشهر عشـرا ... فترى النـاس حـولهـن ورودا
ونحرنـا بالشعـب ستـة آلـف ... فرفعنـا لوءانـا معقـودا

واورد الطبري للتبـع هذا (تبـان اسعد ابو كـرب) شعرا يصـف فيه العملية المذكورة في الابيـات المتقدمة ، أي اكسـاء البيت وطوافه به واخذه بنصيحـة الحبرين في عـدم غزوه . وهي قصيـدة تقع في ثـلاث وعشرين بيتـا (86).

ووردت قدسية مكة في صيغة وصية قالتها سبيعة بنت الاحب شعرا توجهه الى ابن لهـا يقال له خالد، تعظه وتعظم عليه حرمة مكـة، وتنهاه عن البغي فيها (87) وقد سبق الاستشهاد بها في موضع آخر بإيجـاز :

ابنـــي لا تظلـم بمكـــة لا الصغيـــر ولا الكبـيـــر
واحفـظ محـــارمهـــا بنـــي ولا يغـرنـــك الغـــرور
ابنـــي مـن يظلـم بمكـــة يلـق اطـراف الشـرور

(85) الروض الانف 27/1.
(86) تاريخ الرسل والملوك 107/2 — 109.
(87) ابـن هشام 26/1 وينظر الجزء الاول من أخبار مكة اللازرقي.

. . .

. . .

ولقد غزاها تبع ... فكسا بنيتها الحبير
واذل ربي ملكه ... فيها فأوفى بالنذور
يمشي اليها حافيا ... بفنائها الفا بعير
ويظل يطعم أهلها ... لحم المهاري والجزور
يسقيهم العسل المصف ... ـى والرحيض من الشعير
والفيل أهلك حبشه ... يرمون فيها بالصخور
والملك في أقصى البلاد ... من الاعاجم والخزير
فاسمع اذا حدثت وافهـ ... ـم كيف عاقبة الامور

والقصيدة عكست بوضوح قدسية مكة وعاقبة من يظلم أو يبغي فيها، لذلك أورد الطبري ، أن مكة سميت (بكة) أيضا لانها تبك اعناق الطغايا والجبابرة اذا بغوا فيها، واورد قصة أساف ونائلة وما أحدثا من الفجور في داخل الحرم فمسخا حجرين (88).

ويصور عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي حزنه الشديد على فراق مكة وحرمها الآمن بعد أن غلبت خزاعة جرهما في الوظائف الدينية والسيادة الادارية (89) :

وقائلة والدمع سكب مبادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
انيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما
يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا اهلها فأزالنا
صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد (نابت)
نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

(88) تاريخ 274/2 والسهيلي 64/1. ويراجع بحث : التلبيات فى هذا الكتاب تلبية رقم 48 حول بكة ومكة واستخدام هذه اللفظة.
(89) ابن هشام 120/1 وابن كثير 58/1.

الى أن يقول :

ونبكي لبيت ليس يؤذى حمامه
يظل به امنا وفيه العصافر
وفيه وحوش لا ترام أمينة
اذا خرجت منه فليست تغادر

وله شعر غيره في المعنى نفسه (90).

وقال مر بن أد حين نذرت زوجته احد اولاده ان يكون عبدا (سادنا) للكعبة ان هي وضعته ذكرا. فلما ولدته تصدقت به على الكعبة (91) :

انى جعلت رب من بنيه ربيطة بمكة العليه
فباركن لي بها اليه واجعله لي من صالح البريه

وكان اسم الغلام المنذور : الغوث ، فسمي (صوفة) وعرف به كل سادن للبيوت المعظمة عند العرب ، كما عرفوا بالصوفان أيضا لارتدائهم الصوف ، أو لسبب آخر . وكان الغوث يدفع الناس الى عرفة . واذا صح ما أورده السهيلي من أن ملوك كندة هم الذين نصبوا الغوث في اجازة الناس من عرفة ، تكون مكة قد مرت عليها حقبة خضعت لسيطرة خارجية ، وهذا خلاف التصور الشعري والتاريخي المتكون عنها وعن اهلها بأنهم (لقاح) لم يخضعوا لملك .

قال أحد شعراء الجاهلية في ذلك :

ونلفى عند تصريف المنايا شددا رفدا
فان نهلك فلم نملك ومن ذا خالد ابدا

أي لم يكن علينا وال ولا ملك . وكان الغوث اذا دفع بالناس قال :

لاهم اني تابع تباعه ان كان اثم فعلى قضاعة

يريد ما يتبعه الانسان ويقتدي به ، وقد خص قضاعة لان منهم محلين يستحلون الاشهر الحرم، كما كانت خثعم وطي تفعلان ، فهو

---

(90) ابن هشام 121/1 والقصيدة في الجزء الاول من اخبار مكة للازرقي.
(91) المصدر السابق 127/1.

أشبه بالدعاء ضد قبائل تخرج على التوحيد وتأخذ ببعض مظاهر الوثنية ويقودنا هذا الحديث الى اتجاه آخر يظهر في شعرهم هو ذكر المناسك والشعائر ومواسم الحج المختلفة في العصر الجاهلى ، كقول أوس بن مغراء السعدي ، يمدح صفوان بن جناب التميمى ، وكان يجيز الناس بالحج من (عرفة) وقد بقى أولاده يفعلون فعله ، حتى كان آخرهم كرب بن صفوان الذي قام عليه الاسلام (92) :

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم
حتى يقال اجيزوا آل صفوانا

وقال ذو الاصبع العدوانى في الافاضة من مزدلفة (93) :

عدير الحي من عدوان ... كانوا حية الارض
بغي بعضهم ظلما ... فلم يرع على بعض
ومنهم كانت السادا ... ت والموفون بالقرض
ومنهم من يجيز النا ... س بالسنة والفرض
ومنهم حكم يقضي ... فلا ينقض ما يقضى

وكانت الافاضة في عدوان ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى كان خرهم الذي قام عليه الاسلام وهو أبو سيارة عميلة بن الاعزل ، وفيه يقول شاعرهم (94) :

نحن رفعنا عن ابي سيارة ... وعن مواليه بني فزارة
حتى أجاز سالما حماره ... مستقبل القبلة يدعو جاره

وكان أبو سيارة يدفع الناس على أتان أسود، وفيها يقول :

لاهم، مالي في الحمار الاسود ... اصبحت بين العالمين أحسد

وفخر مسافر بن عمرو بن أمية بن عبد مناف على قريش بما ولوا عليه من السقاية والرفادة وما أقاموا للناس من ذلك . وفخر بزمزم حين

---

(94) المصدر السابق. ومعنى مواليه اى أبناء عمه.

ظهرت لهم . وانما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد ، شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل (98) :

ورثنا المجد من ابائنا ... فنمى بنا صعدا
ألم نسق الحجيج وننح ... ر الدلافة الرفدا
ونلفى عند تصريف المنـ ... ـايا شددا رفدا
فان نهلك فلم نملك ... ومن ذا خالد ابدا
وزمزم في ارومتنا ... ونفقأ عين من حسدا

وقال حذيفة بن غانم :

وساقي الحجيج ثم للخير هاشم
وعبد مناف ذلك السيد الفهري (96)
طوى زمزما عند المقام فاصبحت
سقايته فخرا على كل ذي فخر

وتعد أشعار التلبية قبل أن تتداخل فيها تحريفات الوثنيين، صورة مشرقة لشعر التوحيد في تصوير مناسك الحج. وقد كانت التلبية واحدة كما هي اليوم ، فلما انتصرت خزاعة وسادها عمرو بن لحي اصار لكل قبيلة تلبية تذكر فيها صنمها ، فكان من التلبيات ما يصل الثلاثمائة على عدد الآلهة المنصوبة في الحرم وحوله ، تعكس حالة التجزئة التي خلقتها الوثنية يومذاك (97).

وكان شعرهم في تعظيم عقيدتهم التوحيدية وفكرتهم الحنيفية وذم الوثنية والشرك وعبادة الاصنام تمثل اتجاها آخر بارزا لدى الحنفاء حتى أنها لدى أمية بن الصلت تعد كنزا لا تنفد خزائنه (98) :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا
بالخير صبحنا وبي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها
مملوءة طبق الافاق سلطانا

---

(95) ابن هشام 158/1 والاغاني 8/8 (بولاق). ومعنى الدلافة في البيت الثاني : الابل المتهلة بسيرها لشدة سمنها.

(96) الفهري : القاهر.

(97) يراجع في التلبيات وعددها وبداية التحريف فيها كتاب الروض الانف ص 62 والمحبر ص 309 ومابعدها ومقالتنا : التلبيات الجاهلية في متن هذا الكتاب.

(98) ديوانه ص 302.

ومما ينسب لامية أو لابيه ، قوله في تعظيم الحنيفية ايضا (99) :

ان آيات ربنا بينات
ما يماري فيهن الا الكفور

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور.

ولزيد بن عمرو بن نفيل في التوحيد وذم الشرك مواقف شعرية تروى له ، من قبيل قوله (100).

الى الله أهدي مدحتي وثنائيا
وقولا رصينا لايني الدهر باقيا
الى الملك الاعلى الذي ليس فوقه
اله ولا رب يكون مدانيا

وهى طويلة ، زاد عليها السهيلى (101) نقلا عن أبى الفرج في اخبار زيد مما لم يرد في رواية ابن اسحق هذا البيت :

اديـن الاهـا يستجار ولا أرى
اديـن لمن لم يسمع الدهر داعيا

وبيتا آخر لم يذكره ابن اسحق أيضا، وقع في جامع ابن وهب :

وأنبت يقطينا عليه برحمة
من الله لولا ذاك اصبح ضاحيا

وذكر عمرو بن مرة الجهنى وحدانية الله وهجا الآلهة الحجرية (102)، وكان موحدا سمع بمبعثه النبى فبادر مهاجرا الى مكة ليلقاه، فهو يدخل ضمن الاحناف الذين كان لهم موقف ايجابى من الاسلام :

شهدت بان الله حق واننى
لآلهة الاحجار أول تارك
وشمرت عن ساقى الازار مهاجرا
اليك اجوب القفر بعد الدكادك
لاصحب خير الناس نفسا ووالدا
رسول مليك الناس فوق الحبائك

(99) ديوانه 338 .
(100) ابن هشام 242/1.
(101) الروض الانف 149/1.
(102) السيرة النبوية لابن كثير 316/1.

وكان أبوه سادنا لصنم، فقام اليه عمرو وكسره ولحق بالنبي، وله شعر ذكر في المسند الكبير.

وجارى الشعر التوحيدي في بعض اتجاهاته الفنية، الشعر الجاهلي في المديح والهجاء والرثاء. بل اذا شئنا ان نبحث عن خصائص موضوعيه للشعر الوثني الجاهلي نظهر في شعر الموحدين لوجدناه يجاريه في موضوع الرثاء اكثر من اي امر سواه، الا انه رثاء يقتصر على العقائديين وحدهم دون سواهم. فقد كان التوحيديون يرثون بعضهم عندما يسمع احدهم بانتقال رفيقه الى جوار خالقه. فقد رثى زيد بن بن نفيل عثمان بن مظعون ورثت عبد المطلب ابن هاشم بناته، ورثى ورقة بن نوفل، زيد بن نفيل . وهذا مثال لورقة يبكي زيدا (103).

رشدت وانعمت ابن عمرو وانما
تجنبت تنورا من النار حاميا
لدينك ربا ليس رب كمثله
وتركك أوثان الطواغي كماهيا
وادراكك الدين الذي قد طلبته
ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت من دار كريم مقامها
تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقي خليل الله فيها ولم تكن
من الناس جبارا الى النار هاويا
وقد تدرك الانسان رحمة ربه
ولو كان تحت الارض سبعين واديا

وكان شأن المديح والهجاء كشأن الرثاء، لا يتجاوز في نطاقه قضاياه العقائدية . وربما كان مدح الرسول (ص) في العهد المكي الاول ابرز سمة لهذا اللون من الاغراض الشعرية ، وان كانت بعض مدلولاته لا تنم عن باعث ديني واضح ، كما في مدائح ابي طالب للرسول في جميع ما ينسب اليه من شعر، وبالاخص مطولته اللامية التي اوردها ابن هشام (104)، وقد ضمنها كل مقومات الشعر التوحيدي من تقديس

(103) ابن هشام 247/1.
(104) م. ن. 291/1.

للبيت ومناسكه وحجه، وتعظيم مكة وشعابها وجبالها، وذكر لاحداثهـا والملا الذي فيها، واستطراد في الفخـر ببنى عبد مناف. ومما ذكره في مديح الرسـول قولـه :

كذبتـم وبيـت اللـه نبـذي محمـدا
ولمـا تطـاعـن دونـه ونناضـل
ونسلمـه حتـى نصـرع حـولـه
ونـذهـل عـن ابنـائنـا والحـلائـل
ويِنهـض قـوم في الحـديـد اليكـم
نهـوض الروايـا تحـت ذات السـلاسـل
وابيـض يستسقـى الغمـام بـوجهـه
ربيـع اليتـامـى عصمـة لـلارامـل
يلـوذ بـه الهـلاك مـن آل هـاشـم
فهـم عنـده في رحمـة وفـواضـل

وهي عند ابن هشام تبلـغ ثلاثـة وتسعين بيتـا ، ولو اضيف اليها ما ورد في المصادر، لجاوزت المائة، فليس بين شعر التوحيد قصيدة في مثل طولها، قال : عندما ختمها، ابن هشام : هذا ما صح لي من هـذه القصيدة ، وبعض أهل العلـم بالشعر ينكر اكثرها. وقال ابن سـلام : وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام، ابرع ما قال قصيدته التى مدح فيهـا النبـي (ص) :

وابيـض يستسقـى الغمـام بـوجهـه
ربيـع اليتامـى عصمـة لـلارامـل

وقد زيـد فيها وطولت، ورأيت في كتـاب يوسـف بن سعـد صاحبنا، منذ اكثر من مائة سنـة «وقد علمـت أن قـد زاد الناس فيها، ولا ادري أيـن منتهاهـا. وسألني الاصمعـى عنهـا، فقلت صحيحـة جيـدة. قـال اتدري ايـن منتهاها ، قلت : لا» ثم يعلـق ابن سـلام قائلا : واشعـار قريـش اشعار فيها ليـن ، فتشكل بعض الاشكال» وهى اشارة خفية من ابن سلام الى صحـة القصيدة ، وتأكيد لما ذهبنـا اليه من كون التوحيدي يمتـاز بمثل هذه السمـة الفنيـة .

ومدح ابو قيس صرمة بن ابى أنس، من بنى النجار، قريشا لانها تخدم البيت ، فابرز مآثرها، لانه يعظم فيها الحرمة، ولان دين الحنيفية فيهم. فطلب منهم الكف عن ايذاء الرسول من العهد المكي الاول، ديتههم . ان هم لم ينتهوا ، فسيأذنون بحرب لا تبقى ولا تذر ، وهى قصيدة توضع في عداد القصائد التوحيدية الطويلة أيضا، يقول فيها :

اقيموا لنا دينا حنيفا فأنتم
لنا غاية قد يهتدي بالذوائب

وانتم لهذا الناس نور وعصمة
تؤمنون والاحلام غير عوازب

وانتم اذا ما حصل الناس جوهر
لكم حسرة البطحاء شم الارانب

تصونون انسابا كراما عتيقة
مهذبة الانساب غير اشائب

يرى طالب الحاجات نحو بيوتكم
عصائب هلكى تهتدي بعصائب (105)

وأثر الافتعال في القصيدة واضح، كأننى أقرأ من خلال أبياتها بائية النابغة الذبيانى، ولو شئنا أن نستقرأ كل شعر التوحيد الحنيفى، وبضمنها أشعار الآبار التى احتفرها أبو طالب ورهطه، لامتد البحث لدينا الى صفحات مضاعفة ، لكنا عملنا جهدنا هنا أن نلم بشعر الاحناف وندرسهم تمهيدا للدخول في تفضيلات قادمة ان شاء الله.

---

(105) اكتفيت من دراسة الشعر عند هذا الحد، وهذا جزء من دراسة نعدها فى (شعر الاحناف) نرجو أن نوفق الى اصدارها فى المستقبل.

مصادر البحث حسب مسلسل ورودها فيه

1 ـ السيرة النبوية لابن هشام دار احياء التراث العربى بيروت. مصورة بالاوفسيت عن طبعة الحلبى مصر 1936.

2 ـ أيام العرب في الجاهلية لمحمد جاد المولى وجماعته مصر 1962.

3 ـ تاريخ الادب العربى ـ ريجيس بلاشير ترجمة د. ابراهيم الكيلانى نشر دمشـق.

4 ـ القرآن الكريم ـ النسخة العثمانية.

5 ـ السيرة النبوية لابن كثير.

6 ـ شعر الحرب في أدب العرب للدكتور زكى المحاسنى دار المعارف بمصر 1970 طبعـة ثـانية.

8 ـ الروض الانف للسهيلى مطبعة الجمالية بمصر 1914.

7 ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ـ العدد 27.

9 ـ قصص الانبياء والعرائس للثعلبى طبعة بولاق الاولى.

10 ـ المحبر لمحمد بن حبيب طبع دار المعارف العثمانية بالهند تحقيـق الدكتورة ايلزة ليجتن شتيتر.

11 ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ طبعة بيروت.

12 ـ ديوان امرىء القيس ت : أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعاريف بمصر 1964.

13 ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية.

14 ـ المفصل في تاريخ للدكتور جواد علي ـ بيروت دار العلم للملايين ـ عشرة مجلدات 1972.

15 ـ معجم ما استعجم للبكرى تحقيق السقا ـ القاهرة 1945.

16 ـ الاصنام لابن الكلبى. ت : الاستاذ أحمد زكي باشا ـ طبع دار الكتب المصرية 1924.

17 ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري ـ طبعة أوربا.

18 ـ ديوان الاعشى . ت : محمد أحمد حسين. الاسكندرية 1950.

19 ـ تاريخ الادب قبل الاسلام ـ نوري القيسى ـ د. عـادل البياتى ـ د. مصطفى عبد اللطيف ـ طبع على نفقة وزارة التعليم العالى بغداد 1979

20 ـ الطوفـان ـ د. فاضل عبد الواحد. طبع على نفقة جامعة بغداد.

21 ـ العمدة لابن رشيق ـ دار الجيل ـ بيروت. ت : محمد محي الدين عبـد الحميـد 1972.

22 ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام. ت : محمود شاكر. مطبعة المدنى مصـر 1974.

23 ـ الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ـ طبعة دار الكتب المصرية.

24 ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة. ت : أحمد محمد شاكر ـ مصر 1967

25 ـ أخبار مكة للازرقى (الحفيد) طبـع بيـروت للمستشرق فرديناند وستنفلد 1964.

نصوص التلبيات قبل الاسلام
ومضات من وحدة الفكر والمصير

تمهيد :

هذه نصوص دينية يعود تاريخها الى ما قبل الاسلام، كنت في بحث سابق (1) لي، قد أعددت لها دراسة دقيقة مفصلة ، ثم وجدت أن اكتمال الفائدة منها تقتضي نشر هذه النصوص الوثائقية الهامة ، لما تتضمنه من قضايا ذات تخصص عميق ، تتعلق بفكر العرب وايديولوجيتهم ونظرتهم الى الحياة والكون ، وفلسفتهم في تفسير الذات الانسانية، والبحث عن نقطة البداية والمصير . أو على وجه التحديد ، تعالج مسألة الدين المتعلقة بقضية التوحيد العقائدي والوحدة القومية منذ ان طرحت هذه القضية نفسها على الساحة العربية ، وأخذت ابعادها وأطرها الحقيقية.

وقد خرجت الدراسة في وقتها بجملة من النتائج ، أهمها : أن التوحيد العقائدي والوحدة المصيرية هي منطلق العرب منذ انسيابهم على وجه التاريخ وظهورهم على صفحة الاحداث حتى اليوم . فالعرب اول أمة وحدت عبادة الخالق منذ انبعاث أول نبي مرسل حتى خاتمهم محمد (ص) ، وكانت هذه الدعوة مرتبطة بوحدة الارض والمصير . ونتيجة أخرى خرجت منها الدراسة في حينها، هي أن هذه النصوص التلبوية تتحد في مقدمتها

---

(1) الواقع أنهما بحثان ، الاول منهما نشر في :

أ — مجلة المستقبل العربي — مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ص 34، العدد 28 لسنة 1981 — عنوان البحث : أصالة الوحدة العربية في أقدم النصوص الدينية : تلبيات الجاهلية. ويجده القارىء الكريم في الجزء الاول من هذا الكتاب.

ب — والثاني نشر مع نصوصه في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم العدد 11 طبع بالكويت 1982 ونعيده الان بعد اكتشاف نصوص جديدة عليه. وهو الذي بين يدي القارىء في هذا الجزء.

بانها موحية بصيغة توحيدية . وهذا ما جعل العلماء الاوائل يلتفتون الى حقيقة أن العرب كانوا قبل الاسلام يوحدون خالقهم بالتلبية، ثم يدخلون معه الهتهم ويجعلون ملكها بيده، والى هذا اشار (عز وجل) في تنزيله «وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون» (2) بمعني : ما يوحدونني بمعرفة حقي الا جعلوا معي شريكا من خلقي . وقد علقنا على ذلك في حينه بقولنا : «وهذا النص القيم عكس لنا دور الشعار العقائدي الخالد ، وهو التلبية ، في حفظ وحدة الامة برغم التجزئة الظاهرة، وبرغم الاستلاب والقهر اللذين تسلطا على وحدة العرب القومية والعقائدية، فالتلبية لم تقتصر على كونها صيغة دينية تجمع اليها قلوب العرب فحسب، بل هي الى جانب ذلك هتاف قومي يوحدهم تحت سلطة مركزية. ان لم تكن دنيوية، فهي على الاقل روحية، ومن ثم فالتلبية التي تفعل هذا الفعل في نفوس العرب، لا بد ان يكون لها نفس هذا الاثر العميق في وحدتهم» . ومما خرجت منه تلك الدراسة المشار اليها آنفا (3)، أنها وجدت التلبيات عملا ادبيا فنيا ينتسب الى الشعر والرجز والنثر المسجوع بابعاده المختلفة، هذا وقد تسلسلت مادة الدراسة المذكورة، حول هذه النصوص التي بين يدي القارىء، تحت موضوعات جانبية هي، أولا : أبعاد قيمية . وقد تناولنا فيها ما تطرحه مثل هذه الدراسات الحديثة من قيمة علمية، لان نشر النصوص الدينية التي كان الناس يرددونها قبل الاسلام ولا يعلم الرواة لها مؤلفا أو واضعا كأنها من وحي الغيب ، يعد عملا علميا يقود الى اكتشافات بالغة الاهمية في حقل التأمل الفكري في الانسان والكون . فنحن لا ندري كيف كانت نظرتهم الى هذه التردبدة الشعرية الدينية التي كانوا يرددونها اذا طافوا بين الصفا والمروة (4) :

اليوم تبدي عينا بقرع المروتينا

أو بأية نظرة تقديس كانت تتسم هذه الصيحة من الشعر الديني، عندما كانوا يأتون الى معبودهم «هبل» بالقربان ، وهم يضربون القداح مرددين (5) :

(2) يوسف آية 106.
(3) مجلة المستقبل العربي (اشارة سابقة).
(4) أخبار مكة للازرقي 74/1.
(5) المصدر نفسه 3/2.

أنـا اختلفنـا فهـب السـراحـا ثـلاثـة يـا هبـل فصـاحـا
الميـت والعـــذرة والنكـاحـا والبـــرء في المرضـى والصحاحا
ان لـم تقلـه فمـر القـداحـا

ثانيـا : متابعات لغويـة ، فسرنا بموجبهـا الاصول الاشتقاقيـة للفظـة (لبيـك) ومعالجات العلمـاء اللغوين لها . وتطرقت الى لفظـة التلبيـة والاهـلال ومدلولاتهمـا.

ثالثـا : تطلعات وأصول غيبية ، ذكرنا فيها الاصول الاولى للتلبيات منـذ عهد ابراهيم الخليل والانبياء حتى البعثة النبوية الشريفة، معللين اسباب خوض العلماء الاوائل في تخريجات غيبيـة لربط ظاهرة التلبيـات بالجذر القديـم لتلبيـة ابراهيـم «عليـه السـلام».

رابعا : مناسك تلبوية ، عرضنا فيها محاولة العرب قبل الاسـلام تأدية التلبيات في مشاهد جماهيرية عامة ، وبالاخص عند التوجه الى مكـة والطواف بالآلهـة المنصوبة حول الحرم. ثم ختمت الدراسـة بنقطـة خامسـة هى : منطلقـات فنية لطبيعـة هذه الاعمال، وموقعها بين الانواع الادبية : أهى شعـر أم نثـر فنـي، واذا كانت شعرا فهل هى قصيد أم رجـز ؟ واذا كانت نثـرا فهل نثـر مسجوع أم مرسل ؟ ثم ختمنا البحث بمعالجـة عروضية للظاهـرة.

ومع ذلك، فقد جـدت افكار ، بعد ان مضى على الدراسة ما يقـرب من أربعة أعوام، وبعد أن أتممت تحقيق نصوص التلبيات وضبطها وشرحها والتعليـق عليهـا ، فوددت أن أسجل هذه الافكـار المستجـدة هنا، ثـم اعرض النصوص شارحا لها ومعلقا عليها وموضحا السيرة الذاتية لكـل الـه أو معبود أو صنـم، وكل قبيلـة عبدت هذا الاله، وذلك بردها الـى أصلها أو فرعهـا، ليتضح لنـا شيء اساسى ملاحظ في التلبيـات، هـو اتفاق أكثر من قبيلة في تلبية أو اختلافهم فيها ثم ظهرت نصوص جديدة في مخطوطة سنذكرها بعد قليل وسأعود الى نشر التلبيات كلما عثرت على جديد من نصوصها لانها في عدد القبائل يومذاك.

تلبيات الجاهلية، وتلبية الاسلام : التعدد والتوحد :

التلبية اصطلاح اشتق من أول لفظة في عبارة التلبية نفسها، وهي لفظة «لبيك» وقاعدتها الموحدة المشتركة في الجاهلية والاسلام :

لبيك اللهم لبيك
لبيك لا شريك لك لبيك ....

وكان الرسول (ص) ينصت الى تلبياتهم في الجاهلية، وهم يرددون بصوت قوي واحد هذه التلبية ، حتى اذا فرغوا من هذين المقطعين قال : قد .. قد .. (أي حسب . حسب) (6) يريد أن هذا الاهلال يكفي دون الحاجة الى اضافات الوثنيين، لكن التجزئة في الشرك تأتى على الوحدة المتمثلة بالتوحيد العقائدي، فتضيف قريش العبارة الآتية :

الا شريكا هو لك
تملكه وما ملك ،
أبو بنات بفدك ..

وكنانة تضيف الى تلبيتها الاصلية ، عبارات الشرك فتقول :

لبيك اللهم لبيك
لبيك أبنا اليك
ان (سواع) طلبنا اليك.

وسمع عن الرسول (ص) أنه لبى بتلبية بكر بن وائل التى كانت تهل بها لصنمها محرق (7) :

لبيك اللهم لبيك
لبيك حجا حقا
تعبدا ورقا

لكن الرسول (ص) لم يجعل هذه التلبية عامة، وانما كان يهل بها لنفسه دون سائر المسلمين لكى لا تدرج بيننا فتكون سنة سبكا. ولا تعليل لذلك الا كونها لا تصرح بشرك، لذلك صحح لبكر بن وائل تلبيتهم

---

(6) الروض الانف للسهيلي 357/1.
(7) المحبر لابن حبيب 3/2.

لكن قبيلة ثقيف تتحول من صيغة المذكر في مخاطبة الاله القومى لكل العرب الى صيغة المؤنث في مخاطبة الاهة القبيلة :

لبيك اللهم لبيك
لبيك كفى بيتنا بنية
ليس بمهجور ولا بليه

وربما ادخلوا أحلافهم في تلبياتهم :

لبيك عن حمير وهمدان
والحلفين من حاشد وألهان

وقد تدخل خصوصياتهم في التلبية، فيميزوا أنفسهم عمن سواهم من القبائل :

لبيك ان جرهما عبادك
الناس طرف وهم تلادك
ونحن أولى منهم بولائك

وكما أن لفظة «الحج» تعنى التوجه والقصد، فان التلبية تعنى الاجابة بعد الاجابة وكذلك الاهلال، لكن التلبية لفظة مختصة، والاهلال لفظة عامة، فلا يقال للمصلى اذا أهل بأنه يلبى ، وانما تقتصر التلبية على الحاج فقط، لكن الحاج اذا لبى اصح ان يقال فيه : أهل بالتلبية، وكذلك المقبل على النحر أو الذبح يقال فيه (أهل يهل) وقد سبق أن تحدثت بتفصيل اكثر عن أصل اللفظتين وتطورهما في دراستي للتلبيات (8). وطرح قطرب في الازمنة أن التلبية من ألب ، وسيأتى ذكرها.

ولم يترك الرواة العرب والمؤرخون الكلاسيكيون قضية التحريف العقائدي تمر دون أن يوردوا لها خبرا تاريخيا يكون هو حجر الزاوية في تاريخ التحريف ، ويعطى للتلبية دورا رائدا في تفشى الفكر الوثنى الوافد ، وتكون نقطة البداية في هذا المنعطف التاريخى، كما كانت رائد التوحيد في عهد ابراهيم، وكما عادت الى وجهها الناصع الاصيل في عهد محمد (ص)، ويفيئ هذا الخبر التاريخى .. على ما حملته ظلمات

(8) يراجع الهامش رقم 1.

العصـور الغابـرة من ذكـر غيبي .. بأن أول محـرف عرفه الفكر العربي هو عمرو بن لحي الخزاعي وكان يلبي على طريقة ابراهيم (9) :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك لا شريـك لك لبيـك

فتمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فلما فـرغ عمرو بن لحي من تلبيته، سمـع الشيخ ملبيـا يقـول :

الا شريـك هـو لك

فأنكـر عمـرو عليه ذلك قائـلا : مـا هذا ؟! ..

قال الشيخ يهون عليه التحريف والتجزئة والشرك :

قـل :

«تملكـه ومـا ملـك»

فانـه لا بـأس عليك بهـذا

فقالها عمـرو وكان في حالة شعورية دينية مرعبة ، لكنه شعر حقـا انـه بعد أن رددها ، لا بأس عليه، فلما نشرها بين الناس، دانت لـه العرب. أي استقامت له مصالح طبقة رجال الدين الوثنيين المتنفذة، ولم تنفـع شيئـا صيحات التوحيديين «الاحنـاف» (10) ازاء طغيان المـد الوثنـي الوافـد.

وطبيعي أن هذا الخبـر ، برغم ما يفضح به نفسـه مـن تفسيرات ميثولوجية واتجاهات مغرقه في الغيبية ، فهو لا يخلو من حقيقة واقعيـة تربط بين التحول الديني والتغير السياسي والاقتصادي للتركيب الاجتماعي للعرب يومئذ أما الصيغة الاخيرة التي استقـر الاسلام عليها ، واوحيـت لرسولـه فهـي (11) :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيك لا شريك لك لبيك
ان الحمـد والنعمـة لـك
والملـك لا شريـك لـك

(9) السيرة النبوية لابن هشام 79/1 والاصنام لابن الكلبي ص 2، 54، واخبار مكة 55/2 .

(10) يراجع بحث بعنوان : شعر الاحناف المستنصرية العدد 5 ومجلة الشعر المصرية العدد 36 لسنة 1984 و العدد 37 لسنة 1985. بقلمنا ومنشور هنا أيضا — والمفصل في تاريخ العرب 41/6 في اسباب ظهور الشك.

(12) كتاب الام للامـام الشافعي 132/2 (والتلبية برواية جابر بن عبد الله).

وهذه صيغة ملزمة . بما فيهم غير العرب ، يرددها الملايين بالفاظها العربية لا تحرف ولا تغير ولا تترجم الى لغة ثانية . وتؤدي خلال موسم الحج في موكب انشادي رائع يأخذ بمجامع القلوب ويثبت العقيدة في أعماق النفس، وسيتصل بنا لدى التعليق وشرح النصوص حديث عن مدلولات اخرى للتلبيات ، بعضها في اولية هذه الصيحات والترديدات، وبعضها الآخر في المشاعر (جمع مشعر) والطقوس الجماعية التى تؤدي في مشاهد تمثيلية من خلال التنغيم والترديد للتلبيات قبل الاسلام ، اذ تنطلق الجموع الغفيرة من بطون الاودية ورؤوس الجبال، تجري في الطرقات والشعاب عبر الصحارى الموحشة، ملبية مرددة، يملأ صدى صوتها الافق مرتفعا الى عنان السماء ومنتشرا في ارجاء الارض واقاصى المعمورة . لكن هذا الالتزام بالتلبية قد يرافقه حينا نوع من التجوز في تلبيات فردية شخصية، كان الرسول وأصحابه أنفسهم يهلون بها. وقد سبق ان نوهت بتلبية الرسول (ص) مصححا لبكر بن وائل تلبيتهم قبل الاسلام ، عندما وجدها تلتزم بالتوحيد الدينى والاجماع القومى، مع ان بقية عبارات التلبية، كما رواها أبو العلاء المعري (12) تحفل بشرك أو وثنية صارخة. لكن الصيغة الاساسية هى التى ذكرناها قبل قليل، وهى الصيغة الرسمية لكل العرب والمسلمين فقد روى عبد الله بن عمر أن الرسول (ص) لبى فقال (13) :

لبيك لبيك
لبيك وسعديك
والخير بيديك
والرغباء والعمل اليك (14) .

وقال أبو هريرة : كان من تلبية رسول الله (ص) :
لبيك اله الحق
لبيك ..

---

(12) رسالة الغفران 534.
(13) الام 132/2.
(14) الرغباء : الضراعة والمسألة — وردت فى دعاء الرسول (ص) اللسان (رغب).

وتقل الشافعي (15) أيضا ما رواه مجاهد من أن رسول الله (ص) كان مظهر من التلبية ما ذكرنا، وهي رواية جابر المتقدمة ، حتى اذا كان ذات يوم، والناس ينصرفون عنه ، كأنما اعجبه ما هو فيه فزاد فيها.

لبيك ان العيش عيش الاخرة .

ولبى الرسول (ص) خارج اطار التلبية الرسمية ، المسموح بها فقال (17) :

لبيك غفار الذنوب
لبيك .. .

ولبى أيضا (18)

لبيك عمرة وحجا

وافتتح صلاته ملبيا (19) :

لبيك وسعديك
والخير في يديك
والشر ليس اليك

وقد تابع الصحابة نبيهم في تلبيات شخصية لا يجهرون بها، فلبى عبد الله بن مسعود قائلا (20) :

لبيك عدد الحصى والتراب

ومع أن هذه التلبيات ذاتية محضة يحتفظ بها الصحابى الملبى في سره، لكنها اثارت الاستغراب لدى سماعها من قبل صحابة أخريين متشددين في قبول غير التلبية الرسمية ، فقد روى عن سعد بن أبى وقاص (رض) أنه سمع أحد أبناء اخوته يلبى قائلا (21) :

لبيك ياذا المعارج ..

---

(15) الام للشافعى (اشارة سابقة).
(16) المصدر السابق نفسه.
(17) العينى، عمدة القارىء فى شرح صحيح البخارى 173/9 وطنطاوى جوهرى، تفسير الجوهر. 182/1.
(18) المصدران السابقان ولسان العرب مادة (سعد).
(19) المصادر السابقة نفسها.
(20) م. ن.
(21) الام 132/2 وعمدة القارى 172/9.

فأبدى سعد تعجبه وقال : المعارج ؟!.. انه لذو المعارج. ما هكذا كنا نلبي على عهد رسول الله (ص).

وواجهتنا تلبيات بعض انبياء الله ، فنجدهم على تشددهم بتلبية أبيهم ابراهيم التى قالت فيها المصادر (22) «وكانت التلبية في عهد ابراهيم، لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك» وبرغم التزامهم بحرفيتها ، يخرجون الى صيغ اجتهادية تنطلق بها السنتهم. قال عبد الله ابن عباس «سلك فج الروحاء» (23) سبعون نبيا حجاجا عليهم لباس الصوف، مخطمين ابلهم بحبال الليف، على نوق حمر، لبوسهم العباءة وتلبياتهم شتى . منهم يونس بن متى، وكان يقول :

لبيك فراج الكرب لبيك ..

وحج موسى النبى على جمل أحمر ، فمر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان ، متزر باحداهما مرتد بالاخرى، معه سبعون الفا من اتباعه. فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة ، فقال :

لبيك أنا عبدك لبيك ..
فسمع صوتا من السماء يقول :
لبيك عبدي أنا معك ..

فخر موسى ساجدا .

وكانت تلبية عيسى عليه السلام :

لبيك ...
أنا عبدك ابن امتك
بنت عبديك
لبيك ...

انتهت رواية عبد الله بن عباس. ولسنا نريد أن نقرر بمدى اطمئناننا الى نصوص رواية ابن عباس ، لان الرواية متقطعة ، ويصعب القطع في سلامتها ، كما لا نريد أن نردها كلها لان عنصر التوارث قد يعطيها بعض سمات الاصالة ، لكننا ننطلق من زاوية البحث التى تفيد

---

(22) السيرة النبوية 79/1 والاصنام 54/2 واخبار مكة 55/1، 6/2.
(23) الام 127/9 اخبار مكة 38/1 نهاية الارب فى فنون الادب 309/1 معجم مااستعجم للبكرى (مادة الروحا) والروحاء قرية كانت على مايقولون على بعد ليلتين من المدينة.

بأن خروج أنبياء الله الموحدين على تلبية أبيهم ابراهيم الخليل لا يختلف عن خروج الرسول واصحابه في تلبيات شخصية أو ذاتية بسرها لنفسه ولا يجهر بها بين قومه .

وتفيد كتب الاثر بأن الرسول (ص) عد الاهلال بالتلبية فريضة من فرائضه، وان كانت عند بعضهم سنة من سننه أو شعيرة من شعائره، واوردوا حديثا في ذلك (24)، وحضوا الناس على التلبية عند الحج، والزموا المسلم بها قائما ام قاعدا، سائرا أم واقفا، نائما ام يقظا، وخصوا بها الرجال دون النساء، وهو مظهر أخلاقي وتربوي اسلامي، اذ أن خفض الصوت للمرأة أولى بها وأستر لها ، فالتلبية تدخل مع شعائر الحج ومناسكه وعلاماته واثاره واعماله ، فهي لا تختلف عن الوقوف والطواف والسعي والرمي والذبح والافاضة (25).

وهذه النصوص التلبوية التي بين يدي القارىء مشروحة معلقا عليها، ليست هي كل تلبيات العرب قبل الاسلام ، لاننا نعلم ان القبائل عبدت ما يقرب من (360) ثلاثمائة وستين صنما على عدد القبائل نفسها (26)، فكان هذا الواقع يفترض ان يكون موروثنا من التلبيات ما يقارب هذا العدد، لذلك، نحن لا نستبعد ان يكون أحد أعلامنا القدماء قد وضع كتابا في التلبيات أو جمعها أو فعل شيئا من هذا، ولا نستبعد أيضا أن يظهر مثل هذا الكتاب بين مخطوطاتنا العربية المحفوظة في الاصقاع الاجنبية الغربية ، وان ورد الى علمي ما يؤيد مثل هذا الظن حقا، لكنني لم ألمسه الى الآن واقعا أو فعلا. لكن الذي لمسته أن الدكتور حاتم الضامن أفادني ببعض التلبيات في مخطوطة لقطرب فشكرا له، وان المستشرقة الدكتورة الزة شتيتر قد أخبرت بوجود بعض التلبيات لدى الدكتور معظم حسين وذلك في تحقيقها لكتاب المحبر.

نصوص التلبيات قبل الاسلام :

وسأورد التلبيات الجاهلية مشروحة معلقا عليها، ذاكرا في الهامش ارقام المصادر المستقاة منها :

---

(24) عمدة القارى 172/9.

(25) المصدر السابق وكتاب الام 132/2.

(26) تنظر مقالة الدكتور احسان عباس : نصان جديدان عن الدين في الجاهلية — مجلة — الابحاث الجامعة الامريكية — بيروت — السنة 26 (1973 — 1977).

1) كانت تلبية نزار كلها، ثم صارت لقريش ومن نسك معها لاساف :

لبيك اللهم لبيك
لبيك ان الحمد لك
والملك لا شريك لك
الا شريك هو لك
تملكه وما ملك
ابو بنات بفدك ..

وردت التلبية في كتاب الاصنام (27) والمحبر (28) وتاريخ اليعقوبي (29) ورسالة الغفران (30). ووردت كذلك في اكثر مصادر التحقيق الاخرى ، لكنها لم ترد كاملة «في جميع المصادر، وانما ضممنا الروايات الى بعضها، فخرجت التلبية على صورتها الحالية.

وهى التلبية الام، لان جميع القبائل خضعت لصيغتها ورددتها أشبه بنشيد وطنى أو قومى لاي قطر من الاقطار أو أمة من الامم، وانه لامر ملفت للنظر ان يكون العرب قبل آلاف السنين قد اجتمعوا حول نشيد قومى واحد ، ثم تفرقوا، وعادت الصيغة الاسلامية للنشيد الدينى فجمعتهم، ثم تعددت الاناشيد مع تعدد الاقطار، كما تعددت من قبل مع تعدد الاصنام . ولهذه التلبية خصوصية فهى الاحرف الاولى لاقدم تلبية، والعبارات الثلاث الاولى منها هى تلبية ابراهيم الخليل عليه السلام. كما تقدم شرحه، وهى ايضا تحملت أول محاولات التحريف، وقد بدت واضحة في العبارات الثلاث الآخيرة، وقد تقدم خبر عمرو بن لحى الخزاعى وكيف جرى هذا التحريف على يده. فالتلبية مؤلفة من ستة أشطر، ثلاثة منها توحيدية، وثلاثة اخرى وثنية . لكن الملاحظ أن انتصار الشرك أو الوثنية لم يملك الجرأة على الغاء الاصل، وانما بنى مجده وبقاءه عليه. لذلك بقى «الاحناف» يناضلون في الساحة العربية مئات وآلاف السنين ، حتى كان النصر على يد الاحناف المسلمين، وعاد للتلبية وجهها الحقيقى، واقتطعت الاضافة الوثنية واصبح العرب يهتفون بشعارهم القومى الاصيل بعد ان توحدت كلمتهم، والتلبية هى رمز هذه الوحدة.

(27) لابن الكلبى ص 311.
(28) لابن حبيب .ص 311.
(29) وهو المعروف بابن واضح الاخبارى 212/1 .
(30) لابى العلاء المعرى ص 534.

لذلك ذكر الرواة أنها كانت تلبية نزار كلها ، وطبيعي أن المقصود بنزار هي جميع القبائل العدنانية، وهم العرب العاربة أو المستعربة، ويقابلهم العرب العرباء، وهي جميع القبائل القحطانية . وتشتق لفظة العرب لدى المؤرخين العرب القدماء من اسم (يعرب) أبي العرب، وان كانت اللفظة تأخذ لدى الباحثين العلميين بعدا آخر يعتمد الكتابات والنقوش ونتائج الحفريات والملاحظة العلمية (31).

ويذكر النسابون ، وبوجه خاص ابن قتيبة في المعارف وابن عبد ربه في العقد والمبرد في نسب قحطان وعدنان والقلقشندي في صبح الاعشى وابن دريد في الاشتقاق ، ونقل عنهم النويري في نهاية الارب، أن نزار بن معد بن عدنان ولد له اربعة : اياد وأنمار وربيعة ومضر، والى ربيعة ومضر ينسب ولد نزار، وهو الصريح من ولد اسماعيل.

فالتلبية لاساف كانت لدى هذه القبائل ، ثم غلبتهم قريش على عبادته. وقريش تحدرت من مضر بن نزار الذي انجب (خندفا) فمدركة فخريمة فكنانة، وهو الجد الاعلى لقريش الذي عرف لدى النسابين باسم (النضر) لكن عملية قتله لقرش البحر وانقاذه الركاب كان السبب في اسمه الجديد، كما يروي لنا (صبح الاعشى) وكانت قبائل اخرى قد دانت لاساف مع قريش بتأثير الحلف الديني معها، فلبت بتلبيته، فضلا عن كون هذه التلبية هي الام.

واساف اله قديم، يقرن بالاهة قديمة تدعى (نائلة) رويت عنها قصة عشق ذات مغزى اسطوري، مجملها : انهما شابان أشعل الحب قلبيهما ، فلما تيسر لهما لقاء في الكعبة، لم يملكا أن يكبحا جماح شهوتهما العارمة ، فزنيا ببعضهما، فمسخا حجرين ، نقلوهما فيما بعد الى خارج الكعبة ليتعظ الناس بهما، ثم نقلهما عمرو بن لحي الى ما بين انصفا والمروة ليكونا إلهين يعبدان . ولعل الذي سوغ قبول الاسطورة يومئذ، انهما وجدا على هيئة رجل وامرأة عاريين ، وان الطواف كان في الكعبة بلا لباس، حتى ان الازرقي في تاريخ مكة يروي عن نسوة كن يطفن عرايا وينشدن :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

(31) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 13/1 ومابعدها.

ولا أريد أن استطرد في طقوس عبادة (اساف) ولا في سيرة حياته في أرض العرب (32)، وانما أود أن أشير الى الشطر الاخير من التلبية : «أبو بنات بفدك» لانه على علاقة البنات بأساف ونائله ، وظاهرة الجنس في هذه العبادة . والواقع أن اساف هو أوسع عبادة من معشوقته نائلة نفسها، فهو مذكر أولا، والاله القومي لدى العرب في عهد الوثنية كان بصيغة المذكر دائما، لكن اله القبيلة المحلي قد يأتي مذكرا وقد تكون الاهة مؤنثة. لكن ذرية الالهة لدى الوثنيين هي الاناث دائما في زعمهم، والى هذا أشار القرآن الكريم في عدة مواضع. قال تعالى (33) : فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون، أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله، وانهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين، ما لكم كيف تحكمون» «وجعلوا له من عباده جزءا، ان الانسان لكفور مبين، ام اتخذ مما يخلق بنات واصطفاكم بالبنين . واذا بشر احدهم مما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم» (34). وأوردت كتب التفسير قول الكفار بان الملائكة بنات الله (35) وفدك قرية كانت فيها بنات أساف منصوبة بناحية من الحجاز للعبادة، ويبدو أن الالهات قد شيدت عليها ابنية لان الموضع فيه عين ماء ونخيل، وهي العادة المتبعة الى اليوم حيث ينزل المتعبدون في مثل هذه المواضع وتتحول مقاماتهم الى مزارات، ومما يدل على قدسية موضع فدك ووجود البنات المقدسات فيه، ان الرسول (صلعم) أفاء بهذه القرية. او بالمزارات بالذات لابنته فاطمة، ثم نازع العباس عليا (رض) عندما، فسلمها عمر (رض) اليهما (36).

2ـ وكانت تلبية بني بكر وسائر بني كنانة ومن نسك لهبل :

لبيك اللهم لبيك
لبيك انا لقاح
حرمتنا على اسنة الرماح
يحسدنا الناس على النجاح

(32) المفصل في تاريخ العرب 266/6.
(33) الصافات آية 149 وما بعدها .
(34) الزخرف آية 17 ومابعدها. وتنظر مقالتنا الطفولة ورموزها في (مجلة مكتبة الاداب ـ جامعة بغداد) العدد 23. والمفصل في تاريخ العرب 165/6.
(35) ينظر تفسير الطبري 83/14 وكتاب روح المعاني 156/14.
(36) ينظر اللسان مادة (فدك).

وردت التلبية في المحبر (37) . وجاء في الاصنام (38) أنه كان لقريش اصنام في جوف الكعبة، وكان اعظمها هبل، ثم أورد صفته.

وبنو بكر قبيلة معروفة الى جانب تغلب، وتشكلان الملحمة العربية المعروفة في تاريخ الادب العربى باسم : البسوس ، وهما ابنا وائل بن ربيعة، وجدهم الاعلى ربيعة هو أخو مضر وأياد وأنمار أبناء نزار. فالتلبية واسعة الانتشار بسبب بكر وتغلب. وكان هبل اعظم الاصنام المنصوبة في جوف الكعبة. واياه عنى ابو سفيان عندما خاطب المسلمين منتصرا بقوله : «اعل هبل .. اعل هبل ..» فرد عليه رسول الله (ص) بصوت عمر بن الخطاب «الله أعلى وأجل .. الله أعلى وأجل» فنادى : «لنا العزى ولا عزى لكم»، فرد عليه عمر : «الله مولانا ولا مولى لكم» (39)، وقد نال هذا الاله عناية الرواة (40) ومثله (ود) وجعله ياقوت صنما لبنى كنانة . وكانت قريش تتبادل عبادة الهتها، وهو الحلف الدينى الذي اشرنا اليه، وسيلقانا حلف مثله في تلبية حمير وهمدان وقد تخالفتا على عبادة الاله «نسر» .

ويبدو لي أن أصل اسم «هبل» هو «هبعل» حذفت منه العين، فبقيت لفظة «هبل» في عربيتنا، وأن (أل) و (ال) هى في الاصل «ايل» التى تعنى الاله ايضا ، فهو (البعل) في لهجتنا المتطورة، واللفظة وردت في القرآن الكريم، لكن بقيت على حالها في الاستعمال عندهم. واشارت التلبية الى ضرب من الحماية اكتسبته سدنة هذا الاله، حيث حرمت دماؤهم ، فلا يتعرض لهم أحد بالاذى والقتل، وهو أمر كان معروفا يومئذ. ومعنى «لقاح» الواردة في التلبية ، أنهم لم يدينوا بدين الملوك، ولم يخضعوا لهم ولم يصبهم في الجاهلية سباء، فهو مصطلح دينى وسياسى واجتماعى شائع يومذاك وله امثلة في الشعر القديم (41).

3 ـ ووردت تلبية اخرى لكنانة ومن نسك معها لسواع :

لبيك اللهم لبيك
لبيك أبنا اليك
ان سواع طلبنا اليك

---

(37) ابن حبيب ص 311.
(38) ابن الكلبى ص 27.
(39) ابن هشام ـ السيرة النبوية 3/99.
(40) تراجع العلاقة بين هبل و (ود) من خلال الرمز الدينى للحية. المفصل 6/253.
(41) يراجع اللسان مادة (لقح).

رويت في المحبر (42) وقد وردت لفظه «طليا» في السطر الاخير بلا الف على هذه الصورة «صدين» وهو سهو واضح ، لان المخطوطة الامريكية المذكورة انفا شقيقة المخطوطة التي وضعها في الاصل المحطوط بخطها وامانه . وكانت هذيل ومزينة وبعض قيس عيلان يتعبدون لسواع الى جانب خنانه الوارد ذكرها في التعليق على التلبية الاولى. وجاء في كتاب الاصنام (43) : كان سواع برهاط (44) من ارض ينبع، وينبع قرية من قرى يثرب، وكان سدنته من بني لحيان ، وان هذيل بن مدركة أول من تعبد لسواع، وذكرت المصادر ايضا انه كان على صورة امراة (45)، ويبدو ان (سواع) كان صنما عزيزا واسع الانتشار، وان له رحلة طويلة في الارض العربية. فقد نشر ربوبيته في أول أمره بين بطون همدان، ويذكر العلماء انه كان قبل ذلك بين قوم نوح عليه السلام، فاصابهم الطوفان فدفنه السيل ـ كما ينقل الازهري ـ وغرقه الله فاستثاره ابليس لاهل الجاهلية فعبدوه (46) ، فغادر وطنه الاول الذي غلبه الله تعالى عليه الى وطن جديد بين همدان ، ثم لقي في هذيل تعظيما فحل بينهم، أو نحتت له صورة هناك، ثم بدأت تعاليمه تنتشر بين القبائل العدنانية من مزينة وبعض قيس عيلان .

4 ـ ووردت تلبية لبكر بن وائل ، ومن نسك لمحرق :

لبيك اللهم لبيك
لبيك حجا حقا
تعبدا ورقا ..

رواها ابن حبيب (47) ، وأضاف ابو العلاء المعري (48) اليها :

جئناك للاصاحة
لم نأت للرقاحة

(42) ابن حبيب 311، 315.
(43) ابن الكلبي ص 9.
(44) قرية جامعة عن ثلاثة أميال من مكة، وفيها سواع صنم لهذيل. معجم مااستعجم رسم (وهاط).
(45) المفصل في تاريخ العرب 257/6.
(46) اللسان مادة (سوع).
(47) المحبر ص 315.
(48) رسالة الغفران ص 534.

لكن هذه الاضافة ستأتى في تلبية من نسك للالاهة (سعيدة) وهى التلبية السابعة عشر .

وقد أوردنا ذكر بكر بن وائل في تعليقنا وشرحنا للتلبية الثانية. اما دلالة محرق فقد كان منصوبا بسلمان، وهو ماء على طريق مكة في العراق، ويقال أنه موضع آخر وانه ألمم بالطائف (49)، لكن الرأي الاول أرجح، لان الماء أجلب للمقامات المقدسة.

وقد تعبدت لمحرق سائر ربيعة، وهى قبائل ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، واشهر قبيلة في ربيعة هى بنو اسد. وربيعة نصف العرب العدنانيين، ونصفها الثانى شقيقتها مضر التى اشتهرت بخندف. وقيس عيلان التى قال عنها الرسول : هامة العرب. فهو إله يبسط ذراعية على مسافات واسعة من أرض العرب، وسبق ان رأينا رسول الله لا يصحح هذه التابية ويلبى بها، بعد أن اسقط عنها الاجزاء المحرفة منها، فجعلها خالصة لله تعالى، ويبدو أن الاله محرق، كان بيستقبل ضحاياه بشرا احياء يرمون بالنار، وقد تقرب الملك عمرو بن هند الى هذا الطاغية بطائفة من الاسرى أحرقهم ليستقبلهم معبوده القاسى القلب (50).

ويبدو من استقراء الاخبار والنصوص الشعرية أن التسمية بالمحرق والحرقة وحريق (بالتصغير) قد تكون من مظاهر الضراعة والتزلف لهذا الصنم. فالحرقتان تيم وسعد ابنا قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب. وهما رهط الاعشى قال

عجبت لآل الحرقتين كأنما رأونى نفيا من اياد وترخم

وحريق بن النعمان بن المنذر، وحرقة هى بنت النعمان بن المنذر التى كانت سببا من اسباب يوم ذي قار ضد الفرس المحتلين للارض العربية يومذاك، والمحرق هو عمرو بن هند أخو النعمان بن المنذر الذي أحرق مائة من بنى تميم منهم تسعة وتسعون من بنى دارم، وواحد من بنى البراجم ، وكان نذره مائة، فأتم النذر برجل برجمى أقبل راكبا، فرمى به في النار، فقيل في المثل : الشقي راكب

(49) معجم ما استعجم رسم (سلمان).
(50) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام 81/6.

البراجم . وهذا هو يـوم أوارة المشهـور في أيـام العرب (51)، ومحرق أيضا لقب الحارث بن عمـرو ملك الشام من آل جفنـة، وانما سمى بذلك لانـه أول من حـرق العرب في ديارهم فهم يدعـون آل محـرق، ولعلـه فعلها مقابل ما فعلـه المنـذر بن ماء السماء اللخمي حيث أحـرق للملك الجفنـي الغساني أربعمائة من اسراه تقربا لالاهه المزعـوم. وربما يكون الملك الغساني نـذر لمحرق أيضا، وان كان محـرق من آلهة عـدوه، وهو أمر واقع في تاريخ البشرية جمعاء، وأما قول الاسود بن يعفر :

مـاذا أومـل بعد آل محـرق تركوا منازلهم وبعـد إيـاد

في قصيدته المشهورة، فانما عنى امرأ القيس بن عمـر بـن عـدي اللخمي، لانه أيضـا يدعى محرقـا. قال ابن سيده : محرق لقب ملـك، وهما محرقان محرق الاكبر وهو امـرؤ القيس اللخمي، ومحرق الثاني وهو عمرو بن هند، مضـرط الحجارة ، سمي بتحريقه بني تميم في القصـة المذكـورة قبل قليل (52) وكلمة الـرق أخر التلبيـة تعني العبوديـه، وكلمـة الحج : القصـد .

5 ـ وكانت تلبيـة ثقيف بالطائف ومن تسك للات :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك كفـى بيتنـا بنيـة
ليـس بمهجـور ولا بليـة
لكنـه مـن تـربـة زكيـة
اربابـه من صالحـى البريـة

ذكرها ابن حبيب (53)، ولم تكن ثقيف وحدها تعظم اللات وتلبي لها بهذه التلبيـة ، وانما كانت معظمـة عند قريش وطوائف اخرى من العـرب، لكن سدانتهـا وحمايتها كانت على يـد الثقفيين، وتنتسب ثقيف الى قيس عيـلان المنحـدرة من مضـر بن نـزار بن معـد بن عدنـان، ولهذه القبيلة أعلام في الفكـر العربي والقيـادة، منهم الطبيب المشهـور الحارث بن كلـدة الملقـب بطبيـب العـرب، والفقيه عبد الوهاب بـن

(51) يراجع كتاب ايام العرب لابى عبيدة 273/1.
(52) اللسـان مـادة (حرق).
(53) المحبر ص 311، 315.

الحميد وبطل القادسية الفارس الشاعر ابو محجن، وفيهم من اشتهر بالامارة والقيادة العسكرية مثل الحجاج بن يوسف . ومما يدل على تعظيم اللات من قبل العرب ان لها مقامات منتشرة في الحجاز وغيرها (54) وقد ذكرت في القرآن الكريم ضمن ثالوث وثنى مع العزى ومناة، وأفاد ابن الكلبي في الاوثان أن الرسول ، يوم كان على دين قومه، قرب شاة للات، لكن طائفة من العلماء يضعفون ابن الكلبي وخبره وينزهون الرسول منذ طفولته وصباه. وذكرت المصادر العديدة أن اللات في الاصل صخرة كان عندها رجل يلت عليها السويق للحاج، فلما مات، قيل عنه لم يمت بل دخل الصخرة ، فعبدت الصخرة، وانكر ابن سيدة ذلك، وكان الكسائي يقف على اللاه، قال أبو اسحق ، وهذا قياس، والاجود أتباع المصحف، والوقوف عليها بالتاء. قال أبو منصور : وقول الكسائي (يوقف عليها بالهاء) يدل على أنه لم يجعلها من اللت، وكان المشركون الذين عبدوه عارضوا باسمها اسم الله تعالى. فكأنهم لما وجدوا أن لفظ الجلالة (الله) يوقف عليه بما يوقف على تاء اللاة متحولة الى هاء، قالوا ان الاصل واحد، لكن الملاحظ هنا هو الفرق بين تفخيم اللام المضعفة في لفظ الجلالة وترقيقها في لفظة (اللاة) ، فهل قصدوا الى تطور الاستخدام اللغوي، أم ماذا كان أصل زعمهم ؟ ولا استبعد ان تكون لفظة اللاة قد اشتقت من لفظ الجلالة في اثناء مرحلة التحريف العقائدي.

6 ـ وهذه تلبية أخرى خاصة بثقيف :

لبيك اللهم لبيك .
ان ثقيفا قد أتوك
واخلفوا المال وقد رجوك

وقد تفرد بروايتها ابن واضح الاخباري في تاريخه المعروف (55).

7 ـ وكانت تلبية غطفان ومن نسك معها للعزى

لبيك اللهم لبيك
لبيك وسعديك
ما احبنا اليك

(54) المفصل 272/6.
(55) تاريخ اليعقوبي 212/1.

رواها ابن حبيب (56) وقد انتشرت عبادة العزى في ارض العرب، فاصبح لها عدة مزارات نجد والحجاز واليمن، وهي ثاني معبود من ثلاثة ذكروا في مثلث وثني سبق ذكره. وكانت تقدم اليها هدايا مختلفة، كما كانت الاهة قاسية القلب أيضا لان هداياها احيانا من البشر، اسرى واطفال وصبيان وفتيات في ربيع العمر (57). وأما اختصاص غطفان بعبادتها وانشاد تلبيتها فهذا أمر وارد في عادات العرب، وقد سبق أن رأينا تثقيفا كيف اختصت باللات.

وغطفان الجد الاعلى لهذه القبيلة، هو ابن سعد بن قيس عيلان، وقد انجب عبسا وذبيان المعروفتين بالملحمة الشعرية النثرية : داحس والغبراء التي احتوت على جيل عمالقة الشعر العربي زهير، والنابغة، وعنترة، وعروة وعشرات سواهم.

والعزى شجرة كانت تعبد من دون الله ، قال ابن سيدة : هي تانيث الاعز بمعنى العزيز والعزى بمعنى العزيزة وهذه هي صفات الله تعالى واسماؤه الحسنى، وكان العرب قبل الاسلام عند تحولهم الكبير نحو الوثنية قد عمدوا الى جميع اسماء الله الحسنى، واقاموا لكل معنى من هذه الاسماء الها يمثله صنم أو وثن أو رمز من رموز العظمة والقوة على عادة الوثنية في تجسيد كل المعاني المثالية الى مدلوله المادي، لان الوثنيين ماديون في تفكيرهم والتوحيديين مثاليون في عقيدتهم.

وقد تتبعت في دراسة أعدها الآن جميع اسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم وما يقابلها من طواغيت الشرك والوثنية، فوجدت الوثنيين قد نحتوا على مثالها اصناما، فكأنهم قد استقرأوا شريعة ابراهيم الخليل عليه السلام المثالية وجسدوها الى واقع عملي منظور في صورة ألهة واوثان ومعبودات أخرى.

وقال بعضهم : قد يجوز في العزى ان تكون تانيث الاعز بمنزلة الفضلى من الافضل والكبرى من الاكبر، فاذا كان ذلك فاللام ليست زائدة في العزى ، بل هي على حد اللام في الحارث والعباس. قال : والوجه

(56) المحبر 311 ، 315.
(57) المفضل 235/6.

ان تكون زائدة ، لانا لم نسمع في الصفات العزى ، كما سمعنا الصغرى والكبرى، وفي التنزيل العزيز : أفرأيتم اللات والعزى. جاء في التفسير ان اللات صنم كان لثقيف، والعزى صنم كان لقريش وبني كنانة. قال الشاعر :

أما ودماء مائرات تخالها على قنة العزى وبالنسر عندما

ويقال : العزى سمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليا بيتا وأقاموا لها سدنة، فبعث اليها رسول الله (ص) خالد بن الوليد فهدم البيت وأحرق السمرة وهو يقول (58) :

يا عز كفرانك لا سبحانك اني رأيت الله قد أهانك

وانشاده الرجز بهذه الصيغة كأنما يعارض رجزا كان ينشد لها بمعكوس هذه المعانى، وخاصة أنه يؤكد قوله : كفرانك لا سبحانك. موحيا بأنهم قد سبحوا لها بمثل هذه الصيغة لكن الرواة تورعوا عن روايتها.

8 ـ وكانت تلبية من نسك لمناة من اليثربيين والازد وغيرهم :

لبيك اللهم لبيك
لبيك لولا ان بكرا دونك
يبرك الناس ويهجرونك
ما زال حج عشج ييأتونك
أنا على عدوائهم من دونك

جاءت التلبية في المحبر (59) ورسالة الغفران (60) ولسان العرب(61). ومعنى عشج : الكثير ومعنى عدوائهم : مواقعهم. ومعروف أن يثرب، وهو اسم مدينة الرسول (ص) قبل الاسلام، كان من عناصرها الاوس والخزرج، وهم ازديون كهلانيون من يعرب القحطانية، وهم الشعب الثانى بعد انقراض جرهم ، الشعب الاول . وكانت جرهم باليمن ثم انحدرت الى الحجاز حتى ظهور اسماعيل عليه السلام بمكة. وكان مع اليثربيين عبرانيون (يهود) عرفوا باسماء قبائلهم وبالاماكن التى نزلوا فيها. أما الازديون، فهم ثلاثة فروع : ازد شنوءة وهو لقب لهم وأزد السراة

(58) اللسان مادة (عزز)
(59) ابن حبيب ص 311.
(60) أبو العلاء المعرى 534.
(61) ابن منظور مادة (عشج) .

وهو موضع باطراف اليمن وأزد عمان، مدينة بالبحرين. وكان اليثربيون عامه والازديون خاصة يتعبدون لهذا الاله ويلبون بتلبيته.

ومنـاة صخرة ، وفي الصحاح : صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكـه والمدينه (62). وهذا القول يؤيد انتشار هذا الاله واتساع رقعه نفوذه، حتى ذكر انه كان منصوبا بسيف البحر بقديد (63)، حيث تتعبد لبـه بعض قبائل تميم والازد ، فهـو الـه قحطانى عدنانى معا، وأكثر الالهـة العربية تحمل الهويتين . ومناة هى الثالثـة الاخرى في المثلـث الذي ذكره القـرآن الكريم. والهاء في مناه للتانيـث ويسكت عليها بالتاء وهى لغـة، والنسب اليها منوي. وفي الحديث انهم كانـوا يهلـون لمناة، هو هـذا الصنـم المذكور. وعبد مناة ابـن اد بـن طـابخة، وزيد منـاة بـن تميـم ابـن مـر (64). وعند مراجعة هذه الاسمـاء، وجدت انها تخص قبائـل تديـن بالطاعة لهذا الصنـم. وفي مشتقات اسمه قولـك : منوتـه أى بلوتـه واختبرته، والمنية ، ولعله كان آلها لهـا، ووردت التلبيـة في اللسـان على هذا الوجـه (65) : وكانت تسمـى مناة الطاغية، وموضعها بالمشلل من قديـد فيـه مـاء.

لا هم لولا ان بكـرا دونكـا
يعبـدك الناس ويفجرونكـا
ما زال منـا عشـج ياتونكا

وهى تختلـف قليلا مـع الروايـة المثبتـة .

9 ـ وكانت تلبيـه همدان وخولان ومن نسـك ليعـوق :

لبيك اللهـم لبيـك
لبيـك بغـض الينـا الشـر
وحبـب الينـا الخيـر
ولا تبطرنـا فنأشـر
ولا تقدحنـا بعشـار
رواهـا ابـن حبيـب (66).

(62) لسـان العرب مـادة (منى).
(63) معجم مـا استعجـم مادة (قديد) .
(64) اللسـان مـادة (منى) .
(65) المصـدر السـابـق.
(66) المحبـر ص 311.

وهمدان قبيلة قحطانية اشتهرت بشجاعتها في جاهليتها واسلامها حتى قال فيها علي بن أبى طالب (رض) يوم الجمل : لو تمت عدتهم الفا لعبد الله حق عبادته . وقد عبر عن لسان حالهم شاعرهم مالك بن حريم (67) :

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم فهل أنا في ذياك همدان ظالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

وخولان تجري مع همدان في النسب نفسه الا انها تتفرع من مذحج التى سميت باسم شجرة تحالفوا عندها.

وكان يعوق منصوبا بارحب (68)، وهو موضع تنسب اليه النجائب الارحبية، وجاء في كتاب الاصنام (69) انه كان منصوبا بقرية في صنعاء اليمن يقال لها خيوان، فعبدته همدان ومن والاها، وكلا القولين صحيح، لان ارحب الموضع يعود لقبيلة ارحب التي هى فرع من همدان، وخيوان الذي ذكره ابن الكلبى هو أحد مساكن همدان، وان انتشار نسخ متعددة من الصنم أمر مألوف . كما أن وجود الهين بهذا الاسم احتمال ليس ببعيد (70) . واورد الكلبى ما نصه (كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين ، ماتوا في شهر، فقام رجل حين رأى جزع قومه عليهم، واقترح أن يعمل تماثيل على صورهم، فعبدت فيما بعد) ووردت القصة مع تغيير وتطويل في مواضع أخرى من المصادر، كما جاء في موضع آخر أن يعوق كان صنما لكنانة (71).

10 ـ وكانت تلبية مذحج ومن نسك ليغوث :

لبيك اللهم لبيك
لبيك أحبنا بما لديك
فنحن عبادك قد صرنا اليك

رواها ابن حبيب (71)، وقال عن يغوث انه كان منصوبا بأنعم، قرية بناحية عمان (73). وانه كان بأكمة باليمن يقال لها مذحج ،

(67) أيام العرب ـ جاد المولى وجماعته ص 411.
(68) اللسان مادة (رحب).
(70) المفصل فى تاريخ العرب 262/6.
(71) اللسان هوف.
(72) المحبر 311.
(73) معجم ما استعجم رسم (انعم)

فعبدته مذحج ومن والاها، وهذه اشارة للحلف الديني. وقال ايضا : ان الذى جاء به هو أنعم بن عمرو المرادي . وتروي لهذا الصنم سيرة حياة ذاتية (74).

وهو احد الاصنام التى سبق ان اشرنا اليها انها كانت في عهد نوح، نحتت على يد رجل فنان، جعلها على صور اصحابها فعبدت، وهى اشارة ميثولوجية للاصل السحري للفن.

11 ـ وتلبية حمير وهمدان ومن نسك لنسر .

لبيك اللهم لبيك
لبيك اننا عبيد
كلنا مسيرة عتيد
وأنت ربنا الحميد
اردد الينا ملكنا والصيد

رواها ابن حبيب (75)، وقال انه صنم كان منصوبا في قصر غمدان بصنعاء ارتفاع بنائه مائتا ذراع وقد شيد من عشرين سقفا طباق، بين كل سقفين عشرة اذرع. قال أبو الصلف الثقفى، وتروى لابنه امية ايضا، يمدح سيف بن ذي يزن بعد طرده الاحباش الاثيوبيين من أرض الجنوب العربى (76).

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا في رأس غمدان دارا منك محلالا

وقال ابن الكلبى (77) «ورد ذكر بيت معظم آخر يقال له : ريام» ويبدو من مفهوم هذه الرواية انها انتشرت بعد زوال ملك الحميريين، أو ربما بعد تعرضهم للاضطهاد عندما تهود ذو نواس فاضطهدهم، وهو رأي ترجحه المصادر (78)، وفي مقدمتها كتاب الاصنام، وذلك تعرضه لظاهرة انعدام النصوص الدينية والادبية والشعرية في هذا الاله مع أن له سيرة في المصدر لكن صاحب اللسان ذكر بأن نسرا كان

(74) المفصل 60/6.
(75) المحبر ص 311، 315.
(76) معجم ما استعجم مادة (غمدان).
(77) الاصنام ص 15.
(78) المفصل فى تاريخ العرب 263/6.

صنمـا لذى الكلاع بارض حميـر، وكان يغوث بمذحج ويعوق لهمدان من اصنام قوم نوح. وفي شعر العباس يمدح سيدنا رسول اللـه (ص) (79) :

بل نطفـة تركب السفين وقد الجـم نسـرا وقومه الغرق

وحميـر قوم من اكبر القبائل العربية القحطانية، ومنها تفرعـت قضاعة التى تفرعت عنها بهراء ، وعذرة التى ينسب اليهم الحب العذري وعشاقه المتيمون مثل عروة بن حزام صاحب عفراء وجميل صاحب بثينة، وقبيلة كلب ومنهم حارثة الكلبى مولى رسول الله (ص) وفروع أخرى مشهورة.

12 ـ وتلبيـة اخرى لحميـر وهمـدان

لبيـك عن حميـر وهمـدان

والحليفيـن من حاشـد وألهـان

جاءت في تاريخ اليعقوبى (80). وقد ارجع علماء الانساب بطون همدان الى حاشد وبكيل وخصص الهمدانى الجزء العاشـر من اكليله في قبيلتـى حاشـد وهمدان . وهمدان وألهـان اخـوان من مالك بن زيـد، وحاشـد حفيـد همـدان والجميع كهلانيون (81). وكانت الهان تعبد قبل هـذه التلبية إلهـا يدعى (قيتـان) (82).

13 ـ وتلبيـة أخـرى خاصـة بهمـدان :

لبيـك مع كل قبيـل لبـوك

همـدان ابن الاملوك تدعوك

قد تركـوا اصنامهم وانتابـوك

فاسمع دعـاء في جميع الاملـوك

ذكرها أبو العلاء المعري (83). والاملوك قوم من العرب من حمير. وفي التهذيب : (الاملوك، مقاول من حمير، كتب اليهم النبى (ص) «الـى املوك ردمان ...» وردمان موضع باليمن (84). ولبوك أي : لزموا امـرك (بضم الباء) ومن روى لبوك بفتح الباء فهو سناد مكـروه.

(79) ابـن منظـور مـادة (نسـر).
(80) ابـن واضـح الاخبـارى 212/1.
(81) المفصـل 33/4.
(82) المصـدر السابـق 213/2.
(83) رسـالة الغفران 534.
(84) اللسـان مـادة (ملك).

14 ـ وتلبيـة اخرى خاصـة بهمـدان

لبيـك رب همـدان
من شاحـط ومن دان
جئناك نبغي الاحسان
بكـل حـرف مذعـان
نطوي اليـك الغيطـان
نامـل فضـل الغفـران

رواها المعري (85). ومعنى شاحط : البعيد . وحرف : الناقة النجيبة الماضيـة . والغيطـان : الاراضي المتسعـة .

وتوجد ملاحظة على هذه التلبية والتلبيتين (12) ، (13) قبلها، اذ بدأت روايتها بـلا مقدمتها التوحيدية التي تخاطب اله العرب القومي قبل ان تخاطب اله القبيلة الوطني اذا صح التعبير، وانما بدأت بآلهة الشـرك وتركت الـه التوحيـد الواحد الاحد ، الذي توارثت تلبيته من عهد ابراهيم، وهذا خلاف خرجت عليه هذه التلبيات، ويبدو لي أنه من تصرف الـرواة، أو من تصـرف أبي العلاء المعري نفسه، اذ استثقل أن يعيد الشطر المكرر في أول كل تلبيـة، فدخل بالتلبيـة الوطنية دون القومية، باعتبارهـا مفهومة ضمنـا أو سياقا، بينما لم يستثقل ذلك محمـد بن حبيـب ولا ابن الكلبي ، وانما حافظوا على الاحرف الاولى لكل تلبية، وليس مـن السهولـة ترك هذه المقدمـات التي هي أساسية في كل تلبية ، ونحن ثبتنا رواية المعري كما ثبتها هو لكننا أشرنا الى هذا الخروج هنا ونبهنا عليه ليطلـع القـارىء على حقيقتـه.

15 ـ وكانت تلبية بني كلب واحياء من قضاعة ومن نسك للاله ود :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك معـذرة اليـك

رويت التلبية في المحبر (86). وكان ود منصوبا بدومـة الجندل. بين الحجاز والشام (87)، وأورد له ابن الكلبي وصفا في الاصنام (88)، حمل

(85) رسـالة الغفران 534.
(86) محمـد بن حبيب ص 313.
(87) معجم ما استعجـم رسم (دومة الجندل).
(88) كتاب الاصنـام ص 10، 56.

بعض الباحثين على الظن بأنه اله للحب، لان صفته توحي بأنه فارس فاتن نساء، كما ان بيت النابغة الذبياني يوحي بهذا المعنى أيضا :

حياك ود فانا لا يحـل لنا لهو النساء، وان الدين قد عزما

وود من اصنام قوم نوح ايضا، وصار لكلب بدومه الجندل كمـا اسلفت، لكن صاحب اللسـان (89) قال بانه (الود) ثم ذكـر بان [ود] صنم كان بعض العرب يهمزه فيقول : اد، وبه سمي عبدود، وسمي اد بن طابخه، واحد جد معد بن عدنان، ووجدنا في اصنام الساميين صنما بهذا الاسم أيضا، وقال الفـراء : قـرء اهل المدينة «ولا تذرن ودا» بضم الـواو. قال ابـو منصور : أكثر القراء قراوا ودا بفتـح الواو. وفي التهذيـب : الود ، بالفتـح ، الصنـم ، وانشـد :

بـودك، ما قومي على ما تركتكم سليمى ؟! اذا هبت شمال وريحها

فمن رواه بالفتـح اراد بحـق صنمك، ومن ضم أراد بالمـودة بيني وبينك. وقد سبق أن تطرقنا اليه مفصلا في بحثنا في الكتاب الاول تحت عنوان : تراث الحب وقصصه في الادب.

16 ـ وهذه تلبيـة أخرى لقضاعـة :

لبيـك عـن قضاعـة
لربهـا رفاعـة
سمعـا لـه وطاعـة

رواها ابن واضح الاخباري (90). وقضاعة كما اشرت سابقا قبيلة حميريـة قحطانيـة .

ومرة اخرى انوه بان هذه التلبية وسابقتها لم تبدا بالتلبية الاولى أيضـا، وانما اقتصـرت على تلبية الصنم، وهذا ما فعله المعري فكانه يساير اليعقوبي في هذا الصنيـع.

17 ـ وتلبيـة اخرى لقضاعه وسعد هذيم ومن نسك لسعيدة :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيك لم نأتك للمياحة
ولا طلبـا للرفاهـة
ولكن جئنـاك للنصاحـة

(89) ابـن منظـور مـادة (ودد).
(90) تاريخ اليعقوبي 212/1.

رويـ تفي المحبر (91) أما رسالة الغفران)92(واللسان [93] فعلـى الصـورة الآتيـة :

جئنـاك للنصـاحة
لـم نـأت للرقاحـة

وبهذه الرواية الاخيرة يكون الـوزن قد استقـام، خلافا لما ورد في المحبـر. وقد عدت ضمن تلبيـات بكبر بن وائل، وكانت تميم تلبـي لمنـاة ايضا وسعد هذيم قضاعية ايضا وهي في جداول النسابين : سعـد هذيتـم بن زيـد بن ليث بـن أسلم بن الحاف بن قضـاعة (94) ولهـا شقيق يدعـى (نهـد). اما تميم بن مـر فينتسب الى خندف المتحـدرة من مضـر بن نزار شقيـق قيس عيلان. ولتميم فـروع عظيمة منها قبيلة عمرو بن تميم التى أنجبت حكيم العـرب · اكثـم بن صيفى وأوس بـن حجـر الشاعـر.

أما موضع الصنم المدعو (سعيدة) فهو أحد كما يذكر ابن حبيب (95)، وقد عبدته الازد أيضا، وسدنته بنو عجلان ، وورد في اللسان (96)، ان للسعيدة بيتا كانت تحجه ربيعة في الجاهلية ، وهذا يعنى أن لسعيـدة مركـزا ممتـازا في أرض العـرب.

ومعني الرقاحـة الكسب والتجارة، والمياحـة : المنفعة ، وقـد تاتى للاستسقاء، والنصاحة : التوبـه النصوح الخالصـة.

18 ـ وكانت تلبيـه تميـم ومن نسك لشمـس
لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك ما ـهارذا بحـره
ادلاجـة وحـرء وقـره
لا نتقى شيئـا ولا نضـره
حجـا لـرب مستقيـم بـره

---

(91) ابـن حبيـب 311.
(92) المعـرى 534.
(93) ابـن منظـور مـادة (رقـح).
(94) معجم ما استعجـم 36/1 (المقدمة).
(95) المحبـر 315.
(96) ابـن منظـور مـادة (سعد).

التلبية في المحبر (97). ونقل صاحب «التاج» (98) عن ابن الكلبي انه صنم قديم، وقد سمت به العرب فقالت : عبد شمس. والصنم غير مذكور في كتاب الاصنام لابن الكلبي . وعبدته بنو «أد» وكان له بيت يعظمونه (99) ويلاحظ في هذه التلبية وجميع التلبيات اظهار التزلف والتملق والضراعة للصنم .

19 ـ ولتميم تلبية أخرى :

لبيك اللهم لبيك
لبيك عن تميم قد تراها
قد أخلقت اثوابها
وأثواب من وراءها
وأخلصت لربها دعاءها

التلبية في تاريخ اليعقوبي (100).

وتعكس التلبية شعيرة دينية ، حيث كان العرب قسمين في وثنيتهم: الحمس والحلة . والحمس هم المتشددون في دينهم (101). وكان الحلة لا يطوفون بثيابهم لاعتقادهم انها تحمل ذنوب عام كامل، فيقولون : لا نطوف ولا نحج بثياب أذنبنا بها. فكانوا يستأجرون ثيابا من الحمس أو يشترون جديدة يطوفون بها. وهذا هو معنى التلبية .

20 ـ وكانت تلبية هوازن ومن نسك معها لجهار :

لبيك اللهم لبيك
اجعل ذنوبنا جبار
واهدنا لاوضح المنار
ومتعنا وملنا بجهار

التلبية في المحبر (102). وذكر أنه كان بعكاظ أسفل أطحل، وسدنته آل عوف النصريون، وورد في «تاج العروس» (103) أنه كان صنما لهوازن.

(97) ابن حبيب 311.
(98) الزبيدى مادة (شمس).
(99) المفصل 281/6.
(100) ابن واضح الاخبارى اليعقوبى 212/1.
(101) اللسان مادة (حمس) و (حلل).
(102) ابن حبيب 311، 315.
(103) الزبيدى مادة (جهر).

ولـم اقف حتى الآن على قبيلة اخرى تتعبد له. ويـدل اسم الصنم (جهار) وما تشير اليه التلبية من الدعاء بالتمتـع والتأمل بمنظره على أنه كـان صنمـا حسن الهيئـة ، فهو الـه للجمال عندهم. وتشير مـادة جهيـر وجهرة في اللغة الى حسن المنظـر، ولعله يعنـى الواضح المنظور غـير المستتـر المحتجب، ويلاحظ للمقارنة فقط قوله تعالـى في تنزيله العزيز على لسـان المشركين «ارنـا الله جهـرة» وهذا ما تتحملـه المادة اللغوية بحسب (104). واما معنى جبار الواردة في التلبية فهى : هدر الـقـدم بلاديـة ولا قـود.

21 ـ وكانت تلبيـة بجيلة وخثعم ومن نسك ذا الخلصـة :

لبيـك اللهـم لبيـك

لبيـك بما هو أحب اليـك

التلبيـة في المحبـر (105) والاصنام (106).

وبجيلـة وخثعم ابنـا أنمـار . ويوجـد حول نسب انمـار خلاف، بعضهم يجعله عدنانيا اذ ينسبه الى نـزار بن عدنـان ثم تحول الى اليمن فلحـق بنسب القحطانيين . والبعض الاخـر ينسبه اصلا الى قحطان، فهم اشقـاء الازد ولخي ومذحج ومراد وهمدان وكنده وجذام ولخم وعاملة والاشعريين . ومن بجيلـة صاحب رسول اللـه (ص) جرير بن عبد الله البجلى الذي هـدم «جهارا» صنـم قبيلتـه المتقدم ذكره في التلبية السابقة، فقـال فيه وفيهم الشاعـر (107) :

لولا جريـر هلكت بجيلـة نعـم الفتى وبئست القبيلة

واما خثعـم ، فمنهـم حمـران الشاعـر القائـل :

أقسمت لا أمـوت الا حـرا انى وجدت الموت طعما مـرا

أخـاف أن أخـدع أو أغـرا

وذو الخلصة موضع ، يقال أنه بيت لخثعم، كان يدعى كعبة اليمامة، وكان فيه الصنم الذي يدعـى بذي الخلصة . وفي الحديـث : لا تقـوم الساعـة حتى تضطرب البـات نسـاء دوس على ذي الخلصة. وهو بيت

(104) اللسـان مـادة (جهر).
(105) ابـن حبيـب 311.
(106) ابـن الكلبى ص 34.
(107) اللسـان مـادة (خلص).

كان فيه صنم لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم . وقيل : ذو الخلصة، الكعبة التى كانت باليمن ، فأنفذ رسول الله (ص) اليها جرير بن عبد الله البجلى فخر بها كما ذكرنا . وقيل : ذو الخلصة، الصنم نفسه. قال ابن الاثير : وفيه نظر لان (ذو) لا تضاف الا الى اسماء الاجناس (108). وحمل حديث الرسول (ص) على المجاز وليس الواقع، واكثر احاديثه صلوات الله عليه تحمل على وجه المجاز وان كانت تشير الى حقيقة أو واقع ملموس.

وذكر ابن الكلبى أن أزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن كانوا يعبدون ذا الخلصة أيضا، وكان في تبالة، ويبدو أنه كانت له مقامات أخرى في ارض العرب وذلك لتعدد القبائل التى دانت له ، منها الكعبة اليمانية (109) .

22 ـ وهذه تلبية أخرى لبجيلة

لبيك اللهم لبيك
لبيك عن بجيلة
في بارق ومخيلة
الفخمة الرجيلة
ونعمت القبيلة
جاءتك بالوسيلة
تؤمل الفضيلة

وردت التلبية في تاريخ اليعقوبى (110) ورسالة الغفران (111)، وقد وجدنا التلبيتين. وقد مضى في التلبية السابقة كلا منا عن خثعم وبجيلة. ومعنى (بارق ومخيلة) أنه السحاب الخلب الذي يبرق ولا يمطر، فاذا أمطر ذهب عنه اسم التخيل (112). فالتلبية للاستسقاء. والرجيل : القوي الصلب.

(108) المصدر السابق.
(109) المفصل 270/6.
(110) ابن واضح 212/1.
(111) المعرى 534.
(112) اللسان مادة (خيل).

23 ـ وكانت تلبية السلف وعك والاشعريـن ومن نسك لمنطبـق :

لبيـك اللهـم لبيـك

لبيـك ...

التلبيـة في المحبـر (113)، وبهذا القـدر وصلت الينـا التلبيـة ، وقد تكون صحيحة، واذن فقد اكتفت بجزئها الاصيل، وهـو التوحيد، وقد تكون سقطت من ايـدي الرواة ، او ان الراوية التي وقعت في يديـه تحـرج عن روايـة الاجزاء الوثنية. وكان ابن حبيب (114) قد ذكـر في موضـع آخر في كتابـه ان منطبـق صنم للسلف وعك والاشعريين، بكلمون من جوفه كلاما لم يسمع مثله، وكان من نحاس (115)، وهذا يعيد الى أذهاننـا الاصـول السحرية للفنـون الجميلـة.

وقد مضى الكلام عن الاشعرين ضمن القبائل القحطانية، ومثلهـا السلف، أما (عك) فهو ثقيف معـد بن عدنـان، وليس لعك فـرع، الا أن لهم في التـاريخ موقعا مذكورا ، فهم الذين واجهوا بختنصر عند هجومه على (حضورا) ثم انطلق العكيون بعدها الى اليمن واختلطوا بأصولهـم، فعرفـوا بكونهم يمنيين اكثر من كونهم عدنانيين، لكن نسبهم هو (عك بن عدنـان) وبعضهم ينسبهم (عك بن الديـث بن عدنان).

24 ـ وتلبيـة اخرى لعـك والاشعريـن

نحـج للرحمـن بيتـا عجبـا

مستتـرا مضببـا محجبـا

التلبيـة في تاريخ اليعقوبـي (110)

ويطالعنا هنا اسم (الرحمن) وسيتكرر في التلبية (37). وقد كانـت عبـادة الرحمن قد انتشـرت في الارض العربية قبل الاسلام بزمن (112). وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى (113) «قل ادعوا الله أو ادعـوا

(113) ابـن حبيب ص 312.
(113) ابـن حبيب ص 312.
(114) المحبر ص 315. .
(115) المفصـل 286/6.
(116) ابـن واضـح 231.
(117) المفصـل 306/6.
(118) الاسـراء 110/17.

الرحمن، أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى». وتلاحظ صفة البيت بانه (مستتر مضبب محجب) مما يجسد معانى التعظيم والاجلال التى كانت تلقى على البيت من بعد قبل دخولهم الى الحرم، وهذه التلبية، هى الوحيدة بين التلبيات، عكست الروح الشعرية والفنية للترديدة الدينية ، بعيدا عن المصالح الدنوية في بقية التلبيات التى رددت التملق والضراعة للالهة.

25 ـ وكانت «عك» اذا بلغت مكة ، بعثت بغلامين اسودين مملوكين يسيران امام القافلة على جمل، قد جردا، فهما عريانان، فلا يزيدان على أن يقولا :

نحن غرابا عك ..

فتجيب جموع عك من خلفهما مرددة :

عك اليك عانية
عبادك اليمانية
كيما نحج الثانية
على الشداد الناجية

رويت في المحبر (119)، والاصنام لابن الكلبى ، ولم يذكر اسم الصنم الذي كانوا ينسكون له، الا أن ابن حبيب ذكر كما قدمت في التلبية (23) انهم كانوا ينسكون لمنطيق . وتعد هذه التلبية فريدة في بابها بين ما وصل الينا من التلبيات في ابراز الطقوس الاحتفالية لمثل هذه المناسبات الموسمية. كما تعكس مقطعا انشاديا مصحوبا بجوقة ترديدية، ترجح انها من بقايا احتفالات جماهيرية كبيرة، كانت تقام في هذا الموسم، حيث الاصنام منصوبة بين الصفا والمروة وحوالي منى وعرفة وجمع حتى الكعبة ، وهم ينفرون من جبل ثبير الى مزدلفة حين تشرق الشمس، مغيرين على عتائرهم منشدين للاشعار الدينية كقولهم :

أشرق ثبير
كيما نغير

ويتم هذا بشكل منظم، وكل قبيلة وفق دورها ودور الاهها، فتكون مكة يومئذ مسرحا موسميا عظيما، والناسكون ممثلون لهذه الطقوس الوثنية

(119) ابن حبيب ص 311.

يرافقهـا الانشاد والترديد. واردوا بالثانية : الاشارة الى كعبتهم الاولى، الكعبـة اليمانيـة .

26 ـ وكانت تلبيـة عبد القيس ومن نسك ذا اللبـا :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك رب فاصرفن عنا مضـر
وسلمـن بـا هذا السفـر
ان عمـا ميهـم لمزدجـر
واكفنـا ، واكففنـا اللهم اربـاب هجـر

التلبية في المحبر (120)، وذو اللب كان منصوبا بالمشقر ، قصـر بالبحرين، وقيل في هجر (121). وسدنته بنو عمر (122)، وتعكس التلبية صراع الارباب في المنطقة أما عبد القيس فتنتسب الى جديلة، وهي بطن من بنى أسـد العدنانية . ولعبد القيس فـروع كثيرة أيضا.

27 ـ وتلبيـة اهل حضرموت ومن نسك لمرحب :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك اننـا لديـك
لبيـك حبينـا اليـك

وردت في المحبر (123)، وكان مرحب بحضرموت ، وسادنـه (أي حافظه) ذو مرحب بن معـد يكرب (124).

28 ـ وتلبية بنى كندة، ومن نسك لذريح :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك كلنـا كنـود
فاكفنـا كل حيـة رصـود

التلبيـة في المحبـر (125) :

---

(120) ابـن حبيب ص 315.
(121) البكـرى ـ معجم ما استعجـم رسم (مشقر).
(122) المفصـل 286/6.
(123) ابـن حبيـب 311، 315.
(124) المفصـل 286/6.
(125) ابـن حبيـب ص 312، 314، 318.

وكان (ذريـــح) بالنجير من اليمن، وظنه (ولها وزن) بمثل الشمـس، بينما ظنه (تيودور نولدكه) : الشارق ومحرق . اما الاسم (ذرح) فهو يرد ضمن الاعلام المركبة مع الاله (ايل) (ذرح ايل) وهو إله جنوبي لم تعرف لـه عبادة في الشمال (126) وقد سمت العرب باسم ذريح، كما سميت باسم قيس، وكلاهما اله او صنم. وكنـدة قبيلة قحطانية ذكرتها قبل قليل ، ولها بطـون كثيرة منها : بنـو معاوية ويسمون بمعاوية الاكرمين، والرائش والسكون والسكاسك وبنو حجر آكل المرار وبنو الجون، والاخيران هم الذين اسسوا مملكة كندة، ومنهم امرؤ القيس الشاعر .

29 ـ وكانـت تلبيـة هذيـل :

لبيـك عن هذيـل
قـد ادلجـوا بليـل
في ابـل وخيـل ..

والتلبيـة في تاريخ اليعقوبي (127). وهذيل قبيلة تنتسب الى مدركة بـن مضر بن معـد بن عدنـان .

30 ـ وكانـت تلبيـة ربيعـة :

لبيـك ربنـا لبيـك
لبيـك ان قصدنـا اليـك

وردت التلبية في تـاريخ اليعقوبي (128). وربيعة هـو ابـن نزار بـن معـد بن عدنـان.

31 ـ وهذه تلبيـة اخـرى لربيعـة :

لبيـك عن ربيعـة
شاخصـة لربهـا مطيعـة

التلبية في تاريخ اليعقوبي (129) وتلاحظ معاني الخضوع التـام في التلبيـة .

---

(126) المفصـل (اشارة سابقة).
(127) ابـن واضـح 212/1.
(128) المصـدر السـابـق 212/1.
(129) المصـدر نفسـه.

32 ـ وكانت تلبيه بنى سعد :

لبيك عن سعد وعن بنيها
وعن نساء خلفها تعنيها
سارت الى الرحمة تجتنيها

ذكرها ابو العلاء المعري (130) وبنو سعد هم من ابناء قيس عيلان ومن قحطان ايضا ولم يخصص من هو المراد منهم ، فهم كثير : سعد هذيل وسعد هزيم وسعد زيد مناة وسعد العشيرة وسعد لؤى وسعد علم وسعد قيس وسعد بكر . قال طرفة (131) :

رأيت سعودا في شعوب كثيرة فلم تر عيني مثل سعد بن مالك

هذا وفي العرب صنم مشهور يعرف بسعد ايضا .

33 ـ وكانت تلبية بنى غسان :

لبيك رب غسان
راجلها والركبان

وردت التلبية في تاريخ اليعقوبى (132) .

وغسان ازديون وينتسبون الى كهلان، وكانت تتنسك للاقيصر (133).

34 ـ وكانت تلبيه بنى جذام :

لبيك عن جذام
ذوي النهى والاحلام

والتلبية في تاريخ اليعقوبى (134)

وجذام من كهلان، قبيلة قحطانية، وكانت تتنسك للاقيصر أيضا وبعض النسابين يردونها الى مصر، ويردها آخرون الى مدين.

---

(130) رسالة الغفران 534.
(131) اللسان مادة (سعد) .
(132) ابن واضح الاخبارى 212/1.
(133) اللسان مادة (هلل).
(134) ابن واضح الاخبارى 212/1.

35 ـ وكانت تلبيـة بنى النمـر :

لبيـك يا معطـي الامـر
لبيـك عن بنـي النمـر
جئنـاك في العام الزمـر
نأمـل غيـثا ينهمـر
يطـرق بالسبـل الحمـر

وردت التلبيـة في رسالـة الغفـران (135)

وبنو النمـر هم ابنـاء عبد القيس بن نـزار بن معـد. ويلاحظ في هذه التلبيـة انها دعـاء بالاستسقاء، وبوفـرة الـرزق. ومعنى الامـر (بفتـح الهمـزة وكسر الميم)، الكثير. وزرع أمر ، أي كثير، ورجل أمر، مبارك يقبل عليه المال . ومعنى الزمر : القليل الخير ، الشديد. ويقـال للحيـوان اذا كـان قليـل الشعـر أو الصوف أو الريش · الزمر ، ومعنى السيـل الخمـر ، أي الكثيـر الذي يغطى الوديـان.

36 ـ وكانت تلبيـه من نسك ذا الكفين من بنى خزاعة ودوس :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك ان جرهمـا عبـادك
النـاس طـرف وهم تـلادك
ونحـن اولى منهم بـولائك

وردت في المحبر (136). وجدير بالذكر ان هذا المعبود الذي كان يسدنه عمـرو بن حممة الدوسى ، كانت نهايـة مجده الروحى على يد الطفيـل بن عمرو الدوسي، أرسله النبي ليحرقه والبيـت الذي كانوا يعظمـونـه فيه . وهذا يذكرنـا بتلبيه بجيلـة (رقم 21) لصنمها ذي الخلصة وارسال النبـى لرجل منهم يدعـى جريـر البجلى فأحرقه، ويبدو أن الرسول (ص) كان يختـار لهذه المهمات الصعبـة رجالا من القبيلة نفسها لاكثر مـن سبب، منها أ نيبقى الثأر في القبيلـة نفسها ، ، كما فعل عندما نـدب علي بن أبي طالب (رض) لينفذ حكم المـوت بابن عمـه النضـر بـن

(135) المعرى 534.
(136) ابـن حبيب ص 312.

الحارث الذي كان يؤذي رسول الله (ص) ومن الاسباب أنه يختبر رجاله اذ يواجههم مع أهلهم ويضرب مثلا بهم امام المسلمين لترتفع معنوياتهم. ومنها أن هؤلاء الرجال اذاهم قومهم في فترة الجهاد السري والعلني حتى ظهور الاسلام، فسلمهم الرسول رقاب قومهم ليتصرفوا بالعقل والحكمة . وعندما ارسله الرسول (ص) جعل الطفيل الدوسي يرتجز عند قتاله مع هذا المعبود برجز يناقض في معانيه، معانى التلبية الموجهة الى الصنم ، فقال :

يا ذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا اكبر من ميلادكا
انى حشوت النار في فوادكا

فكل شطر في الرجز يناقض معانى اشطر التلبية (137). وبنو خزاعة بن سعد بن هذيل بن مدركة ، وهى قبيلة تميمية تنتسب الى خندف بن قيس عيلان ودوس قبيلة ازدية منها ابو هريرة رحمه الله.

37 ـ وكانت تلبيه قيس عيلان :

لبيك اللهم لبيك
لبيك انت الرحمن
اتتك قيس عيلان
راجلها والركبان

وردت التلبية في تاريخ اليعقوبى (138). وسبق في التلبية (24) ان التقينا باسم الرحمن، وتحدثنا عن ذلك. وينظر تفسير الزمخشري حول الخلاف بين عبادة الله تعالى وعبادة الرحمن لدى الجاهليين (139).

38 ـ وكانت تلبيه بنى أسد

لبيك اللهم لبيك
يارب اقبلت بنو اسد
اهل التوانى والوفاء والجلد
اليك ...

(137) يراجع كتاب الاصنام ص 37 وتاريخ اليعقوبى 225/1 واخبار مكة للازرقى 283/1 وتنظر سيرة هذا المعبود فى المفصل 247/6.
(138) ابن واضح الاخبارى 212/1.
(139) الكشاف 470/2.

والتلبيـة واردة في تاريخ اليعقوبى (140)، والاسديون اخـوان الكنانيين ، لانهما من خزيمـة بن مدركـة بن خندف بن مضر بن نـزار ومضـر شقيق قيس عيلان ويقال عن خزيمة بن مدركة أنه أول من نـزل مكـة من مضر فوضع (هبل) في موضعه . وهذا تاريخ قديم لكن بنى أسد، بعـد أن تفرقت بطونها، دانت في الجاهليـة لآلهـة الاحلاف، وان كنـت أظن فقط أن (منـاة) هو الصنم الاكبر في حياتهم، ولو لم يكن ذلك كذلك. لم يتأثـر به الشاعر الاسلامى الكميت بن زيـد الاسدي احد بنـى اسد بن خزيمـة بن مدركـة فقـال (141) :

وقـد آلـت قبائـل لا تولـي منـاة ظهورهـا متحـرفينا

39 ـ وكانـت تلبيـة كنانـة :

لبيـك اللهـم لبيـك
اليـوم يوم التعريـف
يـوم الدعـاء والوقـوف

رواهـا ابن واضـح (142)، ولم يذكر اسم الصنم الذي تلبـى له بهذه التلبيـة لكننا وجدنا كنانـة تلبـى لهبل في التلبية رقم (2) ولسواع في التلبيـة رقـم (3) .

40 ـ وكانت تلبيـة الازد :

لبيـك رب الاربـاب
تعلم فصـل الخطـاب
لكل ملـك مثـاب

وردت في تاريخ اليعقوبى (143) ولم يذكر اسم الصنم الذي وجهـت التلبية اليه، لكننا التقينا بالازديين يلبون لمناة مع اليثربيين فى التلبية رقم (8). وقد خصصت التلبية مكانا متميزا للصنم، ونحن نعلم ان منـاة كان العرب يعظمونها ويذبحون لها، فكان سدنتها يجنون منها ارباحـا

(140) ابـن واضـح الاخبـارى 212/1.
(141) المفصـل 408/6.
(142) ابـن واضـح الاخبـارى 212/1.
(143) ابـن واضـح الاخبـارى 212/1.

طائلة حتى بعث الله نبيه فأرسل عليا اليها فهدمها (144). وقد يكون المقصود هو الله تعالى، يؤيد ذلك التلبيتان القادمتان.

41 ـ وكانت تلبية كندة وحضرموت :

لبيك لا شريك لك

تملكه أو تهلكه

انت حكيم فاتركه

التلبية في تاريخ اليعقوبي (145) ، ولم يصرح باسم الصنم الملبى له، الا ان كندة لبت قبل قبيل للصنم (ذريح) في التلبية رقم (28) وحضر موت لبت للصنم (مرحب) في التلبية (29) فهما يجسدان تحالفا دينيا، فمن المحتمل ان تكون التلبية لاحدهما او كليهما او لصنم ثالث . ويلاحظ هنا ايضا ان التلبية موجهة الى كبير الالهة أو رب الارباب أو الصنم أو الرب الاعلى ، لان العرب بعد أن أخرجهم عمرو بن لحي من حنفيتهم أو توحيدهم العقائدي واضاف اليهم صيغة الشرك الى صيغتهم الاولى (تلبيه ابراهيم الخليل) صاروا يخاطبون الاله الواحد الاحد بتفريد خاص ثم يجعلون معه آلهة الشرك، فأصبحوا مشركين بعد ان كانوا موحدين وبقى منهم من عرف بالحنفاء أو الاحناف على توحيدهم، وجرى غيرهم من النصارى واليهود مجرى التفريد أي أنهم آمنوا بالله الواحد الاحد بتفريد خاص ثم يجعلون معه آلهة الشرك خروجا على التوحيد أيضا، ولهذا تال المشركون يخاطبون الاله الاكبر بأن الله القبيلة يشاركه لكنه ملك له ايضا، وهذا ما أعادوه هنا. وقد يكون المقصود بالمعنى هو العبد، واذا صح التوجيه الاولى، فأنهم يلتمسون لاله القبيلة من الاله القومى الكبير بقاء وخلودا ونصرا لان فيه بقاءهم ونصرهم.

42 ـ وكانت تلبية مذحج

لبيك رب الشعرى

ورب اللات والعزى

---

(144) المفصل 249/6.

(145) ابن واضح 212/1.

وهذه التلبية واردة في تاريخ اليعقوبي (146) أيضا، وهي كسابقتها تخاطب الاله الواحد الاحد ، وتتضرع له بأنه رب الارباب جميعا. وهذه التلبية، وقبلها التلبيتان آنفتا الذكر، تمثلان وضوحا تاما للتوحيد العقائدي الاصيل الذي كان العرب عليه، وحافظوا على استمراره وان ظهرت بوادر الوثنية عليهم فيما بعد. وقد اكد الله تعالى في محكم تنزيله العزيز ما جاء في هذه التلبية في قوله : وانه رب الشعرى (147) :

43 ـ وكانت تلبيتهم جرهم :

لبيك مرهوبا وقد خرجنا
والله لولا أنت ما حججنا
مكة والبيت ولا عججنا
ولا تصدقنا ولا ثججنا
ولا تمطينا ولا رجعنا
ولا انتجعنا في قرى وصحنا
على قلاص مرهفات هجنا
يقطعن سهلا تارة وحزنا
أشرق كيما ننثنى في الدهنا
لكي نحج تابلا ونعنا
نحن بنو قحطان حيث كنا
ننحر عند المشعرين البدنا

وردت التلبية في الازمنة «الورقة 11 أ» (148) وذكر قطرب قبل التلبية أن جرهم أول سكان البيت الحرام، وتؤيده المصادر التاريخية في ذلك وتضيف بأن خزاعة استطاعت أن تستأثر بالبيت وما جاوره وأزاحت عنه جرهم وغيرهم. والتلبية تقيد بوضوح ان الجراهمة من قحطان. وأما اشارتهم في التلبية الى الاشراق بقولهم : أشرق. فهو

(146) ابن واضح الاخبارى 212/1.
(147) سورة النجم 49/43.
(148) جميع التلبيات التى ستأتى الى آخر هذه النصوص وردت فى مخطوطة الازمنة لقطرب محمد بن المستنير (الورقات 10 ب، 11 ا، 11 ب، 12 ا) والمخطوطة احتجنتها مكتبة الزميل الدكتور حاتم الضامن (نسخة مصورة) عن الاصل فى لندن.

خطاب موجه الى جبل ثبير وقت التشريق ، وقد سبق أن تحدثنا عنه في بحثنا عن التلبيات ضمن هذا الكتاب. وأوردت التلبية مناسك حجية تدل على أصول توحيدية حنيفية للحج كما ليس في التلبية اشارة الى شرك واضح، لكن جرهما كانت وثنية وكان لها صنم أيضا غير ان هذه المسحة من التوحيد هي من بقايا دين ابراهيم الخليل قبل أن يصيبه الشرك على يد وثنيي مكة يومئذ. وشرح قطرب لفظة التلبية من الب، وهي أطول التلبيات ، توشك أن تكون قصيدة، وهذا شيء له خطره في تاريخ النصوص الدينية الجاهلية ودراساتها.

44 ـ وكانت تلبية حمير :

لبيك اللهم لبيك
عن الملوك الاقوال
ذوي النهى والاحلام
والواصلين الاحرام
لا يقربون الآثام
تنزها واسلام
دلوا لرب كرام

وردت التلبية في مخطوطة الازمنة لقطرب (الورقة 11 ا) وهي غريبة في منحاها الاسلامي والفاظها الاسلامية مثل (الاثام) و (النزاهة) و (اسلام) مما يوحي بان حمير ـ وهي قحطانية ايضا ـ رددت هذه التلبية بعد دخولها في الاسلام، واقبلت الى الحج بها .

45 ـ وتلبية الازد :

يا رب لولا انت ما سعينا
بين الصفا والمروتين فينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
ولا حللنا مع قريش أينا
البيت بيت الله ما حيينا
والله لولا الله ما اهتدينا
نحج هذا البيت ما بقينا

الازمنة (ورقة 11 ب) وقد سبق للازد أن لبت بتلبية أخرى، وايراد اسم قريش في التلبية والاهتداء للحج بوحى من الله له مدلول ابمانى جديد، يجعل هذه التلبية أحدث من سابقتها.

46 ـ وكانت تلبية قضاعة

لبيك نزجى كل جرم (جرمى) ملهود
ولاحب مثل عجاجات العود
ان الاله الحميد المحمود
نعطى اله البيت منا المجهود

الازمنة الورقة 11 ب

47 ـ وكانت قبيلة مذحج :

اليك يا رب الجلال والحرم
والحجر الاسود والشهر الاصم
على قلاص كحنيات النشم
جئناك ندعوك بحاء وهلم
نكابر العصر وليلا مدلهم
نقطع من بين جبال وسلم
وهول رعد وبروق كالضرم
والعين يحملن حلالا وكرم

الازمنة الورقة 11 ب. واحتوت التلبية وصفا لابلهم التى تحملهم الى الحج، وكانوا يجلون الابل التى تقوم بهذه المهمة ، كما وصفوا اهوال الطريق وما يحملون فوق الابل من هدايا تقربهم لمعبودهم. والاشارة الموجودة في التلبية «بحاء وهلم» تدل على الشوق للوصول باسرع ما يستطيعون، كما احتوت التلبية على بعض متاسك حجهم كالحجر الأسود ورجب الاصم وقد سمى بذلك لانهم لا يسمعون فيه قعقعة السلاح.

48 ـ وكانت تلبية عك ومذحج جميعا «يخرج رجل من مذحج ورجل من عك ، فيقول :

يا مكة ، الفاجر مكى مكا
ولا تمكى مذحجا وعكا
فيترك البيت الحرام دكا
جئنا الى ربك لا نشكا

الازمنــة ورقة 11 ب . وقد فسـر لفظـة الملك بقوله : تمككت العظم أخذت ما فيه من النمخ . وقد سبـق أن التقينا بتلبية سابقـة لعـك تؤديها في مثل هذا المشهد الاحتفالي وعلقنا عليه أيضا. وراجع بحـث : شعر الاصناف في هذا الكتاب حول كلمة بكة ومكة واستخدامهما.

49 ـ وكانـت تلبيـة كنـدة :

لبيك ما ارتقى بثبير وجده
وما أقـام الجـن فـوق جـده
وما سـض صوب الغمـام ربـده
ان الذي تدعـوك حقـا كنـده
في رجـ بوقـد شهدنا جهـده
للـه نـرجو نفعـه ورفـده

الازمنة الورقة 11 ب. وهذه التلبيـات المتتـابعة تمثـل تلبيـات العـرب الجنوبيين ، وسنعقبهـا تلبيات أخرى لهم، والفـاظ هذه التلبيـة جاهليـة من ذكر الجـن وما غير ذلك من مناسك الجاهليين.

50 ـ وكانـت تلبيـة خزاعـة :

نحن ورثنـا البيـت بعـد عـاد
ونحن من بعدهـم أوتـاد
فاغفـر فأنت غافـر وهـاد

الازمنـة (الورقـة 11 ب) وسبق ان ذكرنـا أن خزاعـة ازاحـت جرهـم عن البيـت.

51 ـ وكانـت تلبيـة النخـع

لبيـك رب الارض والسمـاء
وخالـق الخلـق ومجـرى المـاء
معصب بالمجـد والسنـاء
لعايـش فضائـل النعمـاء
في العالميـن جميـع يفديـه
الآبـاء والابنـــاء

الازمنـة الورقـة 11 أ ، وقد ورد آخر التلبيـة بهذا الشكل المضطـرب .

52 ـ وكانت تلبية الاشعريين :

اللهم هذا واحد ان تما
أتمه الله وقد أتما
ان تغفر (اللهم تغفر) جما
وأي عبد لك لا الما

الازمنة (ورقة 12 أ) وقد اضعنا ما بين القوسين في التلبية لورودها بهذا الشكل في بعض مصادر التحقيق وسقطت هنا سهوا كما يبدو . وقد ختم قطرب تلبياته بقوله : «هذا جميع ما سمعنا من التلابى» واستخدامه لتلابى استخدام غريب لم يسبق اليه، ولعلها عرفت جمعا بهذا المصطلح، وقد روى قطرب منها ثلاثا وعشرين تلبية، مضيفا الى ما رواه غيره عشر تلبيات (تلابى). وهذا في اعتقادنا قليل اذا قيس الى عدد محجاتهم ومعبوداتهم وقبائلهم، لكننا نعود فنؤكد بأن الاصل في جميع هذه التلبيات هو التوحيد والتوجه لبيت واحد ومدينة واحدة وابتداء هو لبيك اللهم لبيك . وقد وضع قطرب تلبية النبى صلى الله عليه وسلم أول تلبية بـ بين تلبياته المروية، ونحن نختم بها نصوص تلبياتنا لانها كانت مسك الختام من لدن عزيز كريم على يد خاتم انبيائه ، قال قطرب : تلبية من لبى من مضر، نبدأ بتلبية النبى صلى الله عليه وسلم، حدثنا بعض أهل العلم يرفعه الى ابن اسحق قال ، كانت تلبية النبى صلى الله عليه وسلم :

لبيك اللهم لبيك
لبيك لا شريك لك
ان الحمد لك والملك
لا شريك لك .

قال قطرب : هذه تلبية التوحيد. لبيك من ألب بالمكان وسعديك من السعد، وقال ابن عباس، وكانت تلبية اهل الجاهلية في حجهم مختلفة» انتهى كلام قطرب ثم يبدأ بتلبية قريش والقبائل .

المصـــادر والمـــراجـــع

مصادر التحقيق والدراسة (بما فيها الدراسة السـابقة المنشورة في بيروت ـ مجلة المستقبل العربى / مركز دراسات الوحدة) . والمعاد نشرها هنا في هذا الكتاب الجزء الاول.

1 ـ القرآن الكريم ـ المصحف العثمانى.

2 ـ الأم ـ للامام أحمد بن محمد الشافعى ـ طبع مصر ـ دار مطـابع الشعب (بلا تاريخ).

3 ـ الاصنام ـ هشام بن محمد الكلبى ـ ت : الاستاذ أحمد زكي باشا ـ طبعة ثانية، دار الكتب المصرية 1924.

4 ـ الاوائل ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن كامل العسكري. ت : محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة 1966.

5 ـ أيام العرب لابى عبيدة ـ ج 1 ـ تحقيق ودراسة بقلمنا. دار الجاحظ بغداد 1976.

6 ـ أيام العرب قبل الاسلام ـ جاد المولى وجماعته طبع مصر 1961.

7 ـ البناء الاجتماعى ـ الدكتور أحمد أبو زيد (الدار القوميـة ـ مصـر 1965) .

8 ـ أخبار مكة المكرمة ـ أبو الوليد محمد بن عبد الله الازرقي ـ تحقيـق فرديناند وستنفيلد ـ سلسلة روائع التراث العربـى ـ بيـروت ـ مكتبة خياط 1964.

9 ـ أوغاريت : أجيال. أديـان. ملاحم. نسيب وهيبة الخازن، بيروت دار الطليعة 1961.

10 ـ تاريخ اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب المعروف بابن واضح الاخباري النجـف الاشرف 1358 هـ.

11 ـ تفسير البيضاوي وهو أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ طبع دار الجيل ـ بيروت (بلا تاريخ).

12 ـ تفسير الجواهر ـ للشيخ طنطاوي جوهري ـ طبع مصطفى البـابى الحلبى ـ طبعة ثانية 1350 هـ.

13 ـ تفسير الكشاف لابى القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمى ـ طبع البابى الحلبى 1966.

14 ـ الروض الانف لابى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى ـ مطبعة الجمالية ـ مصر 1914.

15 ـ رسالة الغفران لابى العلاء المعري ـ ت : الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) طبع مصر ـ دار المعارف.

16 ـ السيرة النبوية ـ أبو محمد عبد الملك بن هشام ـ ت : مصطفى السقا وجماعته ـ مصر 1936 (مصورة).

17 ـ السيرة النبوية لابى الفداء اسماعيل بن كثير ـ ت : مصطفى عبد الواحد ـ طبع البابى الحلبى ـ مصر 1964.

18 ـ العقد الفريد لابى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه. ت : لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1948 (مصورة).

19 ـ عمدة القارى في شرح صحيح البخاري ـ للامام العينى أبو محمد بدر الدين محمود بن محمد. المطبعة المنيرية ـ مصر.

20 ـ العمدة لابى علي الحسن بن رشيق القيروانى. ت : الاستاذ محي الدين عبد الحميد ـ طبعة رابعة ـ بيروت 1972.

21 ـ الغصن الذهبى ـ السير جيمس فريزر (الترجمة العربية باشراف الدكتور أحمد أبو زيد) وكتاب بايلور من تأليف أبو زيد ـ طبع دار المعارف مصر 1957.

22 ـ فن التقطيع الشعري ـ الدكتور صفاء خلوصى ـ طبعة ثالثة ـ بيروت 1974.

23 ـ قصص الانبياء (عرائس المجالس) لابى اسحق الثعالبى ـ طبعة الحلبى الرابعة 1954.

24 ـ قصص الانبياء لابى الفداء ابن كثير ـ مطبعة دار التأليف بمصر 1968.

25 ـ القواميس والمعاجم (الاشارة بحسب المادة وليس الصفحات)

ـ لسان العرب لابن منظور ـ طبعة بيروت.

ـ تاج العروس ـ طبعة مصر والكويت.

ـ القاموس المحيط ـ طبعة البابى الحلبى.

26 ـ المحبر ـ محمد بن حبيب ت : الدكتورة الزاشتيتر ـ حيدر اباد دار المعارف الهند 1942.

27 ـ مجلة الابحاث (الجامعة الامريكية ببيروت) السنة 26 (1973 ـ 1977) بحث الدكتور احسان عباس : نصان جديدان عن الديـن في الجاهلية .

ـ مجلة كلية الاداب ـ الجامعة المستنصرية العدد 5 مقالة عن شعر الاحناف بقلمنـا.

28 ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ـ العدد 23 ـ مقالة عن الطفولة ورموزها في الشعر الجاهلي بقلمنا ـ ومجلة المستقبل العربي ـ مركز دارسات الوحدة العربية ببيروت ـ العدد 17 يوليو 1980 ـ مقالة بعنوان الشعر ونضال الوحدة في صدر الاسلام بقلمنا. والعـدد 28 حزيران 1981 مقالة بعنوان : أصالة الوحـدة العربيـة في أقـدم النصوص الدينية ـ تلبيات الجاهلية ـ بقلمنا.

29 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ـ طبع بيروت دار العلم للملايين 1972.

30 ـ معجم ما استعجم ـ لابى عبيد عبد الله بن عبد العزيـز البكـري . ت : مصطفى السقا ـ القاهرة 1945 ـ مصر.

31 ـ نهاية الارب في فنون الادب ـ أبو العباس أحمد بن عبـد الوهـاب النويري ـ دار الكتب بالقـاهرة 1976/63.

32 ـ الازمنة لقطرب ـ مخطوطة محفوظة في لندن، صورة منهـا في مكتبة حـاتم الضـامـن.

الفصل الثالث

شعراء جاهليون

1 ـ افنـــون التغلبـــى

2 ـ الربيع بن ضبيع الفزارى

3 ـ الحارث بن ظالم المرى

4 ـ قيس بن زهـــير

5 ـ الربيـــع بن زيـــاد

6 ـ ربيعة بن مكرم

أفنـــون التـــغـــلـــبـــى

سيرتـــه من شعـــره ومن ملاحـــم الايـــام

تزخـــر حياة العرب في عصورها القديمـــة ، قبل الاسلام ، بالالهـــة والمعبودات ، وبالجن والكهنة والسحرة ... والشعراء . يربط بعضها ببعض رباط اسطوري متين ، تضرب جذوره في معتقدات غيبية لا يسبر لها غور في أعماق الدهور الغابرة منذ ظهور العرب على صفحات التأريخ (1).

وربما كانت علاقة الشعر بالسحر والكهانة أوضح من أية علاقة أخرى لبقية المعبودات والظواهر الميثولوجية المذكورة، لان التماس هذا الجـــذر المفقود ، يغدو في الشعر والسحر والكهانة ، اسهل من التماسه في علاقة الالهة بالكهـــان (2). ومع ذلك فان بعض ما يـــروي من قصص العرب وأساطيرهم في العصر الجاهلي، يرمـــز الى وجـــود علاقة من نوع العلاقة المنشودة في الشعـــر والسحـــر.

وكانت للكاهن منزلة كبيرة، دونها منزلة الشاعر في بعض الاحيان، فقد كانـــوا حكاما للناس ينفـــرون اليهم في خصوماتهم، كما فعل هاشـــم ابن عبد مناف عند احتكامه الى الكاهـــن الخزاعـــي لدى منافرتـــه أميـــة ابن عبد شمس (3)، أو كاهن بنى أســـد، عوف بن ربيعة، عندما أوحـــى لقومه أن تابعه اخبـــره انهم سيقتلون حجرا ابـــا امريء القيس، وظـــل يذمرهم على ذلك بوحيه حتى هبـــوا عليـــه وقتلـــوه (4).

---

(1) ينظر بحثنا :الرمز والاسطورة فى الادب الجاهلى. نشر وزارة الاعلام ضمن كتاب: الشعر والمجتمع ص 95 سنة 1974.

(2) يراجع القسم السادس من كتاب المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام. د. جواد على وهو زاخر بحديث الكهانة.

(3) السيرة الحلبيـــة 4/1.

(4) الاغانى 84/9.

وربما كان خط حياة الشاعر يمر من خلال الكاهن ، وكان بعض الشعراء يتكهنون مثل زهير وعبيد بن الابرص ولبيد، ان لم يكونوا جميعا في نفس المسار الفكري لطبيعة الشعر والسحر والكهانة، وذلك لارتباطهم بالغيب عن طريق تابع من الجن أو صاحب يقال له : رئى، ويطلق عليه أيضا اسم : شيطان الشاعر (5).

واعطت النهاية التى رسمها خيال القصاص العربى الجاهلى لحياة افنون التغلبى الشاعر مثل هذا المزج الاسطوري الخلاق . فقد روى انه مر بكاهن ، فسأله عن نهايته، فاخبره انه يموت في موضع يقال له : الالاهة أو «الاهة» (6). فاستقرت النبوءة من نفس افنون التغلبى حسا مقلقا طوال حياته ، ورسخت حلما مزعجا يريد أن يفيق منه ولا يريد. يؤيد رفضه لفكرت الموت بالصورة التى أوحت بها نبوءة الكاهن، وانه افاق من سحر هذه النبوءة. فمن ذلك قول أفنون نفسه (7).

يا ايها المزمع وشك النوى
لا يثنك الحازي ولا الشاجح (8)
ولا وعول نجشت كدسا
خارجها من غمرة والج (9)
كل له داع الى وقته
ليس لنفس عن ردي خالج (10)

---

(5) تراجع مقدمة جمهرة اشعار العرب لابى زيد القرشى، وهى مقدمه قيمه تبحث فى انعام الميثوبى الذى كان يغلف الاجواء الشعريه العربيه قبل الاسلام. ويلاحظ حديث ابروفسور نكلسون عن علاقة الشعر بالسحر والكهانه، وقد ساق لهذه العلاقه مثلا قصة شاب رفض ذوو حبيبته زواجه منها لانه لم يكن كاهنا ولا ساحرا (تاريخ العرب الادبى).

(6) راجع معنى الكلمة فى شرحنا لقصيدة أفنون الرائية المذكورة بعد قليل.

(7) الابيات فى الحماسة للبحترى ص 259.

(8) الحازى زاجر الطير — انظر تفسير الكلمة فى هامش (12).
والشاحج : الغراب الذى يشحج أى ينعق بصوت خشن غليظ.

(9) نجشت : ثارت. كدس جمع كادس، وهو الذى يجيء من خلف. والعرب تتشاءم به. ويسمى القعيد أيضا. والغمرة : الجماعة من الظباء والوعول. يريد الذى يخرج من بينها بالتخلف أو بالسبق ويدركه أو يدركها سريعا فيلج فيها. وذلك كناية عن شدة عدوها.

(10) خلجه أى انتزعه وجذبه. والمعنى انه لا يمكن أن ينزع الانسان من يد الموت اذا حانت ساعته.

فاقصد لاقصى همة نضوها
قد يدرك المشبوبة الحادج (11)

لكن الصورة رسمتها النهاية المأساوية التى اسدلت الستارة على خاتمة حياته، تؤكد سقوطه تحت وطأة الفكرة، وانه خضع طوال حياته لنبوءة الكاهن ، خضوعا افسد عليه لذة العيش ومتعة العمر.

ويبدو أن زمنا ليس بالقليل قد انقضى على نبوءة الكاهن أو «الحازي» كما سماه افنون (12) . فقد خرج افنون وفي صحبته ركب من قومه يرافقهم أخوه «معاوية» يريدون الشأم في سفر لتجارة أو غارة أو شيء منهما. حتى اذا وجدوا انفسهم في أعماق الجزيرة تاه بهم الدليل، واختفت معالم الطريق ، فلم يعودوا يميزون منها شيئا. وبينما هم يضربون في الصحراء يائسين، ارتفع لهم على البعد شبح لمحوا فيه بعض رجائهم في النجاة والفرج ، فقصدوه، فاذا هم وجها لوجه أمام انسان بدوي من العرب. فتشبثوا به يسألونه، ويستهدون بهديه، فدلهم على الطريق . وكان مما قاله لهم، انكم بعد ذلك تجدون انفسكم قد وقعتم على موضع يقال له الالاهة. ثم منه تجدون الدرب ميسورا الى الشام. فانفرجت اسارير القوم الا شاعرنا، فان نبوءة الكاهن رن صداها في أذنه اشبه بصوت الناقوس ينبىء بالخطر المحدق بالبشر منذرا بالرحيل والفناء. والانسان يحمل في أعماقه حاسة لا تعمل الا مرة واحدة في حياته، هى حاسة الشعور بدنو الاجل واقتراب ساعة الموت.

فلما كان الركب في «الالاهة» حيي لهم الطريق ، وعزموا على النزول للراحة، فأمسك افنون عن النزول، وتشبث بتلابيب ناقته (13) قائلا: «اننى

---

(11) المشبوبة : النار المرئية من بعيد. الحادج : الذى يمشى على هون وضعف.
(12) الحازى والكاهن بمعنى واحد. وهى آرامية، وقد جمعها افنون على حوازى فى شعره كما سنرى. وبمقتضى هذا القياس جمع الانبارى فى شرح المفضليات كلمة «كاهن» على «كواهن». وعلق الشيخ أحمد محمد شاكر على قياس الانبارى قائلا : هو حجة. (المفضليات 261). ولعل فى رأى بعض اللغويين العرب شيئا من الوجاهة فى قولهم أن كلمة : حوازى وكواهن جمع للاناث مثل حازيات وكاهنات. ويقال للذكور : حزاة وكهان. الرأى للعلامة المرحوم مصطفى جواد.
(13) فى معجم البلدان ياقوت 347/1 انه كان يركب حمارا وليس ناقة. وانه قال لاصحابه : انى ميت. قالوا : «ما عليك بأس». فنهش حماره ونهق فسقط. فقال : انى ميت. قالوا : ما عليك بأس. قال : «وكم ركض الحمار». فأرسلها مثلا. ثم قال يرثى نفسه، وهو يجود بها. وذكر الابيات.

عـازم على البقاء ، ولن ابـرح ظهر ناقتـي» ظنا منه انه ان وطات قدمه الارض، ميت لا محالـة. وعبثا حاولوا ان يثنـوه عن عزمه فلم يفلحـوا. وتـرك ناقته ترتعى من عشب الارض ونباتاتها ، وهو لا يزال على ظهرها. وفجأة علقت بمشفـر الناقـه افعـى، حاولت الناقـة التخلص منها بكـل وسيلة، فمسحت مشفرها في ساق افنون التغلبى، فلسعت الافعى افنونا من ساقه، فسقط على الارض. فلما احس بالموت يسري في احشائه طلب الى اخيه معاوية ان يحفـر له قبرا، وان يرحلوا عنه، ثم تغنى قبل موته، يبكـى نفسه قائـلا (14) :

الا لسـت في شـيء فروحـا معـاويـا
ولا المشفقـات اذ تبعن الحـوازيـا (15)

وان اعجبتـك الدهـر حـال مـن امـريء
فدعـه وواكـل أمـره والليـاليـا
يرحـن عليـه أو يغيـرن مـا بـه
وان لم يكن في جوفـه العيش وانيا (16)

فـلا خيـر فيمـا يكـذب المـرء نفسـه
وتقوالـه للشـيء ياليـت ذا لـيـا

لعمـرك مـا يـدري امـرؤ كيـف يتقـى
اذا هـو لـم يجعـل لـه الله واقيا (17)

---

(14) القصة في العقـد الفريد 247/3 والشعر والشعراء 419/1 والبكرى معجـم مـا استعجم 1861 ولويس شيخو 192/1 ووردت الابيات في العقد (الثانى والثالث والرابع والخامس) وحماسة البحترى 57 (الابيات كلها) بترتيـب مختلـف. والشعـر والشعراء (الاول والثالث والرابع والخامس) والبكرى معجم (الرابع والخامس والمؤتلف والمختلف 225 (الرابع والخامس) ومعجم البلدان 347/1 (الثانى والرابع والخامس) والبغدادى 460/1 (والرابع والخامس) ولويس شيخو 192/1 الاول والثانى والثالث والخامس والسابع).

(15) يراجع الهامش 12 حول كلمة الحازى. والمشفقات النسوة اللواتى يشفقن على أولادهن من الموت والمرض فيتبعن الكهان، ينظرون لهن فى مستقبلهن ، ويصنعون لهن الرقى والتعويذات. فهو يقول : لست سعيدا ولا مصدقا قول الكهان، وكذلك الوالدات.

(16) هذه رواية الحماسة للبحترى واخذى نسخ العقد الفريد وأما النسخة المعتمدة فى العقـد فروايتها : فى خوفه العيش وانيـا. والبيت غير موجود فى المفضليات.

(17) فى رواية : لاتبغى بنفسك باقيا. والذى اثبتناه هى رواية المفضليات.

فكـى حزنـا ان يرحـل الحـي غـدوة
وأصبـح في أعلـى الاهـة ثـاويـا (18)

يعلن افنون في هذه الابيـات استسلامه للقدر القاهر، بعد تمرد عتيد، بل اصـرار على تحدي الموت ، سـواء بالسيف في ساحات القتال، حيث بمنع الموت عن نفسه كما تشير مقطوعته في يـوم «حاجر..» المذكورة في آخـر هذا البحث، ام بتتبعه فكـرة (الساعة المحتومة للانسان) باللجـوء الى الحازي أو الكاهن ثم الثـورة عليه معلنا تمـرده، لان فكرة الرفـض لا تزال قائمة في نفسـه. وأخيرا تتساقط الاطـر القديمة كأفكار مهزومـة في صورة مواعظ وحكم تأخذ شكـل عبارات وصيغ مكثفـة وصغيرة علـى عادة أهل الجاهلية . فلا يعـرف العقل ولا تدرك الحكمة الا في ساعة مواجهة الموت .. يستسلم في استغراق عميق ثم يغمض عينيه . «وتقواله للشيء باليـت ذا ليـا» هذه العبارة تتكرر في شعر عنتـرة :

وقولك للشيء الذي لا تناله اذا ما حلا في الصدر باليت ذا ليا

من قصيدته التى مطلعهـا :

الا قاتل الله الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخواليـا

وكان الشاعر الجاهلي يريد ان يصـرخ في وجه عبثيـة الحيـاة ولا جدواها : وكل شيء باطل اباطيل .. ثم كلمه نعى صغيرة، اشبه بمـا يكتب على شواهد القبـور يرثى فيها الشاعر نفسه، وهى عـادة جاهليـة قديمة ، عثـر مثلها في الرقم التذكارية وفي الكتابات العربية قبل الاسلام لرجال نامضين ومتوجين ومشايخ، وقد وجـدت كشواهـد على قبورهم.

وروي ابن قتيبة (19) ان افنونـا بعد لسعة الافعـى مات من ساعته فقبره هناك. فهل ذلك يعنى ان قبر افنون ظل شاخصا ومعروفا حتى عصر ابـن قتيبـة ؟ ..

---

(18) هذه رواية المفضليات. ويروى : القوم بدل الحى. والاهة موضع ذكرناه فى متن البحث . وهى أيضا الشمس، وكان قوم من العرب يعبدونها. قالت آمنة بنت عتيبة ترثى أبـاهـا :

تروحنـا مـن اللعبـاء عصـرا فـاعجلنـا الالـهـة أن تؤوبـا
على مثـل ابن مية فـانعيـاه تشـق نـواعـم البشر الجيوبـا

يراجع العقد الفريد 249/5 واللسان — مادة لعب.

(19) الشعـر والشعـراء 419/1.

ومن الغريب حقا أن يرثى شاعر آخر نفسه، مستعينا بالبحر والقافية نفسهما، وهو مالك بن الريب في قصيدته المشهورة والتى مطلعها (20) :

الا ليت شعري هل ابيتـن ليلـة بوادي الغضا أزجى القلاص النواجيا

وكذلك تروي القصص عن مالك بن الريب انه مات بلسعة افعى ، وانه طلب أيضا أن يخط له قبره، ويتـرك ليمـوت، مما يدل على أن افنونا التغلبى ، هذا البطل الملحمى في «أيـام العرب» في العصر الجاهلى، قد أخذ أبعـادا شعرية، ثم ضفى الخيـال الشعبى الاصيل الى شخصيات متعددة والى ابطال آخرين نفس البعـد الميثولوجى . وتوجد قصيدة أخرى تأخذ بالتقليد نفسه مقتفيـة أثـر أبيات افنون التغلبى، وهى رثاء عبد يغوث بن صلاءة الحارثى لنفسه في يوم الكلاب الثانى، يقول في مطلعها (21) :

الا لا تلومانى كفى اللوم مابيا فمالكما في اللوم تقع ولا ليا

وقد سبق ان مرت بنا مثل هذه المقارنات في شخصية ربيعة بـن مكدم وعنترة وعامر بن الطفيل في بحثنا حول ربيعة بن مكدم (22).

كان أفنون وثنيا ، ومع ذلك ترد لفظة «الله» في شعـره :

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى اذا هو لم يجعل له الله واقيا

ان دلالـة اللفظة واضحة في شعره بالنسبة الينا كموحدين اسلاميين. بل حتى بالنسبة للموحدين من الاديان السماوية الاخرى، ولكن الدلالـة في ذهن البدوي الوثنى تختلف ، وهى غامضة جدا .. فهى الان تعنـى الخالق الذي يقى البشـر اذا اعتصموا بحبله، فان جعلوا سواه واقيا، وبتعبير ادق» اذا لم يجعلـوه واقيا ، لا يعرفون كيف يتقون آجالهـم أو اقدارهم المجهولة .. وسواء كان اللفـظ ، لفظ الجلالة ، منصوبـا أم كان مرفوعا بالفاعليـة ، فان الدلالـة لا تتغيـر ، وهى ان الله يقى البشر وهو عين المعنى الـوارد في التنزيل الحكيم : والله خير حافظا . وقوله :

---

(20) مجموعته الشعرية ص 82 فى مجلة معهد المخطوطات مايو 1969 جمـع وتحقيـق د. نورى القيسى وانظر ما نقله المحقق بأن الجن رثت مالك بن الريب بهذه القصيدة البـائية. وهذا ليس فكرا اسلاميـا بل امتدادا لوثنية جاهلية.

(21) الاغـانـى 329/16.

(22) تراجع مجلة كلية الاداب — مقالة بعنوان ربيعة بن مكدم «حامى الظعينة» ص 75 العدد 19. وأعيد نشرها فى هذا الكتاب.

ووقاهم ربهم . ولست اسلك افنونا في اصحاب العدل أو القائلين بارادة الله في البشر كما فعل القدماء بلبيد والاعشى، حين اخرجوا من شعرهما انهما كانا يقولان بالقدر والجبر وما الى ذلك ، فهذه ظاهرة في الشعر الجاهلى تطلب منا دراسة معمقة واهتماما خاصا.

واذا نحن أخذنا برأي «الفراء» ، وجدنا أن كلمة «الاهة» أو «الالاهة» في الاصل هى «الـ» أو «الالـه» ثم زيدت التاء بعدئذ . فان كان الموضع مقدسا لوجود الـه فيه أو وجود بيت للالهة أو حمى أو شيء من ذلك، يصبح حديث افنون من قبيل التشبث بالله ، المعبود كان المكيون ومن يعتقد بعقيدتهم يتخذون له وسطاء من الاوثان والاصنام يتوسطون لهم لديه والالاهة الشمس.

ويبدو أن افنونا التغلبى كان على صلة قريبة بمثل هذه الافكار التى تعد نادرة لدى الجاهليين . بل تدلنا بعض كلمات نونيته التى سترد انه كان يملك فكرة واضحة عن الخلق والعالم، أو أن لديه شيئا ثابتا من قصة الخليقة مشوبا بنموذج مسيحى أو يهودي. ولعله كان يمزج فكر الوثنيين ببعض معتقدات التوحيديين . فذكر في شعره ادم أبا البشر ثم أورد تسميات لابطال اسطوريين في حياة الامة العربية.

لو أننى كنت من عاد ومن ارم ربيت فيهم ولقمان وذي جدن

وليست نبوءة الكهان بالموت في اساطير العصر الجاهلى مسألة غريبة. فلدينا يوم من أيام العرب هو «يوم حجر» وحجر والد امريء القيس الشاعر المعروف ، فقد كان سببه وسبب مقتل حجر، نبوءة الكاهن الاسدي عوف بن ربيعة، الذي تنبأ بموت حجر على يد الاسديين، فاعطى نهايته، ورسم صورة دموية رهيبة لمصيره، يدفع بموجبها الاسديين الساخطين لينفذوا حكم الموت الذي اصدره هذا الكاهن الرهيب (23).

ويروي لنا يوم آخر من ايام العرب وهو يوم «الكلاب الثانى» قصة كاهن يقتل في الحرب على يد احد محاربى تميم، ثم يسخر منه قاتله قائلا : الا اخبرك تابعك بمصرعك اليوم (24). وهذه القصة تعتبر

(23) الاغانى 84/9.
(24) خبر يوم الكلاب الثانى فى النقائض 149/1 (اوربا) 136/1 الصاوى.

ارهاصة تمرد على عالم الكهان العجيب ، تمهيدا لظهور الافكار الثورية الجديدة التى جاء بها الاسلام ، مؤكدا عالما عقلانيا قوامه الملاحظة الواقعية والتجربة العلمية ، فكان نهاية عصر ميتافيزيقى، وبداية عصر الواقعية العلمية الذي امتزجت فيه العقلية العربية بثقافات الامم الاصيلة .

وتنتشر ظاهرة الكهان في التاريخ العربى ، قبل الاسلام ، انتشارا ملحوظا. فلدينا ـ مثلا ـ كاهنة بنى رئام التى أنذرت قومها بالغارة (25). بل تمتد هذه الظاهرة في اعماق التاريخ العربى، فمن ذلك ما يروى عن زرقاء اليمامة الكاهنة ذات البصر المشهور بحدته، فقد انذرت قومها بالغارة، ثم اخبرتهم بتحرك غابة باكملها نحوهم (26). بل ان ظاهرة الكاهنات والكهان تربط ميثولوجيا العرب وعباداتهم في الشمال من الجزيرة، نجد والحجاز، بميثولوجيا الجنوب، اليمن وعباداتها (27).

ولا نملك من حياة افنون التغلبى ، وراء خبر موته شيئا. كأنما القصة ركزت على النهايات لغرض يتعلق بمعتقدات العالم القديم. لكننا نعرف انه كان يدعى صريم بن معشر بن ذهل بن تميم بن عمرو بن مالك بن حبيب بن عمرو بن عثمان بن تغلب، وانه كان يشبب بنساء قومه، فقالت امرأة منهم : لاسمين نفسى وابنتى اسما لا يشبب به صريم. فسمت بنتا لها ; مضنونة ـ فقال صريم عند ذلك ليريها ان ذلك لا ينفعها :

منيتنا الود يا مضنون مضنونا ازمانا ان للشبان افنونا

فسمى افنونا بهذا البيت (28).

---

(25) يقال لها زباء ولها خبر طويل فى الامالى 126/1.

(26) تعيد الى الذهن مشهدا من مسرحية شكسبير المتعلق بقيام الساحرات بأخبار ما كبث عن تحرك غابة برنام. وبالفعل أخبره بذلك حارس القصر.

(27) يراجع فصل (سجع الكهان) فى كتاب العصر الجاهلى لشوقى ضيف ص 420.

(28) النقائض 886/2 والشعر والشعراء 419/1 والعقد 247/3 والاغانى 55/11 وسمط للالى 684 والاشتقاق 336 والمؤتلف والمختلف ص 225 صحف الاسم الى (مضمون) بدل (مضنون) والمزهر للسيوطى 435/2 ولويس شيخو 196/1 وتراجع كلمة افنون فى الجمهرة لابن دريد 118/1.

ومما نعرفه عن افنون ايضا انه عاش فترة من عمره مخاصما قومه معرضا عنهم، لانهم لم ينصروه في حق غبنه عليه ناس غرباء، فقال في ذلك (29).

أبلغ حبيبا وخلل في سراتهم
ان الفواد انطوى منهم على حزن (30)
قد كنت اسبق من جاروا على مهل
من ولد ادم من لم يخلعوا رسني (31)
فالوا علي ولم أملك فيالتهم
حتى انتحيت على الارساغ والثنن (32)
لو أنني كنت من عاد ومن ارم
ربيت فيهم ولقمان ومن جدن (33)
لما فدوا باخيهم من مهولة
أخا السكون ولا جاروا على السنن (34)
سألت قومي وقد سدت أباعرهم
ما بين رحبة ذات العيس والعدن
اذ قربوا لابن سوار أباعرهم
لله در عطاء كان ذا غبن

---

(29) المفضلية (22) البيان والتبيين 9/1، 190 (البيت 4+5+8) والامالى 51/2 (البيت 8+49) وسمط اللالى 684 (ابيت 4+5+6) والكامل للمبرد 52/2 (البيت 8+9) وأمالى ابن الشجرى 37/1 ورغبة الامل للمرصفى 52/2 قال : هى لافنون وقد تبرأ منه قومه لكثرة جرائره. وأورد كما فى المفضليات. والبغدادى 455/4 – 460 وقال أوردها لافنون اتغلبى أبو عمرو الشيبانى فى أشعار تغلب والمفضل فى المفضليات. وذكر الابيات الاب لويس شيخو اليسوعى 192/1. والابيات فى الاختيارين ص 403 برواية الاصمعى عن أبى عمرو.

(30) لويس شيخو (بلغ) بدل (أبلغ). وحبيب : قبيلة أفنون. وخلل : أى خصهم بالبلاغ.

(31) خلعوا رسنى : أى تبرءوا منى.

(32) فالوا على : من الفيلون وهى ضعف الرأى. أى أخطئوا فى الرأى.

(33) رواية العجز فى البيان والتبيين 9/1 (غذى قيل ولقمان وذى جدن) ثم رواه ص 190 نفس رواية المفضليات المثبتة عندنا. ويروى (غذى سخل) ينظر مجالس العلماء للزجاجى 42.

(34) انتحيت : اعتمدت. والارساغ جمع رسغ. والثنن : جمع مؤخر الرسغ. أى اعتمدت على اسافل الناس.

انى جـزوا عـــامـرا سـوأى بفعلهـــم
أم كيف يجزوننى السوآى من الحسن (35)
أم كيـــف ينفع مـا تعطى العلـوق بـه
رئمـان أنـف اذا ما ضن باللبـن (36)

ويخيل الينا ان هذا الحادث وقع لـه في وقت متأخر من حياته، والا فهو أحد القـادة المشهورين في تغلب، وكان عزيزا بقومه وبنفسه، تشهد له الوقعات التى نذكرها له بعد قليـل، فلم يكـن بحاجة لنصرة احـد.

وتكشف لنا ملاحم الايام العربية حلقة من عشرات الحلقات المفقودة من حياة هذا البطل الذي رسمته ريشة العبقرية العربية صانعة روايـات «الايـام» الشعرية والنثريـة ، ذات الطابـع الفنـى الفريد.

فلقد شهد افنـون اكبر ايـام قبيلته، وهو اليوم الذي قتل فيه عمرو ابن كلثوم عمرا الملك المعروف بعمرو بن هند. وذلك كما تذكر الروايـات المختلفة (67) بأن عمرو بن هند ، قـال ذات يوم لندمائه :

ـ هل تعلمون ان أحدا من أهل مملكتى من العرب، يانـف ان تخـدم امـه امـي .

قـالـــوا :

ـ نعم ، عمـرو بن كلثـوم .

قـــال :

ـ ولـم ذلـك ؟

قـالـــوا :

ـ لان آباها مهلهل بن ربيعـة (38) وعمها كليـب (39) وائل اعـز

(35) المبرد فى كتابه الكامل، نقل رواية لابى عمرو بن العلاء بأنه استشهد بكلمة السوآى من فعلى، وكـان يقرأ : ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى.
(36) لعلماء النحو أقوال فى كلمة (رئمان) وبعضهم يعطيها ثلاثة وجوه أعرابية، ينظـر الزجاجى ـ مجالس العلماء ص 42 وبالامكان مراجعة البغدادى 455/4 ـ 460 حيث شرح القصيدة شرحا وافيـا.
(37) النقائض 884 الاغانى 53/11 ابن الاثير ـ الكامل 330/1 والشعر والشعراء 419/1.
(38) الشاعر المعروف، بطل الملحمة الشعبية القادمة من العصر الجاهلى : الزير سالم
(39) كليب أخو مهلهل، كانت بسببه ملحمة البسوس، وهى الاصل المثقف للزير سـالم.

العـرب ، وبعلها كلثـوم بن مالك بن عتـاب افـرس العرب، وابنها عمرو بـن كلثـوم سيـد من هو فيه.

فسكـت عمرو بن هنـد على ما في نفسـه.

ثم ارسل الى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله ان يزير ليلى هندا.

فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيـرة الى الحيرة في فرسان بنـي تغلب، وأقبلت ليلـى بنت مهلهل في ظعن من بنى تغلـب ، فنزل شاطىء الفـرات .

وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمـر برواقه فضرب فيما بين الحيـرة والفـرات، وارسل الى وجوه مملكتـه فحضروا، وصنع لهم طعاما وأتـاه عمرو بن كلثـوم في وجوه بنى تغلب، فدخل عمرو بن كلثـوم على عمرو بن هنـد في رواقه، ودخلت ليلـى بنت مهلهل ام عمـرو بن كلثـوم على هند في قبـة في جانب الرواق . وهنـد ام عمـرو بن هنـد عمـة امرىء القيس الشاعر، وليلى بنت مهلهل ام عمـرو بن كلثـوم هى بنت اخـي فاطمـة بنت ربيعـة ام امـرىء القيـس.

وقـد كان امـر عمـرو بن هند امـه ان تنحـى الخـدم اذا دعـا بالطـرف (40) وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بن هند بمائـدة فتصبهـا، فاكلوا، ثم دعا بالطـرف ، فقالت هنـد :

ـ يـا ليلـى ناوليني ذلك الطبـق.

فقالـت ليلـى :

ـ لتقـم صاحبـة الحاجـة الى حاجتهـا.

فأعـادت عليهـا وألحـت . فصاحت ليلـى :

ـ وا ذلاه .. يـا لتغلـب .

فسمعها عمرو بن كلثـوم فثـار الدم في وجهه، والقـوم يشربـون، ونظـر الى عمرو بن هنـد ، فعرف الشـر في وجهه، فنظر الى سيف لعمرو ابن هند معلق بالـرواق، وليس هناك سيف غيره. فقـام الى السيـف مصلتـا ، فضرب بـه رأس عمرو بن هنـد فقتله . ونـادى في بنى تغلـب فانتهبوا جميع ما في الرواق، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة.

(40) الطرف : الفواكه وما شاكلها، تؤخذ بعد الطعام.

وقال أفنون التغلبي (41) :

ولسنا كأقوام قريب محلهم
ولسنا ممن يرضونهم بالتملق (42)
فسائل شرحبيلا بنا ومحلما
غداة تكر الخيل في كل خندق (43)
لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا
لتخدم ليلى امه بموفق (44)
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا
فأمسك من ندمانه بالمخنق
وجلله عمرو على الرأس ضربة
بذي شطب صافي الحديدة رونق

وقد كان مهلهل بن ربيعة وكلثوم بن عتاب وعمرو بن كلثوم اجتمعوا في بيت كلثوم على الشراب، وعمرو يومئذ غلام، وليلى أم عمرو تسقيهم، فبدأت بأبيها مهلهل، ثم زوجها كلثوم، ثم عادت فردت الكأس الى ابيها وسقته، وابنها عمرو عن يمينها، فقال مغضبا (45).

صبنت الكاس عنا ام عمر
وكان الكاس مجراها اليمينا (46)
وما شر الثلاثة ام عمرو
بصاحبك الذي لا تصبحينا

(41) النقائض 884 (الثالث والرابع) والشعر والشعراء 234/1 (الثالث فقط) وعجزه (لتخدم أمى أمه) وهو سهو منه، لان المعنية بالبيت أم عمرو بن كلثوم وليس أفنون التغلبي. والمحبر 204 والاغانى 55/11 وابن الاثير — الكامل 549/1 (الثالث والرابع) ولويس شيخو 196/1 هنا فى الاغانى. والابيات كلها فى ديوان شعر عمرو بن كلثوم التغلبى ص 16 (نشر فريتس كرنكو بيروت 1922) قال رجل يرثى حنيا التغلبى، لما قتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند، وهو أفنون التغلبى : وحنى التغلبى هو أبو جابر بن حنى التغلبى أحد شعراء المفضليات وقد توهم الجاحظ فى كتابه (الحيوان) 135/3 وعزاها سهوا الى جابر، والصواب ما أثبتناه.

(42) رواية الجاحظ : يرضيكم.

(43) شرحبيل عم امرىء القيس، قتيل الكلاب الاول، ويتصل حديثه بنا بعد قليل. ومحلم هو محلم بن ذهل بن شيبان وكان ابنه عوف مشهورا بوفائه.

(44) رواية الشعر والشعراء : (لتخدم أمى أمه) فجعل أم عمرو بن كلثوم وأم افنون التغلبى واحدة، وهو سهو من ابن قتيبة. يراجع الهامش 41.

(45) الزوزنى — شرح المعلقات السبع ص 163.

(46) صبنت : صرفت.

فلطمه ابوه وقال :

- يا لكع، بلى والله شر الثلاثة، اتجتريء ان تتكلم بهذا بين يدي . فلما قتل عمرو بن هند قالت له أمه :

- بأبى انت وأمى ، انت والله خير الثلاثة .

فقال عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا
وامهلنا نخبرك اليقينا
بانا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا
باي مشيئة عمرو بن هند
تطيع بنا الغواة وتزدرينا
باي مشيئة عمرو بن هند
نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وأوعدنا رويدا
متى كنا لامك مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو اعيت
على الاعداء قبلك ان تلينا

وتتصل قصة حياة افنون التغلبي، لدى الروائيين العرب، بقصة حياة ملوك كندة من بني اكل المرار وحياة بنى تغلب التي ساهمت في طرد كندة وملوكها من شمال الجزيرة . فبعد يوم الكلاب الاول، الذي قتل فيه شرحبيل عم امريء القيس، وقد ذكره امروء القيس في شعره (47) :

واعلم انني عما قليل
سأنشب في شبا ظفر ونأب
كما لاقى ابى حجر وجدي
ولا أنسى قتيلا بالكلاب

(47) القصيدة رقم (11) فى ديوانه نشر أبى الفضل ابراهيم طبع دار المعارف بمصر 1958.

قامت تغلب فطردت سلمة بن عمرو، عم امرىء القيس، وكان يلقب بالغلفاء، لما قتلت اخاه شرجيل بن عمرو، فضمته اليها قبيلة بكر بن وائل، فاجتمعت تغلب ورئيسها عمرو بن كلثوم، والنمر ورئيسها قيس بن زهير النمري وجعلوا أمرهم الى عمرو بن المنذر وهو عمرو بن هند. وفي هذا اليوم اقسم ابن هند ان هو ظفر ليذبحن من قدر عليه من البكريين على قمة جبل أوارة حتى يبلغ الدم قرار الارض. فلما ظهرت تغلب والنمر على بكر، جعل الملك ابن هند يذبح الرجال والدم يتجمد في موضعه. فتقدم ربيعة بن حبيب التغلبي فقال :

ـ انا ابر يمين الملك .

قال :

ـ بماذا ..

قال :

ـ اذا قتلت رجلا فصب على دمه روايا الماء، فانه يبلغ قرار الارض . فسمي ربيعة يومئذ الوصاف .

فقال افنون التغلبي في ذلك اليوم (48) :

هزمنا جمع حارثة بن بدر
مع الغلفاء في العصب العجال
رميناهم بأرعن مشمخر
تهد لصوته صم الجبال
فظلوا بين مغتبط قتيل
وكابى الجد يرسف في الغلال
وللغلفاء سلمة بعد هد
نوائح يلتدمن بسوء حال
ونال السيف حارثة بن بدر
وخامت عن حميته الموالي
بهضب من أوارة والمنايا
موكلة باعناق الرجال

(48) أنظر خبر يوم أوارة والابيات فى مخطوطة الانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطى الورقة 64 وما بعدها. وخبر هذا اليوم مذكور فى النقائض برواية مختلفة بعض الشىء.

ويذكر الشمشاطي في الانوار ومحاسن الاشعار انه ترك اشعار افنون في يوم اوارة لطولها.

وهذا يوم ثالث من «ايام العرب» يبرز فيه افنون التغلبي قائدا يهزم العامريين. وهو يوم حاجر ، فقد جاء في الانوار ومحاسن الاشعار (49) انه خرج صريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن بكر بن مالك بن حبيب، وهو افنون ، في جمع من بنى تغلب، يريد بنى عامر فأغار عليهم بموضع يقال له : حاجر (50). وكان سيد هوازن ذلك اليوم طفيل (51) بن مالك، فقاتلته هوازن عن حريمها اشد قتال، ثم ولت منهزمة ، واخذت البيوت في ايديهم.

وعطف عبيدة بن مالك بن جعفر على بنى تغلب في حماة اصحابه، فقاتلوهم حتى ازالوهم عن البيوت. وحمل افنون على عبيدة فطعنه فقتله. وولوا وأسر ابو اسماء حبيب بن الضربية، وهو فارس بنى نصر وشاعرهم، واسر ابنا مسافر وعبد الله بن نصر، وهرب طفيل بن مالك ركضا، واصابت تغلب النساء والنعم.

وقال افنون في ذلك :

سمونا الى عليا هوازن بالقنا
وجرد كأمثال القداح ضوامر
تئن انين الحاملات وتشتكي
عجاناتها من طول نكب الدوائر
فما زال هذا الدأب حتى صبحتها
على ما بها من جهدها اهل حاجر

---

(49) الشمشاطي ورقة 69. ويوجد يوم آخر بهذا الاسم رواه ابو عبيدة، يراجع العقد الفريد 311/5 ونهاية الارب 396/15 ويوم ثالث بالاسم نفسه قتل فيه حصن بن حذيفة، قتله كرز العقيلي فرثاه الحطيئة فقال من قصيدة :

فقبر باجبال وقبر بحاجر وقبر القريب اسعر القوم ساعره

(50) قال أبو عبيدة : هو موضع فى ديار بنى تميم. معجم ما استعجم 416/2 وينظر الهامش السابق.

(51) هو (طفيل الخيل) والد عامر بن الطفيل، وأخو معاوية بن مالك (معوذ الحكماء) وعامر أبى براء (ملاعب الاسنة) وربيع بن مالك (ربيع المقترين) وهو ربيعة أيضا والد لبيد بن ربيعة الشاعر المعروف، وسلمى بن مالك (نزال المضيق).

فغودر في وقع العجاجة منهم
عبيدة يدعو شاعرا يا لعامر

صريع قنا في عصبة عامرية
صريحية الانساب غير عواور

وقدنا ابا أسماء قائد قومه
وقد وطئته خيلنا بالحوافر

وحور كأمثال القنا عامرية
عذاري اختلينا بالرماح الخواطر

ونحن متى ما نرم قوما ببغضة
شجى ناشب بين اللها فالحناجر

وقال ابن داود الرواسي :

ان الفوارس من حبيب جدعت
أهل الحفائظ والفعال الزائن

أودى صريم بالذين هم هم
بعبيدة الوهاب حي هوازن

صبروا لكل مهند ذي رونق
صافي الحديد وكل أسمر مارن

حتى تكشفت العجاجة عنهم
صرعى بابطح حاجر المتباطن

وابن الضريبة في فوارس قومه
طوع الجنيبة كالقريع الساخن

ويظل شعر افنون التغلبي مدفونا في بطون الكتب والمخطوطات حتى تظهر النسخة المفقودة من كتاب اشعار تغلب لابي عمرو الشيبانى (52) ويظهر كتاب الايام لابى عبيدة، وعندئذ تتوفر لدينا نخبة طيبة من الاخبار والاشعار عن هذا الفارس الشاعر، والله تعالى هو الموفق الى صواب الرأي والعمل.

(52) البغدادى 455/2 ومابعدها.

المصـادر والمـراجـع

1 ـ الاشتقاق ـ ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن ـ ت : عبد السلام محمد هارون ـ مصر 1958.

2 ـ الاغانى ـ أبو الفرج الاصفهانى ـ طبعة دار الكتب المصرية.

3 ـ الامالي ـ ابن الشجري أبو السعادات هبة الله ـ حيدر أباد الدكن1348.

4 ـ الانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطى على بن محمد ـ مخطوطة مصورة عن نسخة طوبقبو. وقد نشرت مؤخرا في بغداد والكويت.

5 ـ البيان والتبيين ـ عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت : عبد السلام هارون مصـر 1948.

6 ـ جمهرة أشعار العرب ـ أبو زيد محمد بن أبـى الخطـاب القرشـى. ت : البجـاوي ـ القـاهرة.

7 ـ الحيوان ـ عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت : عبد السـلام هـارون ـ بيروت 1969.

8 ـ الحماسة ـ أبو عبادة البحتري ـ ت : كمال مصطفى. طبعة أولى. الرحمانية ـ مصر 1929.

9 ـ خزانة الادب ـ عبد القادر بن عمر ـ طبعة بولاق 1299.

10 ـ ديوان امرىء القيس ـ ت : أبى الفضل ابراهيم ـ طبع دار المعارف مبصـر 1958.

11 ـ ديوان عمرو بن كلثوم ـ نشر فريتس كرنكو ـ بيروت 1922.

12 ـ ديوان عنترة ضمن مجموعة الشعراء الستة الجاهليين. رواية الاعلم.

13 ـ رغبة الامل ـ للسيد بن على المرصفى ـ حاشية الكامل ـ م. النهضة مصر 1928.

14 ـ سمط اللالى ـ البكري أبو عبيد الله. لجنة التأليف. مصـر 1936.

15 ـ شرح المفضليات. القاسم بن بشار الانباري ـ ت : ليال. بيروت 1920.

16 ـ شرح القصائد التسع الطوال ـ النحاس أبو جعفر ـ ت : أحمـد خطاب العمر ـ بغداد 1974.

17 ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة. ت : أحمد محمد شاكر. المعارف 1966.
18 ـ شعراء النصرانية ـ لويس شيخو اليسوعى ـ ط. أولى بيروت 1890
19 ـ الشعر والمجتمع ـ مجموعة بحوث مهرجان المربد. وزارة الاعلام العراقية 1974.
20 ـ العصر الجاهلى ـ الدكتور شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ مصر طبعة رابعة.
21 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ ت : أحمد أمين وجماعته ـ لجنة التأليف ـ مصر .
22 ـ الكامل في اللغة والادب ـ المبرد ـ مطبعة النهضة ـ مصر 1928.
23 ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير ـ بيروت طبعة أولى.
24 ـ المؤتلف والمختلف. الحسن بن بشر الامدي ـ ت : عبد الستار أحمد فراج ـ البابى الحلبى ـ مصر 1961.
25 ـ المزهر ـ للسيوطى ـ ت : محمد أحمد جاد المولى وجماعته. طبعة البابى الحلبى. مصر 1958.
26 ـ مجلة كلية الاداب بغداد ـ العدد التاسع عشر.
27 ـ المحبر ـ محمد بن حبيب ـ طبعة حيدر أباد 1942.
28 ـ معجم ما استعجم ـ البكري. ت : مصطفى السقا. لجنة التأليف 1954.
29 ـ معجم الادباء ـ ياقوت ـ طهران 1965.
30 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . د. جواد على ـ طبعة أولى بيروت.
31 ـ المفضليات ـ ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف 1964.
32 ـ النقائض ـ المنسوب لابى عبيدة ـ نشرة (أوربا) ونشرة (الصاوي)
33 ـ نهاية الإرب في فنون الادب. أحمد بن عبد الوهاب النويري طبعة دار الكتب.
34 ـ كتاب الاختيارين. ت : فخر الدين قباوة. طبع دمشق.

الربيع بن ضبيع الفزارى

شاعر الحكمة والتجربة الطويلة

هو أبو سالم الربيع بن ضبيع بن وهب الفزاوي الذبياني (1). واختلف في ضبط أسمه، فأورده بعضهم محلى بالالف واللام (2)، بينما ورد في مصادر أخرى مجردا منهما : ربيع «على وزن أمير»، في حين ذكرته مجموعة ثالثة من المصادر مصغرا مع اسم والده، فقيل : ربيع بن ضبيع (3)، كأن خفة النطق والنسق وتجانس اللفظتين وزنتهما كان لها نصيب في هذا التوجه الاخير. وقد رجحنا ما كان أئمة اللغة والادب قد رجحوه، كما أشارت الى ذلك مصادرنا المتقدمة ، وثبتناه هنا. فهو باتفاق المصادر : الربيع بن ضبيع بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي. بن فزارة ، وزاد صاحب التيجان : بغيض من ذبيان . وهذا نسب متفق عليه في كتب جمهرة الانساب وغيرها (4).

والربيع – فضلا عن كونه شاعرا – خطيب حكيم ، عاش قبل الاسلام طويلا حتى عد في المعمرين . وليس في كتب الادب والشعر والثقافة العربية

---

(1) التيجان ص 118 والاصابة ص 526 ويزيد الاخباريون فى نسبة، على عادتهم متجاوزين جده (وهب) فى سلسلة طويلة : وهب بن بغيض بن مالك بن عدى بن فزارة ابن ذبيان .

(2) أمالى المرتضى ص 254 وأورد المحقق فى الهامش ما نصه : «ضبع بالتنوين، وفى حاشية الاصل فى نسخة مقوءة من كتاب سيبويه – وقد قرىء على أبى على الفارسى رحمه الله – وفى أخرى مقروءة على ابن أخته أبى الحسين : «الربيع بن ضبيع منونا بآخره» وقد وضعه صاحب الاصابة 526 ضمن من اسمه (الربيع) محلى بالالف واللام، وسلكه مع الصحابة ثم عاد فأبدى تحفظه فى ذلك.

(3) ينظر «المعمرون والوصايا ص 8» فى الهامش رقم (3).

(4) المصدر السابق. والتيجان ص 118 والاصابة ص 526 والمصدران الاخيران تفردا بايراد (ضبع) .

ترجمة وافية لهذا الشاعر ولا شعـره، شأنه في ذلك شأن مئات الشعـراء من متقدمي الجاهلية، ممن فقـدت سيرتهم الذاتية أو دواوينهم أو مجموعاتهم الشعريـة.

لكننا استطعنا أن نلقى بعض الضوء على جوانب من مجاهيل حياته، استقيناها من عـدة روافد، بعضها كان السبب الرئيس فيها شخصيـة الربيـع نفسه، فقد كانت متعددة الجوانب على أن الدوافع لسيـرورة جانب ولو ضئيلٍ من أخبـاره كثيـرة ، أبـرزها :

أ ـ كان الربيع بن ضبيع كثير التطرق لاخبار الماضين في شعـره، مما لفت انتبـاه رواة الاخبار والمؤرخين اليه، فقـد تعرض لشـيء مـن سيرته صاحب كتاب : «التيجان في ملوك حمير» فأورد عنه خبرا مطـولا، لانه لمس في شعـره اشـارة واضحـة لملوك حمير، مثل ذي القرنين في قوله:

ألا أين ذو القرنين أيـن جموعـه ... لقـد كثـرت أسبابه ثم قلـت

ومثل التبـع ولقمـان وسليمـان حيث يقول :

سيدركنـي ما أدرك المـرء تبعـا ... ويغتالني ما أغتـال أنسـر لقمان
أجـار مجيـر النمل من عـز ملكـه ... وأنزل سيف البأس من رأس غمدان

ومثل هـود والصعب وغيرهمـا :

أيـن بنـو هـود النبـي ومـن ... شمـر عن راحتيـه وابتكـرا
والصعب لما عتـت أرومتـه ... وخـان ريـب المنـون فـاذكـرا

هذا غير ذكره لامرئ القيس وحجر أبيه والملوك والرؤساء العـرب، فكان استشهاد المؤرخين بشعره يعد من قبيل توثيق الخبر بالشعر، ومن ثم اضطرهم ذلك الى التعرض بشيء من الايضاح لسيرته الذاتية .

ب ـ والسبب الثانى وراء استعادة المؤرخين لشيء من اخبار الربيع، كونه أحد المعمرين المعدودين في الجاهلية، فكان هذا المظهـر في حياته دافعا للعـودة اليه عند حديثهم عن هذا الجانب من حياة الاعلام، فوضعه الرواة العـرب ضمن الاسماء التى تذكر في هذا المجال. ولو لـم تكن هذه المزيـة

في سيرته لاهملته المصادر أيضا، لكن اصرارهم على أنه عاش طويلا جدا هو في نظر المعتدلين مائة عام، وفي نظر المبالغين يربو على الثلاث مائة عام، جعله يذكر ولو بشيء يسير من الخبر في كتاب المعمرين والوصايا، كما ورد في أمالى المرتضى في الفصل الخاص منه بالمعمرين. ونقل أبو عبيد البكري في السمط عن أبى حاتم انه عاش ثلاثمائة وأربعين سنة ولم يسلم.

ج ـ وتدخل مزية ثالثة في حياة الربيع لتكون سببا في عودة العلماء الى سيرته، فلم تنطمس تماما مع مئات السير المطموسة من رجال العصر الجاهلى ، وهى احتواء شعره على الفاظ وعبارات وصيغ عربية باتت مع تقدم العصور ومضيها، ذات استخدام خاص جعل ائمة اللغة والنحو ورجال الادب والثقافة يستشهدون بنتف من ابياته ومقطوعات من اشعاره تثبيتا لمذهبهم او تاكيدا لقواعدهم او تأييدا لما في قواميسهم ومعاجمهم، وعلى سبيل المثال نقول ان سيبويه ذكره في كتابه مرتين (5)، وان كان في الموضع الثانى قد وهم حين نسب البيت المستشهد به من شعر الربيع الى يزيد بن ضبة فنقله ابن المستوفى عنه كما سيتضح لنا في القطعة رقم (1) من شعره. وممن ذكره في شواهده ايضا، الرضى في الكافية، وابو زيد في النوادر (5)، والزجاجى في الجمل، وتابعه ابن السيد في شرح الجمل، كما ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب (7). هذا بالاضافة الى ورود ذكره في الصحاح للجوهري واللسان لابن منظور (8). ولا يخفى علينا ان هذه الكتب تعد اصولا في اللغة والنحو، غير ما يرد في الذيول والتكملات والشروح، لكنه ذكر لا يتعدى التعريف الذي لا يبل ظمأ طالب المعرفة الى المزيد، لتتضح اجزاء الصورة لديه.

د ـ لقد كانت شخصية الربيع في قضايا القوم والامة فذة كبيرة، فكان له أكثر من باع في اكثر من قضية عصرية ملتهبة يومذاك. وهذا ما دفع برجال الادب والثقافة والمؤرخين العرب ان يتناولوا جانبا من سيرته الذاتية . فنلاحظ كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى (9) مثلا.

---

(5) الكتاب لسيبويه 106/1، 293 (طبع بولاق) (1316 ـ 1317 هـ).
(6) النوادر لابى زيد ص 158. المطبعة الكاثوليكية بيروت 1894.
(7) أدب الكاتب ـ ابن قتيبة. 232.
(8) تراجع مصادر تحقيق شعر الربيع بن ضبيع بعد هذه الدراسة.
(9) الاغانى لابى الفرج 118/21.

عندما يبسط سيرة امرىء القيس ورحلته الى ملوك الغساسنة قاصدا القيصر، يشير الى ان الربيع بن ضبيع هو الذي رافق الشاعر الثائر الى الغساسنة وكان واسطته اليهم لمعرفته اياهم واتصاله بهم ومكانته لديهم ومديحه أياهم كما افادتنا القطعة رقم (8) من شعره، يمدح بها السموأل الشاعر، صلة الوصل بين الربيع وملوك الغساسنة. وكذلك تعود اخبار الربيع الى الظهور مرة أخرى عند الحديث عن اكبر حدث تاريخي في زمانه يخص قومه وأمته العربية، الا وهو يوم «داحس والغبراء» (10) وشعره فيها معروف، وموقفه منها واضح، فقد ذكر ايامها في قصائده، مثل قوله في يوم الهباءة، اخطر ايام هذه الحرب :

تجاوت في يوم الهباة هنيدة والفيت عودا حين ما حين حلت

أي جاوزت المائة في هذه الحرب وأصبحت كالعود أي الجمل المسن. وقال ينصح حمل بن بدر الفزاري ويمنعه عن التمادي في الضلال والقتل والحرب لان خصمه قيس بن زهير العبسى لا يزال سادرا في هذا الضلال مثله :

ياحمل هل تعلم مالا أعلمه سديت غزلا لا تطيق تلحمه
والظلم للظالم حتما يلجمه الا ترى قيسا تأطت اسهمه
يقتل ذا الظلم ومن لا يظلمه

وقال أيضا، ينصح غطفان كلها بما فيهما عبس وذبيان ، ايام حرب داحس، أن يكفوا لانهم ابناء عم (11).

أخاك أخاك ان من لا أخا له كساع الى الهيجاء بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح

والربيع من الشخصيات المهمة التى ساهمت في عكاظ لايقاف هذه الحرب وله خطب مشهورة فيها سنعود اليها بعد قليل.

هـ ـ ويزخر شعر الربيع ـ مع قلته ـ بفقرات من الحكمة البالغة والموعظة الحسنة. وحكمته تأخذ عدة اتجاهات ، اهمها تذكيره الناس بفاجعة المصير الانسانى ، واتخاذ العظة في الذاهبين الاولين، ومن ثم ردعه

(10) تراجع دراستنا حولها فى كتابنا الشعر فى حرب داحس والغبراء ـ طبع الاديب بالنجف 1972.
(11) تراجع أشعار الربيع بن ضبيع فى موضعها من التحقيق.

للظلم والبغي مانحا الانسانية بعدا حضوريا من انسانيتها وتعاطفها في هذه الحياة الزائلة مهما طال المقام فيها. وهذا الاتجاه في شعر الربيع مثله في نثره الذي بناء على خطب تدعو الى الرفق والصفح والاعتراف بالخطأ والعودة الى العقل وتحكيم الضمير. ان هذا الموضوع الحيوي الخالد في شعر الربيع ونثره منحهما خلودا وزادهما قوة وسيرورة، مما ترتب عليه ان يعود الناس الى سيرة الربيع في اكثر من موضع وموقع.

و ـ ولعل السبب الاخير في عدم ضياع هذه الصبابة من شعر الربيع ونثره وبقاء اسمه وعدم اختفاء سيرته نهائيا، انه كان علما في الرجال ومعلمة تاريخية من معالم هذه الامة، فكانت اخباره في كتب الامالى والادب تتردد احيانا برغم ضياع السيرة الرئيسة له ولشعره. وبلغ من حب المتتبعين لاخباره في التراث برغم معلوماتهم الشحيحة حوله، انهم امدوا في عمره حتى جاوزوا الجاهلية الى الاسلام فجعلوه مخضرما، وادرجوه في سلسلة الصحابة والتابعين فوضعه ابن حجر ضمن رجاله الذين ادركوا الاسلام وان عاد وشكك في ذلك، وكذلك فعل الشريف المرتضى في اماليه عندما ناقش قصة دخول الربيع بن ضبيع على معاوية بن ابى سفيان وعبد الملك بن مروان. قال الشريف المرتضى : ومن المعمرين الربيع بن ضبيع الفزاري ويقال انه بقى الى أيام بنى أمية. وروي انه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له : ياربيع اخبرنى عما ادركت من العمر والمدى ورأيت من الخطوب الماضية. قال : أنا الذي اقول :

هـا آنـذا آمـل الخلـود وقـد ادرك عقلى ومولدي حجـرا

فقال عبد الملك : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبى. قال : وأنا القائل :

اذا عـاش الفتـى مائتيـن عاما فقد ذهـب اللذاذة والفتـاء

قال عبد الملك : «قد رويت هذا من شعرك وأنا غلام. وأبيك ياربيع، لقد طلبك جد غير عاثر، ففصل لى عمرك» قال : «عشت مائتى سنة في فترة عيسى عليه السلام، وعشرين ومائة في الجاهلية، وستين سنة في الاسلام . قال : أخبرنى عن فتية من قريش متواطىء الاسماء. قال : سل عن أيهم شئت . قال : أخبرنى عن عبد الله بن العباس. قال : فهم وعلم، وعطاء جذم، ومقرى ضخم . قال : فاخبرنى عن عبد الله

بـن عمـر قال حلـم وعلم وطول كظم وبعد من الظلم. قال فأخبرني عن عبد الله بن جعفـر. قال : ريحانـة طيب ريحها، ليـن مسها، قليل على المسلمين ضرها. قـال : فاخبرنـي عن عبد اللـه بن الزبيـر.

قال : جبل وعـر، ينحدر منه الصخر . قـال : للـه درك يارربيـع ما اعرفـك بهم ! .. قـال : قرب جواري ، وكثـر استخباري.

وقد ناقش الشريف المرتضى في اماليه هذا الخبر قائلا : ان كان هذا الخبـر صحيحا فيشبه ان يكون سؤال عبد الملك لـه انمـا كان في ايـام معاوية ، لا في ايـام ولايته، لان الربيـع يقول في الخبـر : «عشـت في الاسلام ستين سنـة» وعبد الملك ولـي في سنة 65 من الهجرة، فان كـان صحيحا فلا بد مما ذكرنـاه، فقد روي ان الربيـع ادرك أيـام معاويـة. ويقـال انه بلغ مائتـي عـام فقال :

اذا بلـغ الفتـى مئتيـن عـامـا فقـد ذهـب اللـذاذة والفتـاء

انتهـى كلام الشريـف المرتضـى .

لتلك الاسباب المتقدمـة ظلت سيرة الربيع تذكر بايجاز مخل، لكنـه لو قيس بسـواه ممن يحمل نفس مميزاته لوجدناه أوفـر حظا وأعلى قدحا، لاسيما اذا نظرنـا الى هذه السيـرة والاخبار والاشعار بعين التمحيـص والتدقيـق والتوثيـق ، فقد جاءت صحيحة سليمـة لانها تستمـد قوتها واصالتهـا من صدق المنابع التي صدرت عنها، ومن صحة الرواية التـي خرجت عنها. فلو شئنا أن نلقـي نظرة على العلمـاء الرواة الذين مـرت بهم هذه الاشعار وخرج تمن بين اصابعهم، لوجدناهم في غايـة السمـو والرفعة في سلامة لغتهم وصـدق روايتهم مثل أبي الاسود النوشجانـي والعمري وابي عمـرو الشيبانى والقاسم بن معن ووهب بن عنبـة. أمـا المؤلفون من العلمـاء فخير مثال لهم ابـو حاتم السجستانى والشريـف المرتضى وأبو الفرج الاصفهانى وابو محمد عبد الملك بن هشام . وقـد سبـق ان رأينـا خيرة النحاة يتمثلون بشعره يتخذونه شواهد لمذاهبهم كما فعل سيبويه والزجاجى . ان استشهادهم ببعض شعر الربيع انمـا هى تزكيـة لما يروى له من اشعار رغم شحتها، وتثبيت لشخصيتـه بابعادها التاريخية رغم غرابتها. ومثلهم فعل المعجميون كالجوهري وابـن منظـور ، وكذلك المعنيون بالتـراث والادب من المتأخريـن كالبغـدادي في الخزانـة والالوسى في بلـوغ الادب.

هذه لمحة سريعة للقنوات الجيدة التى مر بها شعر الربيع بن ضبيع الفزاري ولا ننسى ان ابن قتيبة الدينوري كان ممن اطلع على شعره، وكذلك ابو علي الفارسى والرضى والبطليوسى صاحب الاقتضاب وابو علي القالي في الامالي والنوادر وغيرهم. واذا اتجهنا بنظرتنا الفنية والذوقية نحو طبيعة الشعر لوجدناه مما يدخل ضمن لغة ذلك العصر واجوائه ومعطياته فليس لعالم بلغة العرب، عارف بكلام الجاهلية مميز له عن كلام اهل الاسلام، الا ان يحكم بأن هذا الشعر يمثل العصر الذي وجد فيه الربيع.

ولو عمدنا الى مزيد من التعرف على سلاسل الرواية والرواة في الكتب التى اوردت شعر الربيع ، لوجدناها رويت عن ثقات. مثل ابن هشام عن ابى مخنف عن كميل بن زياد النخعى، وهى رواية لكتاب وهب بن منبه. اما كتاب .. «المعمرون والوصايا» لابى حاتم السجستاني فهو عن أبى الاسود التوشجانى عن العمري عن ابى عمرو الشيبانى قال : سألنى القاسم بن معن ، ثم اورد خبر الربيع. وأما كتاب الاصابة لابن حجر العسقلانى ، فهو ينقل مباشرة عن ابن هشام وابى حاتم السجستانى، ولم يذكر الشريف المرتضى في أماليه الجهة التى نقل عنها خبر الربيع، ولا اسم الراوية العالم الذي استقى عنه شعره، لكن الشريف المرتضى رجل موثق الرواية مصحح الخبر.

شعره :

حكم ابو محمد عبد الملك بن هشام (12) للربيع بن ضبيع الفزاري في كتاب «التيجان» بأنه اشعر شعراء عصره . ويبدو انه لم يبعد كثيرا في حكمه، لان الروايات تفيد بأن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان يتمثل بشعره في مواقفه المعهودة، والخليفة عمر معروف بنقده للشعر وانتقائه لما يحفظ ويتمثل وينشد. ومما زاد في ذلك ان الخليفة علي بن أبى طالب (رض) سمع مرة انشاد عمر بن الخطاب لشعر الربيع بن ضبيع فاهتزت له اعطافه واجازه متمما الابيات ببيت أو أكثر من وزنها وقافيتها ومعناها . والامام علي كرم الله وجهه، هو من هو في الشعر

(12) ص 118.

والفصاحة والبلاغة ليس بحاجة الى فضل بيان وزيادة تعريف : تقول الرواية : انه لما خرج عمر بن الخطاب الى الشام في خلافته، سار بعلي بن أبى طالب فغادرا المدينة حتى بلغا الشام، ثم جعل الموكب يعبر وادي الاردنين، قال عمر : قاتل الله الربيع بن ضبيع حيث يقول :

وكم غمرة ماجت بأمواج غمرة ... تجرعتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة ... فلما رأت عزمي على الامر ذلت
هي النفس مامنيتها طال شوقها ... والا فنفس اويست فتسلت

فزاد علي بن أبي طالب عليها بيتا فقال :

وما جزت وادي الاردنين تطربا ... ولكن امورا وكلت بي فحلت

فالشاعر مشهود له عند اعلم الناس بالشعر والرواية مثل ابن هشام، ومروي له عند من لا يرقى الشك الى ذوقهم وانشادهم كعمر وعلي رضي الله عنهما .

وشعر الربيع أعف شعر وأصدقه، لانه ينطلق من عاطفة يتحكم فيها العقل والسن والتجارب فجاء حافلا بالتأمل وبعد النظرة، فعده الاوائل من حكماء العرب في الجاهلية وعقلائهم. وحكمته الشعرية منطلقة من تجاربه الشخصية وامتداد حياته وسلامة فطرته ولم يستمدها من تأمل فلسفي مدروس أو كتاب من وضع حكيم أو فيلسوف وهذا شأن شعراء عصره حتى جاء الاسلام فآل الناس الى كتاب الله واصبحت تأملاتهم مستمدة منه ومن سنة رسول الله (ص) واحاديثه واثره وأقوال صحابته، فكانت هذه الظاهرة أول وسيلة للمعلومات المنسقة المبنية على تأمل عقلي مسبق . فاذا أراد الربيع ان يعظ الناس ليكفوا عن اندفاعهم وراء اطماعهم ولذائذهم الحسية، لم يتجاوز منطق حكماء عصره أمثال اكثم بن صيفي وقس ابن مساعدة الايادي وذي الاصبع العدواني والاضبط بن قريع ومعد يكرب الحميري وغيرهم. ممن يعيدون الى ذاكرة الناس سيرة الجبابرة الملوك الذين كانوا ممتنعين بقوتهم وممالكهم، والفاتحين الذين بسطوا اكفهم على وجه المعمورة، فلم ينفع الجبار بطشه ولا الملك منعته ولا الفاتح سطوته، ومضى الجميع كأن لم يكونوا وعادت الحياة ثانية الى مجراها هادئة بسيطة، ينعم بها الناس على

مختلف اصنافهم، كأن يـدا خفيـة انتزعت عنهم ما كان قـد أفسد عليهـم عيشهم. وتـدور هذه المعانى في شعرهم وسجعهم، لكن في تنوع بالاسلوب وتعـدد في التنـاول ، بحسب نظرتهـم أو نظـرة الحكيم نفسه الى الوضع الذي يناسبـه عند التعبير والارشـاد.

ان اكثر مواعظ الربيع وحكمته، في شعره تقريرية في نظر النقد الحديث مثل قوله : اذا عاش الفتى مئتين عاما فقد ذهب اللذاذة والفتاء وهذا في نظر الدراسات النقديـة مما لا يستوجب التأمل العميـق وانما هى بديهيـة ، وأكثـر شعـره من هذا القبيل، لكننا لا نقيس ذلك العصر على ما يقيسون به اليوم، فهي بسيطة اذا قيست الى أفكار هذا العصر، لكنها في زمانهـا جديدة أصيلة، لانها تمثـل مرحلـة متطـورة بالنسبة الى مراحل الشعر السابقـة عليهـا، عندما كان الشعـر يـدور في اجـواء بعيـدة عن هـذا الواقـع الجديد، غارقـا في افكـاره الغيبيـة البدائية الساذجـة، لا يتعدى عالم الاساطير والملاحم، ثم جـاء بعدها الشعـر الجاهلى بواقعيته الجديدة، وشعـر المعمريـن وحكمتهم من ضمنه ولو شئنـا ان ننثـر كـل افكـار الربيـع في حكمته لما جـاوزت هذه المعانى أو الصيغ البديهية البسيطة : ان امتداد العمـر يسلب المـرء أحاسيس اللذة والشبـاب، وان السنين العديدة التى تمشـت فوق جسـدي تركتـه متهدمـا فانيـا، وعافتنـى وقـد سئمت من نفسى ومن بقية حياتى، فغدوت مسلوب الارادة والقـوة لا أحمل السـلاح ولا أميـز الاشياء، وأخشى الظـلام والمطـر والذئب ولا أملـك رأس البعير اذا نفـر وأفلت من يدي، وان الانسان ينبغى أن يتعظ من تجاربه وتجارب الآخريـن، وان هزائم الاقويـاء أمام الدهـر وطرقـات الزمن على أبوابهم مؤشـر كبير لضعف الانسان اذا بغـى وظلم وتجبـر، وان سرقوة الانسان في عدله وتراحمه وتوادده وتواصله، وان الملوك والسوقة والموسرين والمقترين يؤولون الى مصير مشترك واحـد.

لكن حكمة هذا الشعر خرجت بعد قـرون قليلـة عن هذا الاطار التقليدي الى رؤيـة شعرية معمقـة، وجدت في أبى تمـام وابى الطيـب المتنبى ومن نهج نهجهما، خير راع لهذا الاتجـاه. وقد سبق أن استشهدنا بالابيات التى رواها الخليفـة عمـر واجازها الامـام علي، فهى مثال طيب لشعـر الحكمـة الناضج. والحقيقة أن هذه الابيات والقصيدة نفسها تمثل اتجاها سليما في شعـر الحكمة أكثر من غيرهـا في شعـر الربيع، ومثل قوله أيضا:

لابـد أن القي المنون، وان نـأت عني الخطوب ، وصرفه المحتومـا
أمـن الامور أخو الدهور فهل رأى ذا مـرة من قبلـه معصومـــا

وما سوى الهموم الذاتيـة والمواعظ والحكمة لا نلتقى في شعره بشيء يذكر، لان غرض الاستشهاد بشعره من قبل العلماء كان منصبا علي هـذا الجانب، فليس بين ايدينـا من مديحه شيء سوى أبيات أربعة قالهـا في مديح السموأل لا يمكن أن نبنى عليهـا حكما في اتجاهات شعر المديح لدى الربيع. كما ليس بين ايدينـا من شعـره في الهجاء الا ابياتـا ثلاثة أيضـا قالها في هجاء حمل بن بـدر احـد سادة بنـى فزارة قـوم الربيع نفسـه، وكان احد اسباب حرب داحس والغبـراء وداعية من دعاتها، فهجاه الربيع لموقفه الظالـم منها، ولكى يحقن دمـاء القوم، فالحكم على شعـر الهجاء عند الربيع من خلال ابيات قلـلـة يعد ضربا من التمحـل. أما الغـزل في شعـره فهو تقليـدي يسوقه في مقدمـات قصائده أو نثـره في حنايا شعره ليعبـر عن حالة وعظ مطلوبة لديه، كقولـه بعد أن مهـد لموضوعه عن هلاك البشـر.

لا تعجبى يـا أميم من صفتى فقبـل ما كنت أخسـف القمـرا
أصبـو بهنـد وزينـب أممـــا ونسـوة كـن قبلـهـا دررا
لما رمانى الزمـان عـن عـرض وقامرتنـى خطوبـه قمـرا
اصبـح عنـى الشبـاب قد حسرا ان ينـأ عنـى فقـد ثـوى عصرا

ان الاوشال الباقية من شعـر الربيـع لتدل على التزامه بالبنـاء الفنى للقصيـدة العربية في افتتاحياتها قبل الدخول في الغرض، كقوله :

أقفـر من اهله الجريب الى الزجيـن الا الظبـاء والبقـرا.

وهو مطلـع طللـى . ومثلـه :

طال الثواء عن الستين أميما ألقـى عذابا للسنين اليمـا.

ان هذه الاشارات الطلليـة والممهدات المعنوية للبلوغ الى غـرض القصيـدة تـدل على قصائـد طوال مفقـودة من شعـر الربيـع.

نثـــره :

وكما امتلك الربيـع بن ضبيـع الفزاري ناصية الشعـر، فقد تمتع بملكـة ادبيـة أخرى، الا وهى موهبته الفـذة في الخطابـة والقـــدرة الكبيرة على التعبير بالنثـر الفنـى. قـال ابـن هشـام : كان الربيـع أحكـم العرب في زمانـه واشعرهم وأخطبهم وشهـد يوم الهباءة وهـو ابـن مائة عام، وكان أنجـد فـارس في حـرب داحس والغبـراء» وتتجلى الحكمـة في نثـره بنفـس القـوة التى تجلت بها في شعـره، وقد حفلت بمعانى الدعوة الى الخير والمحبـة وتحكيم العقل والضمير في جميـع الامور. كمـا وردت في نثره اشارات قوية الى تزيين الصلح ونبـذ الخلاف، كمـا اشار الى رغبـه صادقة في نشـر العلم والمعرفة، واغاثة الملهوف واجابـة السائل والتأكيد على معانى السلم والحرية بمفهومها القديم، ومقاومـة السفـه والظلم والتصدي للمعتدي ودحـر كيـده وايقافه عند حـده.. وهكذا. وتدور أكثر معانيه في تلك الخطب التى دارت فيها خطب العصر الجاهلـى، وما كان يقوله قس بن ساعـدة وأكثم بن صيفى وسواهما. وتنفيد اخباره أنه كان يقف في سـوق عكاظ خطيبا ناصحا داعية متكلما عن عشيرتـــه وعن العرب في كثير من أمورهم الخطيرة. فمن امثلة خطبه يوم همت عبس الى صلح ذبيـان ساعيا في السلم بينهما رجـال عظماء مثل عـوف بـن حارثـة، نيابـة عن بنـى مـرة بن سعـد بن نصـر بن ذبيـان، وحصن ابن حذيفـة، نيابـة عن بنى فـزارة، وقام هـرم بن سنان المري، نيابة عن بنى عبـس. فأتى بنـو عبس بديـات بنى ذبيـان ، وأتى بنـــو ذبيـان بديات بنى عبس، ووقع على حصين بن ضمضم المري عشـــرة أبكـار، وكان بخيلا أكـولا فأدركه البخل فأراد نقـض الصلح حتى لايدفع ماعليه من الغرامـة فقال : «يا بنى عبس لا نصالحكم الا الصلح المخزيـة جـدع الانـوف والاذنين» وكان ذلك في سـوق عكاظ، فوقف الربيـع بن ضبيع وقال.. «.. الحريم (14)، ولج الغريـم، وطال الشـرر، وغـدر الدهـر» فدارت معارك ادبية وكلامية دخل فيهـا الحصين بن ضمضـم وعنتـرة وعـروة بن الـورد العبسـى فأوردوا شعـرا حاميـا، فلم يقـف الربيـع الى جانب الحصين برغم انه من عشيرته، وانما قال له : «ياحصين

(13) المصدر السابق (التيجان لوهب بن منبه – رواية أبى محمد عبد الملك بن هيثم.
(14) كذا وردت فى التيجان ، وقبلها كلمة ساقطة.

لقد تعرضت للسب» يريد انه بسوء تصرفه جعل من نفسه غرضا وعرضة للتشهير . فلما رأي العبسيون والذبيانيون حكمة الربيع ورجاحة عقله، جعلوا أمرهم الى حكمه، فاسترسل يخطب في عكاظ بين الحيين المتقاتلين عبس وذبيان فقال :

«أيها الناس أصاب الاياس ، وأخطأ القياس، وبين الحق والباطل التباس. أيها الناس، من عبر غبر، وكل عثار جبار، وكل فائت مطول، الخير والشر على اللسان، والنجاة في البيان. يابني ذبيان داروا الحروب فانها تذل. يابني ذبيان طلب الثار ضالة الاشرار ومزالق الاعمار وهلاك الاخيار. اخوكم عبس، عدوكم أمس، فطلاب أمس الذاهب هلاك غد المقبل. هلا سألتم عن الاحقاد طسم وجديس وعاد وثمود. اعلموا ان كل ذاكر ناس، وكل مقيم ظاعن وكل ثابت زائل. وبين الاموات موت الاحياء، والسرعة الى الاجل ذهاب العاجل، والذل غنيمة الظالم» وانشد من شعره في هذا الموقف :

على حرج يا عبس اضحى اخوكم وبت على أمر بغير جناح

وهى في شعره :

والربيع بن ضبيع هو القائل في يوم شبيم وأمر شبيم وهو شخص قتلته فزارة بعد الصلح مع عبس، وقال فيه زهير بن سلمى معلقته. قال الربيع «ظلمتم يا بنى فزارة، والظلم عاقبته وخيمة، فداروا الظلم بالرفق ، أو فأنتم شاه الذئب، وغرض الرامى».

ثم قال : «يا بنى اجمعوا لى بنى ذبيان» فلما حضروا قال : «يا بنى فزارة بن ذبيان : من أعزكم ؟! قالوا أنت يا أبا سالم.. قال : ان لكم ان تدوسوا اعزكم عليكم بارجلكم، فذلك ارفع لقدره عندكم. يا بنى ذبيان، آمركم بأربع وأنهاكم عن اربع : آمركم بالحلم فانه يحسن المعاشرة، وبالجود فانه يزرع المودة، آمركم بحفظ بعضكم بعضا يهابكم الناس الاباعد، آمركم بالعلم فانه زين ومحبة في قلوب العالم. وانهاكم عن السفه فانه باب الندم ومنزل الذل، وأنهاكم عن البخل فانه سلم السب، وانهاكم عن التخاذل فانه آفة العز، وأنهاكم عن الجهل فانه رزية ومهلكة.

وأسالوا عما جهلتم فأن في السؤال هدى، وفي الصمت على الجهل عمى، ولا تستصغروا من لاتعرفونه، ولا تحسدوا من لا تدركونه، ولا تحمدوا غير كريم، ولا تبخلوا على شريف، ولا تفضلوا على غير محتاج فيذهب فضلكم هباء. ولا تمنعوا السائل فان منعه مقت، ولا غيبة فأنها قرض مردود، ولا سيما انها تعقب. يا بني ذبيان اجعلوا قبري علما فانى قدمت للناس خيرا، فأنه شأن وذكر حسن، وتركت للبنين فخرا، ولو قدمت شيئا أمرتكم ان تخفوه، فانه علم للسب. احفظوا قولى فانه مقامى ورائى فيكم . وأنشأ يقول :

لقد عزفت نفسى عن اللهو جمة وان نهلت من لهوها ثم علت

القصيدة .

ويلاحظ في وصيته كيف يأتى بالشيء ونقيضه حين يأمر وحين ينهى، فهو بذلك يكون قد ثبت الغرض المطلوب والهدف المنشود، وهذه غاية في الامر لانه اعرض عن تكرار الوصية لكنه عاد اليها بذكر ما يناقضها، فكأنه ثبتها مرتين في وجهتين مختلفتين وهو قمة الابداع في التوجيه. ويلاحظ ايضا أنه وضع أسسا لقيم اجتماعية صارت فيما بعد شرائع وقوانين وسننا في الاسلام، وهذا هو الدور الكبير الذي قام به اولئك الرجال العظماء من معاصري الربيع بن ضبيع وسابقيه ولاحقيه، عندما صنعوا مجد الامة وأرسوا تقاليدها العربية والانسانية. وجاءت تعاليمه اشبه بوصايا انبياء الله والمبعوثين في الناس.

والملاحظة الثالثة في نثر الربيع بن ضبيع الفزاري انه كان ينقد نفسه نقدا بناء حين أوصى بأن يجعل قبره علما، فان كان الذي قدمه للناس خيرا فليكن قبره رمزا للخير وحسن الذكر، وان كان ما قدمه مما يسيء الى شخصه فليكن قبره كقبر ابى رغال، علما للسب واللعنة، تلك هى لغة الربيع في شعره ونثره ،وهذه هى بعض خطبه وأقواله ووصاياه مما بقى في يد الزمن، وأما بقية شعره فسأذكر ما وقعت عينى عليه في المصادر التى بين يدي الان، وعسى أن يسعدنا الحظ بالمزيد في مستقبل الايام.

شعـــره :

قـال الربيـع بن ضبيع الفزاري لما بلـغ من العمر مئتـى عام :

الا أبلـغ بنـى بنـى ربيـع (1) فأشرار (2) البنيـن لكـم فـداء
بأنى قد كبرت (3) ودق عظمـى فـلا تشغلكم (4) عنـى النسـاء
وان كنائنـى لنسـاء صـــدق وما آلى بنـى ومـا أسـاءوا (5)
اذا كـان (6) الشتـاء فادفئونـى فأن الشيخ يهدمـه (7) الشتـاء
فأمـا حيـن يذهـب كـل قر (8) فمـربـال خفيـــف أو رداء
اذا عاش الفتى مائتين عاما (9) فقـد أودى المسرة والفتـاء (10)

مصـادر تخريـج الشعـر :

الابيات في كتاب : المعمرون والوصايا (9 ـ 10) وأمالـى المرتضـى ص 255 والتيجان ص 118 عـدا البيت الاخير، وحماسـة البحتري ص 322 عـدا الثالث والسادس. ووردت في الخزانـة 3/306 وبلوغ الادب 3/166 بتمامها، وروى صاحب الاقتضاب ص 369 والاصابـة ص 526 الابيـات 4 ـ 5 ـ 6 والسمـط 702 البيتيـن 4 و 6 واللسـان مـادة (الا) و (فتا) البيتيـن 2 و 4 والصحاح مـادة (الـى) روى الثاني فقـط.

وقد رويت الابيات في المصادر بترتيب يختلف بعضها عن الآخر، وما ثبتنـاه هنا هى روايـة كتاب : «المعمـرون». وقد ناقش صاحب الخزانة روايـة ابن المستوفـى في كون الابيات ليزيـد بن ضبه وكون البيـــت الاخير يروي ستين عاما بدلا من مائتين عاما وسأذكر ذلك في الهامش رقم (9) في الصفحـة التاليـة .

اختـلاف الروايـات وشـرح المفردات الغريبيـة :

1 ـ ضبطت في بعض مصادر التحقيق مصغرة، وقد تعرضت لهـا في أول سطـور الدراسـة المتقدمـة عن الربيـع.

2 ـ في النـوادر والخزانـة (انـذال) بـدلا من (اشـرار).

3 ـ في النـوادر (رق) .

4 ـ التيجـان والنـوادر (يشغلكـم).

5 ـ رواية البيت في التيجان.

وان كنا نتى لانت بقسر وانى لا أسر ولا أساء

واثبتنا اتفاق الروايات الاخرى. واختلف في (الي) و (الا) وهى لدى العلماء بمعنى أبطأ وقصر. والكنائن جمع كنة : امرأة الابن أو الاخ.

6 ـ كان هنا تامة، ورويت ، في التيجان والاصابة (جاء).

7 ـ في التيجان والاصابة والسمط (يهرمه).

8 ـ التيجان : وان دفع الهواجر كل قر .. البيت. والقر : البرد. الاقتضاب : رقيق بدل خفيف.

9 ـ ذكر صاحب الخزانة ان ابن المستوفى رواها : اذا عاش الفتى ستين عاما..

ونسبها ليزيد بن ضبة ، ورد عليه صاحب الخزانة بأن هذه الرواية نفت الشاهد ونفت ضرورتها، لان البيت سيق مع مجموع الابيات بسبب كلمة (مائتين) فاذا روي البيت بلفظة (ستين) بطلت الرواية وانتفى سياق الابيات، وان اجماع الرواة ورد في المصادر على أنها للربيع بن ضبيع الفزاري. ثم تعرض البغدادي لقول شارح اللباب بأن رواية البيت هى : اذا عاش الفتى خمسين عاما. فاسقط صاحب الخزانة هذه الرواية وعدها واهية ، لان ابن الخمسين لا يبلغ من الضعف هذه الحالة التى صورها البيت والابيات التي قبله.

10 ـ في أمالى المرتضى والاصابة والاقتضاب واللسان (فتا) ويلوغ الارب وردت بهذه الرواية : (فقد ذهب اللذاذة والفتاء) لكن الاقتضاب نص على (المسرة) ايضا والنوادر 214 (المروءة) بدل [المسرة] وفي هامش الاصل (اودى) بدل (ذهب). ورويت في الاقتضاب 369 ايضا :

فقد ذهب التخيل والفتاء :

ـ 2 ـ

وقال :

لقد عزفت نفسى عن اللهو جمة وان نهلت من لهوها ثم علت (1)

رأيت قرونا ، بعد قرن ، تقدمت فلم يبق الا ذكرها حين ولت

الا أين ذو القرنين اين جموعه لقد كثرت اسبابه ثم قلت (2)

خرفت وافنتنى السنون التى خلت فقد سئمت نفسى الحياة وملت (3)
تجاوزت في يوم الهباة هنيدة والفيت عودا حين ماحين حلت (4)
فكم مشهد اوردت نفسى وطيسه اجشمها مكروهه حين كلت (5)
وكم غمرة ماجت بأمواج غمرة تجرعتها بالصبر حتى تجلت (6)
وكانت على الايام نفسى عزيزة فلما رأت عزمى على الامر ذلت
هى النفس مامنيتها طال شوقها والا فنفس أويست فتسلت (7)

مصادر التخريج :

كتاب التيجان ص 118 .

الشروح :

1 ـ عزفت : اعرضت. نهلت : شربت الشربة الاولى. علت : الشربة الثانية ثم الشرب مستمرا.

2 ـ ذو القرنين : الاسكندر . اسبابه : وسائله نحو المجد.

3 ـ خلت : مضت .

4 ـ الهباءة: هو الهباءة. يوم من أيام داحس والغبراء بين عبس وذبيان قتل فيه حذيفة بن بدر واخوه حمل، وهما سيدا بنى فزارة، قتلهم قيس بن زهير العبسى عندما استغاثا بماء يقال له جفر الهباءة. هنيدة: المائة من الابل، وأراد هنا أنه بلغ مائة عام. عودا . مسنا.

5 ـ وطيسه : اشتداده. وحمي الوطيس : أي اشتدت الحرب. اجشمها : التجشم، تكلف الصعاب والمشقة. مكروهه : أى ما اشتد من الامور والمشاهد . كلت : تعبت.

6 ـ غمرة : ما يغمرك من الماء أو الشدائد. تجرعتها : تقبلتها على مرارتها تجلت : انكشفت.

7 ـ أويست : ادركها اليأس.

ـ 3 ـ

وقال :

على درج ياعبس أضحى أخوكم وبت على أمر بغير جناح (1)
حذار حروب الاقربين وانه ليأتى افتلانا وجه كل صباح

أخاك أخاك ان من لا أخا ا ... كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح
لنا عظة في الذاهبين وعبرة ... تفيد ذوي الالباب أمر صلاح
الم تعلموا ما حاول الصعب مذ ... وما صبح الساعى وآل رزاح (2)
فهل بعد ذي القرنين ملك مخلد ... وهل بعد ذي الملكين يوم فلاح (3)
ترييش له الاطيار عند غدوه ... وتجنح ان أومى لها برواح

التخريج :

التيجان ص 118

الشروح :

1 ـ الحرج : الضيق من الامور

2 ـ الصعب : لقب المنذر بن ماء السماء ، وعرف بذلك ايضا أحد ملوك اليمن القدماء.

3 ـ أراد بذي الملكين : النبي سليمان

وقال الربيع في الحكمة ، مخاطبا الحصين بن ضمضم المري :

دار الصديق اذا استشاط تغيظاوالغيظ يخرج كامن الاحقاد
ولربما كان التعصب باحثا لمثالب الآباء والاجداد

التخريج :

التيجان ص 118

وقال ايضا :

الا أيها الياغى الذي طال طيله ... وتبلابه في الارض حتى تعودا (1)

التخريج :

اللسان مادة (بلل).

الشروح :

1 ـ طيله : عمره. تبلاله : مكثه . تعودا : صار عودا، أي مسنا.

ـ 4 ـ

وقـــال :

أقفـر من أهله الجريب الـى ال الر ... جيـن الا الظبـــاء والبقـــرا (1)
قـل للـذي راح عـن اخيه وقـــد ... أودعـه حيـن ودع الحجـــــرا
هـل أبصرت عينه لـه أثـــــرا ... أو سمعـت أذنـه لـه خـبـــرا
أيـن همـام الجديـل اذ امـــــرا ... وأيـن رب السدير اذ قـــدرا (2)
أين بنـو هـود النبـى ومـــن ... شمـر عـن راحتيـه وابتكـــرا
والصعـب لمـا عتـت ارومتـــه ... وخـان ريب الزمـان فـادكـرا (3)
لـم يدفع المـوت بالجنـــود ولا ... رد بأسبـاب علمـه القـــدرا
فـار علي الدهـر ينحتـي فرمـى ... فـوق جناحـي ومفرقـي شـررا
لا تعجبـي يـا اميـم من صفتـى ... فقبـل ما كنـت احسـف القمـرا (4)
اصبـو بهنـد وزينـب اممـــا ... ونسـوة كـن قبلهـا درا (5)
لما رمانى الزمـان عـن عـــرض ... وقامرتنـى خطوبـه قمـــرا
أصبـح منـي الشبـاب قـد حسـرا ... ان ينـأ عنـى فقد ثـوى عصرا (7)
ودعنـا قبـل ان نـودعـــــه ... لمـا قضـى من جمـاعنـا الوطـرا
اصبحت لا احمـل السـلاح ولا ... املـك رأس البعـير ان نفـــرا
والذئـب اخشـاه ان مـررت بـه ... وحدي وأخشـى الريـاح والمطـرا
من بعـد ما قـوة أسر بـهـــا ... أصبحـت شيخـا أعالـج الكـبـرا
هـا انـذا آمـل الخلـــود وقـــد ... أدرك عقلـى ومولـدي حـجـرا (8)
أبـا امرىء القيـس هل سمعـت بـه ... هيهـات هيهـات طـال ذا عمـــرا

التخريـــج :

الابيات ـ عدا الاول ـ في التيجان وسبعة ابيات في «المعمرون والوصايا» وهي : 12 ـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18 ، وثلاثة ابيات في حماسة البحتري من 322 في أمالى القالى 2/185 والخزانة 3/309 (الاول والعاشر والثانـى عشر) وبيتان في الزاهـر 1/495، 2/279 (الاخيران) وامـالـى المرتضـى ص 255 وبلـوغ الارب 3/268 واللسان (مادة ضمن) البيتـان «الرابـع عشـر والخامس عشـر» والسمط 2/187 واللسـان مـادة (درر) الاول والعاشـر. وترد الابيات بترتيب مختلف في مصادرها ، وقد ثبتت روايـة التيجان لانها جمعت كل الروايـات.

الاختـلاف والشـروح :

1 ـ السمط ، واللسان (مادة درر) (مية) بـدلا من [اهله]. والجريب

2 ـ الهمام : الملك . والجديل محبس للابل كبير كان للنعمان بـن المنـذر. والسديـر قصر معـروف للمتـاذرة.

3 ـ الصعب : هو ذو القرنيـن ، قال طرفـة بن العبـد.

اذا الصعب ذو القرنين ازجـى لـواءه الـى ملـك ساسان لقامت نوادبه

وهو الصعـب بن الحـارث الرائش الحميـري.

لكـن قسما من المفسريـن والرواة يؤكـدون انه الاسكنـدر المقدوني، والرومى كمـا يسمونه (ينظر فاروق خورشيد) «في الرواية لعربية ـ عصر التجميـع» طبع دار العـودة بيـروت ، طبعـة ثالثة 1979.

الارومـة : الاصل الثابت . وعتـت : قويت وتجبـرت.

4 ـ (مـا) هنا زائـدة.

5 ـ اللسان مـادة (درر) : كأنهـا درة منعمـة.

6 ـ قامرتنـى : لاعبتنـى فغلبتنـى.

7 ـ في حماسة البحتري وامالـى القالـى والخزانـة (مبتكـرا) بـدلا مـن «حسـرا».

8 ـ أمالى القالى (عمري) بدلا من عقلى وترد في الروايات (سنى) ايضا. وأورد محقق الامالى في هامشه اختلاف النسخ بين (سنى) و (عقلى) فتكون نسـخ الامالـى اوردت ثلاث روايـات

حماسـة البحتري : (ارتجـى) بـدلا من (آمل).

ـ 5 ـ

وقال لما مضى بامرئ القيس الى السموأل الشاعر ليوصله بملـوك الغساسنـة :

قـل للمنيـة اي حيـن نلتقـى بفنـاء بيتـك في الحضيـض المزلـق

ولقد رأيت بنـى المضاض مفاخـرا والى السموأل زرتـه بالابلـق (1)

فأتيـت أفضـل من تحمـل حاجـة ان جئتـه في غـارم أو مرهـق (2)

عرفـت لـه الاقـوام كل فضيلـة وحـوى المكـارم سابقـا لم يسبق

التخـريـــج :

الاغانى لابى الفرج 19/96 ـ 22/118 قال ابو الفرج : وهى قصيدة طويلـة.

الشـــروح :

1 ـ بنو المضاض من ملوك اليمن، ورويت اللفظة بالصاد والصواب مـا اثبتنـاه وهو يوافـق نسخ الاغانى والمختار. الابلق حصن معـروف كان فيه السموأل بن عاديـا، وللسموأل شعر في ديوانه يفخـر بـه.

2 ـ غـارم : ما يترتب على المرء من غرامة لقاء ما أحدثته يده كالدية مثلا. ومرهق : اي أمر يزهق صاحبه من فاقة أو حاجة أو سواهما.

ـ 6 ـ

وقال في يـوم الهبـاءة وقد اثخنتـه الجـراح :

رايـــت موتيـن عليـنـــا نـــــزلا موتى وموت الغر من قومى الملا (1)
بذلـت روحـا دونهـم معجـــــلا كيما الاقى الموت منهـم منهـلا (2)

التخريـج

التيجـان ص 118.

1 ـ اطلق الشاعر هنا على قومه لفظة «الملا» ولم يشتهر عن فـزارة انهـا عرفت بهذا الاسـم . وانما كان العرب يطلقون على قريش اسـم (المـلا) اللسـان مـادة ملا (والمفصـل 5/4).

2 ـ لفظـة الروح تبـدو غريبـة هنا، اذ لم تـرد في الشعر الجاهلى وانما يقولون «النفس» لكن الربيـع قال هذين البيتين في يوم «جفر الهباءة» قبل الاسـلام. (ينظر في الروح والقمر والنسمة والنسم والدم كتاب المفصل في تاريـخ العرب قبل الاسـلام للدكتور جواد علي 136/6 الفصل الخامس والستـون في الروح والنفـس والقـول بالدهـر.

ـ 7 ـ

وقـــال أيضـا :

طال الثـواء عـن السنيـن أميمـا القـى عذابـا للسنيـن اليمـــا
أنسيـت أم لـم أنـس أم عاهدتـه فوجدتـه بعـد السفـاه حليمـــا
لابـد أن ألقـى المنـون ، وان نـأت عنـى الخطـوب ، وصرفـه المحتوما
هـلا ذكـرت لـه العرنجـح حميـرا ملـك الملـوك على القليـب مقيمـا

والصعب ذو القرنيـن عمـر ملكـــه الفيـن أمسـى بعـد ذاك رميمـــا
ونبـت بـــه اسبابـــه حتـى رأى وجـه الزمـان بمـا يسـوء نسيمـا
أمـن الامـور أخو الدهور فهل رأى ذا مـرة من قبلـــه معصومـــا (1)
طـال الزمـان وطـال عنـى غيبـه مـا زال من قبلـى الزمـان قديمـا
ألـوي بشمـر والمقعقـع بعـــده وابـاد سعـدا بعـــده وتميمـا (2)
لمـا حشـون حشـا على لطيفـــة واستحسـن القيصـوم والتنوما (3)

التخـريـــج :

التيجـــان 118

1 ـ ذو مـرة : ذو قـوة وشـدة.

2 ـ شمـر والمقعقـع وسعـد وتميـم : اجـداد القبائل.

3 ـ القيصـوم والتنـوم : نبـات.

ـ 8 ـ

وقـــال :

الا يـا لقـومـى قـد تبـدد اخوانـــي
نداماي في شـرب الخمـور واخـدانى (1)
وانسـى قليـلا ثـــم اتـي سبيلهـــم
فتبلـى عظامـــي يـــال سعـد وذبيـان
وابلـى ويبقـى منطقـــى بعـد ميتتـي
وكـل امـرىء الا أحـاديثـه فـانـــي
سيدركنـي مـا أدرك المـــرء تبعـــا
ويغتالنـى مـا اغتال أنسـر لقمـان (2)
أجـــار مجيـر النمـل من عـز ملكـــه
وأنـزل سيف البأس من رأس غمدان (3)
وألـوى بـذي القرنيـن بعـــد بلوغـــه
مطالـع قـرن الشمـس بالانس والجـان
اذا بيـــن يومـيـن ، فأمسى الـذي مضى
وصـرف غـــد لابـد بالحتـم يلقانـي

ألم تر أن الدهر ياقوم طالب
وان لم أكن يوما لاوتاره جانى
سيأخذ ما أعطى وان كان محسنا
وما كان من شرخ الشبيبة أولانى

التخريج :
التيجان ص 118
الشروح :
1 ـ اخدان جمع خدن، وهو الصاحب.
2 ـ تبع : احد ملوك حمير. وانسر لقمان ثلاثة قصتهم معروفه في التراث العربى قبل الاسلام . عاش لقمان عمر نسوره، وكان اخرها اطولها عمرا.
3 ـ مجير النمل : النبي سليمان. وغمدان قصر تاريخى عربي.

ـ 9 ـ

وقال :
يا حمل هل تعلم مالا أعلمه سديت غزلا لا تطيق تلحمه (1)
والظلم للظالم حتما يلجمه الا ترى قيسا تأطت اسهمه (2)
يقتل ذا الظلم ومن لا يظلمه

التخريج :
التيجان ص 118.
الشروح :
1 ـ حمل : هو حمل بن بدر الفزاري كان أحد اسباب حرب داحس والغبراء مع اخيه حذيفة.
سديت غزلا : اي مددت. تلحمه : تنسجه. بمعنى اشعلت حربا لاتطيق عليها.
2 ـ قيس : هو قيس بن زهير العبسى قاد قومه في حرب داحس.
تأطت اسهمه : صوتت وهى منطلقة. يريد ان الحرب استعرت وجدت.

ـ 10 ـ

وقال :
كاننى والذي نغم الاله له حول الاقيصر تسبيح وتهليل
التخريج :
الاصنام ص 39.

مصـــادر التحقيـــق والـــدراســـة :

1 ـ أدب الكاتب ـ ابن قتيبـة ت : محـي الدين عبد الحميد . مط : مصـر السعـادة 1963.

2 ـ الاعـلام ـ الزركلـي ـ طبعـة ثالثـة.

3 ـ الاغاني ـ ابو الفـرج الاصبهانـي طبع دار الكتب والهيئة المصرية للكتـــاب.

4 ـ الاصابـة في تمييـز الصحابـه ابن حجـر العسقلانـي مصـورة عن الطبعـة الاولـى 1328 هـ.

5 ـ الاقتضـاب في شـرح ادب الكتـاب لابن السيـد البطليوســـى بيـــروت 1901 م.

6 ـ أمالـي المرتـض ـ علي بن الحسيـن تحـ : ابـو الفضـل ابراهيم القاهـــرة 1954.

7 ـ بلـوغ الارب تحـ : الشيـخ محمـد بهجة الاثري ـ طبـع الرحمانية مصـــر 1925.

8 ـ التيجـان ـ منسوب لابـن هشـام طبع حيـدر ابـاد 1347 (روايـة وهـب بـن منبـه).

9 ـ الحماسة للوليـد بن عبيـد البحتـري ـ طبعه وعلـق على حواشيه كمـال مصطفـى بيـروت 1929.

10 ـ خزانـة الادب ـ البغـدادي ـ بـولاق 1299 هـ.

11 ـ سمط اللالـىء لابـى عبيد البكـري تحـ : عبد العزيـز الميمنى طبع لجنـة التأليـف مصـر 1936 م.

12 ـ الزاهـر لابـى بكـر محمـد بن القاسـم الانبـاري تحـ : الدكتـور حاتـم الضامـن وزارة الثقافـة والاعـلام ، بغـداد 1979.

13 ـ الشعر في حـرب داحـس والغبـراء ـ عـادل البياتـى مط الاداب بالنجـف 1972 م.

14 ـ الصحـاح ـ الجوهري اسماعيـل بن حمـاد تحـ : احمد عبـــد الغفـور عطار ، القاهـرة 1956.

15ـ الكتـاب لسيبويه ـ طبـع بـولاق 1306 ـ 1307 هـ.

16 ـ لسـان العـرب ، ابن منظـور محمد بن مكرم. طبع بيـروت.

17 ـ المعمـرون والوصايا ابـو حاتم السجستانى تحـ : عبد المنعم عامر طبـع البابـى ، مصـر 1961 م.

18 ـ المفصـل من تاريـخ العـرب. قبل الاسـلام للدكتـور جـواد علي، المجلـد السـادس طبـع بيـروت 1970 م.

19 ـ النوادر لابـى زيـد ـ طبـع المطبعـة الكاثوليكية ببيروت 1894 م.

20 ـ في الرواية العربيـة ـ عصر التجميع ـ تأليف فاروق خورشيـد ـ طبع دار العودة ـ بيـروت ـ طبعة ثالثـة 1979.

الحـارث بن ظـالم المـرى
الوافى الفـاتـك

حيـاتـه :

هو أبو ليلـى ، الحارث بن ظالم بن يربـوع، فتى بنى مرة وشاعرها (1) وجميع المصادر التى أوردت خبر الحارث، ذكرته امـا لوفائه أو لفتكـه. فقد عرفت فيه خلتان : الوفـاء والفتك، وكانتا سببا في جـر معظـم المصائب والاحـداث التى اعترضت مسار حياته، ثم قلبت هاتـان الخلتان، الحياة في وجهه الى سلسلة محكمة الحلقات، من النضـال الدامى، والقتـال المستمـر، دفاعـا عن نفسـه وقبيلته وعن الآخرين الذين استجاروا به. ثم كان الحارث نفسه سببا مباشرا في حروب ومعارك وغارات عنيفة بيـن عدد كبير من القبائل العربية كما ستكشف لنا هذه الدراسـة بعد قليل. وهو مقاوم عنيـد، لاشكال التدخل الرومانى والفارسى في البـلاد، خلال العصـر الجاهلى المتاخـر او القريب من الاسـلام.

ان المؤلفين القدماء يضربون في وفاء الحارث أمثلة متعددة. منها قصته مـع المرأة ديهث المرية، التى استجارت به ضد الملك النعمان. وقصـة نهوضه في نجدة جاراته، والقصتان واردتان في تضاعيف هذه الدراسـة. وليس الحارث وحده معدودا في اوفياء العرب، وانمـا يخبرنا القدمـاء عن آخرين معروفين بين العرب بوفائهم، منهم السموأل الذي استودعه امـرؤ القيس أدراعه، فوفى بها ولم يسلمها، وبسببها ذبحوا صغيره أمام ناظريه، وعوف بن محلم وابنتـه خماعة، والحارث بن عباد (2) وغيرهم.

---

(1) الحادث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ بن مرة ومرة بطن من ذبيان القبيلة الغطفانية الكبـيرة، وقد نبـه ذكـر غطفـان فى الجـاهلية منذ زمن متقدم، وقـد أورد ابـن الاثير فى الجزء الاول من الكـامل حديثـا عن تاريخ هذ القبيلة وطـوائفهـا فى الجزيرة. المستقصى من أمثـال العرب للزمخشرى 266/1. وانظر النسب فى شـرح الاعلم لشواهد سيبويه 103/1، وكذلك انظر ص 46 من كتاب الامثال للمفضل الضبى.
(2) الفاخر ص 254 الميدانى 339/2. المستقصى 154/1 والحيوان للجاحظ 246/2.

وقد أورد المفضل الضبي في كتابه «امثال العرب» قصة طريفة، فيها تصوير دقيق لوفاء الحارث، وشجاعته النادرة، لم أجد الموضع مناسبا لتطويل البحث بها، فمن شاء فليرجع اليها (3).

واما الفتك، فهو في اللغة القتل، وهذا ما اتفقت عليه المعاجم القديمة. الا أن الخلاف واقع في تحديده كاصطلاح مستعمل في العصر الجاهلي. ففي «لسان العرب» مادة «فتك» ان الفتك ركوب ما هم من الامور، ودعت اليه النفس، والفاتك الجريء ورجل فاتك جريء. وقيدوه بأنه القتل أو الجرح مجاهرة. الا أن قسما من العلماء جعلوا القتل غرة (4) من الفتك، فقال أبو عبيد : الفتك ان يأتي الرجل صاحبه (5)، وهو غار (6)، حتى يشد عليه فيقتله ، وان لم يكن اعطاه امانا قبل ذلك، ولكن ينبغي له ان يعلمه ذلك (7). والعبارة الاخيرة المنصوص عليها، لا تعطي تعريفا محددا واضحا لمصطلح الفتك، واحسبها مضطربة ولكنني افهم منها، بعد مقارنتها بالنصوص الواردة بعدها، ان ابا عبيد يريد بها ان الرجل اذا أعطى امانا لاخر، فلا يحل له الفتك به، وهو امر يتبادر الى الذهن بالبداهة، فاذا امنه واراد الفتك به، فليعلمه بنيته لكي يكون على أهبة من امره. لذلك لا يعد فتكا ما فعله الملك النعمان بن المنذر بالحارث بن ظالم، حين أعطاه الامان ثم قتله، في رواية الكوفيين (8)، بل يعد غدرا.

ومما يؤكد كلام ابي عبيد ، بأن الفاتك يجب ان يعلم ضحيته، قول الحارث نفسه، عندما نوى الفتك بخالد بن جعفر العامري (9) :

تعلم أبيت اللعن انى فاتك من اليوم أو من بعده بابن جعفر

وقال ابو منصور في تحديد معنى الفتك : اصله، ما ذكر ابو عبيد، ثم جعلوا كل من هجم على الامور العظام فاتكا (10). وحدده الفراء بأنه

(3) الامثال للضبي، الصفحات 48، 49، 50. مطبعة الجوائب .
(4) اللسان (فتك).
(5) قال صاحبه ويريد ضحيته.
(6) غار : غافل.
(7) المصدر السابق.
(8) أنظر الاغاني 120/11.
(9) أنظر المقطوعة 6 من شعر الحارث في آخر المقالة.
(10) اللسان (فتك).

القتل مجاهرة (11)، لذلك لا يعد من الفتك قول أبى عبيد ، بأن يأتى ضحيته ويقتله غارا أي غافلا. لانه هو نفسه انكر ذلك في آخر التعريف.

واما الغيلة فهى ان تخدع الضحية وتخرج بها الى موضع يخفى عليها فتقتلها.

وأورد اللسان، من معانى الفتك، اشتقاقا، هو المفاتكه، وعرفه بانه مواقعه الشيء بشدة، كالاكل والشرب وغيره. ويؤيد ما ذهب اليه صاحب اللسان، الحادثة التى وقعت بين خالد بن جعفر وبين الحارث بن ظالم، في دعوة طعام جمعهما فيها الملك النعمان، وقد جعل الحارث يأكل طعامه بشدة، لدرجة دعت خالد بن جعفر ان يلفت نظر الملك اليه.

ومما تقدم ، تجمعت لنا للقتل ، في غير الحرب ، ثلاثة انواع : الفتك والغيله والغدر (12)، والنوعان الاخيران مذمومان عند العرب، وبالاحص النوع الاخير، واشرف انواع القتل عندهم الفتك، لان صاحبه لم يغدر بالضحية ولم ياخذها غيله، بل اعطاها العلامة قبل وقوع القتل. ولذلك افتخر العرب بفتاكهم وتناقلوا قصصهم واخبارهم. فاشتهر من الفتاك عمرو بن كلثوم الشاعر، وخبر فتكه بعمرو بن هند الملك، في دار ملكه بين الحيرة والفرات مشهور (13). والبراض بن قيس الكنانى، وكان خليعا، جاور حرب بن امية بمكة، ورحل الى العراق فجاور الملك النعمان بن المنذر، وفتك بعروة الرحال، الوارد ذكره بعد قليل عند مقتل خالد بن جعفر، ونهب لطيمة النعمان الى عكاظ، وبسببه ايضا هاجت حروب الفجار بين حي خندف وقيس . وتمثل به أحد شعراء الاسلام فقال (14) :

والفتى من تعرفته الليالى ... والفيافى كالحية النضناض
كل يوم له بصرف الليالى ... فتكة مثل فتكة البراض

ومن فتاك العرب، في الاسلام الجحاف بن حكيم السلمى، أهدر دمه الخليفة عبد الملك فهرب الى الروم، وبقى سبع سنين، ومات عبد

(11) المصدر نفسه.
(12) الفاخر ص 254.
(13) مجمع الامثال للميدانى 340/2 والمستقصى من أمثال العرب للزمخشرى 154/1.
(14) مجمع الامثال 35/2.

الملك وقام الوليد ابنه فاستؤمن للجحاف فأمنه ، فرجع. قال الاخطل يصف احدى وقعاته وفتكه (15).

لقد اوقع الجحاف بالبشر وقعة الى الله منها المشتكى والمعول (16)

هذا مع ان الاسلام قيد الفتك في حديث، ان رجلا أتى الزبير فقال : هل اقتل لك عليا ؟ قال فكيف تقتله ؟ فقال افتك به. فقال الزبير : سمعت رسول الله (ص) يقول : «قيد الايمان الفتك. لا يفتك مؤمن» (17).

وانما عد القدماء الحارث بن ظالم فاتكا، لفتكه بخالد بن جعفر العامري، وبأمن الملك الاسود بن المنذر، وبابن السموأل عندما اتاه الحارث الى حصنه، وطلب منه ادراع أمريء القيس، وأبى السموأل تسليمها، فأمسك الحارث بغلام للسموأل كان خارج الحصن، في الصيد، وضربه بالسيف فقطعه نصفين. فقال السموأل (18) :

وفيت بأدرع الكندي انني اذا ما خان اقوام وفيت

وفي هذه الضربة قال جرير للفرزدق (19) :

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ولعل اكثر ما يميز هذا المحارب العنيد، والشاعر الفاتك، هو تصديه لاشد ملوك الجزيرة ضراوة وعنفا، ونريد بهم النعمان بن المنذر واخاه الاسود وكلاهما معروفان بولائهما للفرس، وخضوعهما المباشر الى كسرى، وغيره من ملوك ساسان ، وكذلك تصديه للغساسنة عند مجاورتهم، وهم ملوك في حماية دولة الروم الشرقية، كذلك هم حماتها.

وقد كانت الاطماع الفارسية والرومانية، اسفرت عن وجهها في الجزيرة العربية، وانطلقت لتلعب اخطر الادوار الدموية بين رجالات القبائل وملوك الجزيرة . فتؤلب بعضهم على البعض الاخر. وهذا هو السبب الحقيقي الذي يختفي وراء الحروب والايام المستمرة بين

---

(15) المصدر السابق وانظر ديوان مالك بن الريب ص 54 حيث أورد المحقق بأنه كان فاتكا.

(16) البشر موضع.

(17) الحديث في مادة (فتك) من كتاب النهاية في غريب الحديث.

(18) الاغاني 332/6، 120/9.

(19) النقائض لابي عبيدة 385/1، 413.

القبائل (20). بل سبب اتجاه العرب نحو كعبتهم ونحو مكة، وتشدد البدوي والحضري في وثنيته، وابتعاده عن كل دين غير الوثنية، ودخولهم في الاسلام، بعد أن لقى المسلمون على ايديهم عنتا كبيرا. هذه كلها تفسير لظاهرة الاطماع الاجنبية. وسوف ترى الحارث وغيره يلتجئون الى مكة.

ولذلك نحن نرى الحارث بن ظالم، في حربه ضد النعمان، يلجأ الى الغساسنة في الشام، عندما ضاقت عليه الارض العربية في الجزيرة. وهناك لقى مصرعه كما صرحت بعض الروايات (21). لانه في قرارة نفسه لم يكن جادا من مجاورتهم، ولا راضيا عن نفسه في ولائهم، فهو يمثل الوجه العربي الحر في شبه الجزيرة.

وازاء هذا العالم المضطرب، وهذه الاحداث الملتهبة، ينشأ شاعرنا، ملتمسا طريقه الى السيادة والمجد.

فمنذ سنوات طفولته الاولى، تفتحت عيناه ينظر الى الحياة بمنظار مظلم، وشب فوجد اليتم في انتظاره، فجعل يتجرع أنواع المرارات بين اهله وذويه، الى ان كبر على كره خصومه، وقاتلي والده ظالم بن غيظ المري الدبياني، سيد قبيلة مرة. وكان القتله بني عامر بن صعصعة، القبيلة المجاورة، حيث اغار خالد بن جعفر على رهط الحارث، وهم في واد يقال له حراض، فقتل حتى اسرف (22)، فهلك ظالم في تلك الوقعة بسبب جراح اصابته يومئذ. فكانت النسوة في حي الحارث، لا يجدن رجلا يشد لهن عصاب الناقة ليحلبها، فيدعون الحارث - وهو صبي لم يدرك - فيشد لهن العصاب ويبكين رجالهن، ويبكى الحارث معهن ، فنشأ حاقدا موتورا. وكان الحارث كما وصفته المصادر التي أوردت خبر أشعاره وسيرته، من احسن الناس وجها وحديثا (23).

---

(20) انظر تاريخ الشعر العربي - البهبيتي ص 31.
(21) الاغاني 119/11 العقد الفريد 147/5 معجم البلدان لياقوت مادة (خربة).
(22) الاغاني 16/10 الكامل في التاريخ 559/3 العقد الفريد 305/3 يوم بطن عاقل.
(23) المصادر السابقة والذاخر ص 165 ومجموع الامثال 263/2.

واول شيء تلقنه الشاعر، هو الفتك، وكيف يصبح فاتكا، فقد احس من عنف الاحداث التي المت به، ان الحياة في الصحراء ليست مضمونة ، لان القاعدة التي تجلس عليها حياة البدوي، حادة وقلقة. فاستقر في اعماقه ان الفتك امضى سلاح يتخذه المرء في مثل ظروفه، لبلوغ غاياته من أعدائه الكثيرين . ويضاف الى التعليل المتقدم، سبب آخر ، هو ان اعتماد الحارث على الفتك دون الفروسية والحرب الجماعية. في ادراك الثار، له ما يبرره في حياته نفسه. فقد قتل ابوه ولم يدرك ثأره احد، ولم يقتل قاتله. بل كل ما فعلته غطفان انها بدات تتجهز لحرب العامريين، بينما العامريون قتلوا لقيس بن زهير أباه (24)، بعد ان كانوا قتلوا للحارث أباه من قبل. ولولا قتلهم لزهير بن جذيمة، لما تجهزوا لحربهم. فعرف الحارث ان الحرب مع غطفان ضد هوازن (25) لاتجدى، ولن تطفيء غليل النفس، وان المضى الى القاتل مباشرة اجدى لقبيلته، واشفى لنفسه.

والفروسية تتجلى قدراتها في الحروب الجماعية، والفتك صفة فردية. والحارث نشأ يتيما منعزلا، منطويا على نفسه، بسبب مقتل أبيه، وعدم ادراك ثاره. فكانت هذه الحالة الخاصة، من مبررات اتجاهه الى الفتك، مع أنه كان فارسا معلوما، ومحاربا شهدت له المواقع العديدة، وان كان ابو عبيدة قد اورد في النقائض انه اشترك في معركة رحرحان (26)، ولكن لم يؤثر عنه بلاء يذكر. وهذا الخبر الذي أورده ابو عبيدة، يقوي من حكمنا المتقدم عليه في سبب اتجاهه الى الفتك، ويضيف الى الاسباب المذكورة سببا آخر.

وكان أول درس في الفتك تعلمه على يد ابى الخريف «ويقال الغريف» وهو عبيد بن نشبه بن غيط بن مرة بن سعد بن ذبيان، عندما هدم عليه فقال له : علمني الفتك. فقال له : اذا هممت فافعل. فأعادها عليه الحارث، فقال له : كذاك. ثم قال له الثالثة، فشد عليه بالسيف. فقال له الحارث : ما تصنع ؟ قال : هذا الفتك، هممت ان اضربك. وتعلل هذه الرواية ظاهرة أخرى من ظواهر تعلق الحارث بالفتك. اذ يبدو

---

(24) يوم النفراوات الاغاني 10/10 والعقد الفريد 558/1.
(25) هوزان هو الجد الاعلى وعامر من قبائل هوازن.
(26) النقائض 226/1.

لـى أن قبيلته معروفـة به، وان أبا الخريف أو الغريف هذا من بنـى مرة، وكان يعلـم الفتك فيها (27). ثم اصبح الحـارث بعده من مدربى شباب بنـى مـرة على الفتـك ، بعد ابـى الخريف (28).

وكان الحارث من وجوه الجزيـرة العربية المرموقين . بل هو أحـد عشـرة من وجهاء العرب، استدعاهم النعمـان بن المنذر بعد رجوعه من فـارس، وفي نفسه ما فيها، مما سمعه من كسرى، فالبسهم حلل الملوك وعممهم بعمائمها وأرسلهم ليمثلوا بين يدي كسرى في المدائن. ومثلوا، وتكلم الجميع فكان الملك بين راض عن بعضهم، ومنكر لاخرين، الى ان صـار الكلام الى الحارث فقام ثم قال (29) : ان افة المنطق الكذب، ومن لـؤم الاخلاق ، ومن خطل الرأي خفة الملك المسلط، فان اعلمنا ان مواجهتنا لك عن ائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما انت لقبوله ذلك منا بخليـق، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفـاء بالعهود، واحكام ولث العقود، والامر بيننا وبينك معتدل، ما لم يات من قبلك ميل او زلل. قـال كسرى: من انت ؟ قال : الحـارث بن ظالـم. قـال : ان في اسمـاء آبائك لدليلا على قلـة وفائك، وان تكون اولى بالغـدر، او أقـرب من الوزر، قـال الحارث : ان في غضبة الملك السرو والتفاضل (30)، ولن يستوجب احد الحلـم الا في القـدرة، فلتشبه افعالك مجلسك. قال كسرى : هذا فتى القوم.

وكانت له عند الحصين بن الحمام الشاعر المري مكانة. وجـرت لـه مرة معه مشادة حادة، فقد قتل المثلم بن رياح رجلا في جوار الحارث يقال لـه حباشة فلحق المثلم بالحصين بن رياح، فبلغ ذلك الحارث، فأتـى الحصين، وطلب منه دم حباشة، فسأل الحصين قومه، وسأل بنى حميس جيرانه، فامتنعوا جميعـا، وقالـوا نحن لا نعقل بالابل، ولكن اذا شئـت اعطيناك الغنم، فتألـم الحصين من مقالتهم، ومن كفرهم بنعمته، لان بنى

---

(27) مالى اليزيدى ص 77.

(28) شروح سقط الزند ص 1686 حيث أورد الشارح خبرا عن الحادث يعلم ابن اخيه انيك ويدربه عليه).

(29) العقد الفريد 12/2 ونحن اذ نستشهد بالنصوص النثرية الجـاهلية ، لا نقطـع بكونها مروية حقا بنصها، لكن النص المزوى، على علاته، يخدمنا فى ايضاح الفكرة او استخلاص التاريخ الموجود فيه.

(30) السـرو، المروءة والشرف.

حميس كانوا في ارض الحصين وهو متفضل عليهم، وحارب قومه من اجلهم، فقال في ذلك شعرا أوله :

خليلي لا تستعجلا أن تزودا وان تجمعا شملي وتنتظرا غدا

والابيات والخبر في الاغاني (31).

وهو أحد وجوه بني مرة، استغاث بهم اجو الجذامي، ليشفعوا له عند قيس بن عاصم المنقري، ليفك اسر اخيه، وكان استغاث بسنان بن ابي حارثة والحارث بن عوف (ممدوحي زهير بن ابي سلمى) وهاشم بن حرملة (قاتل معاوية بن عمرو أخي الخنساء الشاعرة، ومراثيها فيه مشتهرة) وبالحارث بن ظالم.

وعندما اسرته عنزة، وهم حي من ربيعة ينتمي الى نزار بن معد بن عدنان مرت به امرأة منهم فقالت (32) : احتفظوا بأسيركم فانه ملك وخدن ملك، وقدمت الدليل على ذلك من علامات ظاهرة عليه، كانوا يعرفونها، فصدقوا كلامها. وان تضاعيف قصة حياته، تكثر فيها الاشارات الى شرف محتده ونبل اصله. ويكفي ان نشير الى قول ابن ميادة الشاعر، وكان ابوه من اولاد ظالم المري ابن الحارث، حيث يقول :

سقتني سقاة المجد من آل ظالم بارشية اطرافها في الكواكب (33)

وبعد ان اشتد عوده واكتمل، شاءت ظروف غطفان، ان تمهد للحارث سبل السيادة والملك. وذلك عندما احتدم الصراع بين العامريين وبين الغطفانيين وبلغ الذروة، فقتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة، كبير غطفان وسيد معد كلها، قتله لينفذ هوازن من ظلمه، فقد كانت هوازن تدفع أتاوة سنوية لزهير، وعامر قبيلة من هوازن، وكان زهير أكثر من اذلالهم واهانتهم (34).

---

(31) الاغاني 14(9 — 10.

(32) عيون الاخبار 96/4.

(33) الشعر والشعراء ابن قتيبة ص 655 وانظر قوله في بيتين آخرين من طبقات ابن المعتز ص 107.

أنا ابن أبي سلمى وجدي ظالم وأمي حصان أخاصتها الاعاجم

ألم غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه التمائم

(34) أنظر المصادر الواردة في الهامش رقم 24.

فلما قتل خالد زهيرا، آلت الرئاسة الى الحارث بن ظالم، وهو فتى في حداثة سنه، فنشط لحرب العامريين ليدرك ثارين : ثار والده المقتول منذ أعوام، وثأر زهير العبسي المقتول حديثا، لان مرة وعبسا حيان في غطفان.

واتصل الحارث بأكبر ولد زهير، وهو قيس بن زهير، فوجده غير جاد في ثأره واعتذر بأنه يتأهب لحرب داحس، ويتجهز لها بشراء السلاح من مكة (35).

وعجم الشتاء (36)، ولم يصبر الحارث، فترك قومه قائلا لهم : انتم ادرى بحربكم مع العامريين، اما انا فذاهب لاقتل خالد بن جعفر. فقيل له : لن تصل يدك اليه، فهو في حماية الملك النعمان. فقال : اقتله ولو كان في حجر الملك. وهذه شهامة الفاتك اذ أعطى الانذار.

وكان خالد بن جعفر، بعد ان قتل زهيرا، ضاقت به الارض، فأشارت عليه قبيلته ان يفارقها ويلحق بالنعمان، ويطلب حمايته، فهو اسلم له من بطش الغطفانيين (37).

وهنا تبرز لى مسألة غاية في الغموض، نحاول اجلاءها وهى التجاء خالد الى النعمان من يد الغطفانيين. الامر الذي ينتهى بنا الى وقوع احتماليين قويين ، لعل تعليلهما يفسر سبب هذا الالتجاء، الاول، اما ان يكون الغطفانيون ضعيفى الولاء للنعمان، وبالتالى للفرس، أو انهم كانوا في هذه الاثناء حلفاء للغساسنة. والثانى، انهم كانوا غير متفقين، والوحدة بين احيائهم ويطونهم مفقودة. وأنا الى الافتراض الثانى اميل. لان احداث التاريخ ترد الافتراض الاول وتحدثنا عن علاقة حسنة بين العبسيين والنعمان سوف تثمر نتائجها في قادم الايام، عندما عزم النعمان على حرب كسرى والخروج من طاعته (38)، وهى مقدمات حرب ذي قار الكبرى. هذا من جهة عبس، وأما بالنسبة لذبيان،

---

(35) كامل فى التاريخ لابن الاثير 340/1

(36) انظر الفاخر ص 165.

(37) اغاني 95/11 والعقد الفريد 559/1 وابن الاثير، الكامل فى التاريخ 560/1

(38) انظر أيام العرب اجاد المولى وجماعته 281/1 و 294 وانظر أبيات زهير بن أبى سلمى فى مدح عبس ديوانه 290.

فانها غالبا ما كانت تتعرض لغارات الغساسنة فتمتلىء يد الملك الغسانى بأسرى ذبيان وغنائمها (39).

وسبب اخر يقوي ترجيحنا للافتراض الثانى في انعدام الشعور بوحدة القبائل الغطفانيه، هى هذه الفرقه بين الرؤساء انفسهم، فالحرب كانت سجالا بين المريين والذبيانيين (40)، وبين العبسيين والفزاريين، وبين العبسيين انفسهم، بين بنى جذيمه وبين بنى زياد (41). ولولا هذه التمزقات الداخليه في جسم القبيله ، لحدمت غطفان الجزيرة كلها، بما تملكه من امكانية بشريه وطبيعيه (42).

وازاء هذا التمزق ، نشط الحارث بن ظالم للثار وحده، فتوجه الى الحيرة، فوجد خالد بن جعفر لدى الملك، فرحب به الملك. وكان خالد قد اهدى النعمان فرسا من خيل بنى عامر بعد ان امتدحها، فاهداء الحارث فرسا من خيل بنى مرة، وقال للملك، انى كنت ارتبطتها لغزو بنى عامر، لكننى وجدتهم عزيزين لديك فصفحت عن ذلك وهو بهذا يعرض بخالد ويلمح له بقتله (43).

وفي احدى اجتماعاتهم بالنعمان، دار بين خالد والحارث حوار عنيف، كان في خاتمته ان قال خالد للملك : ابيت اللعن، لى عند هذا يد عظيمه، قتلت زهيرا سيد غطفان، وصار بعد قتله سيدها. فغضب الحارث وقال : أنت قتلته ؟ قال نعم. قال الحارث : سأجزيك على يدك عندي.

وخرج الحارث مغضبا، فلما امسوا اجتمعوا عند قينة من اهل الحيرة يقال لها بنت غفرز، يشربون ، فقال خالد للقينة غنى لنا :

دارٌ لهند والرباب وفرتنا ولميس قبل حوادث الايام

وهند والرباب وفرتنا ولميس نسوة من عبس ، وقيل من خالات الحارث بن ظالم، ونحن نرجح القول الاول، لان البيت وارد في شعر

(39) أنظر تاريخ الادب فى العصر الجاهلى لشوقى ضيف ص 261 وانظر ديوان النابغة ص 178 يتشفع لبنى ذبيان لدى الغساسنة وانظر أيضا كتاب الحيوان للجاحظ 470/4 حيث أورد قصيدة الحصين بن الحمام فى وصف هذه الحروب.

(40) المفضليات ص 100 — 121.

(41) الكامل فى التاريخ 344/1.

(42) أنظر حياة الشماخ بن ضرار الذبيانى لصلاح الدين الهادى ص 54 ومابعدها وأنظر حديثه عن طبيعة غطفان.

(43) الاغانى 95/11 وفى الخبر اضطراب يحتاج الى تحقيق علمى جيد.

امرىء القيس (44)، وهو موجود في ديوانه، فلا يعقل ان تكون خالات الحارث ادركن امرأ القيس، والحارث متأخر عنه. هذا الى جانب ان هذه القصة وردت في النقائض بين قيس بن زهير وبين حذيفة بن بدر (45). ولما سمع الحارث الغناء حنق على خالد وامتلا غيظا فقال له : ما تزال تتبع أولى بأخرة.

وكان مع خالد ابن اخيه عروة الرحال، وابن اخته عبد الله بن جعدة، فحذراه من فتك الحارث، وحذره الملك ايضا فلم يحفل بكلامهم، مع ان عبد الله بن جعدة كان رجل قيس رايا (46).

ولما اظلم الليل، اقبل الحارث حتى انتهى الى ابن جعدة وعروة، فتعداهما ثم توجه الى قبة خالد، فهتك شرجها، ومضى الى الحارس، وكان خالد قد وضع رجلا ليحرسه فعجنه الحارث بكلكله حتى كسره، وجعل يكلمه فلا يعقل، ثم خلى عنه لما عرف انه ليس بخالد. فلما وصل الى خالد ايقظه. فلما استيقظ قال له : اتعرفني ؟ قال : أنت الحارث . قال خذ جزاء يدك عندي، وضربه بسيفه المعلوب، ويدعى ذو الحيات ايضا، فقتله. ثم خرج من القبة، وركب راحلته وسار. وانتبه عروة وهو يصيح : واجوار الملك، فبث الملك الجند في طلب الحارث. ومن طريف ما يروي في هذه المناسبة. ان الحارث خاف ان يكون لم يقتله، رجع الى الحارث متنكرا، واختلط بالناس، فدخل عليه ونخسه بالسيف حتى تيقن انه مقتول، فعاد ولحق بقومه (47).

ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية من حياة الحارث، وتبدأ رحلاته وأسفاره في أطراف الجزيرة ووسطها، الى ان يستقر في مثواه الاخير.

وبعد ان قتل الحارث خالد بن جعفر ، عاد الى قومه، فلم يلمس فيهم ما يحمسه على المكوث بين ظهرانيهم، فلم يكونوا ليطيقوا قتال الملك النعمان، فعزم على مغادرتهم الى بني دارم، فلجأ الى بني

---

(44) ديوانه 140.
(45) النقائض لابى عبيدة 85/1 . وانظر كتابنا الشعر فى حرب داحس والغبراء ص 95.
(46) الاغانى 97/11.
(47) المصدر السابق.

ضمرة منهم (48). فسمع بتحوله عن قومه قيس بن زهير العبسي، فأسف لذلك اشد الاسف، لانه كان يتأهب لحرب عامر، وهجم الشتاء فأرجأ حربه الى ما بعد انقضائه كما تقدم قبل قليل.

قال قيس بن زهير في خروج الحارث من غطفان (49) :

جزاك الله خيرا من خليل ... شفى من ذي تبولته الخليلا
ازحت بها جوى ودخيل نفس ... تمخخ أعظمي زمنا طويلا
كسوت الجعفري أبا جزيء ... ولم تحفل به سيفا صقيلا
أبأت به زهير بني بغيض ... وكنت لمثلها ولها حمولا
كشفت له القناع وكنت ممن ... يجلي العار والامر الجليلا

فلما بلغت الابيات الحارث اجابه بابيات يفضح بها خذلانهم له (50).

وغزا الاحوص أخو خالد دارما لما علم بوجود الحارث بين ظهرانيهم، فاضطر الحارث على الخروج، وتوجه الى تميم فلما وقعت عامر على خبر وفوده على حاجب بن زراره التميمي، والتجائه اليه، سارت اليه بعليا هوازن، فنشبت حرب «النسار» وأسر معبد أخو حاجب، وارسله العامريون الى رجل بالطائف، كان يعذب الاسرى فقطعه اربا اربا حتى قتله (51) فقال حاجب للحارث : تنح عنا غير ملوم: فتنحى عنهم ولحق بعروض اليمامة.

خرج الحارث من التميميين، وجعل يطوف في البلاد، حتى سقط في ناحية من بلاد ربيعة. ومرة، وبينما هو في طوافه، وضع سلاحه، وكان في

---

(48) الفاخر للمفضل بن سلمة ص 166 والكامل لابن الاثير 337/1 طبعة بولاق. وفي ... يقول ضمرة بن ضمرة :

ولن أذكر النعمان الا بصالح ... فان له فضلا علينا وأنعما
سنمنع جارا عائذا في بيوتكم ... بأسيافنا حتى يؤوب مسلما

والبيت الاخير نسبه محقق ديوان عدى بن زيد الاستاذ محمد جبار المعيبد ص 166 الى عدى استنادا الى تفسير الطبرسي مع اختلاف في رواية عجز البيت «فان له عندى يديا وانعما» ولم ينظر المحقق الفاضل هذه الابيات في الاغاني 113/11 — 114.

(49) الاغاني 98/11.

(50) أنظر القطعة 9 من شعر الحارث في آخر هذا البحث.

(51) الاغاني 90/11 يوم رحرحان في النقائض 226/1 ومعجم البلدان (رحرحان) والعقد الفريد والكامل في التاريخ.

فلاة ليس فيها أثـر، ونام، فمـر به نفـر من بنى قيس بن ثعلبـة وقوم من بنى هزان من عنزة وهو نائـم. فاخذوا سلاحه وفرسه، ثم أوثقوه، فانتبـه وقد شـدوه، فلا يملك من نفسه شيئا. فسألوه من أنت ؟ فلـم يخبرهم، وطوى عنهم خبره. فضربوه ليقتلوه أو ليخبرهم من هو، فلـم يفعل. فاشتراه القيسيون من الهزانيين بزق خمر وشاة. وانطلقوا به الى بلادهم، وهناك عاودوا الضرب معه، وكـاد يدركه المـوت، فلم ينطـق بحرف ، فلمـا ملوا تركوه في وثاقه ، فانفلت ليلا فتوجه نحو اليمامـة. وكان قريبـا منها، فلقى غلمة يلعبون، وبينهم غلام تلوح عليه علامـات الخير والرفاه، فلما عرف الحارث انه ابن بجير العجلى أتاه ولاذ بحقويه (52)، والتزمـه وقـال لـه : أنا لـك جار . فأتـى الغلام أبـاه وأخبـره، فأجاره، وقـال لابنه : ائـت عمك قتـادة (53) واخبـره، فاتى قتادة فاخبـره، فاجـاره ، وكانـوا قوما ذوي عـز وحصون.

وظل القيسيون يطلبونه، وهو في الحصن، فابى قتادة ان يسلمـه، وخيرهم بين امريـن ، ان شاءوا دفع اليهم ثمنـه الذي اشتروه بـه، او ان يعطيه سلاحا كاملا ويحمله على فـرس ويدعه يقطع الوادي حتى يبتعد. ومن ثم شأنه وشانهم. فوافقوا . ويبدو انه اتفـق مع الحارث على تدبير هذه المسألة ، بعد ان بالغ القيسيون في المطالبه به. فالبسه عدة وسلاحـا وحمله على فرس، وقـال له : ان افلتهم فـرد الى الفرس، وخذ السلاح وجاز الوادي ، فلم يـزل يقاتلهم، ويطاردهم، حتى ورد بلاد قشير.

وعرفه القشيريون ، فانطووا عليه واكرمـوه. ورد الى قتـادة فرسه، ومعها مائة من الابـل ، قال ابـو عبيـدة : لا ادري هل وفرها من مالـه أم اعطـاه ابـاه القشيريون (54). وكان كلما نـزل في قبيلة مدحها، وشكـر لهـا اكرامها، وواضح ذلك في شعـره.

وسار الساعـون بين الحارث وبين الملك النعمان فصالحه وأمنه. وعاد الى حياته الاولى بين قومـه الى ان وقعت حادثـة المرأة ديهث (55)، وهى من مرة قبيلـة الحارث، أخذ مصدق الملك أبلها، فاستجارت بالحارث قائلة

---

(52) أغانى 115/11.
(53) اغانى 115/11.
(54) الغانى 116/11.
(55) اغانى 105/11 والمحبر ص 168 وبلوغ الارب للنويرى 1331.

«يا أبا ليلى، اتيتك مضافة» (56) فوفد على النعمان في أمرها، وجعل ينتزع ابلها من يد رعاته واحدا واحدا، والملك في اشد حالات الغضب. وفي ذلك قال الفرزق (57) :

كما كان أوفى اذ ينادي ابن ديهث ... وصرمته كالمغنم المتنهب
فقام ابو ليلى اليه ابن ظالم ... وكان متى ما يسلل السيف يضرب

وتوارى الحارث مرة اخرى من انظار النعمان . وخرج هاربا الى صديق له من كنده، فالح الاسود بن المنذر اخو النعمان في طلبه، وبعث في اثره كتيبته «الملحاء» (58) تطلبه في ارجاء الجزيرة، فقال له الكندي : ما ارى لك نجاة الا ان الحقك بحضرموت في بلاد اليمن، فلا يوصل اليك.

وانقطع ببلاد اليمن واغترب بها زمانا، فاضمرته البلاد (59).

وتعود البنا اخبار الحارث مره اخرى فاذا هو في ارض بحر بن وائل، لاجئا الى بني عجل بن لجيم فنزل على زبان، فاجاره، وضرب عليه قبة، فقال العجلي في ذلك (60) :

ونحن منعنا بالرماح ابن ظالم ... فظل يغني آمنا في خبائنا

وظل عندهم، الى ان جاءت بنو ذهل بن ثعلبة، وبنو عمرو بن شيبان ، وطلبوا من عجل ان يخرجوا الحارث من بين اظهرهم، لانهم لاطاقة لهم بالملحاء فابت عجل ، وقاتلت دونه . وقال الحارث : لقد اشتهر امري فيكم، وانا راحل عنكم. وكان الاسود قد اكثر من غزو العجليين بسببه. فلحق بقبيلة طى الساكنة بين جبلى أجا وسلمى.

ومكث في طى زمانا الى ان اهتدى الاسود الى وسيلة يغيظ بها الحارث، فقد قيل له : انك لن تنال منه أغيظ من اخذك جارات له من بلى بن عمرو، يجيرهن ويحميهن. فبعث الاسود، فأخذهن واستاق اموالهن

---

(56) أى لاجئة. وانظر الخبر فى أمثال العرب للمفضل الضبى ص 46 حيث نسب الحادثة لابن المرأة المذكورة، وهو عياض بن ديهث، وقد جاءت أبيات الفرزدق مصداقا له.
(57) أغانى 105/11 والدرر الفاخرة لحمزة الاصفهانى ورقة 125 (مخطوطة).
(58) اغانى 106/11.
(59) العقد الفريد 147/5.
(60) اغانى 116/11.

وقتل صبيتهن، فلما سمع الحارث خرج من بين الجبلين ، وانساب في غمار الناس، حتى عرف موضع جاراته ومرعى ابلهن. فاستاق الابل وسار مع جاراته حتى انقذهن. ثم اندس مرة اخرى حتى اتى سنان بن أبى حارثة المري، فاستعار منه سرج فرسه، وكان سنان متزوجا من سلمى بنت ظالم أخت الحارث ، وكانت تربى ابن الملك النعمان (61)، فعرض عليها سرج سنان، وقال لها : يقول بعلك ابعثى ابن الملك حتى استأمن به للحارث عند ابيه، وهذا السرج آيه ذلك. فزينته ودفعته اليه، فانتحى به ناحية الشربة وقتله، ليفجع به أباه ويغيظه، كما فعل هو بجاراته وبالصبية (62).

فلما قتل الحارث ابن الملك، وكان يدعى شرحبيل، طالب الملك عمه (63) وسنانا وآخرين به، فاعتذروا بانهم كانوا اخرجوا الحارث من غطفان ولم ينصروه. فغزا الاسود بنى ذبيان واسد، وقتل فيهم قتلا ذريعا، واستاق اموالهم، وسبى نساءهم، واشهر وقعة أوقعها بهم هى المعروفة ، بشطى أريك . قال اعشى ميمون (64) :

وشيوخ صرعى بشطى «أريك» ونساء كأنهن السعالى

وعثر الاسود على نعل ابنه شرحبيل عند بنى محارب ، فأحمى لهم الصفا التى بصحراء اضاخ ، موطنهم، وقال لهم : انى أحذيكم نعالا. فامشاهم على الصفا المحمى ، فتساقط لحم اقدامهم . ففى ذلك يقول جوشن الكندي في الاسلام ، وكان قتل رجلا من بنى محارب فأقيد به في المدينة :

على عهد كسرى نعلتكم ملوكنا صفا من اضاخ حاميا يتلهب

وقال آخر ، وقد سرقوا سهاما له :

بنى الثوس ردوا اسهمى ان اسهمى كنعل شرحبيل التى في محارب

---

(61) اغانى 108/11 ونهاية الارب للنويرى ص 354.
(62) المصدر السابق. والشربة موضع. وفى ذلك يقول الحارث :
فان تك اذواد أصبن وصبية فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم
انظر الابيات فى القطعة رقم 2 من شعره.
(63) انظر الاغانى 102/11 وقصيدة عم الحارث فى هذه الحادثة.
(64) اغانى 109/11.

وقال احدهم في الجاهلية :

ومولاك الذي قتل ابن سلمى علانيه، شرحبيل بن نعل (65)

وقد أوحت هذه الحادثة لعدد من الشعراء، ووردت في شعر كثير.

وأخذ الاسود جماعة من اسد ، لما علم انهم عاونوه على الهرب، الا انه عاد فاطلقهم لما علم ان الحارث يهجوهم. وكان الحارث قد أوهمه بهذا الهجاء ليخلى عنهم.

والحقيقة ان الاسود لم يكف عن الحارث الا بعد ان علم ان الحارث سيفتك به، وبلغه قوله فيه (66) او في اخيه الملك النعمان نفسه :

بدات بهذى ثم اثنى بهذه وثالثة تبيض منها المقادم

يقول له : بدات بقتل ابنك ، وسافتك بك في المرة الثانيه . واما الثالثة فيبيض لها مقدم الرأس.

ولحق الحارث بمكة (67)، وانتمى الى قريش ومدحهم. والعربيون يحبون المريين ، وكان عمر بن الخطاب (رض) يقول : «لو كنت مدعيا احدا من العرب لادعيت بنى مرة» لنسب قديم بين القبيلتين يذكره الرواة والنسابون في كتبهم (68).

ثم تحول عن جوارهم، بعد ان بلغه مالا يرضاه منهم. فلم يبق له بعدهم ملاذ يلوذ به غير الشام والغساسنه، لان قبائل الشمال صارت تتحرج من ضمه اليها، فلم يعد يطمع الى واحدة منها، فدخل في حلف الغساسنة حماةالامبراطورية الرومانية الشرقية في الشام، فأجاره يزيد بن عمرو الغسانى (69).

---

(65) المصدر السابق .

(66) المفضليات ص 615 وانظر القطعة 2 من شعره.

(67) كانت مكة مطمح كل عربى يقاوم التدخل الاجنبى. وقبل الحارث لجأ اليها سويد، أحد بنى عبد الله بن دارم لدى قتله ابن الملك عمرو ابن المنذر اللخمى. فهم الذين بمكة من بنى دارم حلفاء لقريش. «النقائض لابى عبيدة 651/2».

(68) المفضليات ص 618 وذكر اشارح خبر النسب بين بنى مرة وبين لؤى بن غالب، وينفى النسابون ان يكون قوم الحارث من بنى بغيض ويؤيد ذلك قوله «سفهنا باتباع بنى بغيض.. *البيت*» *ويوردون قصة التبنى لجد الحارث فى مزارة.*

(69) اغانى 118/11 وانظر العقد الفريد 147/5 وذكر ان مقتله بالشام فى موضع يقال له الخربة ومعجم البلدان، ياقوت مادة (خربة).

وكان في اول امره عندهم معززا مكرما الى ان قتل الخمس التغلبي. فذاق الاذى والسجن ثم القتل، في خبر طريف نسوقه ، مستخلصين منه التاريخ لا الحادثة ، وملخصه، ان الملك الغساني تعود ان يترك احدى نوقه على رسلها بين الناس دون ان يحرسها أحد، وقد علق في عنقها مدية وزنادا وصرة ملح. والملك يقصد من هذا ان يختبر قومه، ويعرف مدى خضوعهم وطاعتهم لملكه. وصادف ان وحمت احدى امرأتي الحارث في سنة شديدة، وطلبت الشحم، والحت في الطلب، فاضطر محرجا على ان يأخذ ناقة الملك، ودخل بها واديا بين جبلين، ونحرها وأخذ الشحم، وطلبت الناقة فعثر عليها منحورة، وقد أخذ منها السنام وتركت. فأشار الملك على كاهن يدعى الخمس التغلبي ان يكتشف له الفاعل، فذكر الخمس الحارث بن ظالم. فتذمم الملك وكذب عنه ورد التهمة. وبعد زمن، دسوا للحارث من يتسقط خبر الناقة، فقتل الحارث الشخص الذي وقع على الخبر عن طريق امرأة جاسوسة. فأخبر الخمس الملك بمقتل الشخص، فنهض الحارث الى الخمس التغلبي وقتله.

ومكث الحارث في سجون الغساسنة زمنا، لقي فيه العذاب، حتى انهم كانوا يحرمون عليه الماء. فمن ذلك قوله لسجين معه كان يقدم له الطعام والشراب (70).

لقد قال لي عند المجاهد صاحبي ... وقد حيل دون العيش هل انت شارب
وددت بأطراف البنان لو انني ... بذي اروني ترمي ورائي الثعالب

ثم اقتيد الى مجلس الملك فقال الملك للحضور : من كان له عند هذا ثأر فليقتله، فقام اليه ابن الخمس التغلبي، وكان حاضرا. فقال له الحارث : اتقتلني يا ابن شر الاظماء. قال ابن الخمس : اقتلك يا ابن شر الاسماء. فقتله وأخذ سيفه المعلوب ، وهو ذو الحيات ، فأتى به سوق عكاظ، وجعل يعرضه على البيع ويقول : هذا سيف الحارث بن ظالم، فاسترآه أياه (أي طلب أن يراه) قيس بن زهير، فأراه أياه، فعلاه به حتى قتله بالحارث بن ظالم في الحرم، وقال قيس يرثي الحارث (71) :

---

(70) المصدر السابق (اغاني). وأرونا موضع. والثعالب بنو ثعلبة، كانوا مشهورين برمي السهام. يقول ليتني هناك، بدل وجودي هنا، عند الغساسنة، تدافع عني بنو ثعلبة، وتدفع اعدائي.

(71) اغاني 119/11 والعقد الفريد 150/5.

وما قصرت من حاضن ستر بيتها أبـر وأوفـى منك حار بن ظالم
اعز وأحمـى عند جـار وذمـــة واضرب في كـاب من النقـع قاتم

ورثاه ايضا رجل من ضرى، وهم حى من جرهم، فقال (72) :

يـا حـار حنيـــا حـــرا قطاميـــا
مـا كنـت ترعيـــا فـى البيـت ضجعيـا
ادعـــى لبـاخيـــا محـــلأ عيـــا

هذه روايـة ابى عبيدة والبصريين في مقتلـه (73). لكننا وجدنا في كتاب النقائض (74)، رواية أخرى منسوبة لابى عبيدة في مقتل الخمس على يـد قيس بن زهير، حيث يذكـر ان العبسيين في حربهم الطويلة ضد الذبيانيين ، ارادوا ان يدخلوا في حلـف مع التغلبيين، فأرسلوا وفـــدا لمفاوضتهم، فجعلوا ينتسبون ، الى ان وقف أحدهم، ليعرف بهويته أمـام العبسيين فقال : أنـا ابن الخمس التغلبى، فقام اليه قيس بن زهير وقـال لـه : ان زمانـا تجيرنـا أنت فيه لزمان سـوء ، والله لانت أحقر من قراد تحـت منسـم بعيري. ثم دار نفس الحـوار الذي ذكـره البصريون بينهما وقتله. ولا اعلم سببا لهذا الاضطراب، ولعله توهم وقع به صاحب كتـاب الاغـانـــى.

وأما الكوفيون ، فهم يعتقدون ان النعمان بن المنذر هو الذي قتلـه. وروايـة الكوفيين مستقـاة من على بن سليمان بن الاخفش، عن محمد بن حبيب، عن ابن الاعرابى عن المفضـل الضبى (75). واجمالهـا، ان النعمان، بعـد أن هرب الحارث الى مكة، أسف على ذلك، فلطـف له وراسله، الامان، واشهـد على نفسه وجوه العرب «ربيعـة ومضر واليمن» واسكنـه مـع جماعة، وأمرهم ان يتكفلوا له بالوفاء، ويضمنوا عن النعمان، ان لا يهـم الحارث أحـد ولا يزعجه . ففعلـوا.

---

(72) أغانى 119/11.
(73) أغانى 118/11 والعقد الفريد 147/5.
(74) 103/1.
(75) هذه رواية الاغانى 120/11 والذى فى الامثال للضبى ص 47 أن الحارث قدم الحيرة بعد زمن طويل من هذه المسألة، فألقى القبض عليه، واقتيـد الى عـاصمة النعمان، فأمر به ابـن الخمس فضرب عنقـه.

ومرة، كان النعمان في قصر بني مقاتل، فاتاه الحارث وقال للحارس: استاذن لي عند النعمان. فقال النعمان للحارس : ائذن له وخذ سلاحه فعاد الحارس الى الحارث وقال له : ضع سيفك وادخل. قال الحارث : ولم اضعه. قال : ضعه لا بأس عليك. فوضعه ودخل، فوجد عنده ابن الخمس التغلبي، فجرى بينهما نفس الحوار أيضا كالذي سبق في رواية البصريين، بأن قال الملك للحاضرين من كان له عند هذا ثأر فليقتله فهجم عليه ابن الخمس وقتله، وكان ذلك في موضع يقال له الخربة (76)، ولعل قصر بني مقاتل كان هناك أيضا.

واذن فالمصادر متفقة على ان قاتله ابن الخمس، قتله بابيه، وان قاتل ابن الخمس هو قيس بن زهير، قتله بالحارث. والخلاف واقع حول الذي أمر بقتله. أهو الملك الغساني ام الملك المنذري. البصريون يسندون القتل الى الغساسنة، والكوفيون يسندونه الى المناذرة. وليس من السهولة التكهن بما تخفيه اختلافات الروايات والاقوال. لان الاهواء والمشارب متنوعة، واذا اختلطت الحقيقة علينا، فهي لن تضيع، لان جزءا منها يبقى طافيا على السطح. ونحن نتلمس طريقة وسط الظلام، مهتدين ببصيص نور.

وننتهي بذلك من موجز سيرة الحارث بن ظالم، الذي شغل الجزيرة العربية فترة حياته، وبعدها. وكان سببا في حروب عديدة : يوم رحرحان عندما اجارته نميم، وجر هذا اليوم يوم شعب جبلة. ويوم النسار، يوم منعت فيه ضبة الحارث (77) من الملك ويوم شطى اريك عندما غزا الاسود بني اسد بسبب تسترهم عليه، ومعاونته على الهرب.

ونكتفي ايضا بهذا الموجز ولن نطمع الى مزيد، لكي نوسع للشعر وتحقيقه.

شعره :

ان من دوافع اقدامي على هذا الشاعر ، ورود شعره وخبره في المفضليات، والمفضل الضبي لا يحفل بشاعر الا اذا كان من المجيدين، وان

---

(76) العقد الفريد 147/5.
(77) النقائض 790/2.

كان مقلا. ولقد رأيت شعره وخبره مفرقا في الكتب، ولم تمتد اليه يد، فرأيت ان افعل صنيعا، ولو يسيرا، فاعرف ابناء هذه الامة باحد شعرائها وفرسانها، في صورة متكاملة او شبه متكاملة، الى ان يتيسر لنا في قادم الايام جديد. وفي اعتقادي، ان لكل شاعر عربي قديم او متأخر حقا علينا في ان نعلي ذكره ونظهر اسمه، ونعرفه على ابناء قومه. وقد آن لكثير من الشعراء والادباء ورجال الفكر ان ينهضوا من رقدتهم الطويلة بين الكتب القديمة، على يد أرباب البحث والدراسة.

ومع اني، بعد التقصي والتنقيب، اصبت بقسط من خيبة الامل، اذ لم احصل على بغيتي كما املت، لكنني لست بآسف على ذلك ولا مبتئس، وسوف احاول ان اعقد دراسة ولو قصيرة لشعره، من خلال النصوص التي توفرت لدى.

يمدنا شعر الحارث بن ظالم، ببعض اضواء انبعثت من ظلمات حياته التي اكتنفت جوانب عصره، ففيه قصة حب مع فتاة تدعى سلمى، وهي من بني عامر، القبيلة العدوة، فهي اشبه بقصص المتأخرين من العرب أو غيرهم، عندما يجمع الحب بين قلبين ويتحابان، وقومهما أو عائلتاهما عدوتان تتقاتلان. ومع ان الرواة لم يوردوا خبر هذا الحب في سيرة حياته، الا ان الحارث يتحدث عنه بشكل ظاهر وواضح في قصيدته (78) :

نأت سلمى وأمست في عدو تحث اليهم القلص الصعابا

فحديثه عنها حديث مشوق مشوب بألم، ويعزو سبب فرقتهما الى سيفه الذي لم يفصل رأس خالد بن جعفر عن جسده فحسب، بل قطع ايضا وصل سلمى به فلم يعد يراها بعد حادثة الثأر. فانظر الى اي مدى يتغلل الثأر في دماء العربي، لقد ضحى بحبه من أجل ثأر قديم لابيه، وثأر جديد لرجل لا يمت اليه الا عن طريق غطفان، جدهم الاقدم، مع أن أولاد المقتول يتجهزون لثأر أبيهم.

وفي شعره إشارة الى أنه أحبها، عندما كان أهله قريبين من أهله، تحت تأثير عامل التنقل، حيث استوطن أهل سلمى موضعا يدعى

---

(78) المفضليات ص 615.

«روض بيشة» و «الرباب» واستوطن اهل الحارث موضعا يقال له «النعف» .

وحل النعف من قنوين اهلي وحلت روض بيشة فالربابا

وعلى هذا فهو يحث كل يوم قلوصه، كما ذكر في مطلع القصيدة، ليلتقي بها هناك. أما الآن ، وقد اصبح في ارض غريبة عنه، وعن ديار حبيبته، فليس بامكانه ان يلتقي بها، لاسيما وان الاحوص بن جعفر، اخو خالد وابنه عمرو بن الاحوص، هما وليا أمرها، وقد غضبا عليه، بعد قتله خالدا :

وان الاحوصين يولياها وقد غضبا علي فما اصابا

ولسنا نقطع بواقع هذا الحب، أو نؤكده، كما اننا لا ننكره مطلقا، فليس احتمال وقوعه ببعيد. بل نرجح وقوعه بين فتيان وفتيات القبائل المتجاورة، وهو بعد ذلك مظهر من مظاهر النشاط الانساني والادبي عندهم. لان البيئة الصحراوية تساعد على تطور مثل هذه العلاقات الانسانية وتنميتها. اما ان يكون الحارث قد قال هذه الابيات، وضمنها تعريضا لاحدى نسوة عامر، لينال أو يثلم من عرضهم، فهو أمر استبعده منه، لانه لم يقل في الابيات المذكورة شيئا اكثر من وصف لمشاعر الحب المتشوق الى لقاء حبيب، لم يعد الى لقائه من سبيل. وان خلق الحارث يمنعه عن ركوب الزلل. اليس هو القائل عن نفسه في القصيدة نفسها :

فيا لله لم اكسب أثاما ولم اهتك لذي رحم حجابا

وتميز شعر الحارث بصفة غلبت عليه، وقلما وجدت في اشعار الجاهليين. الا وهي هذه النفحة من الروح الحنيفية المنبعثه من اعماق التوحيد، والتي يعزوها الدكتور نجيب البهبيتي الى الشعور القومي لدى العرب، المتمثل في اجتماعهم حول كعبتهم (79)، وهي ملاحظة تصدق على الحارث، لما رأيناه فيه من حرص على قوميته، ودفاعه عنها ووقوفه في وجه كل جور وظلم، ونفحة التوحيد التي تلامس حسنا، كلما مررنا باشعاره القليلة. فكأني أمام رجل من الاحناف الموحدين، لانه يذكر الاله، او ينطق بلفظ الجلالة منبعثا من اعماق نقية لم يشبها كفر ولا وثنية مع انه جاهلي، ولم يدرك الاسلام. وفي ظني انه لو ادركه لاسلم وحسن اسلامه.

(79) تاريخ الشعر العربي ص 39.

فمن امثلة شعره في هذا المجال، قوله يخاطب خالد بن جعفر، عندما قتل خالد بن جعفر عددا من فرسان بنى وعير الحارث بقتلهم (80) :

اعيرتنى ان نلت منا فوارسا ... غداة حراض مثل جنان عبقر
اصابهم الدهر الختور بكترة ... ومن لا يق الله الحوادث يعثر

وقوله (81) :

ارانى الله بالنعم المندى ... ببوقة رحرحان وقد ارانى

وقوله في المكيين يمدحهم ويمدح (82) كعبتهم رمز الشعور القومى الموحد في شبه الجزيرة :

فان يك منهم اصلي فمنهم ... قرابين الاله بني قصى

ويتجلى توحيده في اوضح صورة، في خطابه لعمرو بن الاطنابة الشاعر، وكان عمرو قد ذكره بسوء تجنيا، فظفر به الحارث وعفا عنه (83) :

ما ابالى اراشدا فاصبحانى ... حسبتنى عواذلى أم غويا
بعد الا اصر لله اثما ... في حياتى ولا اخون صفيا

وهو الى جانب هذا كله، يكثر من قسمه بالله. واكتفي بالاشارة الى مواضع هذا القسم في اشعاره (48).

ويعطينا شعره صورة لحياته المتنقلة بين قبائل العرب، وكان كلما غنى عونا من قوم عبر لهم عن شكره، ولا تكاد قبيلة تفضلت عليه بجوار او غيره تفلت من مدحه. ومن هذا القبيل مدحه لحاجب بن زراره التميمى (85).

فان تك في عليا هوازن شوكة ... تخاف ففيكم حد ناب ومخلب
وان يمنع الجار الزراري جاره ... فأعجب بها من حاجب ثم اعجب

وقال يمدح قتادة بن مسلمة الحنفى، الذي اجاره في اليمامة :

قتادة الخير نالتنى حذيته ... وكان قدما الى الخيرات طلاعا

(80) أنظر شعر الحارث المقطوعة 6.
(81) أنظر المقطوعة 15.
(82) أنظر المقطوعة 13.
(83) أنظر المقطوعة 3.
(84) أنظر البيت 8 مقطوعة 4. والبيت 1 من المقطوعة 14 والبيت 8 من المقطوعة 23.
(85) أنظر المقطوعة 5.

وقال يمدحهم ايضا ويشـرك في مدحهم يشكـرا :

جاءت حنيفة قبل جيئـة يشكر كلا وجدنا اوفياء ذؤابـة

ولا اريد ان اطيل بالامثلة وهي بارزة في شعره، لانه مدح اقوامـا عديدين، مثل الطائيين والمكيين والعجليين، ومدائحه في اهل مكة اكثر من سواهـم.

وقصيدته اليائيـة التي رد بهـا على عمـرو بن الاطنابة، فيها دليل قوي على وفائه عندمـا ظفر به وعفـا عنه، وفاء لحقوق قديمة. وتضـاف الى قصص الوفـاء التي تـرددت في ثنايـا قصة حياته. وهي ايضا تقوي الفكـرة التي كونتها عن الحارث في كونه احـد الشعراء الجاهليين الذيـن كانـوا يغنـون بشعرهم. يضاف الى ذلك قول العجلي المتقدم في تضاعيف هـذه الدراسـة (86).

ووفـاؤه وارد بشكل واضح في كثير من اشعـاره. قبل وضـوح اي غرض آخر فيه. وكـل الابيـات التي انتخبناهـا لدى الكلام عن مدائحـه أو شعـره التوحيدي، يصلح اتخاذه مثلا لوفائه. وخاصة شعره في المدح، فهو يقدمه بين يدي ممدوحه اعترافا منه بالجميل. ومدحه لا يتجه الى اشخاص بعينهم، بل الى قبائلهم، لانه كمـا رأينـا لم يكن شخصا متكسبا في مدحه، بل معترفا بجميـل.

وضيـاع شعر الحارث أمـر لم يعد سببه خافيا على دارسي الادب الجاهلي، لانه يتعلق بالشعر الجاهلي نفسـه وضياعه من جهة، ويتعلق بحياة الحارث من جهة ثانية فهو متنقل، كثير الطواف والتخفي، فلـم يـذع شعره بين النـاس ، فتعذرت روايتـه.

والكتب التي أوردت مقطوعته الشعرية، هي الاخرى ليست بـذات اختصاص، اذا استثنينا كتاب المفضليات والاغاني ومنتهى الطلب. فقـد وردت اكثـر اخباره في الامثال وكتب الشواهد، أو كتب التاريخ والمعاجم اللغويـة والجغرافيـة.

(86) أما مطلع اليـائية فهو :

أعزفـا لـي بلـذة قينتيـا قبـل أن يبكـر المنـون عليـا

وأما قول العجلي فهو :

ونحـن منعنـا بالرمـاح ابن ظـالم فضـل يغنـي آمنـا في خبائنـا

أنظر المقطوعة 3 من شعره والاغاني 116/11.

الشعـر والتحقيـــق :

ـ 1 ـ

قال الحارث بن ظالم المري، بعد ان قتـل خالـد بن جعفـر العامري وهي مفضليـة :

نـأت سلمـى وأمسـت في عـدو ... تحث اليهـم القلـص الصعابـا
وحل النعف من قنوين أهلـى ... وحلـت روض بيشـة فالربـابـا
وقطـع وصلهـا سيفـى وانـى ... فجعـت بخالـد عمـدا كـلابـا
وان الاحوصيـــن تولياهـــا ... وقـد غضبـا علي فمـا اصابـا
على عمـد كسوتهمـا قبوحـا ... كمـا اكسـو نساءهمـا السـلابـا
وانى يـوم غمـرة غيـر فخـر ... تركـت النهـب والاسرى الرغابا
فلسـت بشاتـم ابـدا قريشـا ... مصيبـا رغم ذلك من اصـابـا
فمـا قومـى بثعلبـة بـن سعـد ... ولا بفـزارة الشعـرى رقـابـا
وقومـى ان سألت بنـو لـؤى ... بمكـة علمـوا النـاس الضرابـا
سفهنـا باتبـاع بنـى بغيـض ... وتـرك الاقربيـن بنـا انتسابـا
سفاهـة فـارط لمـا تـروى ... هـراق المـاء واتبـع السرابـا
لعمـرك انفـى لاحـب كعبـا ... وسامـة اخوتـى حبـى الشرابا
فمـا غطفـان لـى بـأب ولكـن ... لـؤى والدي قـولا صـوابـا
فلمـا ان رأيـت بنـى لـؤى ... عرفـت الـود والنسـب القرابـا
رفعـت الرمـح اذا قالـوا قريش ... وشبهـت الشمائـل والقبـابـا
صحبـت شظية منهـم بنجـد ... تكـون لمن يحاربهـم عـذابـا
وحش رواحـة القرشى رحلـى ... بناقتـه ولم ينظـر ثوابـا
كأن السيـف والانسـاع منهـا ... وميثرتـى كسيـن أقـب جابـا
فيـا لله لـم اكسـب اثـامـا ... ولـم أهتـك لـذى رحم حجابـا
اقامـوا للكتائـب بكل يـوم ... سيـوف المشرفية والحـرابـا
فلـو انى اشـاء لكنـت منهـم ... ومـا سيـرت اتبـع السحابـا
ولا قظـت الشربـة كـل يـوم ... اعدى مـن مياههـم الذبـابـا
مياهـا ملحـة بمبيـت سـوء ... لبيـت سقابهـم صردى سغابـا
كـأن التـاج معقـود عليهـم ... اذا وردت لقاحهـم شزابـا

المفضليـات ص 618 ـ 621 (عـدا البيـت 18).

منتهى الطلب مخطوطة رقم 53 ش بدار الكتب المصرية الورقة 144 ـ 145 (عدا البيتين 7 ، 18) (البيت 15) الشمايل بدل الشمائل والبيت 23 سقائهم بدل سقابهم.

سيرة ابن هشام 100/1 الابيات (8 الشعر الرقابا بدل الشعري رقابا + 9) (مضر بدل الناس) + 10 + 11 مخلف بدل فارط 21 البيت مروي على الوجه التالى :

فلو طووعت عمرك كنت فيهم وما الفيت انتجع السحابا

+ 17 بناجية بدل بناقته + 18.

الاغانى 117/11 البيت 15 + 8 + 9 + 10 + 17 + 18 موافق لابن هشام.

النقائض 15 + 8 موافقة لابن هشام.

المحبر ص 169 ـ 15 + 8 (بينت بدل شبهت) (الشعرى رقابا بدل الشعر الرقابا).

المعانى الكبير 522/1 البيت 21.

شرح المرزوقى على الحماسة ص 198 (ولا بفزارة الشعر الرقابا).
الحماسة البصرية 79/1 البيت 15.
وانشد سيبويه ايضا 103/1 البيت 15.
وفي المقتضب منسوبا الى الحارث بن ظالم.
شرح شواهد العينى الخزانة 609/3 (هامش).

معانى المفردات :

1 ـ عدو مفرد وجمع . تحث أي أنت تحث.

2 ـ نعف جانب من الجبل شاخص يشرف على فجوة. وقنوان جبلان. وروض بيشة والرباب موضعان.

3 ـ يقول : لما قتلت خالدا صار أهلى أعداء لي وانقطع ما بينى وبينها من الوصل. وكان سبب ذلك سيفى.

4 ـ الاحوصان : الاحوص بن جعفر وابنه عمرو.

5 ـ كسوتهما قبوحا اي اوقعت بهما فنث ذلك عنهم، وهجوتهم فشاع ذلك عليهم. والبست نساءهم ثياب الحزن، وهى ثياب سود وخضر.

8 ـ 9 البيتان يرويان خبر انتفائه من قيس والتحاقه بقريش. وجاء في شرح المفضليات ص 618 ان فزارة بن ذبيان بن بغيض مر بجد الحارث بن ظالم وقد مات ابوه لؤى بن غالب فارتحلت امه الى بنى ثعلبة بن سعد، فارتحلوا وتركوه في دارهم فقال فزارة. ما خلفكهاهنا. قال : خلفنى القوم لانى لست منهم فقال فزارة:

عرج علي ابن لؤى جملك تركك القوم ولا مترك لك

ثم الحقه فزوجه ابنته. لذلك قال الحارث «سفهنا باتباع بنى بغيض ... البيت».

11 ـ الفارط، المتقدم على الماشية لاصلاح الحياض والدلاء والارشيه. يقول : لما روي من الماء هراق ما كان معه منه، واتبع السراب من جهله، وكذلك نحن اذ تبعنا بنى بغيض.

10 ـ اي اننى كنت في حالة حرب فلما علمت ان القوم هم قريش رفعت السيف عنهم، ثم بدأت امتدح شمائلهم وصروحهم وامجادهم .

16 ـ شظية جماعة . (17) اي ان رواحة اكرمنى وملا رحلى ولم يطلب جزاء على فعلته الكريمة علي.

18 ـ النسع سير مظفور تشد به الرحال. والميثرة وطاء محشو يوضع على رحل البعير تحت الراكب. والاقب الظامر. والجاب القوي الغليظ.

21 ـ أي أنى لو اشاء لكنت من قريش التى ما كانت تنتجع الغيث، ولا تطلبه بغير أهلها كما تفعل العرب . وقال السحاب وأراد الكلا لانه يكون به.

22 ـ الشربة موضع . اعدى أصدف، والذباب الاذى. ويروي الذئاب أي ذئاب العرب.

23 ـ الصردي الواجدة من البـرد، والصرد البرد. والسغاب الجياع، قال تعالى : أو اطعام في يوم ذي مسغبة أي ذي مجاعة.

24 ـ الشزاب الضامـرات. الواحـد شازبـة.

ـ 2 ـ

وقـال بعـد ان قتـل شرحبيل (ابن النعمان بن المنـذر الملـك) وهي مفضليـة :

قفـا فاسمعا اخبركما اذا سألتما ... محارب مولاه وثكـلان نـدم
فاقسـم لولا من تعـرض دونـه ... لخالطه صافي الحديـدة صـارم
حسبت ابـا قابـوس انك سالم ... ولما تصب ذلا وانفك راغـم
فان تك اذواد اصبـن وصبيـة ... فهذا ابـن سلمى رأسه متفاقـم
علـوت بذي الحيات مفـرق رأسه ... وهل يركب المكروه الا الاكـارم
فتكت بـه كما فتكت بخـالـد ... وكان سلاحي تجتويـه الجماجـم
اخصيـي حمار بات يكـدم نجمة ... أتـا كل جاراتي وجـارك سالـم
تمنيتـه جهرا على غيـر ريبـة ... احاديـث طسم انما انت حالـم
بدأت بهـذى ثـم اثنى بهـذه ... وثالثـة تبيـض منهـا المقـادم
شفيـت غليـل الصدر منه بضربة ... كذلك يأبـى المغضبـون القماقم

المفضليات ص 616 (عدا البيتين 8 ، 10) وأمثال العرب للمفضـل الضبي ص 46 الابيات كلها عدا (8 ـ 10) والثالث فائز بدل سالم، وتذق بـدل تصب . والرابع لولا بدل الا . والسابع أيؤكل بدل أتأكل . والتاسع (بدات بتلك وانثنيـت بهـذه).

الاغاني 11/103 ـ 104 الابيات (1 + 3) (سابقى بدل سالم ولما تذق فتكى بدل ولما تصب ذلا +) (فان تك أواد «اصبت ونسوة» + 5 + 6) (فتكت به فتكا كفتكي بخالد) في هذا البيت والبيت الذي قبله جعل صدر البيت الاول مع عجز الثاني وبالعكس (وامره بدل رأسه) + 7 (اتؤكل بـدل اتأكل) + 8 + 9 (بمثلها بـدل بهذه) + 9.

الكامـل في التاريخ 1/563 البيت 7 + 5 + 6 (كما في الاغاني) + 8 (موافقـة للاغانـي).

العقد الفريد موافقة لما في الكامل لابن الاثير. والبيت 3 (محفزي بدل سالم).

شروح سقط الزند ص 1888 ضربت بذى الحيات مفرق رأسه.
حماسة البحتري ص 32 البيت 6 مع عجز البيت 7 وبالعكس.

معانى المفردات :

1 ـ **يقول** : اسمعا اخبر كما الخبر : أنا محارب مولاه «يريد ابن عمه» قتلت ابن الملك الذي كان في حجر سنان بن ابى حارثة، فجاربنى ونفانى. وثكلان نادم، أي الملك، قتلت ابنه فهو ثكلان نادم.

2 ـ **يقول** : لولا من دون الملك من حرسه واحبائه لطلبته حتى اقتله.

4 ـ **ابن سلمى** يعنى ابن الملك الذي ربيته سلمى بنت ظالم أخت الحارث «وفي رواية سلمى من بنى أسد» وأخذه الحارث وقتله. ورأسه متفاقم أي ليس بملتئم.

5 ـ ذو الحيات سيفه عليه تمثال حية. فلما ثلمته التروس سما، المعلوب، لانه كان يشد قبضته بالعلباء وهى قطعة من قماش.

6 ـ **تجتويه الجماجم** ، أي لا يوافقها . تقول اجتويت بلدة كذا اذا لم توافقك.

7 ـ **يشبهه بخصيى حمار** يعض نباتا أو يكدمه ، أي يعبثه، وهذا التبات يدعى نجمة وهو من غير ساق.

9 ـ أي بدأت بقتل ابن الملك ثم اقتل الملك.

ـ 3 ـ

وقال الحارث بن ظالم يجيب عمرو بن الاطنابة الشاعر :

اعزفا لي بلذة قينتيا ... قبل ان يبكر المنون عليا
قبل ان تبكر العواذل اني ... كنت قدما لامرهن عصيا
بعد ألا اصر لله اثما ... حسبتنى عواذلى أم غويا
ما أبالى أراشدا فاصبحانى ... في حياتى ولا أخون صفيا

من سلاف كانها دم ظبي ... في زجاج تخاله رازقيا
بلغتنا مقالة المرء عمرو ... فأنفذنا وكان ذاك بديا
قد هممنا بقتله وبرزنا ... فلقيناه ذا سلاح كميا
غير ما نائم تعلل بالحد ... لم معدا بكفه مشرفيا
فمننا عليه بعد علو ... بوفاء وكنت قدما وفيا
ورجعنا بالصفح عنه وكان ... المن منا عليه بعد تليا

اغاني 11/123 ـ 124 وروي البيت الثالث على الوجه الآتي ايضا :

ما أبالي اذا اصطحبت ثلاثا ... ارشيدا صحبتني أم غويا

وروي البيت السابع أيضا (اذ برزنا) بدل (وبرزنا).

ابن الاثير الكامل 1/565 الابيات 6 (فالتقينا بدل فأنفذنا) + 7 (اذ برزنا بدل وبرزنا) + 8 على الوجه الآتي :

غير ما نائم يروع بالفتك ولكن مقلدا مشرفيا.

عيون الاخبار 1/184.

المعاني :

5 ـ وصف نكهة الخمرة الطيبة بدم الظبي الذي يستخرج المسك منه. والرازقي الكتان أو ثياب تتخذ منه. وهو أيضا عند الطائف.

6 ـ عمرو، أي عمرو بن الاطنابة، وكان هجا الحارث بن ظالم بقوله:

ابلغ الحارث بن ظالم الرعد ... يد والناذر النذور عليا
انما يقتل التيام ولا يقتل (م) ... يقظان ذا سلاح كميا

في قصيدة له ذكرها صاحب الاغاني 11/121 وابن الاثير في الكامل 1/564 .

ـ 4 ـ

وقال ايضا :

الا ابلغ النعمان عني رسالة ... فكيف بخطاب الخطوب الاعاظم
وانت طويل البغي ابلغ معور ... فزوع اذا ما خيف احدى العظائم
فما غره والمرء يدرك وتره ... بأروع ماضي الهم من آل ظالم

أخي ثقة ماضي الجنان مشيع ... كميش التوالي عند صدق العزائم
فأقسم لولا من تعرض دونه ... لعولى بهدى الحديدة صارم
فأقتل اقواما لئاما أذلة ... يعضون من غيظ أصول الابا هم
تمنى سنان ضلة ان يخيفني ... ويأمن ما هذا بفعل المسالم
تمنيت جهدا ان تضيع ضلامتي ... كذبت ورب الراقصات الرواسم
يمين امريء لم يرضع اللؤم ثديه ... ولم تتكنفه عروق الالائم

الاغانى 116/11

معانى المفردات :

2 ـ الابلخ المتكبر في نفسه . الجري على اتيان الفجور. ومعور قبيح السريرة . مريب.

3 ـ المشيع الشجاع لان قلبه لا يخذله، أي يشيعه. كميش التوالى أي مشمر جاد.

4 ـ رقص الابل ضرب من سيرها، والرواسم من الرسيم ضرب من سير الابل أيضا.

ـ 5 ـ

وقال يخاطب حاجب بن زرارة وقد طلب منه ان يتنحى عن جوارهم :

لعمري لقد جاورت في حى وائل ... ومن وائل جاورت في حي تغلب
فأصبحت في حى الاراقم لم يقل ... من القوم يا حار بن ظالم اذهب
وقد كان ظنى اذ عقلت اليكم ... بنى عدس ظنى بأصحاب يثرب
غداة اتاهم تبع في جنوده ... فلم يسلموا المرءين من حى يحصب
فان تك في عليا هوازن شوكة ... تخاف ففيكم حد ناب ومخلب
وان يمنع المرء الزراري جاره ... فأعجب بها من حاجب ثم أعجب

الاغانى 100/11 الزراري نسبة الى زرارة بن عدس التميمى.

ـ 6 ـ

وقال أيضا يخاطب الملك النعمان :

تعلم ابيت اللعن انى فاتك ... من اليوم أو من بعده بابن جعفر
اخالد قد نبهتنى غير نائم ... فلا تأمنن فتكى يد الدهر واحذر

اعيرتني ان نلت منا فوارســـا ... غداة حراض مثل جنان عبقـــر
اصابهم الدهـر الختور بختـــرة ... ومن لا يق الله الحوادث يعثـــر
فعلك يوما ان تنـوء بضربـــة ... بكف فتى من قومه غير جيـــدر
يغص بهـا عليـا هوازن والمنـى ... لقـاء أبي جـزء بأبيـض مبتـر

الاغانـى 97/11 (وكلمـة يـد في البيـت الثانـى بمضـى مـدى) معجم ما استعجم للبكري مادة (حراض) البيت الثالث فقـط.

معـانـى المفـردات :

4 ـ الختـرة الخديعـة .

5 ـ جيـدر قصيـر .

6 ـ ابو جزء هو خالد بن جعفر الكلابى، المقصود في القصيدة.

ـ 7 ـ

وقـــال :

الا سائل النعمان ان كنت سائـلا ... وحى كلاب هل فتكـت بخالـــد
عشوت عليه وابن جعـدة دونـه ... وعروة يكـلا عمه غيـر راقـــد
وقـد نصبا رجلا فباشرت جوزه ... بكلكـل مخشى العـداوة حـــارد
فأضربه بالسيف يافـوخ رأسـه ... فصمم حتى نـال نوط القلائـــد
وافلت عبد اللـه منى بذعـــرة ... **وعـروة من بعد ابن جعدة شاهدي**

الاغانـى 97/11 ـ 98.

معـانـى المفـردات :

2 ـ ابـن جعـدة هو عبد الله وكان ذا رأي، وهو عم خالد بن جعفر، يكـلا يحفـظ ويحـرس.

3 ـ رجلا لغة في رجل. وجوزه وسطه. وحـارد غاضب.

4 ـ اليافوخ ملتقى عظم الرأس في المقدمة . صمم مضى. ونوط جمع نَيـاط ، ونياط كل شـيء معلقـه.

- 8 -

وقال يرد على قيس بن زهير :

أتاني عن قيس بني زهير ... مقالة كاذب ذكر التبولا
فلو كنتم كما قلتم لكنتم ... لقاتل ثأركم حرزا أصيلا
ولكن قلتم جاور سوانا ... فقد جللتنا حدثا جليلا
ولو كانوا همو قتلوا اخاكم ... لما طردوا الذي قتل القتيلا

الاغاني 98/11 .

معاني المفردات

1 ـ التبولا الثارات مفرده التبل.

- 9 -

وقال أيضا :

ابلغ لديك بني قيس مغلغلة ... اني اقسم في هزان ارباعا
ابنا حلاكة باعاني بلا ثمن ... وباع ذو آل هزان بما باعا
يا ابنا حلاكة لما تأخذا ثمني ... حتى اقسم افراسا وادراعا
فتادة الخير نالتني حذيته ... وكان قدما الى الخيرات طلاعا

الإغاني 116/11 وحذيته عطيته.

- 10 -

وقال :

يكلفني الكندي سير تنوفة ... أكابد فيها كل ذي ضبة مثري
واقبل دوني جمع ذهل كأنني ... فلاة لذهل والزعانف من عمرو
ودوني ركب من لجيم مصمم ... وزبان جاري والخفير على بكر
لعمري لا اخشى ظلامة ظالم ... وسعد بن عجل مجمعون على نصري

الاغاني 106/11 والضبة القطعة من الغنم أو بقية منها.

- 11 -

وقـــال :

همت عكابة أن تضيـم لجيمـــا ... فأبـت لجيم ما تقـول عكابـــه
فما سقى بجيرا من رحيق مدامة ... واسقى الخفيـر وطهري أثوابـــه
جاءت حنيفة قبل جيئة يشكـــر ... كـلا وجدنا أوفيـاء ذؤابـــــة

الاغانـى 116/11 .

معـانـى المفـردات :

1 ـ لجيـم قبيلـة .

3 ـ أوفيـاء . أي انهم اجاروه، وذوابة أي سـادة قومهـم.

- 12 -

وقـــال :

لعمري لقد حلت بى اليوم ناقتى ... على ناصر من طىء غير خـاذل
فأصبحت جارا للمجرة فيهـــم ... على باذخ يعلـو يـد المتطـاول
اذا اجـأ لفـت على شعـابهـــا ... وسلمـى فانى انتم من تناولـى

الاغانى 107/11 الاول والثانى (منهم بدل من فيهم). العقد الفريـد 147/5 ونهايـة الارب للنويـري 354/15.

- 13 -

وقـال :

اذا فارقـت ثعلبـة بن سعـــد ... واخوتهـم نسبت الـى لـــؤي
الى نسب كريـم غيـر دغـــل ... وحي من اكـارم كـل حـــــي
وان يك منهم أصلـى فمنهـــم ... قرابيـن الالـــه بنـي قصـــى

العقـد الفريـد 149/5 .

نهايـة الارب 355/15. الثالـث (وغل بـدل دغل).

- 14 -

وقال في قتله خالد بن جعفر :

باللـه قد نبهته فوجدته ... رخو اليدين مواكلا عسقالا
فعلوته بالسيف أضرب رأسه ... حتى أضل بسلحه السربالا

الكامل في التاريخ 560/1 .

- 15 -

وقال يتظاهر بهجو بني اسد حتى يصرف انظار الاسود بن المنذر عنهم :

أراني الله بالنعم المندى ... ببرقة رحرحان وقد اراني
لحي الانكدين وحي عبس ... وحي نعامة وبني غدان

الخزانة للبغدادي الاول وبعده الابيات التالية منسوبة لمالك بن نويرة :

أان قرت عيون فاستفيئت ... غنائم قد يجود بها بناني
حويت جميعها بالسيف صلتا ... ولم ترعد يداي ولا جناني
تمشي يا ابن عوزة في تميم ... وصاحبك الاقيرع تلحياني
ألم أك نار رائية تلظى ... فتتقيا أذاي وترهباني
فقل لابن المذب يغض طرفا ... على خلع المذلة والهوان

ولعل الابيات مختلطة ببعضها من قصيدتين مختلفتين للحارث ولمالك.

- 16 -

وقال بعد ان لحق بمكة وقريش :

الا لستم منا ولا نحن منكم ... برئنا اليكم من لؤى بن غالب
غدونا على نشز الحجاز وانتم ... بمنشعب البطحاء بين الاخاشب

سيـرة ابن هشـام 100/1 .

العقـد الفريـد 149/5 .

نهايـة الارب للنويـري 355/15 .

- 17 -

وقال في سجنه لـدى الغساسنـة في الشـام :

لقد قال لى عند المجاهد صاحبـى بذي اروني ترمـى ورائى الثعالـب
وددت بأطراف البنان لـو اننـى وقد حيل دون العيش هل انت شارب

اغانـى 118/11.

- 18 -

وقـال :

الحافظـو عورة العشيـرة لا يأتيهـم من ورائهـم نطـف

شروح سقط الزنـد ص 1307 نطف أي تلطخ بالعيب والفسـاد.

- 19 -

وقـال :

«.. وما الفتـك الا ان تهـم فتفعـلا».

شـروح سقـط الزنـد 1686 .

- 20 -

وقـال .

متى تملك القلب الذكى وصارما وانفا حميا تجتنبك المظالم

الاشتقاق ص 11 للهذلـى أو الحارث بن ظالـم.

التصحيف ص 174 قال ابن دريد «وغطفان تروى البيت للحارث بن ظالم لانه اجتلبه». ويروي لابن حريم ايضا.

وأوردته مصادر التحقيق الاخرى لعمرو بن براقة وهو الراجح واليك بيانها :

الاشتقاق ص 11 وورد أيضا في ص 254 لمالك بن حريم.

والبيت في الحماسة البصرية 111/1 لعمرو بن براقة أيضا وكذلك امالى القالى 122/2 مع القصة . والاغانى 332/3 دار الكتب و 113/21 ساسى والعينى 333/3 وابن الجراح ص 8، والوحشيات ص 23 وابن الشجري (7) 10/1، ومقاتل الطالبيين ص 132 والبيان والتبيين 138/2، وانظر ص 749 وحماسة البحتري ص 220 والعقد الفريد 61/1 والمؤتلف والمختلف ص 67 وعيون الاخبار 237/1 لمالك بن حريم والاشباه والنظائر 8/7 .

- 21 -

وقال :

أنا أبو ليلى وسيفى المعلوب
كم قد اجرنا من حريب محروب
وكم رددنا من سليب مسلوب
وطعنة طعنتها بالمنصوب
ذاك جهيز الموت عند المكروب
هل يخرجن ذودك ضرب تشذيب
ونسب في الحى غير ما شوب
هذا أوانى وأوان المعلوب
من يشتري سيفى وهذا أثره

أمثال العرب للضبى ص 50 البيت (6 + 7 + 8).
الفاخر للمفضل بن سلمة البيت (1 + 7).
مجمع الامثال للميدانى 263/2 البيت (1 + 7).

الاغانى 105/11 الابيات (1 + 2 + 3 + 4 + 5).

الخزانة للبغدادي الابيات (1 + 2 + 3 + 4 + 5) والرابع.

شروح سقط الزند ص 1888 البيت الاول.

اللسان مادة (علب) البيت الاول .

التاج مادة (شذب) البيت (1 + 6).

- 22 -

وقال :

اذا سمعت حنة اللفاع منطقا بصارم قطاع
فادعي أبا ليلى ولا تراعى يغري به مجامع الصداع
ذلك راعيك فنعم الراعي وتلك ذود الحارث الكساع
يجبك رحب الباع والذراع دعوت بالله فلا تراعى

الاغانى 105/11 ، 107 البيت 1 + 2 + 3 + 4 + 5 ورواه ايضا : يمشى لها بصارم قطاع 4 + 6 ، 11 يسفى يدل يقرب + 7.

الكامل في التاريخ 560/1 البيت 1 + 2 فادعى ابا ليلى فنعم الداعى + 5 «يمشى بعضب صارع قطاع + 6».

مجمع الامثال للميدانى (1 + 2 + 3).

الدرر الفاخرة مخطوطة ورقة 125 (1 + 2 + 3) فان تراعى بدل ولا تراعى.

المستقصى من امثال للعرب للزمخشري 154/1 (1 + 2 + 3).

خزانة الادب للبغدادي 176/3 البيت 1 + 2 + 3 + 5 (يمشى لها بصارم قطاع) + 7 + 8 .

- 23 -

واما المفضل الضبي في امثاله ص 49 فقد اورد الابيات على الوجه الآتي :

انى سمعت حنة اللفاع ... في النعم المقسم الاوزاع
ناقة ما وليدة جياع ... أما اذا اجدبت المراعى
فانها تجلب في الجماع ... أما اذا اخصبت المراعى
فانها تقى من النقاع ... فادعي أبا ليلى ولا تراعي
ذلك راعيك فنعم الراعى ... الا يكن قام عليه ناعي
لا تؤكلي العام ولا تضاعي ... منتطقا بصارم قطاع

يغري به مجامع الصداع

قال المفضل ، ان صاحب الابل أبا الطماح بن عمرو بن قعين وقف يرتجز بهذه الابيات. قال في الاغاني 105/11 ، 107 أن الحارث بن ظالم هو الذي وضع هذا الرجز على لسان صاحب الابل المذكور، فالنسبة راجحة للحارث.

- 24 -

وفي بنى حرملة بن الاشعر يقول الحارث بن ظالم.

أبلغ جذيمة ان عرضت فانني ... عمداً تركتهم عبيد سنان
لو كنت من رهط الحرامل لم أعد ... وبنيت مكرمة بكل مكان
القاتلين من المناذر سبعة ... في الكهف فوق وسائد الريحان

كتاب نسب قريش للزبير بن بكار 26/1 وجذيمة رهط الحارث بن ظالم . والمناذر النعمان بن المنذر ورهطه. يقول «لو ان قومى مثل قوم حرملة بن الاشعر»، إذن لبنيت المكارم في كل مكان، لكنهم، وقد اظهروا عجزهم عن موازرتى ، فقد تركتهم يعانون العبودية على يد سنان بن أبى حارثة. الكهف التى قتل فيها بنو حرملة من اشراف المناذرة سبعة. والاشارة الى وسائد الريحان دليل سمو مكانتهم.

مصادر شعر الحارث بن ظالم ومراجع دراسته

1 ـ البغدادي ـ عبد القادر بن عمر .
خزانة الادب ولب لباب العرب ط بولاق

2 ـ وفي حاشية الخزانة كتاب شرح الشواهد للعيني.

3 ـ البحتري ـ أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي .
ديوان الحماسة تحقيق لويس شيخو .

4 ـ البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز .
معجم ما استعجم تحقيق السقا .

5 ـ التبريزي أبو زكريا الخطيب.
شرح سقط الزند طبع الدار القومية 1964.

6 ـ ثعلب أبو العباس احمد بن يحيى .
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ط. دار الكتب المصرية.

7 ـ ابو تمام حبيب بن أوس الطائي .
الوحشيات (الحماسة الصغرى) تحقيق الميمنى وشاكر.

8 ـ الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر .
البيان والتبيين تحقيق عبد السلام .
الحيوان ط. ساسي

9 ـ ابن الاثير محمد بن الجزري .
الكامل في التاريخ . بيروت

10 ـ الخالديان ابو بكر محمد ، وابو عثمان سعيد .
الاشباه والنظائر ط. لجنة التأليف والنشر .

11 ـ ابن دريد محمد بن الحسن الازدي .
الاشتقاق ط. مصر خانجي 1958 .

12 ـ الزبيدي محمد بن محمد بن عبد الرزاق
تاج العروس المطبعة المنيرية .

13 ـ الزبير بن بكار
نسب قريش مكتبة دار العروبة

14 ـ الزمخشري ، جـار اللـه، محمود بن عمـر
المستقصى من امثـال العرب ط. حيـدر آبـاد.
15 ـ الزركلـى خيـر الديـن .
الاعـلام ط. مصـر .
16 ـ السهيلى ابو القاسم ، عبد الرحمن بن عبد اللـه.
الـروض الانـف . ط الجماليـة 1914
17 ـ صدر الدين البصري على بن أبى الفرج بن الحسن البصري.
كتـاب الحماسـة البصريـة ـ ط. حيدر آبـاد .
18 ـ صـلاح الديـن الهـادي
الشمـاخ بن الضرار ط. مصـر .
19 ـ الاصفهانى أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي.
الاغانـى ـ دار الكتب أو بحسب الهامش.
20 ـ الضبي ـ المفضـل بن محمـد .
امثـال العـرب طبـع الجوائـب .
المفضليـات ط. لايـل .
21 ـ ابن عبد ربـه احمـد بن محمـد الاندلسى
العقـد الفريـد ـ طبع لجنـة التأليـف.
22 ـ أبـو عبيـدة معمـر بن المثنـى .
نقائض جريـر والفرزدق ـ تحقيق بيفـان .
23 ـ عـروة بن الـورد العبسـى ، الشاعـر .
ديـوانـه ـ نشـر الجزائـر.
24 ـ محمـد بن حبيـب .
المحبـر ط. حيـدر آبـاد .
25 ـ المرزوقى ابو علي احمـد بن محمد الحسين .
شـرح حماسة ابى تمـام ط. لجنـة التأليـف .
26 ـ ابن منظـور محمد بن مكـرم بن علي .
اللسـان ط. بـولاق .
27 ـ الآمدى ابـو القاسـم الحسن بن يحيى بن ابى بشر.
المختلـف والمؤتلـف . تحقيـق عبد الستار فراج 1961 .

28 ـ ابـن ميمـون .
منتهـى الطلـب ـ مخطوطـة ـ دار الكتب المصرية.
29 ـ حمـزة الاصفهانـى
الـدرر الفاخـرة مخطوطـة .
30 ـ النابغـة الذبيانـى .
ديوانـه ـ تحقيق أبو الفضل ـ مصـر 1974.
31 ـ المفضل بن سلمـة بن عاصـم
الفاخر في الامثال. طبع وزارة الثقافة والارشاد القومى 1960
32 ـ الميدانى ابو الفضل احمد بن محمد .
مجمـع الامثال ط. القاهـرة 1955 .
33 ـ النويري احمـد بن عبد الوهـاب .
بلـوغ الارب ط. دار الكتـب المصريـة .
34 ـ ابن قتيبـة ابو محمـد عبد الله بن مسلـم.
المعانى الكبيـر ط. حيـدر آبـاد .
الشعـر والشعراء ط. دار المعـارف بمصـر.
عيـون الاخبار ط. دار المعـارف بمصـر.
35 ـ سيبـويـه
الكتـاب، مع شـرح شواهـده للاعلـم
36 ـ شوقـي ضيـف
تاريـخ الادب ـ العصـر الجاهلـى
37 ـ امـرؤ القيـس
ديـوانـه .
38 ـ عـدي بن زيـد العبـادي
ديوانـه ، تحقيـق محمـد جبـار المعيبـد
39 ـ جـاد المولـي وجماعتـه .
أيـام العـرب ـ طبعـة أولـى.
40 ـ ابـن المعتـز .
طبقـات الشعـراء .

41 ـ اليـزيـدي
الامـالـي .
42 ـ ياقـوت الحمـوي
معجـم البلـدان طبـع لايبزك ـ والسعـادة .
43 ـ اليهبيتـى
تاريـخ الشعر العربى ـ طبعـة أولـى.
44 ـ مالـك بـن الريـب .
ديوانه، تحقيق الاستاذ الدكتور نوري حمودي القيسى، ضمن مجلة معهد المخطوطات. مصر.
45 ـ القالـى ابـو علي اسماعيل بن القاسـم البغـدادي
الامالـى ـ ط. دار الكتـب المصريـة .
46 ـ عادل البياتى ـ الشعـر في حرب داحس والغبـراء.
طبـع مطبعـة الاديـب بالنجف 1972.

قيس بن زهير

هو قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، يكنى أبا هند (1)، شاعر ، فارس، عرفت منه الشجاعة في كل موقعة حربية فجعلته عبس رئيسا لها بعد مقتل أبيه. وهو احد طرفي النزاع مع حذيفة بن بدر، رئيس ذبيان، عند بدء الرهان ، وآخر السباق، حتى وضعت الحرب أوزارها. وقد اشتهر بجودة الرأي، حتى سمي بقيس الرأي. فقاد قومه في حروبهم وغاراتهم، وكان داهية في التخطيط الحربي، حتى ضرب به المثل فقيل : «أدهى من قيس» (2) : وقد بلغ من دهائه وجودة رأيه أنه مر، ومعه الربيع بن زياد، ببلاد غطفان، فلم تغره ثروتها وعددها فقال له الربيع : «أيسوؤك ما يسر الناس» فقال قيس : «لا ولكن مع الثروة التحاسد والتباغض، ومع القلة التعاضد والتآزر» : ومواقفه التاريخية في القيادة الحربية جعلته معدودا في الخالدين . ففي حرب «جفر الهباءة» لجأ الى خدعه انقذته وانقذت قومه، يوم تجسست ذبيان واحلافها، فمزق تجمعهم واكتسب النصر : ذلك انه عمد الى المال والنساء فسرحهم جميعا، وسرح معهم من لا يقدر على حمل السلاح، ثم سيرهم بعيدا، وابقى الرجال والمقاتلين . فلما اقبل العدو اخذ طريق المال، فلما انشغلوا في سلبه وتمزقت وحدتهم، اعمل قيس فيهم السيف، حتى ناشدتهم ذبيان وأحلافها البقية»، فاسترجع قيس ماله، وسبى، واسر وغنم. وهو صاحب المشورة، يوم «شعب جبلة» ، عند قدوم ذبيان وأحلافها، فاستجاروا بالجبل وأحكموا الخطة، حتى اذا أقبل العدو انطلقت الجمال من أعالى الجبل نحو العدو ضارية بخفها وهى تنحدر، كل حجارة أو صخرة . والمقاتلة من ورائها، تضرب من تمر بهم، حتى كانت الهزيمة نكراء في ذبيان وحلفائها . فالجبل حصن منيع، والقائد الذكى يستطيع أن يتخذ منه وسيلة لنصر محقق. وقد سبق في قصة الحرب ذكر هذا كله ولا داعى لتكراره (3).

---

(1) الزمخشرى — المستقصى من أمثال العرب 121/1.
(2) ابن قتيبة — عيون الاخبار 11/4.
(3) ينظر كتاب الشعر فى حرب داحس والغبراء.

وفي صفة قيس، ذكر القدماء، أنه كان «أحمر ، أعسر ، أيسر، بكر بكرين» (3)، وكانت العرب تتشاءم من هذه الصفات. ولم يؤثر ذلك في شخصية قيس : فالحروب التى خاضها لم تكن من صنع يديه، انما هى مرحلة حياة كان لها أسبابها، وقد مر بها عرب الجاهلية، وهى التى أملت عليهم هذا اللون من الحياة ، فضلا عن طبيعة النظام الاجتماعى والاقتصادي والسياسى الذي كان البدوي يعيشه، وكذلك الحضاري على حد سواء. ولعل قيس بن زهير خفف كثيرا من آلام قومه، بسبب حكمته ، ودرايته، وحسن تدبيره. ولو لم يكن قيس على مسرح الاحداث لكان سواه ، ولكانت حياتهم مع غيره أكثر معاناة . الم تكن القبائل فى كل أرجاء الجزيرة تتطاحن في حروب وأيام مستمرة، وكانت حرب داحس من أشدها ضراوة ؟!

وقيس ابن زعيم، دانت له غطفان كلها، اجتمعت عليه، ولم تجتمع على أحد قبله ولا بعده في جاهلية ولا اسلام (4). وكان أبوه زهير أبا لعشرة، وأخا لعشرة، وكانت له علاقة حسنة بملوك الحيرة حتى أنه زوج أخته لاحدهم، والتى اشتهرت فيما بعد «بالمتجردة» وقد قتل على يد خالد بن جعفر بن كلاب العامري (5).

وكان قيس فخورا، بلغ من فخره، أن قريشا أجارته، عندما التجأ اليها في مشاحنته للربيع بن زياد العبسى، بسبب الدرع التى غلبه الربيع عليها. فكرهت قريش مفاخرته، ومل هو ذلك، فتركهم مستجيرا بغزارة قبل حربه معهم، فأجاره حذيفة بن بدر وظل في جوارهم، حتى تفاخرا في الخيل وتجاريا ووقع النزاع فنشبت الحرب.

واشتهر قيس بحزمه، حتى ان الحطيئة كان يعادله بألف حازم، عندما سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كيف كنتم في حربكم ؟ قال الحطيئة : كنا ألف حازم، قال كيف ؟ قال : كان فينا قيس بن زهير، وكان حازما، ولا نعصيه، فكأنا ألف حازم، وكنا نقدم باقدام عنترة،

---

(3) المرزباني معجم الشعراء 197.
(4) المصدر السابق.
(5) ابن الاثير الكامل 556/1، 565 بيروت.

ونأتم بشعر عروة (6) . «وفي كتب الامثال طائفة من أقوال قيس، ذهبت مثلا بين الناس، قالها في مناسبات متعددة خلال حربه وسلمه».

واختلف الرواة في نهاية قيس، والثابت أنه عاصر الحرب منذ البداية حتى يوم أشار عليهم بالصلح، والرجوع الى أرض غطفان، وانطلق الى قوم النمر بن قاسط وتزوج فيهم. وانجب ولدا سماه «فضالة» وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه وكان تسعة هو عاشرهم. وقد اغترب قيس في حياته كلها اغترابا مؤلما، قال التبريزي: «غربة كغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض، وهى أشد غربة وأطولها» (7) .

ومن أقواله ، عندما أراد مجاورة قوم النمر : «انى قد جاورتكم واخترتكم فانظروا لى امرأة قد أدبها الغنى، وأذلها الفقر في حسب وجمال» ثم قال : «ان في خلالا ثلاثا ، انى غيور، وأنى فخور، وانى أنف ، ولست أفخر حتى أبدا، ولا أغار حتى أرى، ولا آنف حتى أظلم» «ولما أراد الرحيل عنهم قال لهم» : انى موصيكم بخصال وناهيكم عن خصال، عليكم بالانأة، فان بها تنال الفرصة، وتسويد من لا تعابون بتسويده، وعليكم بالوفاء، فان به يعيش الناس، وباعطاء من تريدون اعطاءه قبل المسألة، ومنع من تريدون منعه قبل الالحاح، واجاره الجار على الدهر . وتنفيس المنازل عن بيوت الايامى، وخلط الضيف بالعيال. وانهاكم عن الرهان، فان به تكلت مالكا أخى، والبغى فانه صرع زهيرا أبى وحملا، والسرف في الدماء فان قتل أهل «الهباءة» أورثنى العار. ولا تعطوا في الفصول فتعجزوا عن الحقوق. ومنع الحرم الا من الاكفاء: فان لم تصيبوا لها الاكفاء فخير منازلها القبور. واعلموا انى كنت ظالما ومظلوما ظلمنى بنو بدر بقتلهم مالكا. وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له (8)» وهذه العبارات تعد وثيقة صريحة تدين النظام الاجتماعى في الجاهلية، وتبرز الوجه الانسانى الرائع للاسلام.

(6) المرزبانى ص 84.

(7) ابن حجر — الاصابة 266/3 رد على غلط الرواة بأن قيسا مات فى خلافته عمر وذكر انه مات قبل البعثة. ابن الاثير الكامل 355/1 والتبريزى فى شرحه لديوان أبى تمام تحقيق محمد عبده عزام طبع مصر دار المعارف . وجاء قوله المذكور عندما فسر قول ابى تمام فى البيت الاتى :

غربة تقتدى بغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض

(8) الشريف المرتضى — الامالى 208/1 وابن الحديد — شرح نهج البلاغة 151/4.

وقيل في نهايته، أنه خرج من قوم النمر بن قاسط واتجه نحو عمان، واقام فيها متبتلا مترهبا يرتدي المسوح، ويرافقه صاحب له من بني أسد يقال له «رافع بن المعتصم»، وقيل أنهما خرجا مرة يسيحان في الارض يتقوتان مما تنبت. الى أن دفعا في ليلة برد الى أقبية اشتد بهما الجوع فسعيا نحو رائحة شواء فلما قارباها أدركت قيسا شهامة النفس، فقال لصاحبه «دونك وما تريد» فان لي لبثا على هذه الاجارع، أترقب داهية القرون الماضية. فمضى صاحبه، وعندما رجع في الصباح، وجده قد لجأ الى شجرة في اسفل الوادي ، فنال من ورقها شيئا، ثم مات فقال الحطيئة (9) :

ان قيسا كان ميتته ... أنفا والحر منطلق
شام نارا باللوي اقتدحت ... وشجاع البطن يختفق (10)
في دريس لا يغيبه ... رب حر ثوبه خلق

وقيل بل مات مقتولا على يد «حوج بن مالك العبدي» الذي لقيه مترهبا فعرفه فقتله وقال : «لارحمتي الله ان رحمتك» (11).

وتنتهي حياة هذا الرجل الفذ، وقد حدد له صاحب كتاب الاعلام تاريخ وفاته في سنة 631 ميلادية : 10 هجرية (12).

شعره

الصفة الغالبة في شعر قيس بن زهير، انه شعر مقطعات أما القصائد فقليلة، وحتى هذه، فان اطولهن يبلغ عدد أبياتها واحدا وعشرين بيتا (13)، وله قصيدة أخرى من أحد عشر بيتا (14) وثالثة

---

(9) الخالديان ــ الاشباه والنظائر 129/1 وشرح العيون ص : 140. ولعل هذه النهاية هي التي حدت بالاب لويس شيخو اليسوعي أن يلحق قيس بن زهير بشعراء النصرانية، على رأي من تنصر في أخريات أيامه ولم يسلم، ان كان أدرك الاسلام.
(10) الشجاع الافعوان، والمعنى أن الافعوان الجوع يختفي في بطنه، وهذا من أوابد العرب حيث يعتقدون أن الانسان اذا اشتد به الجوع تحرك الافعوان في بطنه.
(11) ابن الاثير ــ الكامل 355/1.
(12) الزركلي ــ مادة «قيس».
(13) المفضل الضبي ــ أمثال العرب ص 32 والعيني شرح الشواهد الكبرى 130/1.
(14) أبو حاتم السجستاني ــ كتاب المعمرين ص 145 .

في تسعة (15) أبيات، ورابعة مثلها (16) ، وخامسة من ثمانية أبيات (17) وسادسة من سبعة أبيات (18)، ومقطعات يتراوح عدد أبياتها بين الستة الابيات والبيتين وهى لا تتعدى عشر مقطعات (19).

ولا يعني هذا أنه ليس لقيس شعر غيره، لان الذي أحصيناه يتعلق بهذه الحرب فقط . ولقيس شعر غيره في مناسبات أخرى، بعضها حربية لا تمس حربنا، والبعض الآخر يتعلق بشؤون الحياة العامة. وجميع هذا الشعر لم يدخل في احصائية هذه الحرب. والواقع، أن شعر قيس بن زهير جدير بالجمع والتحقيق والدراسة، ففيه مادة وفيه خبر، كما أن له صفة متميزة يلاحظها المتصدي لدراسة الشعر الجاهلى عامة والحرب بصفة خاصة، كما ستظهر لنا خلال هذه الدراسة. والذي أحصيناه ليس كل شعره ، بل المتعلق منه بحربنا، ولم نتطرق في الدراسة الى غيره. لكن هذه الحرب استأثرت بثلثى شعر قيس تقريبا.

ان الناظر في شعر قيس بن زهير يرى أن طابع الحماسة والفخر غالب عليه، وهو أمر ليس بغريب عنه، فالرجل خاض غمار حرب طويلة، اخذت أربعين عاما من عمره، عاش لها وكان أحد فرسانها المجلين، يكتب مع اخوان له في السلاح سطورها، ويفكر ويدبر، وكلما خرج من بلاء وجد ان الدهر أعد له بلاء جديدا. فما أحرى بشاعر مثل قيس، أن يكتب شعرا يصور فيه هذه الحرب، ومن يدري لعله فعل فكتب القصائد الطوال التى تحكى جوانب حروبه وأيامه، ولكن الزمن عفى عليها..لا سيما وانه لم يبق لنا منه سوى هذه الشذرات، نحاول أن نصنع منها شيئا يصل بنا الى حقيقة، أو الى شيء نستطيع أن نطمئن اليه.

---

(15) المفضل الضبى ص 36 وأبو عبيدة — النقائض 96/1 والاغانى 138/17.
(16) المفضل الضبى ص 38 وأبو عبيدة 100/1.
(17) المفضل الضبى ص 40 وأبو عبيدة 102/1.
(18) المفضل الضبى ص 39 وأبو عبيدة 102/1.
(19) المفضل ص 32 وأبو عبيدة 92/1 — 270/2 والمفضل بن سلمة — الفاخر ص 222 وأبو تمام — ديوان الحماسة (المرزوقى) 203/1 و 469. والتبريزى 23/3 والخالديات وأبو تمام — ديوان الحماسة (المرزوقى) 203/1 و 469. والتبريزى 23/3 والخالديان — الاشباه والنظائر 268/2 — وابن الاثير — الكامل 348/1 و 353/350 .

والمادة التى يتألف منها الفخر في شعره مستمدة من أحداث الحرب اليومية، يدعمه واقع الحال، فلا يجيء بما يوحى أنه ادعاء، أو قريب منه، بل هى شواهد قائمة، لها ما يؤيدها. ففى رثائه لاخيه القتيل، يستهل القطعة بأبيات في الفخر، فيعطى كل المناسبات التى يفتخر بها الاقران، وكانت ذبيان قتلت أخاه مالكا فقتل به أخاهم عوفا ولذلك فهو يجري الموازنة بين الاخوين، أخيه وأخيهم، ويخرج بالنتيجة التى مهدت لها مقدماته، وهى أن قتله اخاهم وخير سعد معه، هو البديل الوحيد ليبوء دم مالك أخيه فقال (20) :

أخي والله خير من أخيكم ... اذا ما لم يجد بطل مقاما
اخي والله خير من أخيكم ... اذا ما لم يجد راع مساما
اخي والله خير من اخيكم ... اذا الخفرات أبدين الخداما (21)
قتلت به أخاك وخير سعد ... فان حربا حذيف وان سلاما

ومع أن المناسبة تتطلب الرثاء والدموع، لكن قيسا كما ترى بعد قليل لا يبكى قتلى قومه ، بل ان رثاءه فخر لهم . وهذه صفة المحارب من شعراء الجاهلية .

واقتران الفخر بالحماسة ظاهرة عامة مألوفة في الشعر الجاهلى. وهى تتجلى في شعر قيس بن زهير بصورة واضحة، ولكنه قد يفخر بقومه وبنفسه، ثم يعرج فيعرض بعدوه ويمدح قوما آخرين، يتم هذا كله في آن واحد، وفي قصيدة واحدة، وهو شىء كثير الورود في شعر الحرب، غير أن التنقل بين الاغراض المختلفة، في القصيدة الواحدة. دون سابق ارتباط، يكون أحيانا مفاجئا، مما يوحى وكأن أبياتا في القصيدة لم يذكرها الرواة ، قد سقطت فأحدثت هذه الثغرات أو الفجوات، وكان من حقها أن تذكر بين الاغراض المختلفة ، لكى يكون التنقل منطقيا.

---

(20) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 39.
(21) الخفرات النساء فى الخدن. وابين الخداما أى كشفن عن ساقهن ايذانا بخطر. وهى عادة المرأة فى حرب أو غارة. والخدام الخلخال، وقد تسمى الساق خدما عليه. وهنا كناية عن الحرب أو عن القضيلة.

فليس معقولا أن يكون الانتقال بمثل هذه السرعة لا سيما ونحن نلاحظ أن أغلب القصائد الجاهلية الطوال بل حتى القصار منها تمهد للغرض قبل ان تنتقل اليه. ومع ذلك فان الحالة في شعر الحرب مختلفة جدا، لان طبيعة هذا الشعر تفترض الايجاز، وان التماس الغرض مباشرة، غالبا ما يكون في قصائد الحرب، لكي يؤدي الشعر مهمته بمثل ما تكون الحرب سرعة ومضيا، فالشاعر المحارب غير الشاعر الفنان، فذاك يقول الشعر ليخدم به المعركة ويصل الى الفوز الذي هو بغيته قبل أي شيء آخر، وهذا يقوله لاجل الشعر نفسه. الاول يتخذه سلاحا والثاني يتخذه صنعة وفنا، فلا غرو اذا ما قصر باع الاول وبرز الثاني. وتعليل آخر نراه أكثر شمولا لهذه الظاهرة، ظاهرة الانتقال السريع بين الاغراض المتنوعة خلال القصيدة الواحدة، مرده ان الرواة لم يذكروا القصيدة كاملة أو هكذا وصلت اليهم، فانها أحيانا تصل اليهم وقد خرج منها أبيات ، فالذي ينظر الى دالية قيس بن زهير يخرج منها بعدة ملاحظات :

على الرغم من أن القصيدة قيلت في أيام متأخرة من حرب داحس والغبراء، فان قيس بن زهير بدأها في ذكر المشاحنة على الدرع مع ابن عمه الربيع بن زياد العبسي، فقد أخذها منه الربيع أو غلبه عليها، فاستاق قيس بدلها من ابل الربيع أربعمائة، وباعها لعبد الله بن جدعان القرشي، واشترى بأثمانها أفراسا وسلاحا :

ألم يبلغك والانباء تنمى ... بما لاقت لبون بني زياد (22)
ومحبسها على القرشي تشرى ... بأدراع وأسياف حداد

ثم يفجؤك بأول الرهان ، وبدء الحرب مما يدل على أن قضية «الدرع» كانت عنده أعظم بكثير من قضية «لطم الفرس» ورده عن الغاية، لاسيما وأن الامر لم يصل حتى اللحظة الى سفك دماء، وانما قيام بني بدر بالتفاخر عليه وردهم لفرسه ولجوئهم الى الخديعة. بينما كان الامر بالنسبة لقضية الدرع قد بلغ حد استياق اربعمائة من ابل الربيع، وقتل رعائها (23)، لذلك فهو بالنسبة لبني بدر لم يفعل أكثر من

(22) المفضل الضبي ــ أمثال العرب ص 32 وأبو عبيدة ــ النقائض 96/1.
(23) العيني ــ شرح الشواهد الكبرى 230/1.

امتناعه عليهم، ودفعه للخسف بالسيوف، ثم يبدأ بالتوعد مقتصداً في كلامه على عادة الفرسان :

كما لاقيت من حمل بن بدر ... واخوته على ذات الاصاد
همو فخروا على بغير فخر ... وذادوا دون غايته جوادي
وقالوا قد قمرناه خداعاً ... وأين الخدع من مائة الجياد
كرهنا أن يقر الخسف فينا ... دفعنا بالمهندة الحداد
فمهلا يا حذيفة عن بناتي ... فان القول مقتصد وعادي

ومن خلال توعده ينتقل الى الفخر ، وليس في انتقاله الى الآن ما يشعر بسقوط أبيات من القصيدة :

وكنت اذا منيت بخصم سوء ... دلفت له بداهية نهاد
بداهية تدق الصلب منه ... فتقصم او تجوب عن الفؤاد
وقد دلفوا الى بفعل سوء ... فالفوني لهم صعب القياد
وكنت اذا أناني الدهر ربق ... بداهية سددت لها نجادي
ألم يعلم بنو الميقاب (24) اني ... كريم غير معتلث الزناد

أما الابيات التي ختم بها القصيدة ، فيبدو انها نظمت في زمن متأخر عن الابيات السابقة، بل ان بين الابيات السابقة والتي سوف تليها ما يقرب من ثلاثين عاما او يزيد، لان الخصومة بسبب الدرع كانت قبل الحرب. وعندما جرى الرهان كان الربيع مشاحنا لقيس، كما وضح في الشعر، وقصة الحرب. وبدء القتال، ومرت أعوام طوال، كان بعدها يوم «جبلة» ، ومعارك اخرى، التجأ بعدها قيس والربيع الى ربيعة بن قرط. وكان يسمى «ربيعة الخير» وكان ذلك كله بعد حرب «جبلة»، باتفاق جميع المصادر.

قال أبو عبيدة (25) : «وكان قيس جاور ربيعة بن قرط بعد وقعة «جبلة» وربيعة هذا هو الذي عقد حلف بني عبس مع بني بكر بن أبي كلاب. واذا فتاريخ الابيات التي ختمت بها القصيدة، وسنذكرها بعد هذه السطور، يبتعد كثيرا عن تاريخ الابيات التي ذكرناها.

---

(24) الميقاب : التي تلد الحمقى.
(25) النقائض 408/1 والتبريزي — شرح ديوان الحماسة 27/3.

وعلى هذا يرجح الرأي عندنا انها قيلت فيما بعد. ويتأيد لدينا ان بعض القصائد الطوال ـ مثل معلقة عنترة ـ يظل أصحابها يضيفون اليها مع مر الزمن ، الامر الذي يفسر تباعد الاحداث في بعض ابياتها. وهذه القصيدة التى نحن بصددها توضح ذلك، فاذا انبرى قائل يقول : وما يمنع أن تكون القصيدة كلها قيلت بعد يوم «جبلة»، أو بعد مجاورة ربيعة بن قرط، قلنا ان طبيعة الاشياء ووقائعها تابى هذا. ذلك ان حرب داحس بعد مجاورة قيس لربيعة بن قرط قربت من نهايتها. فاية جدوى من ذكر حادثة تافهة مثل حادثة الدرع وتقديمها على حرب عظيمة في غطفان والقبائل المجاورة ؟ ثم ما الذي يدفع قيسا ان يعود الى هذه الحادثة، وقد اصطلح مع الربيع بن زياد، وهما الان يد واحدة على عدوهم ؟ فالراجح أن القسم الاول، ويضم ابياتا في حادثة الدرع، قيل قبل اول أيام الرهان، وقيس ما يزال مشاحنا للربيع.

اما الابيات الاخيرة فانها قيلت بعد مجاورة ربيعة، وقد مضى على الحرب نحو من ثلاثين عاما. ثم اضيفت الى القصيدة فيما بعد، وفيها مدح لربيعة، ووصف لحال قيس، وقد طوف في البلاد، خلال سنوات الحرب وتائب القبائل عليه وخوفه من كل شيء يحيطه أو أرض يهبطها. لكنه ما ان استجار بربيعة وشعر أن خيوله وفرسانه تطوف حوله كالجوارح ، أحس بالامن والاستقرار فأناخ راحلته وكأنه يعقلها الى جبل :

أطوف ما أطوف ثم أوي ... الى جار كجار ابي دواد (26)
اليك ربيعة الخير بن قرط ... وهوبا للطريف وللتلاد (27)
كفاني ما أخاف أبو هلال ... ربيعة فانتهت عني الاعادي
تظل جياده يجمزن حولي ... بذات الرمث كالحدأ الغوادي (28)
كأني اذ أنخت الى ابن قرط ... أنخت الى يلملم أو نضاد (29)

(26) جار أبى داود اختلفت الروايات فى تسميته ففى النقائض المصدر السابق انه هلال بن كعب بن مالك. وفى الشعر والشعراء 238/3 قال ابن قتيبة «وكان أبو عبيدة يذكر أن جار أبى داود كعب بن مامة» وفى شرح ديوان الحماسة قال التبريزى 27/3 «ان جار أبى داود الحارث بن همام».
(27) ويروى البيت منيع وسط عكرمة بن قيس ـ نقائض 408/1.
(28) ذات الرمث موضع والحدأ جمع حدأة وهى طائر جارح.
(29) ابن قرط هو أبو هلال ربيعة الخير المذكور فى البيت الاسبق. ويلملم ونضاد جبلان.

وقد فطنت بعض المصادر الى هذا الخلط، وحاولت أن تعطى حكما غير مباشر فيه، بأن فصلوا أبيات الهجاء في الربيع وحمل بن بدر عن أبيات المديح في ربيعة بن قرط، فذكروا الاولى أول أيام الحرب، وذكروا الثانية في موضعها من القصة عند لجوء قيس الى ربيعة. وبذلك يتجنبون اختلافها ولعلها هى الرواية الصحيحة (30). غير أننا لا نستبعد كونها قصيدتين اتفقتا وزنا ورويا، غفل عنها الرواة أو اخطأ بها الناسخون عن جهل. ونستبعد أن يقع في هذا الغلط أو السهو عالم مثل أبى عبيدة وغيره، وهو الذي كان في بيته ديوان العرب.

وقيس عندما يفتخر، لا ينسى أنه لم يبلغ ما بلغه الا بقبيلته وقومه، ولولاهم لكان نسيا منسيا. وقد علمته حادثة الدرع مع أبناء عمه درسا لن ينساه . ولذلك كله يحرص على وحدة قومه بعدئذ، فلم يفرط بأحد. وقد انعكست هذه العصبية وآثارها على نفسه بشكل جعله يلتزم بها حتى النهاية. ولا غرابة فالشاعر الجاهلى يعبر بصدق عن مفاخر قومه ونفسه، وبالاخص اذا كان رئيسا لقبيلة، فان اشادته بكل أمجادها وفخره بتاريخها فرض عليه قبل سواه. اذ أن كل قول يقوله يسير في القبائل ويتنقل بين مجتمع شبه الجزيرة، ويؤخذ عنه اكثر مما يؤخذ عن شاعر آخر، أو فرد من أفراد القبيلة نفسها، فالظلم الذي أصابه من ذبيان ابت عبس كلها أن تغمض عينها عنه، وان جاء الاحتجاج على لسان قيس :

كرهنا أن يقر الخسف فينا دفعنا بالمهندة الحداد

ومن هنا نستخلص تعليل الظاهرة البارزة في قصة الحرب وهى أن قيس بن زهير يسجل أحداث الحرب ووقائعها أولا بأول، مراعيا

---

(30) المفضل بن سلمة — الفاخر ص 220 والميدانى مجمع الامثال 58/2 وذكرها العينى فى شرح الشواهد الكبرى 230/1 كلها فى الربيع بن زياد حول حادثة الدرع ولم يذكر أبيات المدح فى ربيعة بن قرط وزاد عليها الابيات التالية :

جزيتك يا ربيع جزاء سوء وقد تجزى المقارض بالايادى
وما كانت بفعلة مثل قيس وان تك قد غدرت ولم تغاد
أخذت الدرع من رجل أبى ولم تخش العقوبة فى المعاد
ولولا صهر معنى لكانت به العثرات فى سوء المقاد

جميع الاعتبارات المذكورة في الرئاسة والفخر والحماسة. وهو حتى في الهجاء يعبر بلغة الجمع عما في النفوس (31) :

تعرفن من ذبيان من لو لقيته
بيوم حفاظ طار في اللهوات

ولو أن سافي الريح يجعلكم قذى
لاعيتنا ما كنتم بقذات (32)

ولعل شعر الرثاء عند قيس متميز بخصائص، لم نجدها عند غيره من الشعراء. ورثاؤه الذي جمعناه يدخل في دائرة الفخر والحماسة بلا نزاع ، بل يكاد يكون فخرا وحماسة، يرفع من شأن القتيل ويفضله على من سواه من اعدائه. ثم يعد بأخذ ثأره متهددا، ثم يتطرق لذكر الامجاد، كانه بذلك يذكر خصومه بما أنزله فيهم من العذاب. أما التوجع والدموع فليس لهما في شعره أثر، وقد تقدم ذكر الابيات التي قالها في أخيه مالك وهي تصور هذه الخصائص :

أخي والله خير من أخيكم اذا ما لم يجد بطل مقاما

ويتكرر الامر نفسه في رثائه لقرواش بن هنى عندما ظفرت به فزاره وقتلته فقال قيس يرثيه (33) :

مالي أرى ابلي تحن كأنها نوح تجاوب موهنا أعشارا (34)

هذا الالم الدفين ، وهذا الحزن الموجع، أبت أنفة صاحبه أن يفصح عنه، فنقله الى ابله التي يقتلها الحنين والشوق الى ارض الوطن في جنوب «مويسل» وغيرها. ولكن ما وقع يمنع ذلك، وقد اصاب منهم شوما كثيرين. وكانه بذلك يرد عليهم فحرهم بقتل قرواش. ثم يعود الى حديث الثأر والتهديد، فوعد بالغارة والتزاور فوق ظهور الخيل :

(31) الخالديان — الاشباه والنظائر 198/2 والحماسة البصرية «باب الهجاء» وابن نباته — السرح ص 121.
(32) سافي الريح : الريح التي تسفي التراب. والبيتان تصغير لشأن ذبيان.
(33) المفضل الضبي.. أمثال العرب ص 39.
(34) نوح نساء ينحن والاعشار جمع عشر وهو ان يرد الماء في اليوم التاسع. والموهن بعد صدر من الليل.

لـن تهبطـى أبـدا جنـوب مويسـل
وقـنـا قـراقـرتيـن والامـوارا
أجهلـت مـن قـوم هرقـت دمـاءهـم
بيـدي ولم أدهـم بجنـب تعـارا (35)
ان الهـوادة لا هـوادة بيـنـنـا
الا التجـاهـد فاجهـدن فـزارا
الا التـزاور فـوق كـل مقلـص
يهـدي الجيـاد اذا الخميـس أغـارا
غـلاهيطـن الخيـل حـر بـلادكـم
لحـق الاياطـل تنبـذ الامهـارا (36)
حتى تـزور بـلادكـم وتـرى بهـا
منكـم ملاحم تخشـع الابصـارا (37)

وفي رثاء قيس تبـرز ظاهرة «الانصاف» واضحة، فلقـد وقـف بعـد معركة «جفـر الهبـاءة» وقد أفزعه مشهـد الدمـاء تجري سيولا في أرض غطفـان، وعز عليـه القتيـل برغم عداوتـه فجعل يرثيه . وهو أول شاعر يرثـى مقتولـه (38) :

تعلـم أن خيـر الناس ميـت على جفـر الهبـاءة مـا يريـم
ولـولا ظلمـه ما زلـ تأبكـى عليـه الدهـر ما طلـع النجـوم

وفي هذه القصيدة مصداق قولنا للذي بسطناه في شعر الرثاء عند قيس بـن زهير : ذلك أنه أبت عليـه انفته أن يجلس ليـذرف دمعة على قتيل : ولكنه يريـد أن يبكـى، الا أن البكـاء يمتنـع عليه لان المقتـول كـان ظالمـا ، ولولا ظلمـه لبكـاه الدهـر ما دامت النجـوم طالعـة، وقد جاء استعمالـه للاداة «لـولا» مناسبـا، ومع ذلـك فان قيسـا كان سيبكيـه

---

(35) ادهـم ادفـع ديتهـم.
(36) لحق الاباطل اللاحقة الظافرة وهى الخيل اذا ضمرت.
(37) الملحمة الحرب ذات القتل الشديد، الحرب العظيمة.
(38) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 35 أبو تمام — ديوان الحماسة (المرزوقى) 428/1 والاغانى 221/17 وغيرهما وفى بعض المصادر «لايريم بدلا من ما يريم» والمذكور فى أعلاه هو الاصح لان لا للدعاء وليس هذا موضعها.

فعلا، لان المقتول ليس من قومه، فلا يدخل ضمن خطة قيس في رثاء قتلاه، لان ابن القبيلة بطل لا يستحق من قيس دمعة فانية ، بل حلودا باقيا وثارا شافيا.

وفي هذه القصيدة تظهر عيوب الرواة وجنايتهم على الشعر الجاهلي، فالابيات متنافرة، يأبى أن ياخذ بعضها برقاب بعض كما يقولون، وفجوات الانتقال بين الاغراض واسعة، ففي البيتين اللذين يليان المطلع غير المصرع، ما يزال الشاعر في صدد رثاثة لحذيفة بن بدر، وان كان قد انتقل فجأة لهجاء أخي حذيفة، وهو انتقال له ما يسوغه : وبعض شارحي الابيات ظنوا أن المرثي والمهجو واحد (39)، هو حمل بن بدر. ولكن الصحيح عند من ذهب الى أن الرثاء في حذيفة، والهجاء في أخيه حمل ابن بدر، وان كان الشاعر قد عاد ووصف حذيفة بالظلم :

ولولا ظلمه ما زلت أبكي عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر بغى والبغي مرتعه وخيم

فالظالم هو حذيفة بن بدر، حيث امتنع عن دفع السبق، والباغي هو أخوه حمل بن بدر. ثم ينتقل الى الحكمة فيسوق الواحدة تلو الاخرى.

أظن الحلم دل على قومي وقد يستجهل الرجل الحليم

ويصف حاله مع الذين أنكروا عليه سبقه :

ألاقي من رجال منكرات فأنكرها وما أنا بالظلوم

وفي البيت اقواء ملحوظ (40) :

وخروج قيس من الرثاء الى الحكمة له ما يبرره، لانهما غرضان قريبان من بعضهما، قرب ما بين الموت وحكمته من صلة قديمة. فلطالما كانت حكمة الموت وما تزال شغل الفلاسفة والمفكرين، وان أحدنا في مشهد الموت ليصبح أكثر تأملا في الحياة.

وعلى الرغم من هذا الرثاء البليغ ، فان الشاعر لم ينس الظلم الذي صبه القتيل على قوم الشاعر، والبغي الذي كان محور حياة

(39) المصادر السابقة.
(40) في البيتين اللذين يليان هذا البيت أيضا حيث تتبدل حركة الروي الى الكسر.

أخيه حمل بن بدر. وكان حذيفة يؤيد أخاه في كل ما يذهب اليه. لقد اجتمعت هذه المميزات وهذه المعاني كلها في مرثيته .

وتظل ذكرى دماء قتلى «الهباءة» عالقة في في ذهن شاعرنا حتى يعترف بذنب لم يسبقه الى الاعتراف بمثله أحد. وكأنه بذلك يتمم رسالته الانسانية في اعطاء قبائل العرب المتقاتلة درسا بليغا. لقد ظلت نفسه الحاقدة التى أعماها طلب الثأر على حقدها وعماها. فلم يشفه الا ادراك الثأر فأدركه، وشفى ثم ندم فكأنما «ذهبت السكرة وجاءت الفكرة». وتكشف هذه الابيات ندمه حيث يقول (41) :

شفيت النفس من حمل بن بدر ... وسيفى من حذيفة قد شفانى
فان أك قد بردت بهم غليلى ... فلم تقطع بهم الا بنانى
قتلت باخوتى سادات قومى ... وقد كانوا لنا حلى الزمان

وظلت فكرة الندم هذه تطارد قيسا، فكانت ابياته المؤثرة التى بلغت احد عشر بيتا، يصور فيها اعوام الحرب واحداثها في فكر منظم دل على اتزان وعمق (42) :

ولقد أجمعت المصادر المختلفة، دون استثناء ، أن قيس بن زهير كان كارها لهذا الرهان في أوله ولم يرغب فيه. وشعره يؤيد ذلك، ففيه تهويل للحرب، وتذكير للقوم بوجوب الصلح والعودة الى الاحلام. وكان يسفه رأي سنان بن حارثة المري الذي كان يزين لحذيفة الحرب. وظل يدب في الفساد دبيب النمل الى حجرها ليفسد بين القوم. ثم أطلق قيس على الاقوام لقب جدهم «بغيض بن ريث» لعله يحرك في القوم أنبل عاطفة لها خطرها في نفس البدوي، ويصف لهم الحرب بأنها وعرة، مضلة، وطريق السلم بنها امنة سهلة، لكى يستطيع أن يصل بصوته اليهم ، ويستجيبوا الى النداء المخلص حقنا للدماء (43) :

يود سنان لو يحارب قومنا
وفي الحرب تمزيق الجماعة والازل (44)

(41) أبو تمام — ديوان الحماسة — المرزوقى — 203/1.
(42) السجستانى المعمرين 145.
(43) المفضل بن سلمة — الفاخر ص 222 الميدانى — مجمع الامثال 58/2.
(44) الازل : التشتت والتفرق.

يـــدب ولا يخفـــى ليفســـد بيننـــا
دبيبـــا كمـــا دبـــت الى حجرهـــا النمـــل
فيـــا ابنـــى بغيـــض راجعا السلم تسلمـــا
ولا تشمتـــا الاعـــداء يفتـــرق الشمـــــل
وان سبيـــل الحـــــرب وعـــر مضلـــة
وان سبيـــل السلـــم آمنـــة سهـــــل

ومع الزمـن رانت على نفس قيس احـزان عميقـة، تبـدو آثارهـا في نغمتـه اليائسـة في نشـدان السلـم (45) :

لحا الله قوما ارثوا الحـرب بيننا سقونا بها مرا من الشرب اجنـ
وحرملة الناهيهـم عـن قتـالنـا وما دهـره الا يكـون مطاعنـــا

ويقـــول (46) :

ان تـك حـرب فلـم اجنها جنتهـا صبارتهـم او همـو

وعالج قيس أغراضا شعرية اخرى، فله في المـدح مقطعات ولكنه مدح لاشخاص يضارعون قيسا في المكانة. وطابع مدحه يتسم بالصدق تعبيرا ومضمونا، كمدحه لربيعـة بن قـرط المار ذكره أول هذا الحديث، ومدحه للربيـع بن زيـاد يتسم بهذه السمات فيقـول (47) :

لعمـرك مـا أضـاع بنـو زيـاد ذمـار ابيهـم فيمـن يضيـــع
بنـو جنيـة ولـدت سيـوفـا صـوارم كلها ذكـر صنيـع (48)
شـرى ودي وشكري من بعيـد لآخـــر غـالـب ابـدا ربيـــع

والحكمة في شعـر قيس مبثوثـة خلال أبيات القصائـد والمقطعات : مع أن شعـر الحرب يكـاد يخلـو من الحكمـة وعمق الفكرة. ولكن قيسا أغنته خبراته، وطول تأملاته في الحـرب والحياة، ولم تمنعه ضغائـن العصبية، أن يكون حكيما ذا فكـر عميق يتدبر أمر هذه القتول الكثيـرة التى تذهب بلا ذنب ودون جنايـة :

---

(45) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 39 وأبو عبيدة — نقائض 100/1 .
(46) المرجع السابق ص 32 وأبو عبيدة 92/1.
(47) شرح ديوان الحماسة — التبريزى 24/3.
(48) الذكر من صفات السيف.

أما خلو شعر قيس من الغزل والنسيب، فيرجع الى أنه رجل سياسة وحرب، شغلته المعارك بامورها، وصرفته السياسة وشئون القبيلة عن التفرغ للغزل. وربما وجدت في مطالع قصائده ابيات في الغزل، ضاعت مع ضياع القصائد.

ومن خصائص شعره الفنية، وضوحه وابانته، وخلو معناه من التعقيد، ولغته من وحشى اللفظ، كانما كان ذلك منه مقصودا، يدرك معنى زعامته، ووجوب ايصال أفكاره الى أبناء قبيلته والقبائل الاخرى، ونحن نعلم، أن الشعر كان سلاحا ماضيا يستخدم لكسب المعركة، وقيس كان رجل قضية، من أجلها نذر حياته، ولم تكن تهمه النتائج بمقدار ما يهمه ارتفاع مكانة عبس، واستتباب الصلح بين قبائل قيس، والقبائل العربية كما طالعنا بذلك شعره.

شعر قيس بن زهير

قال قيس بن زهير يذكر حادثة الدروع مع بنى زياد، ويتطرق الى مقدمات حربه مع بنى ذبيان :

- 1 -

ألم يبلغك والانباء تنمى ... بما لاقت لبون بنى زياد (1)
ومحيسها على القرشي تشرى ... بأدراع واسياف حداد (2)
جزيتك يا ربيع جزاء سوء ... وقد تجزى المقارض بالايادي (3)
وما كانت بفعلة مثل قيس ... وان تك قد غدرت ولم تفاد
اخذت الدرع من رجل أبى ... ولم تخش العقوبة في المعاد
ولولا صهر معنى لكانت ... به العثرات في سوء المقاد
كما لاقيت من حمل بن بدر ... واخوته على ذات الاصاد (4)
هموا فخروا علي بغير فخر ... وذادوا دون غايته جوادي (5)
وقالوا قد قمرناه خداعا ... وأين الخدع من مائة الجياد
كرهنا أن يقر الخسف فينا ... دفعنا بالمهندة الحداد
فمهلا يا حذيفة عن بناتى ... فان القول مقتصد وعادي
وكنت اذا منيت بخصم سوء ... دلفت له بداهية نآد
بداهية تدق الصلب منه ... فتقصم أو يجوب عن الفواد
وقد دلفوا الى بفعل سوء ... فالفونى لهم صعب القياد
وكنت اذا أتانى الدهر ربق ... بداهية سددت لها نجادي (6)

الم يعلم بنو الميقاب أني ... كريم غير مغتلث الزناد (7)
أطوف ما أطوف ثم آتي ... الى جار كجار أبي دواد (8)
اليك ربيعة الخير بن قرط ... وهوبا للطريف وللتلاد
كفاني ما أخاف أبو هلال ... ربيعة فانتهت عني الاعادي
تظل جياده يجمزن حولي ... بذات الرمث كالحدأ الغوادي (9)
كأني اذ أنخت الى ابن قرط ... عقلت الى يلملم أو نضاد (10)

مصادر التخريج :

المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص 32 وابو عبيدة النقائض 96/1 الابيات كلها عدا البيت الثالث والرابع والخامس والرابع عشر. والمفضل بن سلمة بن عاصم ـ الفاخر ص 220 ، 223 ، 231 (الابيات 1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20) أبو الفرج الاغاني 131/17 ، 132 (الابيات كلها عدا 3 ـ 4 ـ 5 ـ 6 ـ 9 ـ 10 ـ 11) الشريف المرتضى الامالي 210/1 الابيات (7 ـ 8 ـ 14 ـ 15) الميداني ـ مجمع الامثال 58/2 ـ 59 ـ 64 الابيات (1 ـ 2 ـ 3 ـ 7 ـ 8 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20) العيني ـ شرح الشواهد الكبرى 230/1 الابيات (3 ـ 4 ـ 5 ـ 6) ابن عبد ربه العقد الفريد 67/3 ، 68 (بولاق) الابيات (1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 12) شروح سقط الزند ص 1449 ، 1822 (الابيات 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 12) معجم البلدان مادة (أصاد) (الاول والسابع] سرح العيون ص 157 (البيت السابع والثامن والثاني عشر والرابع عشر) السيوطي ـ شرح شواهد المغني ص 329 (الاول والثاني والثالث) البغدادي ـ خزانة الادب 535/3 (الابيات 1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 12 ـ 3 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ـ 21) نهاية الارب 357/15 (الابيات السابع والثامن) لويس شيخو ـ شعراء النصرانية 926/1 ـ 927 (الابيات 1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 12 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ـ 21.

1 ـ الفاخر ، شروح سقط الزند، وامثال الميداني، والعقد الفريد وشرح شواهد المغني، ومعجم البلدان ، والعمدة 211/2 وشرح ابن الانباري للقصائد السبع الطوال الجاهليات ص 459 (ألم يأتيك) بدل (ألم يبلغك) «وهو شاهد مشهور يأتي به النحويون) انظر سيبويه 15/1 و 59/2 والانصاف ص 17 قال «أراد ألم يأتك، فأشبع الكسرة فنشأت

اليـاء «ألم يأتيـك» . واشباع الحركـات حتى تنشـأ عنها هذه الحروف كثيـر في كلامهـم».

2 ـ الفاخر، وامثال الميدانى «ومحبسها لدى القرشى».

7 ـ شروح سقط الزنـد ، والعقد الفريـد، ونهايـة الارب «وما لاقيت.»

8 ـ الفاخر، أمالى المرتضى، أمثال الميدانى، العقد الفريد، شـرح العيـون، خزانـة الادب «وردوا دون غايتـه جوادي».

12 ـ العقـد الفريد «دلفـت لـه بداهيـة الفـواد».

13 ـ خزانـة الادب «بقصـم أو تجـرب ..»

16 ـ أبـو عبيـدة «ويروى غيـر معتلـث»

17 ـ خزانة الادب 539/3 «أحاول ما احـاول»

18 ـ خزانـة الادب :

منيع وسط عكرمـة بن قيـس وهـوب للطريف وللتـلاد

20 ـ الاغانى وشيخو «يجرين حولى» خزانة الادب «يعسلن حولـى»

21 ـ خزانـة الادب «انخـت الى يلملـم».

معـانـى المفـردات :

1 ـ يتطرق في الحديث الى درعه التى أخذها منه الربيع، وامتنع عن ردها، فاطرد من ابل الربيع ما يقرب من خمسمائة برعائهـا وباعهـا، واشترى بأثمانها خيـلا ، كان داحـس من بيـن هذه الخيـول «روايـة ابـن الاثيـر».

2 ـ القرشى هو عبد الله بن جدعان، ومنه اشترى قيس دروعـه وسيوفه لحرب هوازن ادراكا لثأر أبيـه.

4 ـ 5 ـ يقول : ان ما اصابنـى من ظلم بنى زيـاد، أصابنى مثله مـن قبل بنى بـدر بذات الاصاد، عندما انكـروا سبقى بردهم جوادي عن غايتـه وكـان فائـزا.

6 ـ الريـق ما يتقلـد به. والنجـاد حمائل السيـف.

7 ـ الميقاب المرأة التى تلـد الحمقى. والمغتلث الذي لا يوري مـن الزنـاد. والمعتلث الذي لا خير فيـه.

8 ـ أبـو دواد احد اسياد الجاهلية، وكان شاعرا، أجـاره الحـارث ابن همام من ذهـل بن شيبان . فخرج صبيان الحى يلعبون في غدير، فأغرق الصبيان ابن أبى دواد فقتلوه ، فوقف الحـارث وقال : لا يبقى صبى في الحـى الا وغـرق أو يرضى جـاري فأرضـوه بديـات عـدة.

9 ـ يجمزن يسرعن . وذات الرمـث موضـع.

10 ـ يلملـم وتضـاد جبـلان.

ـ 2 ـ

وقـال يرثـى قتلى «جفـر الهبـاءة»، وهو أول شاعـر يرثى مقتوله:

تعلـم أن خيـر النـاس ميـت ... على جفـر الهبـاءة مـا يريـم
لقـد فجعـت به قيـس جميعـا ... موالـى القوم والقـوم الصميـم
وعـم بـه لمقتلـه بعيـد ... وخـص بـه لمقتلـه صميـم
ولـولا ظلمـه مـا زلـت أبكـي ... عليـه الدهـر مـا طلـع النجوم
ولكـن الفتـى حمـل بـن بـدر ... بغـى والبغـى مرتعـه وخيـم
أظـن الحلـم دل علـى قـومـي ... وقد يستجهل الرجل الحليـم (1)
فـلا تغشـى المظالـم أن تـراه ... يمتـع بالغنـى الرجـل الظلـوم
ولا تعجـل بأمـرك واستدمـه ... فما صلـى عصـاك كمستديم (2)
ألاقـى مـن رجـال منكـرات ... فأنكرهـا ومما أنـا بالغشـوم
ولا يعييك عـرقـوب لـلأي ... اذا لم يعطك النصف الخصيم(3)
ومارسـت الرجـال ومارسونـي ... فمعـوج علـي ومستقيـم

تخريـج الابيـات :

المفضل الضبى ـ أمثال العرب ـ ص 35 وابو عبيـدة ـ النقائـض 96/1 (الابيـات عدا الثانى والثالـث والرابـع) المفضل بـن سلمـة ـ الفاخر ص 227 (الابيات الاول والرابع والخامس والسادس والتاسـع والحادي عشر) ابـن هشام ـ السيـرة النبوية 287/1 (البيت الخامس)

البكري ـ سمط اللالى ص 581 (البيت الاول) الاغانى 17/138 (الابيات كلها عدا الثانى والثالث) الحماسة بشرح المرزوقى 1/428 (البيت الاول والرابع والخامس والسادس) أمالى المرتضى 1/214 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) أمثال الميدانى 2/62 (الاول والرابع والخامس والسادس والتاسع والحادي عشر) ابن الاثير ـ الكامل 1/353 (الاول والثانى والثالث والرابع والخامس) العقد الفريد 3/70 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) المرزبانى معجم الشعراء ص 97 (السادس والحادي عشر) أمالى القالى 1/261 الاول والرابع والخامس والسادس) الزمخشري ـ اساس البلاغة ص 289 ، 424 ، 636 (الرابع والثامن) ابن نباته ـ سرح العيون ص 140 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) خزانة الادب 3/538 (الاول والرابع والخامس والسادس والتاسع والحادي عشر) نهاية الارب 15/361 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) لويس شيخو ـ شعراء النصرانية 1/920 (الابيات عدا الثاني والثالث).

1) النقائض والاغانى والحماسة وأمالى المرتضى وامثال الميدانى والكامل (ابن الاثير) وسرح العيون وشعراء النصرانية (لا يريم) الامالى وسمط اللالى (ألم تر أن خير الناس أضحى) والميدانى «خير الناس طرأ». وقد ذكر ابن الاثير البيت في موضعين على الوجه الاتى :

(أ) الم تر أن خير الناس أمسى على جفر الهباءة لا يريم

(ب) أقام على الهباءة خير ميت واكرمه حذيفة ما يريم

2) أساس البلاغة «سجيس الدهر ما طلع النجوم» أي طوال الدهر سرح العيون «ما بحت النجوم» (7) أساس البلاغة (استدمه) بدل (أن تراه).

(10) شعراء النصرانية (لا يعتبك عن قرب بلاء).

معانى المفردات

1 ـ قال المرزبانى في تفسير هذا البيت «ليس قوله يستجهل الرجل الحكيم، بمعنى ينسب الى الجهل. وانما هو بمعنى يستخرج

الجهل من الحليم، يريد أن حلمه جرأ عليه قومه فتوعدهم بقوله وقد يستدعى الجهل من الحليم.

2 ـ صلى عصاك كمستديم، أي فما قوم عصاك مثل الامر الذي تداوم عليه، وكنى بتصلية العصا عن تسوية الحال واصلاحه. وصلى العصى على النار أو بالنار لومها ولينها وقومها. وفي البيت والذي يليه اقواء ملحوظ. وقال ابو عبيدة في تفسير البيت «يقول عليك بالتأني واياك والعجلة فان العجول لا يبرم أمرا، كما أن الذي يثقف العود اذا لم يجد تصليته على النار لم يستقم له». وقال الزمخشري «استدمه تأن فيه. وفلان يصلى عصا فلان أي يدبر امره».

3 ـ يقول «اذا لم ينصفك خصمك فادخل عليه عرقوبا يفسخ حجته»

ـ 3 ـ

وقال في مجاورة النمر بن قاسط، بعد اعتزاله الحروب :

ان يوم الهباة اورثني الذل فصبحت ظالما مظلوما (1)
كان ظلمي قتل سراة بني بدر فأصبحت يعدهم مرحوما
فخضبت السنان من ثغر القوم وكانوا للناظرين نجوما
كان ثاري لمالك بن زهير واحدا كان فيهم معلوما (2)
فقتلت الجميع من حذر الثكل لقد ذنت في الدماء ذنوما
كأن ظلمي وكان ظلمهم امس عظيما ورأيهم موصوما
لطم القوم داحسا حذر السبق لقد كان داحس مشئوما (3)
ظلمونا بقتلهم وظلمنا معشرا كان يومهم محتوما
ان للنمر في اجارتها الجار وأمن الطريد حظا عظيما (4)
يأمن الجار فيهم وترى وسطهم ذا خئولة وعموما
يملا الدلو قبل دلو أخي النمر وما حوض جارهم مهدوما

التخريج :

أبو حاتم السجستاني ـ كتاب المعمرين ص 145.

معـانـى المفـردات :

1 ـ يوم الهباة هو يوم جفـر الهباءة الذي قتل فيه حذيفة بن بـدر الفـزاري واخوته، وقد نـدم قيس على قتلهـم.

2 ـ مالـك بن زهير العبسى، أخـوه. وهو أول قتيـل في الحـرب رثـاه عنتـرة .

3 ـ في كتب الامثال «اشأم من داحس» ثم يوردون خبر الحرب.

4 ـ يريد النمر بن قاسط، وكان قيس تزوج في هذه القبيلـة بعـد اعتزالـه الحـرب.

ـ 4 ـ

وقـال يذم أناسا سعـوا في الحـرب واشعال نارهـا :

لحـا الله قومـا ارثـوا الحـرب بيننـا
سقونـا بهـا مـرا من الشـرب آجنا (1)
وحرملـة النـاهيهـم عـن قتـالنـا
ومـا دهـره الا يكـون مطـاعنـا
أكلـف ذا الخصيين ان كـان ظـالمـا
وان كـان مظلومـا وان كـان شاطنا (2)
خصـاه امـرؤ مـن اهـل تيمـاء طابـن
ولا يعـدم الانسـى والجـن طابتـا (3)
فهـلا بنـى ذبيـان وسـط بيـوتهـم
رهنـت بمـر الريـح ان كنـت راهنـا
وخالستهـم حقـى خـلال بيوتهـم
وان كنـت القـى من رجـال ضغائنـا
اذا قلـت قـد أفلـت من شـر حنبـص
لقيـت بأخـرى حنبصـا متبـاطنـا
فقـد جعلـت اكبـادنـا تحتـويهـم
كما تحتـوي سوق العضـاة الكرازنا (4)
تـدرونتـا بالمنكـزات كـأنمـا
تـدرون ولدانـا ترمـى الرهـادنـا (5)

تخريج أبيات القصيدة :

المفضل الضبي ـ امثال العرب ص 39 وابو عبيدة ـ النقائض 100/1 (الابيات كلها) المفضل بن سلمه بن عاصم ـ الفاخر ص 223 (الاول والثالث والخامس) والميداني ـ مجمع الامثال 65/2 (الاول والثالث والخامس) والجاحظ ـ كتاب الحيوان 20/1 ، 21 (الثالث والرابع والخامس والسابع والثامن) شعراء النصرانية 932/1 (عدا الرابع والخامس).

3) الجاحظ (وان كنت مظلوما وان كنت شاطنا) الميداني (وكايد ذا الخصيين).

4) الجاحظ (طائر) بدل (طابن).

5) الحيوان والفاخر ـ وامثال الميداني «فهلا بنى ذبيان امك هابل» الجاحظ «رهنت بهيف الريح».

7) الجاحظ «أتانى بأخرى شرة متباطنا».

معانى المفردات :

1 ـ أرثوا اشعلوا . والماء الاجن . المتغير الطعم واللون.

2 ـ أراد بذي الخصيين ، الاسير الذي كان يعقب اليهودي في زوجته بعد غيبته، فلما ضبطه خصاه، فطالب آسره قيسا بديته.

3 ـ الطابن الفطن، يقول : خصاه يهودي من تيماء وكلفونى ديته.

4 ـ العضاه، كل شجر له شوك. الكرازن المعاول. الواحد كرزين وترمى من الترمى.

5 ـ تدروننا تختلوننا . الرهادن جمع رهدن، وهو شبيه بالعصفور

ـ 5 ـ

وقال يرثى أخاه مالك بن زهير :

أخي والله خير من أخيكم ... اذا مالم يجد بطل مقاما
أخي والله خير من أخيكم ... اذا مالم يجد راع مساما (1)
أخي والله خير من أخيكم ... اذا الخفرات أبدين الخداما (2)

قتلت به أخاك وخير سعد ... فان حربا حذيف وان سلاما (3)
ترد الحرب ثعلبة بن سعد ... بحمد الله يرعون البهاما
وتغنى مرة الاثريين عنا ... عروج الشاء تتركه قياما (4)
وكيف تقول صبر بني حجان ... اذا غرضوا ولم يجدوا مقاما (5)
ولولا آل مرة قد رأيتم ... نواصيهن ينضون القتاما (6)

التخريج :

المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص 39 وابو عبيدة ـ النقائض 102/1 (الابيات كلها) وشعراء النصرانية 931/1 (الابيات عدا السادس)

2) ابو عبيدة : مساما بفتح الميم ويروي مساما، بالضم.

معاني المفردات :

1 ـ مساما (بالفتح) يقال سامت الابل مساما بالفتح ويقال اسمتها مساما بالضم .

2 ـ الخفرات ، النساء المحتجبات في خدورهن . الخدام الخلخال يقول : اخي في الروع عندما يشتد فزع النسوة راكضات وقد كشفن عن اسوقهن ، خير من أخيكم.

3 ـ حذيف ، حذيفة بن بدر

4 ـ العروج من الشاء ، العدد الكبير منها

5 ـ اذا غرضوا ، اذا ملوا في هذا الموضع

6 ـ نواصيهن ، نواصي الخيل ، والقتام الغبار

ـ 6 ـ

وقال :

مالي أرى ابلي تحن كأنها ... نوح تجاوب موهنا أعشارا
لن تهبطي ابدا جنوب مويسل ... وقنا قراقرتين والامواراً
اجهلت من قوم هرقت دماءهم ... بيدي ولم أدهم بجنب تغارا
ان الهوادة لا هوادة بيننا ... الا التجاهد فاجهدن فزارا

الا النزاور فوق كل مقلص ... يهدي الجياد اذا الخميس أغارا
فلاهبطن الخيل حر بلادكم ... لحق الاباطل تنبذ الامهارا
حتى تزور بلادكم وترى بها ... منكم ملاحم تخشع الابصارا

التخريج :

المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص 39 وأبو عبيدة ـ النقائض 102/1 وشعراء النصرانية 931/1 .

7) شيخو (وتروا بها)

معاني المفردات :

1 ـ نوح ، نساء ينحن . والاعشار جمع عشر وهو أن يرد الماء في اليوم التاسع، وهذا مثل . والموهن بعد صدر الليل.

2 ـ الخطاب للابل. وجنوب مويسل : وقناقراقرتين والاموار، كلها مواضع.

3 ـ لم ادهم لم ادفع ديانتهم ، وتغار موضع :

ـ 7 ـ

وقال قيس بن زهير في مسيره الى بني بدر بعد ارتحاله عن أهل مكة :

أسير الى بني بدر بأمر ... هم فيه علينا بالخيار (1)
فان قبلوا الجوار فخير قوم ... وان كرهوا الجوار فغير عار
اتينا الحارث الخير بن كعب ... بنجران وأي لجا بجار
فجاورنا الذين اذا أتاهم ... غريب حل في سعة القرار
فيأمن فيهم ويكون منهم ... بمنزلة الشعار من الدثار (2)
وان نفرد بحرب بني ابينا ... بلا جار فان الله جاري

التخريج :

ابن الاثير ـ الكامل 345/1.

معـانـــى المفـردات :

1) يقول هم الذين يختـارون ، فان قبلوا جوارنا فنعم القوم هـم، وان كرهوا ذلك فليس عـارا علينا لانهم ابناء عمومتنا، وما يخزبنا يخزيهم

2) الشعار ظاهـر اللباس والدثار بطانته ، يريد أن جارهم يصبـح منهـم ويخلطونـه بعيالهـم.

- 8 -

وقـال يمدح الحـارث بن ظالـم المري. وكان الحـارث قتل خالـد بن جعفـر بزهيـر بن جذيمـة :

جـزاك الاله خـيـرا مـن خلـيـــــل
شفـى مـن ذي تبولتـــه الخلـيـلا (1)

أزحـت بهـــا جـوى ودخـيـل نفـــس
تمخـــخ اعظمـــى زمـنـــا طـويـــلا

كســـوت الجعفـــري أبـا جـــــزيء
ولـم تحفـــل بـه سيفـا صقيـلا (2)

أبـــأت بـــه زهيـر بنـى بغـيـــض
وكـنـت لمثلهـــا ولهـــا حمـــولا (3)

كشفـ تلـه القنـــاع وكـنـــت ممـــن
يجلـــي الـعـار والامـــر الجلـيـــلا

التخـــريـــج :

الاغـانـى 98/11 .

1) التبولـة الذخـل والعـداوة

2) الجعفـري خالد بن جعفـر العامري ، قتله الحـارث بن ظالم المري ثـارا لزهيـر بن جذيمـة العبسـى .

3) أبـأت من بـاء الدم بالـدم اذا أدرك ثـأره .

ـ 9 ـ

قال قيس بن زهير في الربيع بن زياد :

ان تك حرب فلم أجنها ... جنتها صبارتهم أو هم (1)
حذار الردى اذ رأوا خيلنا ... مقدمها سابح أدهم (2)
عليه كمي وسرج بال ... مضاعفة نسجها محكم
فان شمرت لك عن ساقها ... فويها ربيع ولا تسأموا
نهيت ربيعا فلم ينزجر ... كما انزجر الحارث الاضجم (3)

التخريج :

المفضل الضبي ـ امثال العرب ص 32 وابو عبيدة النقائض 92/1 وأبو الفرج ـ الاغاني 132/17 وشعراء النصرانية 927/1.

1) الاغاني (خيارهم) بدل (صبارتهم) وشيخو [جناها خيارهم]

4) شيخو (ولم يسأموا).

5) شيخو (نهيت ربيع فلم يزدجر) . ابو عبيدة (ويروى الحارث الاحذم).

معاني المفردات :

1 ـ صبارتهم ، خيارهم

2 ـ السابح ، السريع الجري.

3 ـ الحارث رجل من ضبيعة بن ربيعة بن نزار، وهو صاحب المرباع .

ـ 10 ـ

وقال :

أينجو بنو بدر بمقتل مالك ... ويخذلنا في النائبات ربيع (1)
وكان زياد قبله يتقي به ... من الدهر ان يوم الم فظيع
فقل لربيع يحتذي فعل شيخه ... وما الناس الا حافظ ومضيع
والا فمالي في البلاد اقامة ... وأمر بني بدر علي جميع

التخـريـــج :

ابن الاثيـر ـ الكامـل في التاريـخ 348/1

معانـــى المفـردات :

1 ـ بنو بدر ، حذيفة واخوته، وربيع هو الربيع بن زيـاد. والابيات حث من قيس للربيع بن زياد ان ينهض مع قومه العبسييـــن لحـرب الذبيـانييـن .

ـ 11 ـ

وقـــال :

يـــود سنـان لـو نحـارب قـومنـــا
وفي الحـرب تفريـق الجماعـه والازل (1)
يـــدب ولا يخفـــى ليفســـد بيننـــا
دبيبـــا كمـا دبـت الى حجرهـا النمـل
فيـا ابنى بغيـض راجعا السلـم تسلمـا
ولا تشمتـا الاعـداء يفتـرق الشمـل (2)
وان سبيـل الحـــرب وعـر مضلـــــة
وان سبيـــل السلـــم آمنـــة سهـــل

التخـــريـــج :

المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص 22 وامثال الميدانى 58/2.

معـانـــى المفـردات :

1 ـ الازل التشتـت والتمـزق
2 ـ ابـا بغيض عبس وذبيـان المتقاتـلان .

ـ 12 ـ

وقـال يمـدح بنـى زيـاد ، وهم الكملـة :

لعمـرك ما اضـاع بنو زيـــاد ذمـار ابيهـم فيمـن يضيـــع
بنـو جنيـــة ولـدت سيـوفـا صوارم كلهـا ذكـر صنيـع (1)
وجارتهـم حصـان لـن تزنـى وطاعمـة الشتـاء فمـا تجـــوع
شرى ودي وشكري من بعيـــد لآخـر غالـب ابـدا ربـيـع (2)

التخـريـــج :

الاغانى 20/16 (بـولاق) (الابيات 2 ـ 3 ـ 4) والحماسة بشـــرح المرزوقى 469/1 وشعراء النصرانية ص 931 (الابيات 1 ـ 2 ـ 4).

2) الاغانـــى قواطـع بـدل صـوارم.

4) شرى ودي ومكرمتى جميعـا طوال زمانـــه منى الربيـع

معـانـــى المفـردات :

1 ـ صنيع أي مصنوعة من أجود أنواع المعدن، أراد مدحهم.

2 ـ غالب جدهم وهو من عبس أيضا، وتعتبر من العائلات الكبيـرة فيهـا الى جانب «بنى بجـاد وجروة وجذيمة وغيرهم».

ـ 13 ـ

وقال قيس بن زهير حين أخذ منه سلمة بن قشير فـداء حـاجب بـن زرارة الف بعير، ثم أخـذ منـه للزهدميين مائـة ناقـة :

جزانى الـزهدمـان جـاء سـوء وكنت المرء يجزي بالكرامـه (1)
لقـد دافعـت قـد علمـت معـد بنـى قـــرظ وعمهـم قـدامـــة
اجاثيهـم على الركبـــات حتـى اثبتكـم بهـا مائـة ظلامـــة

التخـريـــج :

أبو عبيدة ـ النقائض 425/1 وأبو الفرج ـ الاغانى 41/10 (بولاق)

2) الاغانـــى (بنـو قـرظ)

3) الاغانـــى :

ركبـت بهـم طريق الحـق حتى اثبتهـم بها مائة ظلامة

معانـــى المفـردات :

1 ـ الزهدمان ، زهـدم العبسى واخوه، طالبا بديـة حاجب لـــدى قتله في معركة (شعب جبلة). وكان زهدم اطلق حاجبا على الثواب

والثواب عطاء الاسير لاسره جزاء ابقائه على حياته (انظر تفصيل الحارث في قصة الحرب).

2 ـ اجاثيهم ، اي جلست على ركبتي متحفزا للخصومة ضدهم حتى أعيد لكما حقا انكروه عليكما ، وكان جزائي منكما الجحود والنكران .

ـ 14 ـ

وقال قيس بعد صلحه مع الربيع لكي يفرغ لحرب بني بدر واحلافهم :

فان تك حربكم أمست عوانا ... فاني لم اكن ممن جناها (1)
ولكن ولد سودة أرشوها ... وحشوا نارها لمن اصطلاها (2)
فاني غير خاذلكم ولكن ... سأسعى الآن اذ بلغت مداها

التخريج :

المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص 224 وأمثال الميداني 59/2 والعقد الفريد 68/3 منسوبة الى الربيع بن زياد وشعراء النصرانية 799/1 منسوبة لعنترة ، وهي في ديوانه ينازعه في نسبتها الربيع .

معاني المفردات :

1 ـ الحرب العوان التي اشتعلت مرة بعد مرة.

2 ـ ولد سودة ، أراد حمل بن بدر واخوته.

ـ 15 ـ

وقال وقد ندم على اسرافه في القتل :

شفيت النفس من حمل بن بدر ... وسيفي من حذيفة قد شفاني
فان أك قد بردت بهم غليلي ... فلم اقطع بهم الا بناني
قتلت بأخوتي سادات قومي ... وقد كانوا لنا حلي الزمان

التخـــريـــج :

الابيـات في عيون الاخبار المجلـد الثالث 88/7 والحماسة بشـــرح المرزوقي 203/1 (الاول والثانـي) والبكري ـ سمط اللالـــيء ص 583 (الاول والثانـي) وامالي القالي 262/1 (1 + 2) والمرزباني ـ معجـــم الشعراء ص 198 (2 + 3) وشعـراء النصرانية ص 924 (1 + 2) وامالي المرتضـى 214/1 (الاول والثانـي).

3) في معجـم الشعـراء :

قتلـت باخوتـي سادات قومـي وهم كانـوا الامان على الزمـان
فان أك قـد شفيت بذاك قلبـي فلـم أقطـع بهـم الا بنـانـي

ـ 16 ـ

وقـــال :

كـم فـارس يـدعـى وليـس بفـارس
وعلى الهبـاءة فـارس ذو مصـــــدق
فابكـــوا حذيفـــة لـن ترثـوا مثلـــه
حتـى تبيـد قبـائـل لـم تخلـــق

التخـــريـــج :

ابن هشام ـ السيـرة النبويـة 306/1

ـ 17 ـ

وقـــال :

تعرفن من ذبيان من لولقيتـــــه بيوم حفاظ طار في اللهـوات (1)
ولو أن سافي الريح يجعلكـم قذى بأعيننـا مـا كنتـم بقـــــذاة

التخـــريـــج :

الخالديـان ـ الاشباه والنظائـر 198/2 والحماسة البصرية (بـاب الهجـاء) ابن نباتة ـ سرح العيون ص 141 وشعراء النصرانية 931/1.

معـانـى المفـردات :

1 ـ اللهوات لحمة سقف الفم، وفي البيت تصغير لشان الذبيانييـن وكذلك البيت الذي يليه، حيث استحقر أمرهم بحيث لا يكونون حتى بمقدار قذاة في عيـون العبسيين.

ـ 18 ـ

وقـــال :

اذا أنـت اقـررت الظلامـــة لامـــريء
رمـــاك بأخـــرى شعبهـا متفـاقـم (1)
مـــلا تبـــد للاعـــداء الا خشـونـــة
فمـا لـك منهـــم ان تمكـــن راحـم

ابن نباتة ـ سرح العيون ص 142 شيخو ـ شعراء النصرانية 932/1

1) أي أمرهـا أشـد خطـرا من سابقتهـا.

ـ 19 ـ

وقـال يخاطب مالكـا اخـاه :

امالـك لا تامـن فـزارة وعشهـــا
فـانـــك ان تـامـن فـزارة هـالـــك
أمـالـك أن تحسب مقامـــك فيهـــم
صوابـا فقـد اخطـأت في الـرأي مـالـك

التخـريـج :

شـرح التبريـزي على الحماسـة 24/3

ـ 20 ـ

وقـال في الحـارث بـن ظالـم المـري :

ومـا قصـرت من حاضـن ستـر بيتهـا
ابـر وأوفـى منـك حـار بـن ظالـم
اعـز وأحمـى عـنـد جـار وذمـة
واضـرب في كـاب مـن النقـع قاتـم (2)

التخـــريـــج :

الاغانى 119/11 والعقـد الفريد 150/5

1) الكابى العظيـم . أراد الغبار القاتـم العظيـم .

ـ 21 ـ

وقـال يـرد على عـروة بـن الـورد :

لا تشتمنى يا ابن ورد فاننـــى تعـود على مالى الحقـوق العوائد
أتهـزأ منى أن سمنت وقد تـرى بجسمى مس الحـق والحق جاهد

التخـريـــج :

أبو عبيـدة البكري ـ التنبيـه ص 112

1) كان عروة يعير قيسا بأنه أكول مبطان، ويعرض به في أشعاره

2) هذا البيت يروى في وجوه مختلفة منسوبا الى عروة نفسه، والحق مـا اثبتـه أبو عبيـدة .

ـ 22 ـ

ولـه يقـول قيس بـن زهيـر أيضـا :

اذنب علينـا شتـم عروة **خالـه** بقرة أحسـاء ويـومـا ببـدبـد
هلـم الينـا نكفـك الامـر **كلـه** فعالا واحسانا وان شئت فابعـد

التخـريـــج :

ابـو عبيـد البكري ـ التنبيـه ص 112 .

1) قرة احساء وبدبد ، مواضع معروفة في شبه الجزيرة.

ـ 23 ـ

وقـال قيـس بن زهيـر :

متـــى تتحـــزم بـالمنـاطـق ظـالمـا
لتجـري الـى شـــأو بعيـــد وتسبـح
تكـــن كالحبـاري ان اصيبـت فمثلهـــا
أصيـب وان تفلـت مـن الصقـر تسلح

التخـريـــج :

الجاحظ ـ كتـاب الحيـوان 5/448.

1) المناطـق جمع منطقـة وهى ما يشـد به الوسط. والشأو الغاية. ويسبـح يسـرع في جريـه.

2) الحباري ضرب من الطير، اذا داهمها الصقر تسلح من شدة الزع

ـ 24 ـ

قال قيس بن زهير في معرض الـرد على من يفاخره من القرشيين :

تفاخرنى معاشـر من قـريـــش ... بكعبتهـــم وبـالبلـــد الحـــرام
فاكـرم بالـذي فخـروا ولكـــن ... مغـازي الخيـل داميـة الكـــلام
وطعـن في العجاجـة كـل يـــوم ... نحور الخيـل بالاسـل الدوامـى
أحب الى من عيـش رضـــــي ... مـع القرشى حـرب أو هشـــام
وما عيـش ابن جدعـان بعيـش ... يجـر الخـز في البلـد التهامـــى

البلاذرى (احمد بن يحيى) أنسـاب الاشـراف مخطوطة الورقة 1.94 ا مخطوط عاشر افنـدي 8/597 استنبـول.

ج. 1 طبـع محمد حميد الله ـ القاهـرة 1959 م.

ج. 3 طبـع جلو سينجـر ـ القـدس 1968 م.

ج. 5 طبـع كويتيـن ـ القـدس 1926 م.

نقـلا عن بحث بعنوان مكـة وتميـم مظاهـر من علاقاتهـم .

البـروفيســور م. ج. كستـــر تـرجمـة الاستـــاذ الـدكتـور يحيى الجبوري نشر في مجلـة الكتاب البغدادية سنـة 1975 طبـع دار الحريـة ـ مطبعـة الجمهـورية في 46 صفحـة .

ـ 25 ـ

وقـــال :

فما أم أدراص بأرض مضلـة ... بأغدر من عوف اذا الليل أظلما

التخـريـــج :

في ديــوان الطفيــل الغنوي (تحقيق محمد عبد القادر) قال ابن برى ذكر ابن السكيت ان هذا البيت لقيس بن زهيــر . وعن الاخفــش انـــه لشريــح بن الاحــوص . وقال الصاغانـــى ، البيــت لعامر ملاعب الاسنة.

مصـادر البحث ومراجعه بحسب تسلسل ورودها فيه :

1 ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمـر ـ خزانة الادب ولب لباب العرب ط. بـولاق 1347 .

2 ـ البكري ، عبد الله بن عبد العزيـز ـ التنبيـه ـ ط. دار الكتب المصرية 1926 ، وسمط اللالئ ، ط. لجنة التاليف والترجمـة والنشر ـ تحقيق عبد العزيز الميمنى ومعجم ما استعجم ـ ط. لجنة التاليـف والترجمـة 1949 تحقيـق السقـا.

3 ـ التبريزي ابو زكريا يحيى بن علي شرح ديوان الحماسة ط ة السعادة 1346 ط دار الكتب وشرح العقائد العشر بالقاهرة 1367 وشـرح سقـط الزنـد.

4 ـ ابن الاثيـر محمد بن الجزري طبعة حجرية غير مؤرخة أو كمـا يذكـر في الهامـش .

5 ـ أبـو عثمان بحـر بن عمرو . البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون والسندوبى، والحيوان ط. ساس وتحقيق عبد السـلام هـارون.

6 ـ ابن حجر شهاب الدين ابو الفضل العسقلانى . الاصابة في تمييز الصحـابـة ـ طبعة حجريـة ـ بولاق .

7 ـ ابن أبى الحديد م. السعـادة 1323 عبد الحميـد بن وهبـة . شرح نهج البـلاغة ط. دار الكتب المصرية الكبرى (الحلبى).

8 ـ الخالديان (أبو بكر عمر وابو عثمان سعيد) الاشباه والنظائـر ط لجنـة التأليف والنشر والترجمـة 1958.

9 ـ الزمخشري ، جار الله ، محمـود بن عمـر . المستقصى في أمثال العـرب ط. حيدر أبـاد الدكـن 1962.

10 ـ الزركلى (خير الديـن) الاعلام . ط مصـر 1927.

11 ـ السجستانى . أبو حاتم سهل بن محمد . كتاب المعمرين ط. القاهـرة 1961 .

12 ـ سيبويه الكتاب. طبعة أولى.

13 ـ الشريف المرتضى. على بن الحسين . الامالى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار احيـاء الكتب العربيـة 1954.

14 ـ الاصفهانى أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي ط. دار الكتـب أو كما يذكـر في الهامـش.

15 ـ ابن عبد ربـه احمـد بن محمد الاندلسى ـ العقد الفريد ط. بـولاق او كمـا يذكـر في الهامش.

16 ـ العينى شرح الشواهد الكبرى ، حشامية خزانة الادب للبغدادي

17 ـ ابو عبيـدة معمر بن المثنى، نقائض جرير والفرزدق، روايـة السكري ط. بريل . لنـدن 1907 ، وانساب الخيل الهند 1358.

18 ـ القالى ابو علي، اسماعيل بن القاسم ، الامالى والنوادر ط دار الكتـب المصريـة .

19 ـ ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم . الشعر والشعراء. ط. دار المعـارف بمصـر.

20 ـ لويس شيخو اليسوعى شعراء النصرانية القسم الاول.

21 ـ المرزبانى محمد بن عمران معجم الشعراء . ط. عبد الستـار احمـد فـراج.

22 ـ المفضل بن سلمة بن عاصم. الفاخر ط. وزارة الثقافة والارشاد القومى القاهـرة 1960.

23 ـ المفضل بن محمد الضبى ـ المفضليات . شرح ابن الانباري ط. لايل 1920 . ديوان المفضليات تحقيـق عبد السـلام هارون، أمثال العرب مطبعـة الجوائب سنة 1300 هـ. قسطنطينيـة.

24 ـ الميدانى أبو الفضل ، احمد بن محمد . مجمع الامثال ط القاهـرة 1955 م.

25 ـ ابن نباتـة جمال الدين محمد . سرح العيون ط. مصر 1321 ء

26 ـ ابن الانباري ابو بكر محمد بن القاسم . شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات دار المعارف بمصر 1962.

27 ـ النويري احمد بن عبد الوهاب . نهاية الارب في فنون الادب ط دار الكتـب المصريـة .

28 ـ ابن هشام ابو محمد عبد الملك السيرة ط. السقا ورفيقه 1955
29 ـ الانباري الانصاف في مسائل الخلاف ط. السعادات.
30 ـ د. يحي الجبوري ـ مكة وتميم ـ مقالة مترجمة للاستاذ م. ج كستر ـ نشر مجلة الكتاب البغدادية ـ سنة 1975 مطبعة الجمهورية بغـــداد.

شعـر الـربيـع بـن زيـاد

حيـاتـه :

هو الربيع بن زيـاد بن عبد الله بن سفيان، وينتهي نسبه الى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وغطفان حـي من اكبر احياء قيس بن عيلان بـن مضـر بن نـزار (1).

وام الربيـع فاطمه بنت الخرشب، واسم الخرشب، عمرو بن النضر ينتهي نسبه الي انمار بن بغيض بن ريث بن غطفان (2). فابـوه القيسي وامه الانماريه يلتقيان نسبا وموطنا في غطفـان ، الارض الكبيـرة من بـلاد نجد التى امدت شبه الجزيـرة العربيه، والعالم الاسلامى فيما بعد، بأعظـم رجالاتهـا.

ومن المناسب ان نذكر، في هذا الموضع، بشيء من الكلام عن امـه التى اشتهرت بين قبائل العرب بعقلها وتدبيرها، فنقلت عنها الكتـب القديمة اخبارا في مناسبات مختلفه. وقد بلغ من تقدير الناس لها حدا ان معاويـة لما سال العلمـاء يوما عن البيوتات والمنجبات وحظر عليهم ان يتجـاوزوا في البيوتـات ثلاثة وفي المنجبات ثلاثا ، عـدوا فاطمة بنـت الخرشب فيمـن عـدوا (3) .

(*) توخينا فى حياة هذا الشاعر الفارس «من العصر الجاهلى» الايجاز لكى نوسع شعره وللتحقيق.

(1) أبو عبيدة. النقائض 193/1 والاغانى (دار الثقافة) 116/17 وابن حزم جمهرة الانساب ص 248 (مع) اختلاف بسيط، ذكر معاوية بدل سفيان) والبكرى معجم ما استعجم ص 1178 وعمر رضـا كحـالة معجم قبائل العرب 728/2 (قيس بن عيلان).

(2) أغانى 116/17 ولويس شيخو — شعراء النصرانية 787/1.

(3) أغانى 117/17.

وكان الربيع يلقب «بالكامل» لاكتمال صفات الرجل والفارس فيه من شجاعة وفصاحة وحزموكرم، الى جانب السيادة وشرف المحتد من ابيه وأمه. وقد سئلت فاطمة أمه في صفته فقالت «لا تعد مآثره، ولا يخشى في الجهل بوادره» (4).

وقال فيه خاله سلمة بن الخرشب يمدحه (5) :

أتيتم الينا ترجفون جماعة ... فأين أبو قيس وأين ربيع
وذاك ابن اخت زانه ثوب خاله ... وأعمامه الاعمام وهو نزيع
رفيق بداء الحرب طب بصعبها ... اذا شئت رأس القوم فهو جميع
عطوف على المولى ثقيل على العدى ... أصم عن العوراء وهو سميع

وأما أخوته فهم : عمارة بن زياد ويدعى الوهاب ويلقب «دالقاء» (6) وانس وهو «انس الفوارس» ويدعى «الواقعة» أيضا وقيس ويقال له «البرد» والحارث وهو «الحرون» ومالك وهو «لاحق» وعمرو وهو «الدارك». ولما لقى عبد الله بن جدعان امهم فاطمة وهى تطوف بالكعبة وسألها عن بنيها أيهم أفضل، قالت «الربيع لا بل عمارة .. لابل أنس. ثكلتهم ان كنت أدري أيهم افضل ..» وكل فرد من هؤلاء قاد جيشا ورأس قبيلة فاشتهروا الى جانب الشجاعة ، بالعقل والحكمة.

وكانت للربيع مكانة عالية لدى الملك النعمان بن المنذر الى أن اوقع بينهما لبيد بن ربيعة العامري الشاعر (7)، فوقعت القطيعة . ولم تنفع الربيع محاولاته في رأب الصدع واعادة الحال الى سابق عهدها. لان الملك النعمان تأثر بشعر لبيد ـ ولبيد آنذاك غلام صغير يدين بالفضل الى الربيع لانه ربى أمه، فالربيع بمنزلة خالة ـ ولم يلتفت الملك الى صدق الشعر أو كذبه، يتجلى ذلك في قول النعمان نفسه :

قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا ... فما اعتذارك من قول اذا قيلا (8)

---

(4) المصدر السابق.
(5) المصدر السابق.
(6) وذكر أبو عبيدة فى النقائض 193/1 «الدالق الدلو من دلق القارة على العدو. وعماره قتله سرحان بن المثلم فى خبر ذكرن أبو عبيدة. وقال الفرزدق يفتخر :
وهن بشر حاف تداركن دالقا ... عمارة عبس بعد ما جنه العصر
(7) اغانى 117/17 والجاحظ فى الحيوان 174/5 وبسط خبره مفصلا السيد المرتضى فى أماليه 189/1.
(8) والبيت مروى بوجوه أخرى. وهو مادة للغويين يوردونه فى شواهدهم.

وكان الربيع في مطلع حياته مجاورا ابناء عمومته في غطفان مع قبيلته عبس الى أن وقعت حادثة الدرع التى اشتراها قيس سيد عبس واميرها من الفريشى بمكة واخذها الربيع عنوة، فتحول عن جوارهم الى جوار فزارة من بنى ذبيان ابناء عمه ايضا. وتزوج من «معاذة» ابنة حذيفة أمير ذبيان الذي كان يدعى «رب معد» في الجاهلية، وكان يخاطب بتحية الملوك فيقال له «ابيت اللعن» (9) والتى ابطلت في الاسلام ولم تكن كفرا. لكن الربيع عاد فرجع الى قومه يوم اشتعلت الحرب الكبيرة بين الحيين العظيمين في غطفان وانجرت اليها كل الاحياء العربية، ودارت رحى الحرب في ارض الجزيرة ودامت اربعين سنة، فالتزم الربيع جانب قومه العبسيين، وكان الفارس الشاعر لهذه الحرب، وأخباره فيها كثيرة (10). وهو صاحب الفكرة التى نصرت قبيلته عندما نصح قومه بالدخول في حلف بنى عامر، لان عامرا كانت تدعى «حجر العرب» والربيع قال : «والله لارمين العرب بحجرها» (11) ونجحت خطته، مع أن دخول اهله مع العامريين، أطفأ جمرة أخرى من جمرات العرب كانت متقدة الى حين قريب قبل دخول الحلف المذكور. واشتهر في الشجاعة، فعرفته العرب بأنه قاتل مسعود بن مصاد الكلبى يوم «عراعر» وكان مسعود رئيس كلب وفارسها الشجاع، واحد جراري (12) العرب ، فبرز له الربيع وطلب لقاءه فالتقيا، وفيما هما يتبارزان تعانقا وسقطا على الارض فثار به الربيع وقطع رأسه، فهجمت عبس على كلب والرأس محمول على رمح، وانتصر العبسيون بفضل هذه العملية الحربية.

ومات الربيع فرثاه ورثى أخاه عمارة رجل من طي فقال (14) :

فان تكن الحوادث جربتنى ... فلم أر هالكا كابنى زياد
هما رمحان خطيان كانا ... من السمر المثقفة الصعاد
تهال الارض أن يطئا عليها ... بمثلهما تسالم أو تعادي

---

(9) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 30 والجاحظ — البيان والتبين 328/1 وانظر خبر حادثة الدرع فى ابن الاثير — الكامل فى التاريخ 350/1.
(10) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 26 وأبو عبيدة — النقائض 105/1.
(11) أبو عبيدة — النقائض 660/2 (خبر يوم «شعب جبلة»).
(12) قال أبو عبيدة : الجرار من قاد من الجيش ألفا أو عشرة آلاف.
(13) ابن الاثير — الكامل فى التاريخ 354/1.
(14) 117/17 وذكر أن قائل الابيات «الربيع بن عمارة» وانظر الابيات من أمالى القالى 207/1.

ولم تتحدد انا سنة وفاته لا على وجه التحديد ولا على وجه التقريب، لكننا نرجح أن تكون خلال العشرة الاولى من الهجرة. وذكر الزركلي في أعلامه انه توفى في (590 م ـ 30 قبل الهجرة). وما أظنه صحيحا. لانه ـ كما ذكرت المصادر (15) ـ شارك في مفاوضات أول صلح للحرب، وورد له ذكر في الصلح الثانى أيضا، وبين الصلحين عام واحد. وقد أورد ابن الاثير في الكامل ان الصلح الثانى الذي دفع ديه القتيل العبسى فيه سنان بن ابى حارثه المري، كان معاصرا للاسلام، لان ديه هذا القتيل كانت مائتى ناقه، دفع سنان منها مائه وحط الاسلام عنه مائة (16). ونحن ـ لذلك ـ نرجح ان وفاة الربيع ليست ببعيدة عن وفاة قيس بن زهير التى حددها صاحب الاعلام في (631 م ـ 10 هجريه) وهو تحديد معقول، لان فارق العمر بينهما ليس كبيرا. وكلاهما عاصر الحرب منذ البدء حتى الختام. فكيف يعقل ان يكون فرق وفاتهما احدى واربعين سنة ؟ .. ونحن اذا استندنا الى تاريخ الزركلى في وفاته يصبح لدينا أن الربيع لم يدرك هذه الحرب مطلقا ، وهو أمر ترفضه كل مصادر التحقيق المتوفرة لدينا.

شعره :

لم يصل الينا من شعر الربيع بن زياد الا مقطعات صغيرة وبضع قصد لا تتجاوز اطولهن اربعة عشر بيتا. وهذا الذي وصل الينا هو عبارة عن استشهادات الرواة والمؤرخين والنحويين واللغويين وغيرهم في الموضع الذي يبحثون فيه. فياخذ المؤرخ او اللغوي او الباحث القدر الذي يعنيه أو يسعف روايته وخبره، ويترك بقية الابيات. لهذا تنتشر في المجموعات الشعرية ظاهرة المقطعات والابيات المفردة، وأما القصائد الثلاث الاخريات فيرجع الفضل في حصولنا عليها الى اصحاب «الحماسات والاختيارات» . فشعره اذن ضاع مع ضياع الشعر الجاهلى.

---

(15) المفضل الضبى ـ أمثال العرب ص 41 وأبو عبيدة ـ نقائض 105/1 والمفضل بن سلمة ـ الفاخر ص 219 وابن الاثير ـ الكامل 344/1 وابن عبد ربه العقد الفريد 67/3 والزركلى الاعلام (قيس) و (الربيع).

(16) ابن الاثير ـ الكامل 359/1 (6) انظر محاضرة الحوفى فى توثيق الشعر الجاهلى محاضرة عامة . طبع أم درمان 1967.

ومن الغريب حقا أن يغفل القدماء شعر الربيع فلا ترد اشارة منهم الى ديوان للربيع في جميع المصادر، مع أن صاحب الاغانى عده مع من عدهم ممن يعرفون القراءة والكتابة في العصر الجاهلى. فأحرى برجل مثل الربيع أن يدون شعره ويجمعه بنفسه طالما أنه يقرأ أو يكتب. لكن شيئا من هذا لم يؤثر عنه ولا عرفنا خبره. ومع ذلك ففى المصادر اشارات الى قصائد طويلة كانت موجودة واطلع عليها العلماء. فآخر اشارة وردت لدى التبريزي عندما استشهد ببيت للربيع قال عنه أنه من قصيدة طويلة. واشارة أخرى لابن هشام حيث أورد بيتا للربيع أيضا وقال : وهذا البيت من قصيدة له . والقصيدتان مفقودتان الى اليوم ولم نحسس لهما على أثر (17).

وما جمعناه من شعره مضافا الى ما جمعه الاب لويس شيخو اليسوعى، يؤيد ايضا أن لهذا الشاعر شعرا كثيرا ضاع ولم يصل. فقد أضفنا الى مجموعة شيخو ستة وثلاثين بيتا هى عبارة عن «قصيدة باربعة عشر بيتا واخرى بسبعة أبيات ومقطوعتين بستة أبيات، وثالثة ببيتين، ورابعة ببيت واحد». اضافة الى مقطوعة بخمسة ابيات يتجاذب نسبتها الشاعر قيس بن زهير .

وجل شعره الذي بين ايدينا يتسم بطابع الحماسة والفخر. وهو طابع يسم غالبية الشعر الجاهلى، حتى أخذ المؤلفون في القرون الاسلامية المتقدمة، يطلقون على مجموعاتهم واختياراتهم اسم (دواوين الحماسة) لغلبة أشعار الحماسة على سواها. ومع ذلك، ففى المجموعة شعر في الرثاء وعتاب الاهل والاصدقاء والزمان، يتخلل هذا كله وصف جميل يزين به مطالع ابياته. وظاهرة الحماسة والرثاء والوصف في شعر الربيع ليست غريبة عليه، لانه، كما ثبتنا في مطلع هذه المقالة، كان فارسا استنزفت الحروب سنى حياته، ولم يكن له شغل سواها.

وعلى العموم فاننا لا نستطيع ان نقول في شعره أكثر مما قلناه، وهى حقائق الغرض منها التثبيت ليس اكثر، تعين من يبحث في العصور القديمة، وتكون دالة يهتدى بها الباحث الى كثير من مآربه في الشعر الجاهلى. وقلة

---

(17) أنظر ابن هشام — السيرة 186/1 والتبريزى — شرح ديوان الحماسة 24/2.
(18) أنظر شعراء النصرانية 792/1.

شعر الربيع تجعله ممتنعا عن اعطاء ايه فكرة شخصيه للدارس يتوسع فيها، الا انه يكون قطرة لها نفس مميزات وخصائص البحر العظيم الذي تنتمي اليه. وعسى ان يسعفنا البحث والتنقيب في مستقبل الايام بالمزيد.

- 1 -

قال الربيع بن زياد يصف الحرب :

جاءوا معا فيلقا جأواء مشعلة
للموت تمري وللابطال تقتسر (19)
صريف أنيابها صوت الحديد اذا
فض الحديث بها ابناؤها الوفر (20)
ودرها الموت يقتري في مخالبها
للواردين يوفى شربه القدر (21)
من اقتراها قرت كفاه حتفهما
أو اجتلاها بدا منها له عبر
في جوها البيض والماذي مختلط
والجرد والمرد والخطية السمر
حتى اذا واجهتهم وهي كالحة
شوهاء منها حمام الموت ينتظر (22)
جاءت بكل كمي معلم ذكر
في كفه ذكر يسعى به ذكر
مستوردين الوغى للموت ردهم
يوم الحفاظ على ذوادهم عسر

(19) الفيلق : الجيش العظيم. وجأواء : حمراء ضاربة الى السواد. ومشعلة : فيها نار. وتمري : من مرى يمرى أى تحتلب الموت وتقتسر : تقهر.
(20) صريف : صوت.
(21) يقرى : يطعم.
(22) الذكر : الشجاع والسيف والفرس. وقد وردت فى البيت بالمعانى الثلاثة.

لهم سرابيل من ماء الحديد ومن
نضح الدماء سرابيل لهم أخر (23)

مظاهرات عليهم يوم بأسهم
لونان جون وأخرى فوقها حمر (24)

في يوم حتف يهال الناظرون له
ما أن تبين له شمس ولا قمر (25)

فالبيض يهتفن والابصار طامحة
مما ترى وخدود القوم تنعفر
تكسوهم مرهفات غير محدثة
يشفى اختلاس ضباها من به صعر (26)

هنديه كاشتعال البرق يعصمهم
بها مغاوير عن احسابهم غير

1 ـ البيت في الاشباه والنظائر 142/2 وأما في الحماسة البصرية 59/1 فعلى الوجه الآتي :

قيدت لهم فيلق شهباء كالحة بالموت تمري وللابطال تقتسر

2 ـ في الحماسة البصرية 59/1 عض الحديد بدل فض الحديث.
3 ـ في الحماسة البصرية 59/1 للواردين يوافي وردها الصدر.
4 ـ في الاشباه والنظائر 144/2 البيت على الوجه الآتي :

من امتراها مرت كفاه حتفهما أو اجتلاها بدا منها له غبر

8 ـ في الحماسة البصرية 59/1 (روادهم) بدل (ذوادهم).
13 ـ في الحماسة البصرية مجدية بدل محدثة .

مصادر التخريج :

الخالديان ـ الاشباه والنظائر 144/2 .
وصدر الدين البصري ـ الحماسة البصرية 59/1.

---

(23) سرابيل جمع سربال وهو لباس المحارب.
(24) مظاهرات : أى السرابيل. من ظاهر بين الثوبين طابق بينهما والظهارة من الثوب نقيض البطانة، وجون سود.
(25) البيض : السيوف.
(26) أى أن هذه السيوف تمضى الى الفارس المتصعر فتذه فلا يبقى به صعر.

وقال الربيع بن زيادة يرثي مالك بن زهير :

نام الخلي وما أغمض حار
من سيىء النبأ الجليل الساري (27)

من مثله تمسي النساء حواسرا
ونقوم معولة مع الاسمار (28)

من كان مسرورا بمقتل مالك
فليأت نسوتنا بنصف نهار

قد كن يخبأن الوجوه تستترا
واليوم حين بدون للنظار

يجد النساء حواسرا يندبنه
يضربن أوجههن بالاحجار

يخمشن حرات الوجوه على امرىء
سهل الخليقة طيب الاخبار

أفبعد مقتل مالك بن زهير
ترجو النساء عواقب الاطهار (29)

ما ان أرى في قتله لذوي الحجا
الا المطي تشد بالاكوار (30)

ومجنبات ما يذقن عذوفة
يقذفن بالمهرات والامهار (31)

---

(27) حار : حارث (مرخم).
(28) حواسرا : كاشفات عن رؤوسهن، كناية عن المصيبة.
(29) في هذا البيت قطع، وهو عيب. وسوف نرى بعد قليل أن ابن قتيبة والشاعر البحتري يعملان على اصلاحه. والمعنى أبعد مقتل مالك ترجو النساء أن يخلون بازواجهن.
(30) الحجا — العقل. والمعنى ليس لاصحاب الرأى والعقل سوى أن يشدوا على أحزمة خيولهم متأهبين للحرب.
(31) المجنبة مجموعة من الخيول عليها رجال مسلحون. وعذوفة — شيء من الطعام والمعنى أن خيول الحرب ضمرت ومنع عنها الطعام. وهو أحسن لها في الجرى. واجهدت حتى تقذف ما في بطونها من الاجنة.

ومساعرا صدأ الحديد عليهم
فكأنما طلى الوجوه بقار (32)
يا رب مسرور بمقتل مالك
ولسوف يصرفه لشر محار

1 ـ في الحماسة ـ شرح المرزوقى 991/2 وشرح التبريزي 24/3 وشيخو 792/1 (انى أرقت فلم أغمض حار). وفي الفاخر للمفضل بن سلمة ص 223 ومجمع الامثال للميدانى 59/2 وخزانة الادب للبغدادي 538/3.

منع الرقاد فما أغمض حار جلل من النبأ المهم الساري

3 ـ الفاخر للمفضل بن سلمة ص 223 والامثال للميدانى 59/2 وخزانة الادب 538/3 (من كان محزونا).

4 ـ في الخزانة 538/3 عجز البيت : يندبن بين عوانس وعذاري. وفي سرح العيون لابن نباته ص 158 : بالصبح قبل تبلج الاسحار

5 ـ في شرح الحماسة للتبريزي 24/3 والمرزوقى 991/2 وشيخو 792/1.

يخمشن حرات الوجوه على فتى عف الشمائل طيب الاخبار

6 ـ في شرح الحماسة للتبريزي 24/3 والمرزوقى 991/2 ما أن أرى في قتله لذوي القوى . وشيخو 792/1 لذوي النهى.

7 ـ في المعانى الكبير لابن قتيبة 97/2 زهير بالتصغير ينصلح البيت، وحماسة البحتري ص 33 بمضيعة بدل زهير.

8 ـ في ديوان الحماسة للبحتري ص 22 (ما ان أرى من بعد مقتل مالك)

9 ـ في ديوان الحماسة للبحتري ص 22 (يمضغن) بدلا من (يقذفن).

مصادر التخريج :

المفضل الضبى ـ امثال العرب ص 30 (عدا البيت الرابع).
أبو عبيدة ـ النقائض 89/1 (عد البيت الرابع).

(32) المساعر ـ الابطال شديدو البأس.

وقال : في مجاورة حذيفة بن بدر لقيس بن زهير.

ألا أبلغ بني بدر رسولا ... على ما كان من شنأ ووتر (33)
بأني لم أزل لكم صديقا ... أدافع عن فزارة كل أمر (34)
أسالم سلمكم وأرد عنكم ... فوارس أهل نجران وحجر (35)
وكان أبي ابن عمكم زياد ... صفي أبيكم بدر بن عمرو
فانجاتم اخا الغدرات قيسا ... فقد أفعمتم ايغار صدري
نحسبني من حذيفة ضم قيس ... وكان البدء من حمل بن بدر (36)
فاما ترجعوا أرجع اليكم ... وان تأبوا فقد اوسعت عذري (37)

الاغاني 129/17 وشرح ديوان الحماسة للتبريزي 24/3 والمرزوقي 991/2 عدا البيت 11 الحادي عشر وبترتيب مختلف والفاخر ص 223 والميداني - الامثال 59/2 الاول والثالث والرابع والسابع والسيد المرتضى - الامالي - 210/1 (عدا السادس والحادي عشر) والسيرة لابن هشام السابع فقط. وابن قتيبة الشعر والشعراء 96/1 الثامن والمعاني الكبير السابع. وحماسة البحتري 22 (السابع والتاسع). واللسان مادة عذف (التاسع). وخزانة الادب للبغدادي 538/3 (1 + 3 + 4 + 7). والسرح لابن نباتة ص 158 (3+4+7) وشعراء النصرانية الابيات (عدا البيت 7)

مصادر تخريج الابيات :

الكامل في التاريخ - ابن الاثير 345/1.

---

(33) الشنأ : الشنأ : العداوة والبغضاء، والوتر : الثأر والانتقام.
(34) فزارة — حي من ذبيان في غطفان.
(35) فوارس نجران وحجر، كانوا يغزون فزارة ويدفع عنها الربيع، فهو يعاتبهم بعد أن ضموا اليهم عدوه قيس بن زهير.
(36) حمل بن بدر الفزاري أخو حذيفة بن بدر لابيه.
(37) أي : ان ترجعوا الى جواري وودي، وتتركوا جوار وود قيس بن زهير، أرجع اليكم، والا فاني معذور في عداوتكم وحربكم.

قال : الربيع بن زياد في رجوع قومه عن بني تغلب وعودتهم الى الصلح مع فزارة :

حرق قيس علي البلاد ... حتى اذا اضطرمت أجذما (38)
جنية حرب جناها فما ... تفرج عنه ولا أسلما (39)
عشية يردف آل الرباب ... يعجل بالركض أن يلجما (40)
ونحن الفوارس يوم الهرير ... اذا تسلم الشفتان الفما (41)
عطفنا وراءك افراسنا ... وقد مال سرجك فاستقدما (42)
اذا ذعرت من بياض السيوف ... قلنا لها أقدمي مقدما (43)

1 ـ الطبري ـ تاريخ الملوك (ضرم) بدلا من (حرق).

3 ـ المرزوقي ـ شرح ديوان الحماسة 484/2 (غداة مررت بآل الرباب ...) .

4 و 5 ـ المصدر السابق .

وكنا فوارس يوم الهرير ... اذا مال سرجك فاستعدما
عطفنا وراءك افراسنا ... وقد اسلم الشفتان الفما

وفي النقائض لابي عبيدة : ويروي (اذا تقلص الشفتان الفما) 104/1 وقال في تفسيرها : من الهول.

6 ـ المفضل الضبي ـ امثال العرب ص 41 والمرزوقي ـ شرح الحماسة 484/2 وشيخو 791/1 (اذا نفرت) بدل (اذا ذعرت).

---

(38) أجذم. أسرع. اى هرب لما اشتعلت البلاد حربا.
(39) يريد أن هذه الحرب جناية جناها قيس بن زهير، فلا هى فرجت ولا هم اسلموه لاعدائه، ولكن منعوه وثبتوا معه.
(40) يخاطب قيسا : بعد هروبك عند اشتعال البلاد نارا بالرباب (قبيلة) مسرعا ركضك دون أن تاجم فرسك. اى انك كنت مرتبكا فى وضع محرج.
(41) مال سرجك : اى اضطرب أمرك، ولكننا حفظنا لك الود ونصرناك فى يوم الهرير.
(42) يقول : كنت فى دهشة من أمرك. شفتك كالحتان والخوف أجهدك، لكننا من ورائك نحميك.
(43) اذا نفرت افراسنا خوفا من السيوف شددنا عليها حتا وقدمناها تقديما.

مصادر التخريج : أمثال العرب ـ للمفضل الضبى ص 41 والنقائض ـ أبو عبيدة 104/1 وحماسة أبى تمام شرح التبريزي 4/2 وحماسة أبى تمام بشرح المرزوقى 484/1 بترتيب مختلف . والمعانى الكبير ابن قتيبة 73/1 (البيت الاول) والطبري 97/2 الاول فقط ولسان العرب 356/14 الاول فقط.

ـ 5 ـ

قال الربيع عندما غادر جوار بنى ذبيان ولحق بقومه :

فان تك حربكم أمست عوانا ... فأنى لم أكن ممن جناها (44)
ولكن ولد سودة أرثوها ... وحشوا نارها لمن اصطلاها (45)
فانى غير خاذلكم ولكن ... سأسعى الآن اذ بلغت مداها

2 ـ في أشعار الستة الجاهليين ـ الاعلم 154/2 (شبوا نارها) بدلا من (حشوا نارها).

3 ـ في الاعلم 154/2 (لست خاذلكم) بدل (غير خاذلكم) (واناها) بدل (مداها) وكذلك في الفاخر للمفضل ص 224.

مصادر التخريج :

أمثال العرب ـ للمفضل الضبى ص 23 والفاخر للمفضل بن سلمة ص 224 ونسبه لقيس بن زهير والعقد الفريد لابن عبد ربه 68/3 واشعار الشعراء الستة الجاهلين ـ اختيار الاعلم 154/2 نسبها لعنترة وقال : وتروي للربيع بن زياد.

وواضح أنها للربيع كما ذكر المفضل الضبى والمفضل بن سلمة وابن عبد ربه . وحتى الاعلم ذكرها ضمن اشعار عنترة واشار الى الرواية التى تجعلها للربيع وهى رواية الاصمعى . ومعناها يدل على أنها للربيع من ذكره لمغادرة جوار بنى ذبيان واشتراكه في الحرب بعد أن بقى محايدا

(44) العوان ـ الحرب الى توتل فيها مرة بعد مرة وهى أشد الحرب.
(45) سودة أم حذيفة بن بدر وعوف وحمل، كذا فى الاعلم وفى النقائض قال أبو عبيدة أن حمل بن بدر أمه أسدية. وقال المفضل فى الفاخر : وسودة أم بنى بدر ماخلا حملا. وبنو بدر حذيفة واخوته الخمسة أمهم سودة بنت نضلة بن عمرو بن جوية.

زمنـا طويلا ، اضافة الى انها تدل من صيغتها أن القائل ليس عنترة الذي كان في أول أمـر الحرب عبدا لا يوزن لم رأي ولا يقدم في الحرب شيئـا ولا يؤخـر ، وانما ظهـرت شجاعته مؤخـرا في هذه الحرب وبها عرف.

- 6 -

وقال الربيع بن زيـاد ، وهو فيما يقال في الانفـة والامتناع من الضيم والخسـف :

كـن مثـل مولاك اذ قـال المليـك لـه
حذيفـة الخيـر قـولا غيـر تعذيـر (46)
الحـرب أحلـى اذا ما خفـت نائـرة
من المقـام علـى ذل وتصغـيـر (47)
فـأذن بحـرب يغـص المـاء شاربهـا
أو أن ندين الى احدى التحـاسـر (48)

مصـادر تخريـج الابيـات :
ديوان الحماسة جمع واختيار الشاعر البحتري ص 22.

- 7 -

وقال عندما صرفه قيس عن حرب ذبيان في معركة اليعمرية :

أقـول ولـم املـك لنفسـى نصيحـة
أرى مـا تـرى والله بالغيـب أعلم (49)
أتبقـى على ذبيـان في قـتـل مـالـك
فقد حش جانى الحرب نارا تضرم (50)

---

(46) حذيفة بن بدر، كان يدعى «رب معد» فى الجاهلية ويحيا بتحية الملوك . واطلق الربيع اسم المليك عليه. وكان يدعى أيضا حذيفة الخير، قتل فى معركة جفر الهباءة ومثل به أبشع تمثيل بسبب بغيه وظلمه.
(47) نارت نائرة فى القوم، هاجت هائجة. والنائر الملقى الشرور بين القوم.
(48) التحاسر : الدواهى.
(49) أى انه يؤيد نصيحة قيس فى عدم التصدى للعدو وحربه بل تركه أن يكون هو البادىء بها الى أن ينشغل بالسلب والنهب ثم يبادرونه.
(50) مالك بن زهير، شقيق قيس، قتلته غزارة ظلما وهو فى جوارهم.

مصادر التخريج : الفاخر ـ المفضل بن سلمة ص 225 والعقد الفريد ـ ابن عبد ربه 69/3 والامثال ـ للميداني 60/2.

ـ 8 ـ

وقال : يحاول أن يقبل استمالة قيس له بعد افتراق وجفوة :

وأكره أن أقر برد قيس وأكره أن أسوء بنى زياد (51)

مصدر تخريج البيت : شرح التبريزي على ديوان الحماسة 24/3.

ـ 9 ـ

وكتب الربيع بن زياد العبسى الى الملك النعمان بن المنذر عندما أمره بالانصراف بعد مهاجاته للشاعر لبيد بن ربيعة العامري في بلاط الملك في خبر معروف ذكره الشريف المرتضى في أماليه 192/1 والرجز في ديوان لبيد : يارب هيجا هى خير من دعه.

فأرسل الربيع الى النعمان بهذه الابيات :

لئن رحلت جمالى ان لى سعة ما مثلها سعة عرضا ولا طولا
بحيث لو وزنت لخم بأجمعها لم يعدلوا ريشة من ريش شمويلا
ترعى الروائم احرار البقول بها لا مثل رعيكم ملحا وغسوبلا
فابرق بارضك يا نعمان متكئا مع النطاسى يوما وابن نوفيلا

فكتب اليه النعمان جوابا عن ابياته :

شرد برحلك حيث شئت ولا تكثر علي ودع عنك الا باطيلا
فقد ذكرت به والركب حامله وردا يعلل أهل الشام والنيلا
فما انتفاؤك منه بعد ما ضرعت هوج المطي به ابراق شمليلا
قد قيل ذلك ان حقا وان كذبا فما اعتذارك من قول اذا قيلا (1)
فالحق بحيث رأيت الارض واسعة وانشر بها الطرفان عرضا وانطولا

(1) هذا البيت يذكره اللغويون شاهدا في حذف الاسم والاداة مع بقاء الخبر. ويروي : ان صدقا وان كذبا .

(51) قيس بن زهير، وبنو زياد أهله، وسبب هذا التردد يرجع الى عداء قديم مع قيس بسبب حادثة الدرع التى سبقت الاشارة اليها عند معرض الحديث عن حياته.

مصـادر التحقيـق :

الاغانى (دار الكتب) 22/16 وأمالى المرتضى 192/1.

- 10 -

وقال الربيـع بن زيـاد يرثى حمل بن بـدر :

تعلـم ان خير النـاس طـــزا ... على جفـر الهبـاءة ما يريم (52)
ولـولا ظلمـه مـا زلت أبكـــى ... عليـه الدهـر مـا طلـع النجـوم
ولكـن الفتـى حمـل بن بـدر ... بغـى والبغـى مرتعـه وخيـم
أظـن الحلـم دل علـى قومـى ... وقـد يستجهـل الرجـل الحكيم
الاقـى من رجـال منكـرات ... فأنكرها وما أنـا بالظلـوم (53)

مصـادر تخريـج الابيـات :

خزانـة الادب للبغدادي 538/3 الا اننا وجدنا جميـع مصادر التحقيق التى بين ايدينا تنسب الابيات الى قيس بن زهير ، وهو الصحيح الراجح لان الخزانة انفردت بهذه النسبة. ولعل المؤلف رحمه اللـه توهم أو ربما الناسـخ أو غيرهمـا والله أعلـم .

- 11 -

وقال الربيع بن زياد في مقتل مالك بن زهير.

فان طبتم نفسا لمقتل مالـك ... فنفسى لعمري لا تطيب لذلـك

---

(52) جفر الهباءة موضع فى نجد فيه آبار ماء مخرقة الاسافل، دارت عليه معركة قتل فيها حذيفة وأخوه حمل بن بدر.
(53) فى البيت أقواء.

مصـــادر البحث ومراجعه بحسب تسلسل ورودها فيه :

1 ـ البغدادي ـ عبد القادر بن عمر خزانة الادب ـ طبعة بـــولاق.

2 ـ البكري ـ عبد الله بن عبد العزيز معجم ما استعجم ط ـ لجنـــة التـــأليـــف .

3 ـ التبريزي ـ أبـــو زكريـــا يحيـــى بن علـــي شـــرح ديـــــوان الحماســـة ـ ط 3 السعـــادة.

4 ـ ابـــن الاثيـــر ـ محمـــد بن الجزري ، الكامـــل في التـــاريخ ـ طبعـــة حجريـــة .

5 ـ الجاحظ ـ ابـــو عثمان بحـــر بن عمـــرو ، البيان والتبيين ـ تحقيـــق ـ عبد السلام . الحيوان ـ تحقيـــق عبد السلام.

6 ـ ابن حـــزم ـ علي بن سعيد ـ أنساب العرب ـ ط بروفنسال.

7 ـ الحوفى ـ أحمد محمد توفيق ـ الشعر الجاهلى (أم درمان 1967)

8 ـ الخالديان ـ ابو بكر عمر وابو عثمان سعيد الاشباه والنظائر ـ ط. لجنـــة التـــأليـــف .

9 ـ الزركلى ـ خير الديـــن ـ الاعلام طبـــع مصر 1967.

10 ـ الشريف المرتضى ـ على بن الحسين الامالى ـ طبع الدار 1954.

11 ـ صـــدر الدين على بن ابى الفـــرج البصـــري ـ الحماسة البصرية ط. حيـــدر آبـــاد .

12 ـ الاصفهانى ـ ابـــو الفرج على ـ الاغانى ـ دار الثقافة.

13 ـ ابن عبد ربه ـ احمد بن محمد ـ العقد الفريد ـ ط بـــولاق.

14 ـ أبـــو عبيـــدة ـ معمـــر بن المثنـــى ـ نقائض جريـــر والفرزدق ط. ابـــريـــل .

15 ـ الاعلـــم ـ يوسف بن سليمان ـ اشعار الشعراء الستة الجاهليين ط. مصـــر تحقيـــق عبـــد المنعـــم.

16 ـ عمر رضا كحالة ـ معجم قبائل العرب. طبع دمشق 1949.

17 ـ القالى ـ ابـــو علي اسماعيـــل بن القاســـم الامالـــى . ط دار الكتـــب المصريـــة .

18 ـ ابن قتيبة ـ ابو محمد عبد الله بن مسلم ـ المعانى الكبير ـ الشعر والشعراء ـ طبع مصر.
19 ـ المرزوقى ـ ابو علي احمد بن محمد الحسين.
20 ـ المفضل بن سلمة ـ الفاخر ط. القاهرة.
21 ـ المفضل بن محمد الضبى ـ امثال العرب . مطبعة الجوائب سنة 1300 هـ قسطنطينية .
22 ـ ابن منظور ـ محمد بن مكرم بن على ـ لسان العرب ط. بولاق
23 ـ ابن نباتة ـ جمال الدين محمد ـ سرح العيون ـ ط. مصر.
24 ـ ابن هشام ـ أبو محمد عبد الملك ـ السيرة ط. السقا ورفيقيه.
25 ـ الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير ـ تاريخ الرسل والملوك.
26 ـ لويس شيخو اليسوعى ـ شعراء النصرانية ـ القسم الاول.

ربيعة بن مكدم
حامي الظعينة (*)

خلاصة البحث :

هذه دراسة أدبية، تحليلة، لبطل ملحمي من أبطال الروايات العربية الكلاسيكية يدعى «ربيعة بن مكدم الكنانى» وهو شاعر فارس ، عاش في العصر الجاهلى ولم يدرك الاسلام، الا أنه عاصر أفذاذا من الجاهليين المخضرمين التقى بهم وكانت له معهم مواقف مذكورة أمثال دريد بن الصمة وعمرو بن معد يكرب الزبيدي.

ومن خلال حديثى عن هذا البطل الملحمى، تطرقت في حديث مركز الى طبيعة العصر الذي عاش فيه ربيعة من وجهة النظر الادبية الجديدة، وبخاصة قضية النصوص الشعرية التى ما زالت حبيسة في كتب التاريخ ينتفع منها المؤرخ أكثر من الاديب، فاقدة حسها الفنى المرهف وأبعادها الادبية والشعرية الممتدة عبر الاجيال ، فلم تتحسسها الامة من هذا الجانب الوظيفى الذي هو الاساس في وجودها وفاعليتها، بل حولها المؤرخون الى مجرد وثائق لعلمهم الخاص، مع أنها صفحات مشرقة في الادب وليست مدونات مادية للتاريخ، وانها اذا ضمت بعض الحقائق التاريخية، فان المؤرخ كباحث يتوخى الحقيقة خالصة دون تحيز ولا مبالغة، لا يمكنه الركون اليها كليا. فهى اذن أناشيد موروثة من عصر بطولى، لا كتابات أكاديمية بحتة.

ثم بعد ذلك تعرضت لدراسة نقدية وتحليلية سريعة لجوانب متعددة من حياة ربيعة مع مقارنات لبعض ظواهر الميثولوجيا. وختمت

---

* الظعينة : المرأة فى الهودج وقد يطلق على الهودج نفسه.
والمكدم : الذى فيه أثار الكدمات لفرط مقارعة الاقران.

الدراسة بايراد الروايات الادبية والشعرية التى تضمنت سيرة هذا البطل واشعاره وأقوال معاصريه فيه. وبذلك أكون قد فتحت بابا جديدة في دراسة الادب العربى القديم، ومعالجة نصوصه وشخوصه وأبطال رواياته النثرية والشعرية معالجة أدبية جديدة، تناسب رؤية العصر الحديث وروح المعاصرة.

سيرته :

هو ربيعة بن مكدم عامر بن حرثان بن جذيمة. ينتسب الى قبيلة كنانة (1) شاعر فارس، وهو نموذج فريد في البطولة رسمته ريشة العبقرية الروائية العربية في العصر الجاهلى، وأضاف الفلكلور الى هذه اللوحة بعدا تراثيا جديدا، انتهى يومئذ في صورة أدب شعبى ممتع، فنسى الاصل أو الشكل الادبى الرفيع أو «المثقف» لهذا النموذج واندمج في بقية النماذج الروائية الخالدة في سيرة من سير القبائل في بلاد العرب مثل سيرة العبسيين والذبيانيين، وسيرة الهلاليين، وسيرة بنى وائل من التغلبيين والبكريين (2) أبطال الملاحم المروية في أعماق الجزيرة وأطرافها المترامية من أعالى بلاد الرافدين حتى أقاصى وادي النيل. لذلك فأنا أردد دائما في كتاباتى عن الادب الجاهلى، بأننا يجب أن نشعر بالسعادة الحقيقية ونحن نكتشف بأن هؤلاء البشر المذكورين

---

(1) لا يخل علينا الرواة بسلسلة ذهبية أسطورية لاجداد ربيعة تصل الى جدهم الاعلى كنانة — الاغانى 56/16.

(2) يراجع كتابنا : الشعر فى حرب داحس والغبراء — ط. الاداب بالنجف 1972 — فيه اضافة لسيرة العبسيين من خلال هذه الايام التى خلدتها الملحمة العربية. وقد تطورت بعد ذلك الى السيرة الشعبية (سيرة عنترة) التى أطلق عيها المستشرقون اسم : اليادة العرب وقال عنها د. شوقى ضيف : لا نبعد اذا قلنا انها تحولت الى اليادة كبرى للعرب وفروسيتهم الرائعة (العصر الجاهلى 66 و 370 طبعة رابعة) وأما سيرة التغلبيين فهى ممثلة فى الملحمة العربية الكبيرة : أيام البسوس، التى تطورت الى الملحمة الشعبية الزير سالم. وهو مهلهل بن ربيعة الذى عرف باسم سالم وعدى وامرىء القيس. والزير لقب له، سماه به أخوه كليب، عندما لم يلمس منه ميلا الى حياة الفرسان بل الى اللهو والقصف والنساء. قال مهلهل : فلو نبش المقابر عن كليب لخبر بالذنائب أى زير

في الشعر والنثر هم أبطال روايات شعرية ونثرية ممتزجة في تركيب خاص، تشكل ظاهرة متميزة في آداب العالم القديم (3).

ان اعتبار هذه الشخوص أبطال روايات، شيء طبيعي جدا لا يضطرنا على التكلف، ولا يحوجنا الى السعي وراء اثبات حقيقتهم التاريخية ووجودهم المادي في الجزيرة العربية، لاننا في حالة عدم حصولنا على اية ظاهرة أو أثر يثبت هذا التواجد الزماني والمكاني ، وكذلك اذا لم تتأيد عندنا هذه الابعاد المادية والتاريخية، فاننا سنضطر الى اغفال الكثير من نماذج البطولة الاثيرة الى نفس امتنا العربية في ضوء هذا المنهج الذي لا يمت الى الادب بصلة، بل يخص عالم التاريخ، وسنضطر ايضا الى حذف أحسن الثمار من أعمال الروائيين العرب، أيا كان عصرهم سواء الجاهلي أم بدايات الاسلام. ولطالما بينت بان دراسة ادبنا العربي القديم يجب أن تكون منصبة على استثارة عوالمه الشعرية الساحرة (4) المختفية خلف هذه النصوص، واعادة وجهها القصصي لها، ثم ترميمها ونشرها نشرا أدبيا، لا وثائقيا وتاريخيا فقط. فنحن بعملنا هذا انما نعيد الى الوجود أدبا مفقودا. وليس صحيحا السعي ووراء تثبيت شهادة ميلاد هذا الادب والتمحيص في حقيقته والبحث عن بذرة الواقع فيه لنشرها وحدها. لقد وضعت هذه الاعمال الشعرية والنثريه بأيدي الروائيين كأدب ونصوص لا كوثائق واقعية أو مدونات تاريخيه. ومن هذه النقطة كان منطلقي دائما. فقد ظلت الاعمال الشعرية الكلاسيكية من بين جميع أنواع التراث الموروث ، هدف كل دارس، وغاية كل محقق ولم يتهيأ للباب الكبيرة التي فتحها الجاحظ في بحوثه النقديه التحليلية من يواصل منهجه العلمي، فقد استأثر تحقيق الشعر وميدان روايته يومئذ بالاهتمام وطغى على سائر الميادين الادبية.

ومنذ عصر النهضة الفكرية الاوروبية، ومردودها الايجابي في العرب، هناك خطان يعملان بقوة صعودا على لوحة النتاج الادبي. لكن يظل خط (تحقيق الشعر) محظوظا. ومع ذلك فما قدمت من دراسات حول شعرنا الجاهلي، ظلت تعالج نفس المنحى التقليدي في

---

(3) تراجع مقالتنا، الملاحم العربية ومقارنتها بالملاحم الكونية. مجلة الكتاب العدد 4 السنة 1974 بغداد.

(4) تراجع دراستنا : المنابع الثقافية الاولى للشعر الجاهلي. مجلة الكتاب العدد 4 السنة 1975.

معالجة الشعر الاموي والعباسي. ولم يلتفت احد الى طبيعة هذا الشعر ومكوناته الثقافية وسبل روايته وابطال قصصه. ولست ابتغي العودة الى الحديث عن هذه المكونات الفكريه والمنابع الاوليه، ولا في نيتي الدخول الى طبيعة هذا الشعر الوثني المكتوب في اطار قصه بطولية يتلازم بعضها مع بعض. فقد تلفينا نظرة في سيرة مهلهل بن ربيعة خال امرىء القيس وعلاقة الاخير - في خبر طويل - بالشاعر عبيد بن الابرص أحد شعراء المعلقات ، وعلاقة مهلهل بطل ايام البسوس بالشاعرين عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حلزة الناطقين الكبيرين باسم قبيلتيهما المتعاديتين، وبالاخص عمرو بن كلثوم، فقد كان مهلهل جده (5) فاذا التمسنا مثل هذه العلاقة في شعر النابغة وعنترة شاعري قوميهما في يوم داحس والغبراء، ثم امتدادهما الثالث في معلقة زهير بن أبي سلمى، والثلاثة من أصحاب المعلقات ذوات العلاقة بهذه الحرب، ارتسمت صورة مترابطة الاجزاء لعوالم قصصية رائعة تقدم للعصور أمتن الملاحم الشعرية، طمست ملامح الابداع فيها على يد ابناء العصور اللاحقة ومزقت أشلاء متناثرة وراء نظريات خاطئة في اعطاء الشكل النهائي لطبيعة وتركيب العصر الجاهلي .

ولو أن الشعر الجاهلي بقصصه سجل وفق معطياته الملحميه وبالصورة التي يرويها أهله حتى عصر الرسول والراشدين، لكنا وقعنا على أكبر ثرواتنا الكلاسيكية ، ثم كانت الاجيال قد صقلتها، كما صقلت اليد اليونانية الياذتها، وأيدي الهنود والفرس ملاحمهم القديمة، وكما فعل اجدادنا في وادي الرافدين عندما تعاملوا مع الاساطير السومرية تعاملا خلاقا فحولوها الى ملاحم شعرية خالدة (6) لكن النظرة الى هذا المنثور الشعري كانت رديئة جدا، يجب ان تتغير، لان النثر جزء متمم لعمل الشعر، وبدونه لا يعرف النص، وهذه من خاصيات الادب العربي وخصوصياته .

---

(5) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على 460/9، 461 وشعر الايام الجاهلية ص06 (رسالة دكتوراه بالرونيو) والمصدر السابق. وينظر كتاب الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي للدكتور ج. هيوارث دن ص 98 فصل : القرابة بين الشعراء.

(6) الاساطير في بلاد مابين النهرين — صمويل هنري هوك (ط. وزارة الثقافة بغداد 1968) أنظر توزيعه للاساطير السومرية والملاحم الكونية السامية. وانظر كتاب أوغاريت للشيخ نسيب وهيبة الخازن. القسم الاول منه وهو الدراسة (ط. بيروت سنة 1961).

لقد أصاب الظاهرة خلاف ما نرجوه لها، فقد انبرت اقلام تعمل في تجريح وتقطيع هذه المرويات، مقصية أي روح للفن عنها، فكان المحقق يجري وراء اخطاء النساخ وأوهام الرواة يستقصيها ليثبتها كانها جواهر مكنونة يخشى عليها الضياع. ولم يتورعوا من ان يقولوا عن هذه الدراسات بانها جادة، وان كان ـ كمثال لهذه الجدية ـ التنقيب وراء والدة شاعر مخضرم ان كانت قبيلة «خثعم» قد سبتها حقا. وكان في مقدور الباحث، وهو قادر دون ادنى ريب، ان يقدم لنا فعلا دراسة أدبية معاصرة، تأخذ بنظر الاعتبار علميا، طبيعه المرحلة البطولية التى كان يعيشها الشعر الجاهلى في ذلك العصر الخلاق لاجمل الاساطير، وهى مرحلة تمر بها كل أمة تضرب بجذورها في الماضى البعيد، دون مناقشة ليست بذات جدوى، بشان القصائد أو الاخبار، ان كانت واقعا أو خرافة لان كل ما فكرت فيه البشرية وفعلته في مراحلها الاولية والبدائية هو واقع مقبول، ويدرس من هذا المنطلق .

وكان من حق الشاعر عمرو بن معد يكرب مثلا وهو المخضرم الذي عنيناه قبل أسطر، أن ينظر الى نفسه على أنه شاعر جاهلى انسحبت عليه كل القيم الوثنية وأضيف اليه كل المؤثرات اليمنية، ثم يوضع في موضعه من هذه الملحمة الطويلة... ملحمة الشعر الجاهلى وحسنا فعل محقق ديوانه في ايراد كل ما ذكر حول عمرو بن معد يكرب، حتى اخبار صمصماته بأبعادها الميثولوجية وليته جعلها في المقدمة، وليته أيضا أبقى على قصص الايام وأخبارها البطولية بين ثنايا الشعر، كما فعل رواة الإخبار والاشعار الاوائل، اذن لكانت صورة الشاعر أوضح، واقترابه من واقعة المنشود ـ وهذا هو واقعه فعلا ـ أكثر ولكان شعره في الصورة المقترحة أكثر ثراء في العطاء. لكننا نصنع بالشعر الجاهلى صنيعنا بالشعر العباسى، يوم سقط هذا الشعر في عزلته، وغاب عنه وجه الانسان في ذاتية مغرقة، وكذلك صنيعنا في دواويننا المعاصرة درسا وتحقيقا، وهذا لا يصح (7) ولذلك حين قدمت للقارىء، قبل اليوم، شاعرا جاهليا «مفضليا» ثبت قبل الشعر جميع أخباره، ولم أقصر في

---

(7) لننظر فى شرح ديوان لبيد مثلا وشرح النقائض وكل ديوان ذى صنعة قديمة، كيف تتخلل «القصص» «والايام» قصائده، فيعيش القارىء عصرا من خلال الرؤية الشعرية للديوان لا يؤديها الشعر مجردا وحده.

القصص، بل كنت أرممها ترميما من مصادرها المتعددة لكي انجح في اضفاء سمات البطل الاسطوري على هذا الشاعر النابغ من وجدان هذه الامة الحالمة يومئذ (8) وفعلت مثل هذا مع قيس بن زهير وغيرهما لكنني قصرت في فصل الشعر باقصائه عن ثنايا القصه وعزله في صفحات مستقلة فكنت أكتفي بايراد البيت والبيتين من القصيدة في القصه ثم احيل القارىء الى الشعر في آخر الخبر، ولم أكرر مثل هذا الخطأ الان مع ربيعة بن مكدم أحد الفرسان والشعراء الجاهليين والذي استأثر بيومين كبيرين من أيام العرب وخبرين مطولين مع الشاعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي (10) وكان مقتله قد جر يوما آخر (11).

وليس في بطون الكتب ما يشير الى طفولة ربيعة بن مكدم و/ في ثنايا الاخبار والروايات ما يبسط شيئا من سيرته الذاتية، سوى ما يتعلق بسيرته الملحمية والبطولية التي تكون نواة العمل الادبي في العصر الجاهلي.

وأما مجتمعه الصغير :

فهو ينتسب الى كنانة، قبيلة كبيرة احتوت عددا من البطون، اشهرها «قريش» التي أرجع العلماء أصل اسمها الى جذور ميثولوجيه عريقه (12) هي جزء لا يتجزأ من التفسير الفلسفي لظاهرة الصراع المستمر من اجل نشدان الخلود الانساني (13) ومن بطون كنانة : بنو ضمرة بن بكر الذين منهم : البراض بن قيس الذي يقال فيه : أفتك من البراض وهو أحد أبطال أيام الفجار (14). وقد كان بنو الحارث بن مالك بن كنانة، ومنهم القلمس بن شمامة ممن ينسؤون الشهور (15) حتى أنزل الله تعالى انما النسيء زيادة في الكفر.

---

(8) هو الشاعر الحارث بن ظالم المرىء، مجلة كلية الاداب العدد 15 السنة 1976.
(9) قيس بن زهير — طبع الاداب بالنجف 1976.
(10) أما اليومان فهما : يوم الظعينة ويوم الكديد. وهما محققان مع خبرى عمرو بن معد يكرب فى آخر هذه الدراسة.
(11) هو يوم «برزه» وسأعود الى حديثه عند التعرض لمقتل ربيعة.
(12) أنظر القصة فى العقد الفريد 339/3.
(13) مقالتنا : «الملاحم العربية» فى مجلة الكتاب العدد 4 سنة 1974.
(14) كتاب الايام — رواية أبى عبيدة بتحقيقنا .
(15) كان من طقوس الوثنيين فى الجاهلية اذا اقتضى ظرفهم فى بعض الاعوام أن يؤجلوا الاشهر الحرم.

ولا أريد أن أستقصي كل بطون كنانة، وانما أجتزىء فأذكر منهم ابناء مالك بن كنانة، ومنهم جذل الطعان وهو علقمة بن أوس بن عمرو ابن ثعلبة بن كنانة ومن ولد جذل الطعان : ربيعة بن مكدم الذي نترجم له، وهم أشجع بيت في العرب، وفيهم يقول الامام علي بن أبي طالب لاهل الكوفة : وددت والله لو أن لي بمائة ألف منكم، ثلاثمائة من بني فراس بن غنم بن ثعلبة (16) ويرتقي النسابون بكنانة وأسد والنهون الى «خزيمة» و «مدركة» ثم الى خندف، وهو حي عظيم يوازي في وزنه حي «قيس عيلان» وكلاهما ينحدران من مضر بن نزار بن معد ابن عدنان (17).

وتفيدنا روايات الايام التي نوردها كاملة، محققة في آخر هذه الترجمة، أنه لم يؤثر عنه الا شعر قليل جدا، وأكثره «رجز» من النوع الذي يتغنى به الفرسان في الحروب عند اللقاء، كأنه حوار شعري في ملاحم الايام، ولا يستطيع الباحث أن يقدم رؤية تحليلية نقدية في دراسة مستقلة لشاعر واحد من شعراء الايام المقلين مثل ربيعة بن مكدم والربيع بن زياد والحارث بن ظالم وان كانوا من المجيدين، وذلك لندرة أشعار كل منهم، اذا قيسوا الى شاعر آخر في «الايام» مثل مهلهل بن ربيعة أو عنترة لكن يستطيع الباحث أن يقدم رؤية شعرية من دراسة الظاهرة الشعرية الكبرى لهذا الفن بمجموعها، وعندئذ تظهر السمات المميزة لهذا الشعر الملحمي (18).

ولعل حداثة سن ربيعة، ومغادرته الحياة بصورة سريعة ومحزنة، هو السبب وراء ندرة أشعاره وأخباره، ان كنا ننقب وراء حقيقته التاريخية، لكننا سنضرب صفحا، ونعالج مسألة موته من خلال الرواية، فقد ورد أن قاتله في يوم الكديد هو «نبيشة بن حبيب السلمي» (19) وهو من بني سليم بن منصور من الحي الكبير قيس عيلان. الا أن رواية

---

(16) العقد الفريد 339/3.

(17) كتاب أيام العرب. محمد جاد المولى وجماعته ص 408 وما بعدها. طبعة أولى البابي سنة 1940.

(18) قدمنا مثل هذه الدراسة في كتاب : شعر الايام الجاهلية.

(19) أنظر مصادر هذا اليوم في آخر البحث.

أخرى تذكر أن قاتله اهبان بن غادية الخزاعي، وكان أتاه زائرا، وهو زعيم الخزاعيين وقد أوردوا قول اهبان تصداقا لما يدعونه (20).

ولقد طعنت ربيعة بن مكدم ... يوم الكديد فخر غير موسد
في عارض شرق فبات فؤاده ... منه بأحمر كالنجيع المجسد
ولقد وهبت سلاحه وجواده ... لاخي نبيشة قبل لوم الحسد

فقال أبو الغارعة الحارث بن مكدم أخو ربيعة يجيبه :

فات ابن غادية المنية بعدما ... رفعت أسفل ذيله بالمطرد
قل لابن غادية المتاح لقتلتنا ... ما كان يقتلنا الوحيد الافرد

يريد أن أهبان مفرد من قومه في أخواله، وكان ربيعة قد اغار عليه فقاته. وقال أبو الفارعة أيضا.

فان تذهب سليم بوتر قومي ... فأسلم من منازلنا قريب

وليس وراء هذا أى خبر لاي يوم من أيام العرب ، وتبقى رواية قتله في يوم الكديد هى المتصدرة ، وقد جر مقتل ربيعة في يوم الكديد يوما آخر يقال له : برزة (21)، حيث كنانة لنفسها من سليم بمبادرة من الاخير، برغم أنها واتره لاموتورة، ولم يحضر الحرب نبيشة بن حبيب، ولعله كان يتوجس من كنانة لانهم يطلبونه بدخل.

ولقد اضفى الخيال الروائى على نهايات بعض الابطال الاسطوريين نفس النهاية التي ختمت حياة البطل ربيعة بن مكدم . فقد ذكر عن عنترة العبسى انه بعد أن قتل استعظمت قبيلته قتله، فليس بينهم من يخلفه في مثل وزنه ليتسلم قيادة الجيش، فعمدوا الى رفاته فأسندوه وربطوه على صهوة فرس، وجعلوه في مقدمة جيوشهم المغيرة، يغزون به المغازى ليرهبوا الاعداء، فظلوا على هذا زمانا قبل أن تفطن القبائل الى هذه الحيلة العسكرية فتكشفها وهذا المقطع من ملحمة البطل الاسطوري عنترة أخذ من نهاية ربيعة بن مكدم في يوم الظعينة، عندما طعنه نبيشة بن حبيب فارتث . فاشار

---

(20) الكامل فى اللغة والادب للمبرد 366/2 ط. بيروت — المعارف مصورة والاغانى 77/16 وورد الاسم اهبان بن عادياء. وشرح التبريزى للحماسة 189/1 — ابن غادية السلمى.

(21) يوم لكنانة على سليم. العقد الفريد 17/5 ومخطوطة محاسن الاشعار للشمشاطى ورقة 31 والنويرى 4/15 ومعجم البلدان لياقوت : مادة (برز).

ربيعة على نسائه أن ينطلقن وان يقف هو دون اعدائه، فاسند جسمه الى رمح معتليا صهوة فرسه ، وقد تحامل على نفسه منتصبا فمرت ظعائنه ونجت كلها وهو ميت ولم يفطنوا الى تدبيره الا بعد أن فوت على سليم فرصة الظفر به وبقومه. قال أبو عمرو بن العلاء «ولا نعلم قتيلا ولا ميتا حمى ظعائن غيره. وهو يومئذ غلام له ذؤابة فاعتمز على رمحه، وهو واقف لهن على متن فرسه حتى بلغن مأمنهن (22). والظعائن النسوة في الهوادج، مفرده ظعينة.

ولما مات اهيلت على قبره احجار، فكانت القبائل اذا مرت اعظمته ونحرت عثرت عند قبره. فاضفى الخيال الى ابطال اخرين مثل هذا التقدس. فقد ذكر لهم اعظموا عامر بن الطفيل وقد سوا قبره بعد موته فقد خرجت امرأة من بنى سلول كأنها نخلة، حاسرة، وهى تقول (23)

انعى عامر بن الطفيل وأبقى (24) وهل يموت عامر من حقا :
وما أرى عامرا مات حقا

فما رئى يوم أكثر باكيا وباكية، وخمش وجوه، وشق جيوب من ذلك اليوم. ونقل ابو عبيدة عن الحرمازي : لما مات عامر بن الطفيل نصبت بنو عامر انصابا ميلا في ميل، حمى على قبره لا تنشر فيه ماشية ولا يرعى، ولا يسلكه ماش ولا راكب. وكان جبار بن سلمى بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب غائبا فلما قدم قال :

ما هذه الأنصاب ؟ :

قالو :

نصبناها حمى لقبر عامر بن الطفيل

فقال :

ضقتهم على أبى على ، ان أبا على بان من الناس بثلاثت · كان لا

(22) راجع يوم الكديد فى اخر الدراسة بحث (بارون فى المجلة الملكية الاسيوية : Perron. Jornal of The Royal Asiatic Society 9 Desember 1840.
ويذكر بارون فى هذا البحث مخاطبا صديقا له فى باريس بأنه اكتشف بأن عنترة التاريخ غير عنترة الاسطورة، بل هو يختلف عنه كثيرا. وكان بارون مدير المدرسة الطبية فى سنة 1839 وطبيب مستشفى القصر العينى فى القاهرة فى ذلك الوقت وبحثه هذا يدور حول ربيعة بن مكدم وعنترة.
انظر أيضا : موسى سليمان — الادب القصصى عند العرب ص 100 ط. دار الكتاب 1950.
(23) الاغانى 60/17.
(24) هكذا رد فى الاغانى .

يعطش حتى يعطش الجمل، وكان لا يضل حتى يضل النجم، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل و في رواية وقف على قبر عامر فقال (25) .

– أنعم صباحا أبا علي ، فوالله لقد كنت سريعا الى المولى بوعدك ، بطيئا عنه بايعادك ، ولقد كنت أهدى من النجم ، وأجرى من السيل .

ثم التفت اليهم فقال :

– ما كان ينبغى أن تجعلوا قبر أبى علي ميلا ميلا .

ومثل هذا الموقف يتكرر عند قبر النجاشى حيث وقف رجل فترحم له وقال (26) .

– لو لا أن القول لا يحيط بما فيك ، والوصف يقصر دونك لاطنبت بل لاسهبت ، ثم عقر ناقته على قبره ، وقال .

عقرت على قبر النجاشي ناقتي بأبيض عضب اخلصته صياقله
على قبر من لو أنني مت قبله لهانت عليه عند قبرى رواحله

والعقر محرم في الاسلام. ومن ملاحظه طبيعة النعى الذي تفوهت به السلولية، وكان عامر بن الطفيل مات في بيتها وقال كلمته المشهورة : أغدة مثل غدة الجمل وموت في بيت سلولية ، ومن ملاحظة استعظام موته (وهل يموت الرئيس حقا) وكذلك من وضع الانصاب واتخاذ قبرهمزارا وتحديد الموضع وحمايته بما كان يقال له : حمى ، يمنع دخول الحيوان اليه لأنه حمى مثل حمى الاله الذى اتخذه كليب بن ربيعه فمنع دخول ناقة البسوس التى يقال لها «السراب» نحصل على فكرة واضحه في اطار ادبي عن طبيعة وتركيب المجتمع الجاهلى . ومثل هذا التقديس تلمسه في شعر مهلهل بن ربيعة لقبر كليب ، حيث يصف نفرة ناقته عند قبره .

وحادت ناقتى عن ظل قبر ثوى فيه المكارم والفخار

وهو نفس الحدث المذكور حول ربيعة بن مكدم عندما نفرت ناقة شاعر عند قبره ويروي أن الشاعر هو حسان بن ثابت وقد مر بقبر ربيعة بن مكدم الكنانى في موضع يقال له ثنية غزال، فقلصت به راحلته، فوقف على القبر يرثيه واعتذر عن عقرها بطول سفره (27).

(25) الكامل فى اللغة والادب للمبرد 366/2.
(26) المصدر السابق.
(27) الاغانى 64/16 وشرح التبريزى على الحماسة 187/1 وكلمة سباء فى البيت الثانى تروى : شريب أيضا.

نفرت قلوصي من حجارة حرة ... بنيت على طلق اليدين و هوب
لاتفرى بياناق منه فانه ... سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمة ... لتركتها تحبو على العرقوب

فلما سمعت بشعره قبيلة ربيعة قالت : والله لو عقرها لسقنا اليه الف ناقه سود الحدق ، وقد عالجت هذه القضيه الهامه في الشعر العربي القديم في بحث نشرته تحت عنوان : الرمز والاسطوره في الشعر الجاهلي، فمن شاء الاتساع والاستزادة فليرجع اليه (28)، وتطرقت لهذا البطل الملحمي في كتابي الملاحم العربية «عند دراستي لنموذج البطل في الشعر الجاهلي . وقد بلغ من اعجاب الشعب يومئذ بشخصية ربيعه بن مكدم ان اخترعت له لقاءات بطولية مع شخصيات روائية محبوبه ايضا، أمثال دريد بن الصمة وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ونبيشة بن حبيب وآخرين نلتقى بهم في ثنايا القصة التى نوردها بعد هذه الدراسة، وهو تقليد شائع في الروايات العربية الجاهلية يكتمل عن طريقه بناء ملاحم الأيام وقصص العرب. وعند لقائهم ينسج مؤلف الرواية المجهول دائما، حوارا من المنافرات الكلامية، والمناقضات الرجزية أو القريضية، تتخذ كلها صورة من صور التفوق البلاغى بالنسبة للفارس العربى، وهى بمثابة تمهيد لاشعال الحماسة قبل الدخول في المبارزة . وهى أيضا تشبه الى حد كبير أنماط المنافرات والمناقضات التي تجري في أداب الساميين سواء في وادي الرافدين أو سوريا وفلسطين، فلدينا مثل هذا النموذج حوار ونفار كلامى يجري بين جلجامش وانكيدو وخر بين الاله (بعل) والرسل الذين بعث بهم الاله (ايل) على اثر شكوى من الاله (يم) في ملحمة البعل وعناة الاوغارتية، وكذلك بين داود وجليات وبين عنترة وخصومه، وربيعة بن مكدم والغزاة. وتوجد في كتاب أوغاريت لاتيس فريحة اشارات لمثل هذه المنافرات.

(أيام ربيعة بن مكدم مع عمرو بن معد يكرب الزبيدى (29))

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب :

ـ هل كععت من فارس قط ممن أقيت (30).

---

(28) الشعر والمجتمع. منشورات وزارة الاعلام العراقية (كتاب الجماهير) 974.

(29) قصص الايام هنا مروية بحروفها كما وردت عن رواتها، فهى نص أدبى لا تجوز الاضافة اليه دون رواية ولا التلاعب بالفاظ النص مطلقا، وهذا منهجى ايضا فى كتاب الايام ومصادر هذا اليوم هو الاغانى 73/16 ومروج الذهب للمسعودى 338/2.

(30) العبارة فى مروج الذهب : ياعمرو هل انصرفت عن فارس قط فى الجاهلية هيبة له أومعنى كععت ضعفت وجبنت.

قال :

ـ اعلم أمير المؤمنين أني لم استحل الكذب في الجاهلية ، فكيف استحله في الاسلام ؟

ولقد قلت لجبهة (31) من خيلى خيل بنى زبيد :

ـ أغيروا بنا على بنى البكار (32)

فقالوا :

ـ فعلى بنى مالك بن كنانة

فقلت :

ـ بعيد علينا المغار

فأتينا على قوم سراة

قال عمر بن الخطاب :

ـ فما علمك بأنهم سراة ؟ ! ..

قـال :

ـ رأيت مزاود خيلهم كثيرة ، وقدوراً مثفاة (33) وقباب أدم . فعرفت أن القوم سراة ، فتركت خيلى حجرة (43) وجلست في موضع أتسمع كلامهم ، فادا بجارية منهم قد خرجت من خيمتها ، فجلست بين صواحب لها ثم دعت وليدة من ولائدها (30) فقالت :

ـ ادعى فلانا (36)

فدعت لهـا برجل من الحى

---

(31) فمروج الذهب : فى جريدة من خيل لبنى زبيد.

(32) فى مروج الذهب : اريد الغـارة . وفى بعض النسخ من المروج : بنى كنانة وهم قـوم ربيعـة بن مكـدم.

(33) فى مروج الذهب : مكفأة ومعنى مثفاة : منصوبة على الاثافى.

(34) حجـرة : جانبا وناحية.

(35) الوليدة : الجارية المولودة بين العرب، تنشـأ مع أولادهم بعكس الثليدة : تولد فى العجـم وتنقـل الى العـرب.

(36) لم يسمه واكتفى بذلك، وسوف يتكرر هذا منه، ولعله لم يكن مهما.

فقالت لـه :

ـ ان نفسى تحدثنى ان خيلا تغير علي الحي فكيف أنـت ان زوجتك نفسـى (37) ؟

فقـال :

ـ أفعل وأصنـع

وجعل يصف نفسـه ففرط

نقالت لـه :

ـ انصـرف حتى أرى رأيـي فيك :

وأقبلـت على صواحبـاتهـا.

نقـالـت :

ـ ما عنده خير، ادعى فـلانـا

فدعت بـآخـر

فخاطبتـه بمثل ما خاطبت به صاحبه ، فأجابها بنحو جوابه.

فقـالت لـه :

ـ انصرف حتى ارى رأيي

وقالت لصواحبـاتهـا :

ـ ولا عنـد هذا خير أيضا

ثـم قـالت للوليـدة :

ـادعى ربيعـة بن مكـدم

فـدعتـه :

فقـالت له مثل قولهـا للرجليـن

فقـال لهـا :

ـ ان أعجز العجز وصف المرء نفسه، ولكنى اذا لقيت أعذرت، وحسب.

فقالت لـه :

ـ قد زوجتك نفسى، فاحضر غدا مجلس الحي، ليعلموا ذلك فانصرف من عنـدهـا.

وانتظرت حتى ذهب الليل، ولاح الفجر، فخرجت من مكمني، وركبت فرسي . وقلت لخيلي :

ـ أغيري ،،،،

فـأغـارت.

وتركتها وقصدت نحـو النسوة ومجلسهن ، فكشفت عن خيمة المرأة فاذا أنـا بامرأة تامة الحسن. فلمـا ملأت بصرها منى أهوت الى درعها فضيقته وقـالت :

ـ واثكلاه : والله ما أبكى على مال ولا تلاد، ولكن على أخت من وراء هذا القوز (38) تبقى بعدي في مثل هذا الغائط (39)، فتهلك ضيعة.

وأومأت الى قوز رمل الى جانبهم. فقلت هـذه غنيمة من وراء غنيمه فدفعت فرسي حتى أوفيت على الايقاع، فاذا أنا برجل جلد، نجد، اغلب (40) بخصـف نعله والى جانبـه فرسـه وسلاحه، فلمـا رأنى رمى بنعله، ثـم استوى على فرسه، وأخذ رمحه ومضى، ولم يحفل بى. فطفقت أشجـره بالرمـح خفقـا (41) وأقول له :

يـا هذا استأسـر (42).

فمضـى وما يحفل بى، حتى أشرف على الوادى. فلما رأى الخيل تحوي اليه استعبر باكيا وأنشأ يقول :

قـد علمت اذ منحتنى فـاهـا	وألبستنـى بكـرة رداهـا (43)
انى سأحوي اليوم من حواها	بل ليت (44)شعري اليوم من دهاها

---

(37) هذه مؤشرات غامضة نحو مكانة المرأة فى الجاهلية، وطبيعة العصر وتركيب مجتمعه وأحواله الشخصية وقوانينه الاجتماعية فهى تنذره بالغارة وتعرض عليه نفسها.
(38) القوز (بالفتح) رملة مستديرة مرتفعة.
(39) الغائط : منخفض من الارض.
(40) مروج الذهب : اصهب الشعر أهلب. الاهلب : كثير الشعر.
(41) شجره بالرمح : طعنه حتى اشتبـك فيه والخفق : الضرب بشىء عريض.
(42) كن لى أسيرا. ؟
(43) هذا الشطر زيادة من مروج الذهب.
(44) مروج الذهب : ليت.
(45) فى ديوانه 190.

نـأجبتـه :

عمرو على طول الوجـى دهـاهـا بالخيـل يحميها (46) على وجاها
حتى اذا حل بها احتواها

فحمل علي وهو يقول :

أهـون بنضـر العيش في دار ندم أفيـض دمعا كلما فـاض انسجـم
أنا ابن عبد الله محمود (47) الشيم مـؤتمـن الغيـب وفي بالـذمـم
اكرم (48) من يمشى بساق وقـدم كالليـث ان هـم بتقصـام قصـم
عدوه يفديه من كل الضيم (49)

فحملت عليه وأنا أقول :

أنا ابن ذى التقليد في الشهر الاصم أنا ابن ذي الاكليل قتال البهم (50)
مـن يلقنـى يـود كمـا أودت أرم أتركه لحما على ظهـر وضـم (51)

وحمل علي وهو يقول :

هذا حمـى قـد غاب عنـه ذائـده المـوت ورد والانـام وارده

وحمل علي فضربنى ، فرغت (52) وأخطأنى فوقع سيفه في قربوس (53) السرج، فقطعه وما تحته حتى هجم على مسح (54) الفرس، ثـم ثنى بضربة أخرى، فرغت وأخطأنى، فوقع سيفه على مؤخر السرج فقطعه حتى وصل الى فخذ الفرس، وصرت راجلا.

فقلـت :

ـ ويحك : من أنت ؟ : فوالله ما ظننت أحدا مـن العرب يقدم علي الا

---

(46) مروج الذهب : يبقيهـا.
(47) مروج الذهب : عبيد الله.
(48) مروج الذهب : وخير
(49) زيادة من مروج الذهب.
(50) التقليد أن يجعل فى عنق البدنة وغيرها شيئا يعلم انه هدى أى أضحية لله أو الصنـم. والشهر الاصـم رجب كانوا ينزعون فيه أسنة الرمـاح فلا يسمع للسلاح صوت. والاكيل التاج. كان أهل اليمن يلبسونه وعمرو بن معد يكرب منهم.
(51) هذا مثل يضرب للضعيف الذليل والوضم فى الاصل خشبة يقطع عليها اللحم.
(52) رغت : أى راوغت واحتلت على الضربة حتى لا تقع على.
(53) قربوس (وزن خلزون) نتوء فى السرج فى مقدمته ومؤخرته وهو حنو السرج.
(54) مسح الفرس : غطاء كالثوب يغطى جسـم الفرس تحت السرج.

ثلاثة : الحارث بن ظالم (55) للعجب والخيلاء، وعامر بن الطفيل للسن والتجربة، وربيعة بن مكدم للحداثة والغرة. فمن أنت ويلك ؟

قـال :

ـ بل الويـل لك. فمن أنت ؟

قلـت :

ـ عمرو بن معد يكرب

قـال :

ـ وأنـا ربيعـة بن مكـدم

قلـت :

ـ يا هذا انى قد صرت راجلا. فاختر منـى احدى ثلاث : ان شئـت اجتلدنا بسيفينـا حتى يموت الاعجز، وان شئت اصطرعنا، فأينا صرع صاحبه حكم فيه، وان شئت سالمتك وسالمتنى.

قـال :

ـالصلح اذن ان كان لقومك فيك حاجة. وما بى أيضا على قومى هوان.

قلت :

ـ فـذاك لـك .

وأخذت بيده، حتى أتيت أصحابى، وقد حازوا نعمه. فقلت :

ـ هل تعلمون أنى كععت عن فارس قط من الابطال اذا لقيته ؟

قـالـوا :

ـ نعيـذك من ذاك

قلت :

ـ فانظروا هذا النعم الذي حزتموه، فخذوه غدا في بنى زبيد، فانه نعم هذا الفتى. والله لا يوصل الى شيء منه وأنا حي.

---

(55) مروج الذهب : عمرو بن كلثوم. وقد درست الحارث بن ظالم فى مجلة كليـة الاداب العدد 15 السـنة 974. ومذكورة فى هذا الكتاب.

فقـالـوا :

ـ لحاك الله من فارس قوم : شقينـا حتى هجمنـا على الغنيمـة ، ففثأتنـا (56) عنهـا.

قلت :

ـ انه لا بد لكم من ذلك، وأن تهبوها لى ولربيعة بن مكدم :

فقـالـوا :

ـ وانـه لهـو ؟

قلت :

ـ نعـم

فردوهـا. وسـالمتـه.

يوم آخر لربيعة مع عمرو بن معد يكرب (57).

قـال عمرو بن معـد يكـرب (58).

ثم مضيت (59) فأصبحت بين دكادك هرش الى غزال (60) ، فنظرت الى أبيات، فملت اليهـا، فاذا فيها جوار ثلاث كأنهن نجوم الثريا، فبكين حين رأينني، فقلـت :

ـ ما يبكيكـن ؟

ـ فقلـن :

ـ لمـا ابتلينـا به منك، ومن ورائنـا أخت هى أجمل منا (61)

---

(56) فثأه : ثبـط عزيمتـه، وسكنـه.

(57) هذا اليوم فى الاغانى 69/16 وانظر شرح التبريزى للحماسة 159/4 واللسان مـادة (حلق).

(58) من حديث عمرو بن معد يكرب للخيفة عمر بن الخطاب (رض).

(59) أخذنـا من هذا اليوم مقداره المتعلق بربيعة بن مكدم فمن شاء فليرجع الى الاغانى لمطالع على الجزء المتقدم من هذا اليوم.

(60) الدكادك جمع دكدك وهو مـا تلبد من الرمل بعضه على بعض بالارض. ولم يرتفع كثيرا. ودكادك موضع ذكره متمـم بن نويرة فى شعر لـه معروف يرثى به أخاه. وهو المراد هنا بدكادك هرش وغزال ثنيـة دفـن فيها ربيعة سنذكرها فى يوم الكديد.

(61) هـذه الخدعـة الحربية تقدمت فى اليوم السابق لهذا اليوم.

فأشرفت من فدفد، فـاذا بمن لم أر شئيـا قط أحسن من وجهه ، واذا بغلام يخصف نعله، عليه ذوأبة يسحبها. فلما نظر الي وثب الى الفرس مبادرا، ثـم ركض، فسبقنى الى البيوت، فوجدهن قد ارتعن، فسمعتـه يقـول لهن (62) :

مهـلا نسيـاتـى اذن لا تـرتعـن أن يمنـع اليـوم نسـاء تمنعـن أرخيـن أذيـال المروط وارتعن (63) مشى حميـات كأن لم يفزعن (64)

فلما دنوت قـال :

ـ أتطردنى أم أطردك

قلـت أطـردك

فركض، وركضت في أثره، حتى اذا مكنت السنان في لفتته ـ واللفتة أسفل من الكتف ـ اتكأت عليه، فاذا هو والله مع لبب (65) فرسه، ثم استوى في سرجـه . فقلت :

ـ أقلنـى .

قـال :

ـ اطـرد

فتبعته حتى اذا ظننت أن السنـان في ماضغيه اعتمدت عليه، فاذا هو والله قائم على الارض، والسنان ماض زالج.

واستـوى على فرسـه ، فقلت :

ـ أقلنـى .

قـال :

ـ أطـرد .

فطردته، حتى اذا أمكنت السنـان في متنه، اتكأت عليه وأنا أظن

---

(62) لاحظ الحوار بالرجز مع النساء أيضا وليس بين الفرسان ساعة المبارزة فقط.

(63) روايته فى شرح التبريزى 59/1 أسبلن بـدل أرخين واللسـان مادة (حلق) رخين ورواية شرح التبريزى واللسان : الحقى بدل المروط. ومعنى الحقى جمع حقو : الازار

(64) هذا الشطر زيادة فى اللسان (حلق) وحميات : محميات.

(65) الطرد ان يحمل فارس على فـارس. ومنه فرسان الطراد. ولبب الفرس : نحره.

أنى قد فرغت منه، فمـال في ظهر فرسه حتى نظرت الى يديه في الارض ومضى السنـان زالجا. ثم استوى وقال :

ـ بعد ثلاث ؟ تريد ماذا ؟ أطردنى ثكلتك أمك.

فوليت وأنا مرعوب منه. فلما غشينى ووجدت حس السنان، التفت فاذا هو يطردنى بالرمح بلا سنـان، فكف عنى واستنزلنى فنزلت ونزل ناصيتى، وقال :

ـ انطلـق، فانى أنفـس (66) بك عن القتـل.

يـوم ثالـث مع عمرو بن معـد يكرب (68)

وقد كـان عمرو بعد ذلك بزمان أغار على كنانة في صناديد قومه، فأخذ غنائمهم، وأخذ امرأة ربيعة بن مكدم، فبلغ ذلك ربيعة ـ وكان غير بعيد ـ فركب في الطلب على فرس عرى ومعه رمح بلا سنان حتى لحقه فلمـا نظر اليه قال :

ـ يـا عمـرو خل عن الظعينة وما معك

فلم يلتفت اليه. ثم أعاد عليه، فلم يلتفـت اليه. فـوقـف عمـرو وقال : (69)

ـ قد انصـف القـارة من رمـاهـا

ـ قـف لى يـا ابن أخى

فوقف له ربيعة . فحمل عليه عمرو، وهو يقول (70) :

أنـا أبـو ثـور ووقـاف الـزلـق لسـت بمـأفـون ولا فـي خـرق
وأسـد الْقـوم اذا احمـر الحـدق اذا الرجـال عضهـم نـاب الفـرق
وجدتنى بالسيف هتاك الحلق

---

(66) انفـس : أبخـل

(67) كـان الفرسان فى الجاهلية يقتنعون أحيانا فلا يعرف الفارس خصمه، وأحيانا لا.

(68) مـروج الذهـب للمسعودى 338/2.

(69) هذا شطر من رجز، وقد وردت (قد) فى الاصل (لقد) فلا يستقيم. ولعل هذا السبب هو الذى صرف محقق ديوان عمرو بن معد يكرب عن ضمه الى شعر عمرو. (ط. بغداد تحقيق المرحوم الاستاذ هاشم الطعان).

(70) فى نسخـة أخرى من مروج الذهب روى الشطر الاول : أنا ابـن ثوار. وانظر ديوان عمرو بن معد يكرب ص 51 فقـد أخـذ محققه بهذه الروايـة ولم يشـر الى مصدرنـا ونرجح مـا اثبتنـاه لان عمرا يكنى بأبى ثور وليس بأبى ثوار.

حتى اذا ظنه قد خالطه السنان، اذا هو لبب لفرسه (71) ومر السنان على ظهر الفرس، ثم وقف له عمرو، فحمل عليه ربيعة وهو يقول :

أنا الغلام ابن الكنانى الابذخ كم من هزبر قد رانى فانشدخ

فقرع بالرمح رأسه ثم قال :

ـ خذها اليك ياعمرو ، ولولا انى اكره قتل مثلك لقتلتك

فقال عمرو :

ـ لا ينصرف الا أحدنا، فقف لى.

فحمل عليه، حتى اذا ظن أنه قد خالطه السنان اذا هو حزام لفرسه ومر السنان على ظهر الفرس ثم حمل عليه ربيعة، فقرع بالرمح راسه وقال :

ـ خذها اليك يا عمرو ثانية ، وانما العفو مرتان.

وصاحت به امرأته

ـ السنان ، لله درك (72)

فأخرج سنانا من سنخ (73) ازاره، كأنه شعلة نار، فركبه على رمحه، فلما نظر اليه عمرو، وذكر طعنته بلا سنان قال له عمرو :

يا ربيعة خذ الغنيمة

قال :

ـ دعها وانج

فقالت بنو زبيد :

ـ اتترك غنيمتنا لهذا الغلام ؟

ـ فقال لهم عمرو :

ـ يا بنى زبيد، والله لقد رأيت الموت الاحمر في سنانه، وسمعت صريره في تركيبه .

فقالت بنو زبيد :

ـ لا يتحدث العرب أن قوما من بنى زبيد فيهم عمرو بن معد يكرب تركوا غنيمتهم لمثل هذا الغلام.

(71) أى معانق لفارسه من نحره.

(72) سبق أن ذكر بأن ربيعة تناول رمحا بلا سنان، فامرأته هنا تنبهه الى ذلك

(73) سنخ كل شيء أصله غريبا أراد هنا من جيب ازاره.

قـال عمـرو :

ـ أنه لا طاقة لكم به، ومـا رأيت مثله قط.

فانصرفوا عنه، وأخذ زبيعـة امرأتـه والغنيمـة، وعـاد الى قومـه (يوم الظعينة أو يوم وادى الاخرم (74)).

خرج دريد بن الصمة (75) في فوارس من بنى جشم (76) حتى اذا كانوا في واد لبنى كنانة يقال له : الاخرم (77) وهم يريدون الغارة على بنى كنانة، اذ رفع له رجل من ناحية الوادي معه ظعينة ، فلما نظر اليه قال لفارس من أصحابه :

ـ صح به أن خل الظعينة، واتج بنفسك.

فانتهى اليه الفارس، وصاح به، والح عليه. فألقى بزمام الناقة وقال للظعينة (87).

سيري على رسلـك سـير الامـن سـير رداح ذات جـأش سـاكـن
ان انثنـائـى دون قرنى شـائنى أبلـى بـلائـى وأخبـري وعاينى

فبعث دريد فارسا آخر لينظر ما صنع بصاحبه. فلما انتهى اليه ورأى ما صنع، صاح به، فتصامم عنه، كأن لم يسمع فغشيه، فألقى زمام الراحلة الى الظعينة ثم خرج يقول (89)

خـل سبيـل الحـرة المنيعـة انـك لاق دونهـا ربـيعـة
في كفـه خطيـة مطيعـة أو لا فخـذهـا طعنـة سريعـة
والطعن منى في الوغى شريعة

---

(74) العقد الفريد 168/5 الاغانى 64/16 أمالى القالى 271/2 نهاية الارب للنويرى 370/15.

(75) فـارس وشـاعر جاهلى مشهور، وهو القـائل من قصيدة طويلة يرثى أخاه عبد الله بن الصمـة :

ومـا أنـا الا من غزيـة ان غـوت غويـت وان ترشـد غزيـة أرشـد

(76) بنو غزية بن جشـم بن معاوية بن بكر بن هوازن.

(77) الاخرم : جبل بطرف الدهناء والاخرم واد قرب مكة، وهو المراد هنا.

(78) الرجز فى العقد والاغانى وانظر نهاية الادب للنويرى 370/15 والظعينة : المرأة ما دامت فى الهودج.

(79) المصادر السابقة وأمالى القالى 271/1.

(80) قوله ربيعـة : يريـد نفسـه.

ثم حمل عليه فصرعه

فلما ابطأ على دريد، بعث فارسا لينظر ما صنعا انتهى اليهما وجدهما صريعين ونظر اليه يقود ظعينته ويجرر رمحه فقال الفارس :

ـ خل الظعينة

فقال ربيعة للظعينة

ـ اقصدى قصد البيوت

ثم اقبل عليه فقال :

ثم حمل عليه فصرعه .

فلما أبطأ على دريد ، بعث فارسا لينظر ما صنعا، فلما انتهى اليهما وجدهما صريعين ونظر اليه يقود ظعينته ويجرر رمحه فقال الفارس :

ـ خل الظعينة

فقال ربيعة للظعينة :

ـ أقصدي قصد البيوت

ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تريد من شتيم عابس (81) ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عامل رمح يابس

ثم اقبل عليه فصرعه ، وانكسر رمحه .

وارتاب دريد، فظن انهم قد أخذوا الظعينة ، وقتلوا الرجل، فلحق دريد بربيعة، وقد دنا من الحي ووجد أصحابه قد قتلوا0 فقال :

ـ أيها الفارس ، ان مثلك لا يقتل، ولا أرى معك رمحك والخيل ثائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح، فانى منصرف الى أصحابى ومثبطهم عنك.

فانصرف الى أصحابه ، فقال :

ـ ان فارس الظعينة قد حماها، وقتل أصحابكم وانتزع رمحى، ولا مطمع لكم فيه.

(81) الشتيم والعابس بمعنى واحد واسد شتيم : عابس.

فانصرف القوم (82).

فقال دريد في ذلك :

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله حامي الظعينة فارسا لم يقتل
اردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللا تبدو أسرة وجهه مثل الحسام جلته كف الصقيل
يزجي ظعينته ويسحب رمحه متوجها يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مهابة رمحه مثل البغاث خشين وقع الاجدل
يا ليت شعري من ابوه وأمه يا صاح من يك مثله لا يجهل

وقال ربيعة بن مكدم (83) :

ان كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادى الاخرم (84)
اذا هي لاول من أتاها نهبة لولا طعان ربيعه بن مكدم
اذ قال لي أدني الفوارس منهم خل الظعينة طائعا لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه عدا ليعلم بعض مالم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل اهابه فهوى صريعا لليدين وللفم
ومنحت اخر بعده جياشه نجلاء فاغرة كشدق الاضجم (85)
ولقد شفعتهما بأخر ثالث وأبى الفرار عن العداة تكرمي (56)

يوم الكديد (87)

---

(82) المصادر السابقة وقد ظهر لقبه «حامي الظعينة» هنا في ابيات دريد.
(83) المصادر نفسها. والبيت الثاني في الاغاني : (هل هي) بدل (اذ هي) والثالث في المعاني والاماني (ميته) بدل (منهم) وكذلك في النويري ومعنى جياشة اي تتدفق بالدماء.
(84) وادي الاخرم : انظر الهامش 77.
(85) الاضجم : صفة من الضجم وهو ميل أو عرج في جانب الفم. وفي رواية : الاسحم : وهو الاسود وأراد زق الخمر.
(86) في الاغاني : وابى الفرار في الغداة تكرمي.
(87) العقد الفريد 174/5 والاغاني 56/16 وشرح الحماسة 189/1 ومجمع الامثال للميداني 221/2 والانوار ومحاسن الاشعار لشمشاطي مخطوطة ورقة (28 — 31) وهي رواية أبي عبيدة ويذكر صاحب محاسن الاشعار أن أبا عبيدة ينقل الخبر عن أبي عمرو بن العلاء وخبره في العقد موجز ايجازا مخلا لكن الميداني ذكره بشكل أكثر تفصيلا. أما التبريزي فانه يروي الاحداث نفسها، لكن بعبارة ولفظ مختلفين عن رواية أبي عبيدة ويسند خبره الى أبي رياش على أن أوسع الروايات تلك يبسطها كتاب الاغاني ومحاسن الاشعار والكديد موضع على اثنين وأربعين ميلا من مكة.

وقع تدارؤ بين نفر من بنى سليم بن منصور، ثم انهما ودوهما (90) ثـم ضرب الدهر ضربانه (91).

فخرج نبيشة بن حبيب السلمى غازيا، فلقى ظعنا من بنى كنـانة بالكديد، في نفر من قومه، وبصر بهم نفر من بنى فراس بن مالك فيهم عبد الله بن جذل الطعان بن فراس، والحارث بن مكدم أبو الفارعة، وقال بعضهم أبو الفرعة أخو ربيعـة بن مكدم (92) وهو مجدور يومئذ يحمل في محفـة. فلمـا رآهم أبو الفارعة، قال :

ـ هؤلاء بنو سليم، يطلبون دماءهم.

فقالت أم عمرو بن مكـدم :

وا سوء صبـاحـاه ..،

فقال أخوه ربيعة بن مكدم :

ـ انا ذاهب حتى اعلم علم القوم، فاتيكم بخبرهم

ورتب فرسه، واخذ قناته فتوجه نحو القوم .

فلمـا ولى، قال بعض الظعن :

ـ هرب ربيعـة ...

وقالت اختـه أم عـزة :

ـ اين تنتهى نفـرة الفتـى ؟

وصاحت اختـه ام عمرو (93) :

مسـاءة مسـاءة

تـرك الفتـى نسـاءه

حتى يبل من دم أنساءه

---

(88) تدرؤ : تدافع واختلاف وخصومة. ورسمت الكلمة فى محاسن الاشعار : تداريء أنظر اللسان مادة (درأ).

(89) فى العقد : فراس بن غنـم بن مالك بن كنانة وهم أنجد العرب، كان الرجل منهـم يعدل بعشرة من غيرهم. وقـد سبـق أن أشرنا فى الدراسة الى تفضيل الامام على فهم على أهل الكوفة.

(90) ودوهما أى دفعوا ديتهمـا.

(91) عبارة محاسن الاشعار : ضربانه بالقاء. والنون أصح أنظر اللسان مادة (ضرب)

(92) لقد أوردنا لابى الفارعة الحارث بن مكدم شعرا وخبرا فى متن دراستنـا هـذه وسيلاقى حتفـه فى هذا اليـوم.

(93) شرح ديوان الحماسة 689/1.

فعطف ، وقد سمع قول النساء، فقال (94):

لقد عملن أنني غير فرق لأطعنن طعنة وأعتنق
أعمل فيهم (95) حين تحمر الحدق عصبا حسامنا وسنانا يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه فحمل عليه بعض القوم، فاستطرد له في طريق الظعن، وانفرد به رجل من القوم، فقتله ربيعة، ثم رماه نبشية (96) أو طعنه، فلحق بالظعن يستدمى، حتى أتى الى أمه أم سيار فقال :

ـ اجعلى على يدي عصابة

وهو يرتجز ويقول :

شدى على العصب أم سيار
لقد رزئت فارسا كالدينار
صقرا يلفت القوم لف المغوار (97)
يطلعن بالرمح أمام الادبار

فقالت أمه (98)

أنا بنو ثعلبة بن مالك.
مرزا خيارنا كذلك
من بين مقتول وبين هالك
ولا يكون الرزأ الا ذلك

وشدت أمه عليه عصابة، فاستسقاها ماء، فقالت :

ـ انك ان شربت الماء مت، فكر على القوم.

وجعلت تذمره وتقول (99)

الحق بنى والمحامى لاحق
وأشغل القوم بضرب صادق

فكر راجعا يشد على القوم ويذبهم. ونزفه الدم حتى أئخن، فقال للظعن

---

(94) ورد الرجز فى شرح الحماسة على هذا الوجه :
ألم عمرو زعمت أنى فرق أن لا أطاعنهم وان لا أعتنق
وانزع الرمح سنانه لشق

(95) محاسن الاشعار : واصلت فيهم بدل (اعمل فيهم).

(96) تعرضت لقضية قتل ربيعة وقاتله فى الدراسة أول هذا البحث .

(97) هذا الشطر زيادة فى رواية شرح الحماسة على بقية المصادر.

(98) رواية الميدانى للشطر الثانى : نرزا فى خيارنا كذلك.

(99) هذا الرجز ينفرد التبريزى فى روايته.

ـ أوضعن (100) ركـابكن خلفـى، حتى تنتهين الى أدنـى بيـوت الحى، فانى لمابى (101) وسوف أقف دونكن على العقبة، واعتمد رمحى، فلن يقدموا عليكن لمكانى.

وشد على القوم راجعا، فقتل فيهم، وما زال يذبهم الى أن نزفه الدم، فاعتمد على رمحه قال أبو عمرو بن العلاء :

ففعلن ذلك فنجون الى مأمنهن، ولا نعلم قتيلا ولا ميتا حمى الظعائن غيره. وانه يومئذ لغلام له ذوابه فاعتمد على رمحه وهو واقف لهن على متن فرسه، حتى بلغن مأمنهن، وما تقدم القوم عليه (102) .

فقال نبيشة بن حبيب :

ـ انه لمائل العنـق على رمحه، وما أظنه الا وقد مات

فأمر رجلا من خزاعة (103) كان معه ، أن يرمى فرسه، فرماها فقمصت وزالت، فمال عنها ميتا قال (104) : أو يقال بل الذي رمى فرسه نبيشة، حمل عليه فطعنه فأثبته، وقال :

ـ قتلته .

فقال ربيعـة :

ـ اخطـأ فـوك يـا نبيشـة.

ـ كذبت ، انى لاجد ريـح بطنـك .

فخرج ربيعة يركض متحاملا حتى لحق ظعائنه على راس ثنية غزال (105) فانصرفوا عنه وقد فاتهم الظعن ولحقوا يومئذ أبا الفارعة الحارث بن مكدم، فقتلوه وأمالوا (106) على ربيعة احجارا.

(100) الايضـاع : السير السريع .
(101) كذا فى جميع مصـادر التحقيق ولعله يعنى ممتنع لا يصل أحد اليه لرهبته.
(102) عبارة أبى عمرو فى محاسن الاشعار تختلف فى التركيب وتتفق باللفظ مع الروايات الاخـرى.
(103) هو أهبان بن غـادية الخزاعى، وقد تقدم حديثنـا عنه فى الدراسة.
(104) أى أبو عمرو بن العلاء وتوجد روايـة فى التبريزى أن الرامى ابن غادية السلمى، رهو اهبـان المذكور فى الهامش 103 وكذلك فى الدراسة المتقدمة.
(105) هذا فى شرح التبريزى على الحماسة، وفى الاغانى : ثنية مالك أيضا ونقل المبرد فى الكامل 366/2 (طبع بيروت مصورة) برواية ابن دأب خبرا تقدمت الاشارة اليه فى الـدراسـة.
(106) هذه عبارة (محاسن الاشعار) وأما بقية المصادر : فألقوا.

وجاء رجل من القوم فطعن بزج الرمح في عينه، قال :

ـ قبحك الله، لقد دميت الطعائن دبيا وميتا.

فمر به رجل من بنى الحارث بن فهر، فنفرت ناقته من تلك الاحجار التى اهيلت على ربيعة . فقال يرثيه ويعتذر الا يكون عقر ناقته على قبره وحص على قتلته، وعير من فر واسلمه الى قومه (107).

نفرت قلوصى من حجارة حرة ... بنيت على طرق اليدين وعوب
لا تنفري باناق منه فانه ... سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد حرق مهمه ... لتركتها تحبو على العرقوب
فر الفوارس عن ربيعة بعدما ... نجاهم من عمه الهدروب
يدعو عليا حين اسلم ظهره ... فلقد دعوت هناك غير مجيب
لله در بنى على انهم ... لم يحمشوا غزوا كولغ الذيب (108)
نعم الفتى ادى نبيشة بزه ... يوم الكديد، نبيشه بن حبيب (109)
لا يبعدن ربيعة بن مكدم ... وسقى الغوادى قبره بذنوب

فبلغ شعره كنانة فقالوا : والله لو عقرها لسقنا اليه الف ناقة سود الحدق.

وقال عبد الله جذل الطعان واسمه بلعاء :

لأطلبن بربيعة بن مكدم ... حتى أنال عصية بن معيص

يقال أن عصية من بنى سليم، وهو عصية بن معيص بن عامر بن لؤى وتقاد (901) كل طمرة ممحوصة ... ومقلص عبل الشوى ممحوص (110)

وجزع عليه عبد الله بن جذل الطعان جزعا شديدا ورثاه بعدة مراثى منها فاذا لقيت ربيعة بن مكدم ... فعلى ربيعة من نداه قبول

(107) الابيات 1 و 2 و 3 و 7 و 8 فى الكامل للمبرد بترتيب مختلف وعزاها لحسان ابن ثابت ومثله الميدانى عدا (7) منسوبة الى حفص بن الاحنف الكنانى وهى حماسية أنظرها فى شرح التبريزى 187/1 منسوبة الى حفص وجاء فى الاتوار ومحاسن الاشعار، فقد مر بقبر ربيعة بن مكدم بثنية كعيب، ويقال ثنية غزال فقلصت به راحلته فقال الابيات المذكورة ويقال لمكرز بن حفص بن الاحنف ويقال ايضا لضرار بن الخطاب بن مرداس احد بنى فهر (الاغانى 59/16) والابيات ليست فى ديوان حسان (نشرة البرقوقى).

(108) يحمشوا يحرضوا على القتال ويلهبوه والولغ مصدر ولغ الذئب فى الماء شرب منه وبنو على قبيلة من كنانة.

(109) البز : السلاح، درعا وغيرها.

(110) الطمرة : الفرس الطويلة القوائم، الخفيفة العدو، والمحوصة. القليلة لحم القوائم خلصت من الرهل والمقلص : الحصان الطويل القوائم المنضم البطن. وعبل الشوى : ضخم الاطراف.

فاذا لقيت ربيعة بن مكدم فعلى ربيعة من نداه قبول
فاذا ذكرت ربيعة بن مكدم ظلت لذكراه الدموع تسيل
نعم الفتى حيا وفارس بهمة يردى شكيته أقب ذؤول
سقت الفوادي بالكديد رمة والناس اما هالك وقتيل
خلى علي ربيعة بن مكدم حزنا يكاد له الفؤاد يزول
كيف العراء وإانزال خريدة تبكي ربيعة غادة عطبول
يأبى لي الله المذلة إنما يعطى المذلة عاجز تنبيل

وقال عبد الله أيضا يرثيه :

نادى الظعائن يارببعة بعدما لم يبق غير مشاشة وفواق
فأجابها والرمح في خيزومه أنفا بطعن كالشعيب دفاق
ياريط ان ربيعة بن مكدم وربيع قومك آذنا بفراق
وئن هلكت فرب فارس بهمة فرجت كربته وضيق خناق

وقال ايضا يتوعد بنى سليم :

ولست لحاضر ان لم أزركم على قب الاياطل مضمرات
كتائب من كنانه كالصريم (114) أضر بنيها علك الشكيم (115)

وقال رجل من بنى الحارث بن الخزرج من الانصار يرثى ربيعة بن مكدم.

وقال أبو عبيدة : زعم أبو الخطاب الاخفش انه لحسان بن ثابت، يرثيه (116) ويحض على قتله (117).

ولأصرفن سوى حذيفة مدحتى لفتى الشتاء وفارس الاجراف (118)
مأوى الضريك اذا الرياح تناوحت ضخم الدسيعة مخلف متلاف (119)

(111) البهمة : الشجاع. والشكة : الدرع والاقب الضامر. والذؤول : السريع المشى.
(112) فى محاسن الاشعار : حيث
(113) المطبول : الجارية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق.
(114) الحاضر : الحى المقيمون فى أرضهم صيفا وشتاء. يزيد: لست منسوبا الى حى قوى. والصريم : الليل.
(115) الاياطل : جمع ايطل، الخاصرة.
(116) هنا كلمة ساقطة من جميع المصادر لكن المعنى مكتمل.
(117) وقال فى الاغانى 60/6 قال الاثرم : وأنشدنا أبو عبيدة هذه القصيدة مرة لقيس بن الخطيم حين قتل قاتل أبيه. والقصيدة فى ديوان ابن الخطيم ص 228 دار العروبة بالقاهرة 1962 ت : ناصر الدين الاسد.
(118) أراد حذيفة بن بدر بطل يوم داحس والغبراء لفتى الشتاء : الذى يطعم فى الشتاء موسم الجدب. وفى الديوان : لفتى العشى. ويروى لفتى اليسار والاجراف موضع (التاج) وذكر البكرى فى التنبيه (ص 67) ان (سوى) هنا بمعنى (قصد).
(119) الضريك : المحتاج. وتناوحت : هبت من مختلف الجهات. والدسيعة : مائدة الرجل أو الجفنة.

من لايزال يكب كل ثقيلة ... كوماء غير مسائل منزاف (120)
رحب المباءة والجناب موطأ ... مأوى لكل معتق بسواف (121)
فسقى الغوادى قبرك ابن مكدم ... من صوب كل مجلجل وكاف (122)
أبلغ بنى بكر وخص فوارسا ... لحقوا الملامة دون كل لحاق (123)
أسلمتم جزل الطعان اخاكم ... بين الكديد وقلة الأعراف (124)
حتى هوى متزايلا اوصاله ... للحد بين جنادل ووقاف (125)
لله حي بني علي ان هم ... لم يثأروا عوفا وحي خفاف

وقال كعب بن زهير، وأمه من بنى اشجع بن عامر بن الليث بن بكر بن كنانة ، يرثى ربيعة بن مكدم، ويحض على بنى سليم، ويعير بنى كنانة بالدماء التى أدوها الى بنى سليم، وهم لا يدركون قتلاهم عندهم بدرك قتل فيهم ولا دية (128).

بان الشباب وكل الف بائن ... ظعن الشباب مع الخليط الضاعن
قالت اميمه ما لجسمك شاحبا ... وأراك ذا بث ولست بدائن
غضى ملامك ان بى من لومهم ... داء أظن مماطلى او فاتنى
أبلغ كنانة غثها وسمينها ... الباذلين ربباعها بالقاطن (129)
ان المذلة أن تطل دماؤكم ... ودماء عوف ضامن في العاهن (130)

---

(120) المقيه : الناقة السمينة الضخمه. والكوماء : العظيمة السنام. المسائل : الذى يطلب عوف وكرما. فى الديوان غير محاول الانزاف.
(121) المباءة المنزل. والمعتق من الابل : المسن منها. والسواف : مرض يصيبها. يريد أنه لا يملك من الابل الا المسن المريض، أما شبابها فهو ينحره للضيفان. فى ديوان قيس : مقصب مسواف.
(122) المجلجل : المطر المصحوب برعد. والوكاف : المنهمر.
(123) فى الافانى لحقوا.
(124) الاعراف : رمل، وكل ما ارتفع. قال تعالى : ونادى أصحاب الاعراف.
(125) القفاف جمع قف وهو الارض الغليظة.
(126) بنو على قبيلة من كنانة، وهم بنو عبد مناف وليس من كنانة قريش، وحى خفاف: خفاف بن ندبة الشاعر من بنى سليم.
(127) العلق الدم : النجيع : الدم المصبوب، أو دم الجوف.
(128) الابيات 7 و 8 و 9 و 10 و 11 فى ديوانه ص 229 مع زيادة بيت غير كامل بعد العاشر :

. . . . وكأنه ... جذع تهمه رذائذ هاتن

ويعنى تهمه : تمطره الهميم، وهو المطر الضعيف الهين.
(129) لعله يريد أنهم يسترخصون ديارهم وأهلهم للغزو دون مقاومة.
(130) ضامن : مضمون. والعاهن : الثابت.

أموالكم عوض لهم بدمائكم ودماؤكم كلف لهم الظعائن (131)
طلبوا فأدرك وترهم مولاهم وأبت محاملكم أباء الحارن (132)
شدوا المآزر فاثأروا بأخيكم ان الحفائظ نعم ريح الثامن (133)
كيف الحياة ربيعة بن مكدم يغدى عليك بمزهر أوقائن (134)
وهو التريكة بالعراء وحارث فقع القراقر بالمكان الوائن (135)
كم غادروا لك من أرامل عيل جزر الضباع ومن ضريك واكن (136)

وقالت أم عمرو أخت ربيعة، ترثي ربيعة (127) :

ما بال عينيك فيها الدمع مهراق سحا ولا عازب لا لا ولا راقى
أبكي على هالك أودى واورثنى بعد التفرق حزنا بعده باقى (138)
لو كان يرجع ميتا وجد ذي رحم أبقى أخى سالما وجدى واشفاقى
أو كان يفدى لكان الاهل كلهم وما أثمر من مال له واقى
لكن سهام المنايا من نصبن له لم ينجه طب ذى طب ولا راقى
فاذهب فلا يبعدنك الله من رجل لاقى الذي كل حي مثله لاقى (139)
فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة وما سريت مع الساري على ساقى
أبكى لذكرته عبرى مفجعة ما ان يجف لها من ذكره ماقى (140)

---

(131) يريد : اذا قتلتموهم دفعتم أموالكم فى دياتهم، واذا سبيتم ظعائنهم لم يكفوا عن حربكم وقتلكم .

(132) فى الديوان : سعاتكم بدل محاملكم. لعلهما يؤديان نفس المصطلح لان السعاة يقيمون للقبلية لدى السلطان.

(133) فى الديوان فانعشوا أموالكم بدل فاثأروا بأخيكم. والمكارم بدل الحفائظ والثامن: من يأخذ ثمن الاموال.

(134) روايته فى الديوان :

كيف الاسى وربيعة بن مكدم يودى عيك بمزهر وبقائن

والاسى بضم الهمزة : الصبر. وأما المزهر فهو العود والقائن : صاحب القيان ومدربهن وهنا اشارة لطقوس جاهلية فى تشييع أبطالهم من الشبان.

(135) فى الديوان : المكر بدل العراء. والمكر مكان الحرب. والتريكة البيضة يتركها النعام حين تنفق أى تفقس ويدفنها تحت التراب. وفقع القراقر اردأ الكمأة والدائن : الثابت، المقيم وحارث أخو ربيعة.

(136) رواية الصدر فى الديوان : كم غادروا من ذى أرامل عائل. والضريك المحتاج. والحاجن (المقيم بالداء) رواية الديوان بدل واكن.

(137) الابيات فى ذيل الامالى ص 12 (السعادة بمصر 1954 طبعة ثالثة).

(138) فى الذيل : (حرة) بدلا من (بعده).

(139) فى الذيل : (مثلها) بدل (مثله) .

(140) فى الذيل : (من ذكرة) بدل (من ذكره) وهى تناسب (ذكرته) فى صدر البيت.

فلم يلبث بنو مالك بن كنانة (141) رهط ربيعة بن مكدم، ان أغاروا على بنى جشم فقتلوا وأسروا وغنموا، وأسر دريد بن الصمة فأخفى نسبه. فبينما هو محبوس عندهم، اذ جاءت نسوة يتهادين اليه، فصرخت (142) امرأة منهن فقالت :

ـ هلكتم وأوهلكتم، ماذا جر علينا قومنا : هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة.

ثم ألقت عليه ثوبها ، وقالت :

ـ يا آل فارس، أنا جارة له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي

فسألوه من هو ؟ فقال :

ـ أنا دريد بن الصمة ، فمن صاحبى ؟

قالوا :

ـ ربيعة بن مكدم

قال :

ـ فما فعل ؟

ـ قالوا :

ـ قتله بنو سليم

قال :

ـ فما فعلت الظعينة التى كانت معه ؟

قالت المرأة :

ـ أنا هى، وأنا امرأته

فحبسه القوم وائتمروا (143) أنفسهم، فقال بعضهم

ـ لا ينبغى لدريد أن تكفر نعمته على صاحبنا

---

(141) هذا الخبر منقول عن العقد والاغانى باتفاق، مع بعض الزيادات، أدخلناها فى مواضعها.

(142) العقد : (صاحت) وفضلت رواية الاغانى والمرأة هى ريطة بنت جذل الطعان، وسنذكرها فى أثناء القصة بعد قليل.

(143) الاغانى : وأمروا أنفسهم.

وقال آخرون ::

– لا والله لا يخرج من أيدينا الا برضا «المخارق» الذي أسره (144) فانبعثت المرأة في الليل، وهي ريطة بنت جذل الطعان، فقالت :

سيجزى دريدا عن ربيعة نعمة ... وكل امرىء يجزى بما كان قدما
فان كان حيا لم يضق بثوابه ... وان كان شرا كان شرا مذمما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة ... باهدائه الرمح الطويل المقوما
فلا تكفروه حق نعماه فيكم ... ولا تركبوا تلك التى تملأ الفما(145)
فان كان حيا لم يضق بثوابه ... ذراعا . غنيا كان معدما
ففكوا دريدا من أسار مخارق ... ولا تجعلوا البؤسى الى الشر سلما
فقد أدركت كفاه غينا جزاءه ... وأهل بمن يجزي الذي كان انعما

فأصبح القوم، فتعاونوا بينهم (146) فأطلقوه

فكسته وجهزته، ولحق بقومه

فلم يزل كافا عن حرب بنى فراس، حتى هلك.

قالت امرأة من غامد في هزيمة ربيعة بن مكدم لجمع من غامد وحده(147)

ألا هل أتاها على نأيها ... بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتي فارس ... فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيو ... ل ضأنا لها حالب واحد

---

(144) الابيات فى العقد والاغانى. والبيت الاخير فى أمالى القالى.
(145) تملأ الفما : أى تجعلكم حديث الناس.
(146) أى أنهم أرضوا من أسره وهو المخارق، بفدية من مالهم وأطلقوه.
(147) البيان والتبيين 169/1 ، 170 بيروت دار الفكر للجميع 1968 يقال الفارس : الشجاع ، فاذا تقدم فى ذلك قيل : بطل : فاذا تقدم فيك : بهمه، فاذا تقدم قيل أليس . قال العجاج : أيس من حوبائه سخى.

المصـادر والمـراجـع

1 ـ الاغانى لابى الفرج الاصفهانى (طبعة دار الكتب)

2 ـ الاساطير في بلاد ما بين النهرين ـ صمويل هنري هوك (ترجمة عربية) وزارة الثقافة ـ بغداد 1968.

3 ـ الامالى لابى على القالى (طبعة دار الكتب المصرية 1954 وطبعة بيروت)

4 ـ الانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطى (مخطوطة) نسخة طوبقبو سراي 2392. وطبعت ببغداد والكويت مؤخرا.

5 ـ أوغاريت للشيخ نسيب وهيبة الخازن بيروت 1961.

6 ـ أيام العرب في الجاهلية. محمد جاد المولى وجماعته طبعة أولى البابى 1942.

7 ـ أيام العرب في العصر الجاهلى ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى جمع وتحقيق د. عادل البياتى

8 ـ تاريخ الادب ـ العصر الجاهلى ـ د. شوقى ضيف (المعارف بالقاهرة طبعة رابعة) 1960.

9 ـ ديوان قيس بن الخطيم. تحقيق د. ناصر الاسد. دار العروبة بالقاهرة 1962.

10 ـ ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ـ جمع وتحقيق هاشم الطعان ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد 1980.

11 ـ ذيل الامالى لابى على القالى ـ طبع السعادة بمصر 1954 طبعة ثالثة

12 ـ شرح ديوان الحماسة لابى زكريا يحيي بن علي التبريزي ـ ط. السعادة 1346 هـ.

13 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ نشر لجنة التأليف بالقاهرة 1956.

14 ـ قيس بن زهير ـ شعر ودراسة بقلم د. عادل البياتى ـ طبع الاداب بالنجف 1972.

15 ـ الكامل في اللغة والادب لابى العباس المبرد ـ طبع المعارف بيروت (مصورة).

16 ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ طبع بيروت.

17 ـ الملاحم العربية ـ د. عادل البياتى ـ مخطوطة معدة للطبع.
18 ـ مجلة كلية الاداب (العدد 14) مقالة تحت عنوان شعر الربيع بن زيـاد بقلم د. عادل البياتى.
19 ـ مجلة كلية الاداب (العدد 15) مقالة تحت عنوان الحارث بن ظالم بقلم د. عـادل البياتى.
20 ـ مجلة الكتاب (العدد 4) 1974 مقالة تحت عنوان الملاحـم العربيـة ومقارنتها بالملاحم الكونية د. عادل البياتى.
21 ـ مجلة الكتاب (العدد 4) 1975 مقالة المنابع الثقافية للشعر الجاهلى بقلم د. عادل البياتى.
22 ـ مجمع الامثال أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى. القاهرة 1955.
23 ـ مروج الذهب ومعادن الحجر ـ على بن الحسين المسعودي ـ طبعة مصـر .
24 ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى طبعة السعادة 1906 والقـاهرة 1939 وطبعـة أوربـا.
25 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام د. جواد على بيروت طبعة أولى.
26 ـ نهاية الارب في فنون الادب ـ أحمد بن عبد الوهاب النويري ـ طبع دار الكتب المصريـة.
27 ـ الشعر والمجتمع. منشورات وزارة الاعلام العراقية سلسلة كتاب الجماهير 1974 يتضمن بعض أبحاث مهرجان المربد الشعري لعـام 1974 بينها بحث للدكتور عادل البياتى بعنوان : الرمز والاسطورة في الشعر الجاهلى.
28 ـ الشعر في حرب داحس والغبراء للدكتور عادل البياتى ـ طبع الاداب
29 ـ الادب القصصى عند العرب ـ موسى سليمان ـ بيروت 1950. بالنجـف 1972.
30 ـ الادب العربى وتاريخه في العصر الجاهلى للدكتور ج. هيوارث د. ن. نشر مكتبة الثقافة العربية (بـلا تـاريخ) .

فهرس

تقديم 3

الفصل الاول : مباحث تراثية في الادب الجاهلي

- الشعر والتاريخ 7
- منابع الالهام والثقافة في الادب العربي 27
- امرؤ القيس والقيصر 49

الفصل الثاني : نصوص دينية جاهلية

- شعر الاحناف : دراسة وتحليل 87
- نصوص التلبيات قبل الاسلام

ومضات من وحدة الفكر والمصير 143

الفصل الثالث : شعراء جاهليون

- افنون التغلبي 193
- الربيع بن ضبيع الفزاري 211
- الحارث بن ظالم المري 235
- قيس بن زهير 277
- الربيع بن زياد 315
- ربيعة بن مكرم 333

فهرس 367

DIRASSAT FI

AL-ADAB AL-JAHILI

Mabahit Touratia wa Noussouss Dinia wa Tarajim

Tome II

Publié par

Docteur ADDIL JASSEM EL BIATI

Professeur à la faculté de lettres - Université Al Mousstanssiria - BAGHDAD

et la faculté de lettres - Université Hassan II - Casablanca

1986

مكتبة الأدب المغربي

الثمن 35 درهما

نشر وطبع
دار النشر المغربية
الدار البيضاء